لقاء الحضارات

دكتور نور الدين حاطوم

ذات يوم فى عتيق الزمان صحا الجو لخلق الإنسان جماعات قليلة حدباء تدب على أديم الأرض كالقطعان . منتقلة من مكان لمكان ، ساعية وراء رزقها مما يقع تحت يدها من طير أو حيوان أو ثمار أو أعشاب .

فى هذه البيئة الطبيعية الأولى ، كان الإنسان ، كالحيوان المفترس ، يجدب الغابات معتمداً على قواه . وكان أمله الوحيد ، وبما أوتى من ذكاء ، أن يسود الأرض ، ويلتمس وسيلة تحقق له الظفر على سائر الحيوان . ولعل أول سلاح تزود به ، ليدافع عن نفسه ، أو ليهاجم به غيره . كان حجراً خشناً ، أو هراوة ، أو عصا . وما كان ليشغل فكره بهم من هموم الدنيا سوى أن يشبع غرائزه ، فيصطاد إذا جاع ، ويستجم إذا تعب ، ويقيم حيث يطيب له المقام فى كهف ، أو تحت شجرة ، أو أى مأوى يراه أمامه .

وكان عليه أن يتفاهم مع قرينته الطبيعية أو أقربائه من الرجال ، فلجأ إلى الإشارات والحركات والرموز وتقليد أصوات الطبيعة ، ونطق فخرج من حيـــاة الحيوان إلى حياة الإنسان . ثم بدأ يظهر صفاته ومواهبه فى البحث عن الأمن والاستقرار بعد الخوف والترحال .

وإنا لنجهل الزمن الذى استطاع فيه الإنسان زراعة الأرض واستنباطها . فقد ظلت هذه البداية سراً من أسرار التاريخ . ومن يدرى أن المرأة أول من لجأ إلى الاستقرار من بنى الإنسان لما بها من رقة الطباع ، وضعف الجسم ، فألقت بعصا التيار ، تحت ضرورات الحمل ، بينما كان الرجل يشغل وقته بالصيد وجمع القوت ؟ ! ومن يدرى بعد أن الزراعة كانت أول اختراع حضارى حققته المرأة عندما تشبثت بالأرض لتخفيف آلام المخاطرة فنبشت بأناملها التراب ، ونبت البذر نباتاً حسناً . وأصبح الإنسان منتجاً للغذاء ، يفكر بمستقبله ، بعد أن كان هائماً على وجهه لا يفكر بغده ! ؟ ومنذ تملكه هذا التفكير بدأت أول مرحلة حضارية ، وانتقل فيها من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار .

وإذا خرج الإنسان من حيوانيته بالنطق . وبدأت الحضارة بالزراعة ، فقد بدأت الصناعة بالنار ، ولم يكن الإنسان فى الغالب لها مخترعاً ، وربما كانت الطبيعة لها كاشفاً ، من حفيف الأوراق . أو تمايل الأفنان ، أو من شرارة انبعثت عن صاعقة خاطفة ، أو اختلاط بعض المواد الكيماوية مع بعض . فما كان منه إلا أن قلد الطبيعة وأنار طريقه فأمن شر الظلام والبرد ، ثم أفاد منها فى الصناعة وصهر المعادن ، وجعل منها إلهاً يعبد ، ووطناً يحن إليه إذا نأى عنه ، ودليلاً مرشداً إذا ضل به السبيل .

وهيأت الطبيعة المجاورة له وسائل عيشه من النبات والحيوان والتراب ، وتوصل إلى حياة التبـــادل ، فبدأ عتالا يحمل أشياءه من مكان لمـكان على سطح اليابسة ، أو على شجرة عائمة على سطح الماء ، وشرعت حركة التجارة بالمقايضة إلى أن انتهت أخيراً بتبادل العروض والنقود فى ظل الحضارات التاريخية .

وأدت الزراعة إلى الملـكية الخاصة وتوسيع هذه الملـكية ، وإلى تحصين المرأة والاعتراف على الأولاد والإرث ، وتوزيع العمل ، وتفاوت الأفراد بعد المساواة النسبية ، وإلى انقسام المجتمع إلى طبقات .

وبدأ تنظيم المجتمع البشرى فنشأت سلطة الدولة من وجود زعيم قوى دينياً كان أو علمانياً ، وترعرع العلم من محاولة التغلب على قوانين الطبيعة على أيدى الـكهان ، ومزج الألوان بالألوان ، والسحر والطلاسم والـكهانة والعرافة ، كما بدأ الأدب بالشعر فى أوساط الرعاة ، والدين من الرهبة التى تملكت البدائى من قوى الطبيعة المحيطة به ، فراح إلى رجل الدين يطلب العون والمواساة لتخفيف آلامه فنشأت العبادة والمعابد والأضاحى والمذابح والسدنة وما إلى ذلك من تسلسل كهنوتى لا يقع تحت حصر . وراحت الأباطيل والخرافات تشيع عن تأثير النجوم فى طباع البشر ومصيرهم ، وما زالت هذه الأباطيل حية إلى اليوم عند متشائم منهم ومتفائل ممن يبحثون عن الطوالع فى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية وشاشات التلفزيون. ومن يدرى بعد كل هذا أن ما نسميه أباطيل وحديث خرافة ليس إلا نوعاً من الخطأ نسميه العلم .

وما زال الناس يناقشون عن أصل الفن ، فهل نشأ من الغريزة أو إبداع

الإنسان ؟ وما هى صلته بالجمال ؟ ولم نعجب بهذا الجمال ونسرح الطرف فى آياته ، بل لم نحاول أن نبدعه من جديد ؟ ويبدو أن الرغبة فى التزيين وتجميل الجسم البشرى كانت فى أصل الفن ؛ ولا يغرب أن يكون اللباس فى البدء نوعاً من الزينة أريد به تحويل الرغبات الجنسية أكثر من حماية الجسم من البرد ، كما أريد منه أن يكون سلاحاً للحياء والحشمة والعفة . كما لا يغرب أن يكون أصل الحب من هذا الحجاب الحاجز الجديد الذى صنع خصيصاً ليلهب الخيال ويقرب القلوب . فكان حلم . وكان موعد أو كان لقاء .

وما زال التفاهم بين بنى البشر بالإشارات والحركات والأصوات والرموز يقدح زناده ويشعل ناره إلى أن اخترع الإنسان رموزاً صغيرة تعبر عن عواطفه وأفكاره وخلجاته ونوازعه ، فسماها الكتابة ونقلها إلى أجيـــاله من بعده تنطق عن كل ما أنتجه الإنسان فى الزمان والمكان ، وما يحيط به من عوالم ، فكان التاريخ ، وحقق الإنسان بهذا الاختراع العظيم العجيب مرحلة فاصلة حاسمة على درب الحياة الطويل بين ما قبل التاريخ والتاريخ .

وهكذا أبدع الإنسان البدائى أسس الحضارة وأشكالها ، ومظاهرها المختلفة ، وما كان ليتحقق له كل ذلك بسهولة ويسر . ففى وسط الفوضى واللبس والغموض والظلام والإشكال شق طريقه ليعبر من حياة الحيوان الأعجم إلى حياة الإنسان العاقل بين عديد السنوات ، وطول التجارب ، وتكرار التلمسات ، وكثرة الإخفاق ، إلى أن فاز بالنصر المبين فى إشادة صرح الحضارة المتكامل البناء على الدوام .

وخلافاً لما يزعم ، بدا أن الإنسان البدائى ، إنسان الكهوف والمغاور ، كان ذكياً عبقرياً أريباً ولا تقل مهارته عن مهارة الإنسان الحديث . والفارق الوحيد أن الحديث يمتاز عن البدائى بتراكم المعـــارف والأدوات والوسائل أكثر من تفوق الذكاء نفسه ، فلقد كان الإنسان البدائى يحل المشاكل التى تعرض عليه فى حياته اليومية بقوة الفكر المبدع معتمداً على نفسه ، ويخلق من لا شىء أشياء كثيرة : لقد أطلق الإنسان البدائى جميع صفاته الإنسانية ودشن أنواع السلوك التى تعتبر أساساً للحضارات الكبرى ، وأبدع فزاد إبداعه فى قوته وقوة بنى الإنسان فى الأجيال المتعاقبة عبر الزمان . وهكذا نجد الحاضر بصوره المختلفة مديناً للماضى البعيد .

ولا يعلم على وجه الصحة والدقة نشأة هذه الانتصارات الحضارية الكبرى . ومن السهل لتفسيرها الاعتماد على الظواهر والاحتمال والتخمين والافتراض . وأن ما أتينا به من تعليل أو تفسير غير قاطع أو نهائى . وما ذكرناه إلا لنقرب إلى الأذهان أن هذه الانتصارات البشرية يمكن أن تفسر على هذا النحو أو ذاك . وما من مانع يحول دون تفسير آخر مقبول ومعقول . وما زال عالم ما قبل التاريخ مجهولا ، وما نعرف عنه قليل جداً من كثير جداً جداً . وكثيراً ما يخدع الواقع الفكر ، ويخيب الحس النظر ، ولكن المهم أن نبعد الإيضاحات الجانبية بالاعتماد على المناخ والحاجات والاقتصاد ، فليست هذه إلا إمكانيات وضعت أمام الإنسان الذكى الصادق النظرة ، المحب للاطلاع ، القوى الانتباه ، الذى التفت إلى ما يحيط به فحاول الإفادة منه وتسخيره لصالحه .

ومنذ العصر الحجرى الحديث لازم التطور فى الحياة والتقنية والفكر والفن تطور اجتماعى . ولكن من الصعب التعرف به نظراً لفقدان الوثائق المكتوبة . ومهما يكن فقد دشن هذا العصر حياة الرعى والزراعة ومجتمع البداءة والاستقرار ، ثم تلت ذلك تبدلات جديدة تسلسلت على فترات زمنية طويلة حولت الاقتصاد الريفى والزراعى إلى اقتصاد عمرانى مدنى ، وحياة القبائل إلى ممالك وإمبراطوريات .

ظهر التحول الأقدم حوالى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد فى بلاد الشرق الأدنى القديم وحوالى ٢٠٠٠ فى كريت ، وتكرر فى الألف الثانية فى الصين ، وهيأ مجىء الهنود الأوربيين فى منطقة الحضارات القديمة تبدلات مشابهة تحققت فى الألف الثانية فى آسيا الصغرى وفى سورية ، وفى الألف الأولى فى إيران والهند وأوربا . ثم تحول عالم البحر المتوسط بأغريقية وروما ، وولد تبدلات هامة جديدة يمكن اعتبارها أصلا لمرحلة أخرى . وفى أمريكا كان التطور متأخراً وغير تام . ولم يظهر إلا فى العصر المسيحى عند الماياس والتولتيك والآزتيك وسكان بيرو . ومما يلفت النظر أن هذا التطور قد تم بالقرب من الأنهار وفى ظل الانعزال . وإذا أردنا حصر الحضارات على المصور الجغرافى لوجدناها ضمن شريط ضيق يطوق العالم القديم بين درجتى عرض ٢٠ و ٤٠ شمال خط الاستواء ، كما يطوق العالم الجديد بين مدارى السرطان والجدى . أى فى مناطق معتدلة نسبياً ، خلو من الجمديات والجفاف والحر القائظ .

وفى العالم القـديم تشكلت النواة الأولى ، ونمت شجرة الحضارات على ضفاف الأنهار الـكبرى : النيل ، دجلة الفرات ، السند والقانج والنهر الأصفر حيث أوجدت الفيضانات الدورية شروطاً مواتية للخصب وحركة الأرض . ولـكن الأراضى التى تغمرها المياه تطلبت تنظيماً وتنسيقاً وعمليات هامة فى التجفيف وحفر الأقنية والرى ويلفت انتباهنا خاصة ، من كل هذه المناطق ، بلاد الشرق الأدنى القديم . فقد كانت تمتاز بسبق حضارى ، وتعتبر أقدم مراكز الحضارات الـكبرى ، وبإشعاعها المبكر نحو إيران والهند والمتوسط ، وبماضيها البعيد وهو الوحيد الذى وجدت له آثار وأطلال يمكن بطريقها استشفاف الماضى وإعادة بنائه .

لقد سلك إشعاع هذه الحضارات مجرى دجلة والفرات والعاصى والأردن ، ثم اجتاز هضاب آسيا الصغرى ، وانتشر فى الوديان الـكبرى حتى شواطىء المتوسط وبلاد بحر إيجه فى الغرب ، وحضارة الهند قبل الآرية التى كانت معاصرة لحضـارة السومريين وترتبط بها بروابط وشيجة .

وتضافرت فى هذا الإشعاع الحضارى القديم عوامل متعددة كالمبادلات التجارية والجاليات الأجنبية والحملات العسكرية والهجرات الداخلية والانصهار السياسى فى بوتقة الوحدة . وأوجد الزحف الصناعى والمد التجارى حاجات جديدة ومراكز إنتاج جديدة ، واندفع بهجرات خارجية نجمت عن تدفق الساميين الذين ما فتئوا منذ الألف الرابع ينتشرون فى سورية وفى بلاد ما بين النهرين ؛ وعن تدفق الهنود الأوربيين فى هذه البلاد ، فى الألف الثالثة ، وتكاثرهم فى الألف الثانية وتدميرهم الإمبراطوريات الشرقية فى الألف الأولى .

وحول هذه المراكز الأولى فى العالم القديم انتشرت الحضارة ، ولـكنها ظلت محدودة الإشعاع ، متماثلة بالرغم من اختلافاتها الأصيلة الموضعية ، ويبدو ذلك فى الخزف والتعدين والبناء والتقويم والتعداد والعقائد والطقوس والفنون ونمو الثروة وتشكل الطبقات الموجهة ومركزية السياسة .

وإذا صعدنا بالتاريخ الـمكتوب إلى ٦٠٠٠ عام على الأقل لوجدنا فى منتصف هذا الدور ، أن الشرق الأدنى كان مركز الحضارة البشرية ، وعلى هذا المسرح العاج بالسكان قامت الزراعة والتجارة ، وظهر الحصان والعربة والنقد والتبادل والصناعة

والحق والإدارة وضريبة الدخل والرياضيات والطب وتنظيم الرى وأعمال التجفيف والهندسة والفلك والتقويم والساعة والأبجدية والكتابة والورق والحبر والكتاب والمكتبات والأدب والموسيقى والنحت والبناء والخزف والأثاث الفاخر ووحدة الزواج والتجميل والجواهر والشطرنج والنرد وغيرهما من الألعاب .

ولقد ورثت الحضارة الأوربية ، كل هذا بوساطة كريت أولاً ومن ثم إغريقية وروما . وفى الحقيقة أن الأقوام الأوربية لم تبدع الحضارة بل اقتبستها عن بابل ومصر ، كما لم تدشن إغريقية الحضارة بل أخذت منها أكثر مما أعطت ولم تكن إلا وارثاً ومستفيداً من الفنون والعلوم التى أوجدتها حضارة ثلاثة آلاف عام وأتت بها إلى مدن إغريقية بطريق السلم والحرب .

وإذا لم تكن إغريقية مبدعة للحضارة فقد نمت فيها جميع المظاهر الحضارية الاقتصادية والفكرية والفنية والاجتماعية نمواً أصيلاً حتى أصبحت رائدة ومربية لأوربا فى آدابها وفنونها وتقنيتها . ولعل أهم ما أتت به إغريقية من تجديدات كبرى ومكاسب عظيمة كان فكرياً . فقد علمت إغريقية الناس الوضوح والفكر العقلى والتجريبى ، وأدخلت الملاحظة والتجربة ، وقفزت بالفكر العقلى فى هذا المضمار قفزات حقيقية موفقة .

وضع الإغريق أسس العلوم وأعطوها الأسماء التى مازلنا نحتفظ بأسمائها بعد ، وما زالت الحياة الفكرية فى أوربا فى أشكالها السامية تحمل طابع إغريقية . لقد عرف العقل الإغريقى بالإعتدال والإنسجام والتوازن المرن المتحرك ، حتى أن الزهد الفلسفى والصوفية أخذا فى إغريقية أشكالاً معتدلة . فكل مافى إغريقية إعتدال وضبط وبعد عن التعصب ونفى الغير . وربما كان لاختلاط الأعراق والجو واختلاف المؤثرات والملاحة والتجارة شروط مناسبة للملاحظة والتفاهم المتبادل تجد فيها الدقة والضبط والمهارة مجالا صالحاً أكثر من مجال القسر والقوة . كما عرفت إغريقية القديمة فى الفن بالبساطة والقناعة وضبط النسب ؛ وفى التقنية بمهارة الإختراع ؛ وفى الفكر بحب الإطلاع والبحث البعيد عن المنفعة . وفى الحقيقة أن الإغريق لم يتوصلوا إلى ما توصلوا إليه إلا بنتيجة هذه الظروف السعيدة التى أحاطت بهم وأعدتهم زمناً طويلاً وأوجدت عندهم هذا التوازن الذين عرفوا به بين قوة التجريد والفكر العينى المشخص

والحضارة الإغريقية بالرغم مما يكتنفها من ظلال ، حضارة شعب نشيط ، فصيح شاعر ، عاقل فنان مفعمة بالتنوع ، غنية بما يثير النفس ويترك فيها انطباعات عميقة وطيبة . ففي عملها الدائب ، النافذ ، المهجي ، المثمر ، ومثلها العليا في الحقيقة والعقل والحرية والجمال لم تكن مربية لأبنائها فحسب بل لأبناء البشرية . لقد نبتت حضارتها على البحر المتوسط وامتدت منه إلى الشرق ترد جميله ، إن صح التعبير . أو لتستولى عليه بجيش الأسكندر الأكبر الماكدوني وخلفائه السلوقيين وتوصلت إلى قلب آسيا وتركت فيها آثاراً لا تمحى .

وورثت روما إغريقية والشرق ولعبت دور الوسيط والناقل والناشر على مقياس واسع ، وامتازت بقوة توسعها ووحدتها . ودورها التربوي النشيط الذي أخذته عن أثينة واعتبرت ما خيم عليه جناحا النسر الروماني متحضراً وما كان خارجاً عنهما بربرياً . وفي الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف ساد سلام طويل دام أكثر من قرنين وتحققت فيه وحدة اللغة والحكم والحق ووسائل المبادلات ، كما اتصلت مختلف المناطق الرومانية بشبكة طرق برية وبحرية وصلت إلى الهند والشرق الأقصى وتمثلت روما كل ما استطاع فكرها العملي أن يتلقى من نسمات رقيقة من إغريقية ، واستخلصت من النماذج الهلنستية الأشكال اللاتينية التي أفادت أثر التربية في الغرب . فمن أسبانيا وغاليا إلى الفرات نبتت المباني القومية العظيمة كالقطور ، وعجت المدن المزدهرة بالسكان من كل جنس . وكان الإمبراطور على رأس هذه الإمبراطورية إلهاً .

ولكن هذا البناء العظيم الذي شادته روما كان يتألف من قطع مستعارة ومقتبسة ، لأن روما بعد أن فتحت البلاد بجوقاتها العسكرية ، أخذت تستغلها وتعتمد عليها وتتكيف معها ، حتى أنها جعلت من نفسها عاصمة طفيلية تعيش على حساب الغير : فهي مدينة إلى أغريقية والشرق بتقنيتها وأدواتها وطرق إنتاجها وتجارتها وعيشها . ولم تأت بأي إسهام للعلم ، حتى أن سلطة أباطرتها وتأليههم والإدارة المدنية والعسكرية فيها كانت تشبه المملكيات الكبرى الإيرانية والهلنستية .

أما ما امتازت به روما فكان في اللغة والبناء والحقوق وهي من مآتيها الشخصية فقد كانت اللاتينية متينة واضحة مرنة . وأداة للتعبير والثقافة . وكان المهندسون

المعمارون الرومانيون متعهدين أكثر منهم فنانين ، ولكن هذا لم يمنعهم من استخدام الطرق الإغريقية والشرقية وتجديدها حتى ظهرت هذه المبانى الرومانية على جنبات المتوسط شاهدة على عظمة الرومان وحضارة الرومان . أما الحق الرومانى فكان أقوى آبدة حقوقية عرفها التاريخ قبل العصور الحديثة . فقد صهر فى بوتقته مذاهب الشعوب الخاضعة ومبادىء الفلسفة الإغريقية ، وأخرج منها فقهاً رومانياً ما زال يرجع إليه كمصدر قديم من مصادر التشريع . ولقد وسع هذا الحق الرومانى سيادة القانون ، ونقل إلينا فكرة الدولة المجردة ، وسلطة هذه الدولة ، وفكرة الحق التى بناها الإغريق على العقل والعدل ، ونسقها بتعاريف صحيحة وتصانيف واستنتاجات كانت للفكر أداة تربوية خالدة .

غير أن الدولة الرومانية لم تقاوم الزمن كإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين والصين ، لأنها كانت تعيش على الغير وتنقصها المرونة والاختراع فضلا عن أن هذه الدولة عرفت بجمود الأطر وضعف الحركية وأخذ كل شىء على عاتقها . وأدى كل ذلك إلى انحطاط التماسك الرومانى وخرابه فعانى فى ظل الإمبراطورية الدنيا أزمة لازمته طويلا . وما كان من الغارات البربرية الكبرى إلا أن عجلت بالمصير المحتوم .

وفى العصر الوسيط سادت حضارات ثلاث كان لها الأثر الأكبر فى تكوين الحضارة الحديثة فى إشراقاتها الأولى وهى الحضارة البيزنطية والإسلامية والأوربية . لقد انتقل مركز الثقل بعد تداعى الإمبراطورية فى الغرب الأوربى إلى القسطنطينية ولم تبق الحضارة بانسحابها سوى آثارها . بيد أنها تألقت تألقاً جديداً كسفت أمامه عظمة روما الغربية . وكان هذا التألق ثالث ازدهار عرفه العناق الودى بين الإعريق والشرق . فقد تشكل فى إيونيا ، وتفتح فى الممالك الهلنستية ، ولكنه كان فى هذه المرة الثالثة أشد بريقاً وزهراً وبهراً للأبصار . فقد تجلى فيه أبهة البلاط والثروة واللون والتزيين والعواطف الدينية والأسرار المسيحية التى عدلها الفكر اليونانى بقناعته وبساطته . ورأت الإمبراطورية البيزنطية تجديداً فى الحياة السياسية فى ظل جوستنيان شمل شواطىء المتوسط حتى إسبانيا ولكن هذه العودة الإمبراطورية إلى الغرب الأوربى كان دون عد أمام الفتح العربى . وظلت الإمبراطورية خلال ألف عام فى دور الدفاع إلى أن هاجمها الأتراك العثمانيون وقضوا عليها .

وحصل تجديد فى الحياة الاقتصادية فتح آفاقاً جديدة نحو الشرق الأقصى بواسطة البحر الأسود والبحر الأحمر . ودخلت إلى أوربا زراعة التوت والمنسوجات والحرير والأقمشة والتقنية الشرقية والعطور والعاج والتوابل والمعادن والأحجار الكريمة والفسيفساء المختلفة الألوان على أرضية زرقاء أو ذهبية ، وتجدد الفن فى بناء القباب البيزنطية ، وتعددت أشكال البناء ونماذج التصوير والتزيين والأناشيد الليتورجية والحماسة الدينية . ولكن بيزنطة نامت على الحضارة القديمة والمجد التليد فضعف عندها زخم الاختراع كما نضب معين الفكر .

وفى الحقيقة أن بيزنطة جمعت ودعت ونشرت الأبجدية الإغريقية والثقافة فى الأوساط السلافية بين البلغار والصرب والروس والعرب ، واقتنت أكبر قسط من التراث القديم غزت به أوربا فيما بعد ، وحملت مشعل الفكر عالياً ونقلته ، ولكنها لم تجدد فيه إلا قليلا .

وفى بلاد العرب ظل التخمر الذهنى الواعى يعمل عمله فى العقول والقلوب إلى أن تفتحت الحضارة العربية — الإسلامية . والجدير بالذكر أن هذه الحضارة نمت فى بلاد تعتبر من أعرق البلاد التاريخية حضارة ، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الأصيلة ، وفيها تهيأت أسباب التقدم الحضارى بالنسبة إلى بقية أجزاء العالم الأخرى ، وكانت هذه الحضارات بمثابة المجموعة الحضارية الأم ، وعم إشعاعها جميع أرجاء المنطقة ، وجعل كل جزء منها يأخذ عن غيره ويعطى ما عنده . وعلى هذا النحو تم الاتصال الحضارى بين الأجزاء . ولم تخرج الحضارة العربية — الإسلامية عن حدود هذا الأخذ والعطاء . فعندما انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وامتد فى بلاد آسيا وإفريقية كان العرب يدعون إلى الإسلام وينشرون اللغة العربية ويتمثلون الحضارات المختلفة فى البلاد التى حلوا بها . وكانوا مؤثرين ومتأثرين ، وناشرين ومبدعين لحضارتهم العربية — الإسلامية التى استمدت روحها الطيب من أصالة الشعب العربى العريق النشيط ، هذا الشعب الذى استطاع أن ينشىء من تراثه الحضارى العريق حضارة جديدة اشتركت فى تكوينها وتنميتها هذه الشعوب المتعاقبة التى سكنت المنطقة على مر العصور التاريخية . هذه الشعوب التى تكررت وتقطرت فأنتجت الشعب العربى المؤمن بالقيم الروحية والمثل الإنسانية العليا

التى نقلها ونشرها بين الشعوب الأخرى ، وجعل هذه الأخيرة تدين بها وتسهم فى تعميمها ونشرها .

والمتتبع للتاريخ العربى يرى أن العرب خدموا الحضارة الإنسانية بما قدموه من منجزات فى عالم الأدب والعلم والفلسفة والدين والفن ، كما يرى أنهم لم يقصروا فى أى ميدان من الميادين ، فضلا عن أنهم كانوا رسل حضارة وواسطة اتصال حضارى بين الحضارات القديمة والحضارة الحديثة .

وكان يقابل هذا التألق البيزنطى والتفتح العربى خيال غربى ران على أوربا قرابة سبعة قرون ، وطوال غارات كانت تتعاقب عليها بين فترة وأخرى فتعمل فيها الهدم والتخريب . وظلت هذه حال أوربا إلى أن احتكت بالشرق والإسلام ونهلت من النبع الصافى فى مختلف الميادين ، وأخذت عنه الشيء الكثير ، فاخضر العود بعد الجفاف ، وتفتح الزهر بعد طول الشتاء والبرد ، واستيقظت أوربا بعد نوم قلق ، وجرى فى أوربا ما جرى فى إفريقية البدائية ، فتأثرت بعوامل متعددة ، ودفعات خارجية وعفوية داخلية ، ومبادهات فردية وجماعية ، وعاودت السير فى ركب الحضارة وتفجرت فى القرن السادس عشر عن نهضة ظلت تعمل بدأب وتقدم إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم .

والحضارة الحديثة التى نعيش بين ظهرانيها حضارة عامة لا تتعلق ببلد من البلدان ، أو بشعب من الشعوب ، لقد أسهم فى بنائها أبناء الانسانية جميعاً فغدت لهم تراثاً ونتاجاً دائماً وخالداً ، ومن حقهم أن يفخروا بها لأنها نتيجة جهود مديدة وأعمال دائبة وأفكار نشيطة مجددة وعبقريات أصيلة ، وأطماح بعيدة وزمن عريق . بيد أن الحضارة فى عصرنا الحاضر آخذة بالتسارع والنماء بدرجة تفوق حد التصور . ولا شك فى أن الفضل فى ذلك يرجع إلى تحرر الإنسان من القيود التى كانت تكبل نشاطه وفاعليته عبر الزمان . وتحت مؤثرات كثيرة ومتنوعة . وهذا التحرر جعله ينطلق ويطلق لنفسه العنان فى آفاق المعرفة والإبداع ، ويستخدم قوى الطبيعة والإمكانيات التى تفسحها أمامه ليبدع منها الوسائل التى تؤمن رفاهه وعيشه وتحقق آماله وأحلامه .

ولقد حاول بعضهم تفسير الأسباب التى دعت لنمو فردية الإنسان المبدع . صانع

الحضارة ، باعتبارات عرقية ، أو بتجربة جغرافية مزعومة . ولـكن الذى يجب أن يقال فى هذه المناسبة هو أن هنالك أسباباً أشد وأقوى . ويأتى فى مقدمتها أفول الإقطاعية وإعادة بناء الدولة على أسس جديدة . وتقدم العلاقات التجارية . وتكامل طرق الإنتاج . ونزاع الطبقات . والأزمات . وتحسين مستوى الحياة . وتنظيم العلاقات الدولية والمبادلات الثقافية . واتصال الشعوب ببعضها بين أخذ وعطاء وإغناء بعضها بتجارب بعض . ولا شك فى أن أوربة أتت متأخرة فى آفاق المعرفة فأفادت من تجربة الإنسانية المديدة وشعت إلى ما يتجاوز ذاتها وحدودها القارية . واندفعت فيما وراء المحيطات لتكتشف العوالم الجديدة وتغنى خبرتها بمعارف تجهلها . ولقد كان من هذا الاتصال ثورة فى الاقتصاد الأوربى ظهرت آثارها فى تغيير قيم المجتمع وهزكيانه من أساسه بنمو طبقات بورجوازية تجارية ومالية لم تكن فى الماضى شيئاً مذكوراً . وارتفعت بجهدها وعصاميتها إلى مصاف الأمراء ؛ كما ظهرت هذه الآثار فى نقل تجربة أوربا الحضارية إلى أمريكا التى تفتحت من إمكانيات ضخمة . حتى أن أوربا لم تعد إلا قزماً أمام هذا العملاق الـكبير . وبعد أن كانت أوربا تفخر بحضارتها الأوربية إذا بها تخفف من غلوائها وتسمى هذه الحضارة الناشئة عن اتصال القارتين « الحضارة الغربية » تارة ، و «الحضارة الأطلسية» تارة أخرى .

ولـكن تجربة البلاد الشرقية ومنجزاتها الحضارية بلغت من التقدم درجة أصبح من غير المقبول معها أن تبقى هذه الحضارة كما يريد الأوربيون غربية أو أطلسية ، ونعتقد أن من الخير أن يطلق عليها اسم الحضارة الحديثة والمعاصرة تمشياً مع روح التاريخ والمفهوم الحضارى الواسع والتواصل البشرى الدائم والتسارع الذى يجب المسافات ويجعل القارات قارة واحدة أو بلداً واحداً ، والبشر ، مهما تناءى بهم لزمان والمـكان ، أبناء إنسانية واحدة .

وهذا الانفتاح العالمى ، المتسع باستمرار ، مدين ولاشك إلى تقدم العلم والتقنية وتطبيقاتهما فى سرعة النقل والمواصلات . كما وسع التقدم نتائجه فى حقل العلوم الاجتماعية والنفسية . وإذا لم تستطع هذه العلوم أن تراكب العلوم المادية فمما لا شك فيه أنها سائرة فى نفس الاتجاه من التقدم المستمر نحو وضع أفضل يشجع على إطراح المعارف القديمة والعلوم النقلية وما يلابسها من أوهام وتخمينات ؛ وعلى الإيمان بأن

الإنسان يركب الخطر ويقتحم المجهول وينطلق بالظلام ليكتشف لبس هذا العالم السكونى المحدق به ويجعله مفهوماً . وينقل اكتشافاته إلى بنى جنسه دون أن يجعل منها أسراراً وما زال يحاول أن يعمر هذا الكون ، ويخلق من ضعفه الظاهر قوة أمام الموت الظافر ، هذه القوة التى كانت فى إنشاء الحياة وبنائها ولم تكن مجرد أقوال . ومن يدرى أن يوماً سيأتى على البشرية يقدر فيه المؤرخون أن جميع التحولات التاريخية ليست سوى أزمات وظواهر لنمو العقل البشرى الكاسح الذى يتحدى الظلام والمجهول لينقذ الإنسان من حمأ الطين الوحل .

وقد اختلف الحوار فى هذه التحولات البشرية والتطورات التى يمر بها الإنسان من مرحلة منحطة إلى مرحلة أسمى . فرأى رجال الدين أن أسمى ما فى الإنسان من الله ؛ ورأى المفكرون العلمانيون أن أسمى ما فى الإنسان من الإنسان . ولكن المذهب الدينى لا ينفى عن الإنسان قيمة السعى والجد والدأب . وهذا يعنى أن المذهبين يستقطبان الإنسان والسمو به إلى تحقيق إنسانيته ومكارم أخلاقه .

وذهب التفكير إلى أن التمييز بين الإنسان والعالم لا تنجم عنه حقيقة ، وأن العالم خبث معدنى ، وعلى الإنسان أن يندغم ويندمج فى هذا العالم ليعرف معناه الحقيقى ؛ وأن كل ما أتى به العقل البشرى من أفكار وعلوم وتقنية مع كل ما تضمنته من انعكاسات وردود فعل ونتائج فى المجتمع الإنسانى يجب أن يكون منها تفتح شخصية الإنسان ونموه فى سلوكه العقلى والروحى ، وأن العالم ليس عقلا كله . وأن الإنسان ظل يعانى أزمة وجدان خلال ثلاثة قرون قضاها فى أزمة فكرة الحقيقة وهو يشعر ويفهم ضعف هذه الفكرة إلى أن أعاد النظر فى تقدير قيمة العلم وحدوده . وإعادة النظر هذه فى الموضوعية العلمية تعتبر بذاتها وبما تتضمنه من استعداد وقابلية كسباً ثقافياً وتقديراً للقيم الإنسانية المبدعة القائمة على المغامرات الشخصية .

وفى الحقيقة أن تاريخ الحضارة ، بكل ما وصلت إليه فى عصرنا الحاضر ، إنما هو تاريخ ثورة إنسانية مستمرة قام بها الإنسان على مزاعم الرضوخ والرضى بالقدر المحتوم ؛ أو على إنكار مزاعمه فى تطلعاته إلى الكرامة ، إنه تاريخ إنكار الاستسلام باسم الإنسان ، وأن المعيار الوحيد الذى يجب الاعتماد عليه فى هذا السبيل ، هو الثورة ، فهى التى تنظم الحضارة وتحميها وتبدعها عبر التاريخ وعبر فوضاه واضطرابه .

بالتقدم الدائم . يضاف إلى ذلك أن هذا الاعتقاد وجد صهراً وفى الأخلاق البشرية نفسها . لأن المثل الأعلى لدى الإنسان تبدل أيضاً . وأصبح يقوم على النضال والجهد والتوسع والرقى والتحول وحب التطلع إلى الجديد وعدم البقاء على الرقابة . وعدم الإنصياع للعقبات مهما كانت . وإن كان هنالك شىء من ذلك فالى أجل محدود ريثما يستكمل وسائله ويعد عدته .

ولقى هذا التقدم صداه فى أفق العمل والعمال بعد نهوض الثورة الصناعية . وما فتئت الأطر البورجوازية والطبقة الكادحة فى ازدياد . ولكن الاتجاه العام يسير إلى التخفيف من ثقل الأولى وسيطرتها وتحكمها من حجة . وإلى النهوض بالثانية من حيث تحسين شروط حياتها المادية والاجتماعية والسياسية والثقافية من حجة أخرى . والجهد مبذول للافادة من قوى الإطارين للاسهام معاً فى الحياة القومية بشكل أوثق وأدعى إلى إزالة التناحر الطبقى الذى يمكن أن يهدد المجتمع بالخراب والدمار . ولكن البشرية لم تتوصل بعد إلى تقنية أو قانون يمكن أن يؤمن هذا السلام الاجتماعى المنشود .

والملاحظ فى عصرنا الحالى أن الوعى العام يجتاح جميع الطبقات الاجتماعية . وأن نظام التسلسل الذى يسود هذه الطبقات لم يعد حقيقة مستقرة ومقبولة لامبدل لها . بل هو غليان مطامح تثور ، تخفق حيناً وتنجح أحياناً ؛ وأن التطور بدل معنى القيم ومكانتها . فقد أضعف النخبة القديمة . وهيأ المكان لنخبة جديدة حتى أن مفهوم الزمان قد تبدل معناه . فقد كشفت الشعوب عن تاريخها . ووعت فرديتها وأصالتها . ولم يعد هذا العصر بطلياً أو فلسفياً أو نقياً أو أخلاقياً . إنه عصر الحركة والميكانيك المؤسس على العلم الذى يطغى على الحياة الأخلاقية . فبعد أن شغلت مشكلة الزمان الأفكار . وانتهت بها فى الغالب إلى الصوفية أو إلى الخلاعة أو بتعبير آخر إلى الإيمان وعدم الإيمان . أخذ مفهوم الزمان طابعاً إنسانياً وتاريخياً .

ويبدو أن قيمة حضارة اليوم تعتمد على إرادة الوعى وإرادة الكشف . ومن هذه الناحية تنفذ الحضارة إلى الإيمان بالإنسان وقيمه . فلقد جابه الإنسان العالم المجهول وما زال يحاول النفوذ إلى العوالم المجهولة ليكشف كنهها وحقيقتها . وبالرغم من أن مصير الموت ما زال يهدد البشرية ويجعلها تحنى الرؤوس أمامه . فما زال

وهذا المعيار الناجم عن الثورة لا يمكن أن يعيش إلا بالثورة ، فبها يستطيع أن يفجر كل ما يختزنه من إمكانيات الإبداع ، وكل ما يمكن أن يكون . وستظل ثورة الحضارة مشتعلة ولن تنطفىء قبل أن يموت آخر إنسان .

* * *

إن هذه اللوحة التى رسمناها عن تاريخ الحضارة ، تبين لنا أن تاريخ الإنسان يحوم حول علاقته بالمجتمع وتفاعله معه ومع الحضارة التى أبدعها ، وأن الإنسان لم يصبح إنساناً ولم تتفتح مواهبه الإنسانية ، ولم تنم معارفه وخبراته إلا عن طريق المجتمع . ولولا هذا الوجود الاجتماعى الذى وجد فيه الإنسان لما استطاع أن يكون حضارة . لأن اجتماع البشر واتصالهم مع بعض وتفاعلهم مع البيئة أساس حقيقى فى نشأة الحضارة ونموها وتطورها وازدهارها .

وعلى الرغم من أن الأفراد الذين يكونون مجتمعاً من المجتمعات ينشؤون حضارته وينقلونها ، فإن أى حضارة لا بد لها من أن تعتمد على إسهام عدد كبير من الأفراد من المجتمعات المختلفة . والمجتمعات البشرية ، منذ وجدت فى نشأتها الأولى، وجدت متصلة يأخذ بعضها عن بعض ، ويعطى بعضها بعضاً . وتفيد من تجارب بعضها . ومن هذا التفاعل الاجتماعى الذى تم بين هذه المجتمعات اتسع نشاط الجماعة البشرية ومجهودها الحضارى . والمشاهد أن الحضارات فى نشأتها تعتمد على إمكانياتها ومكتسباتها الأولى فى بيئتها أو مكتسباتها من البيئات الأخرى . فإذا نمت خرجت بشكل موجات تمتد فى الزمان والمكان ، ثم لا تلبث أن تتقلص أمام موجات حضارات وافدة أخرى فتية . ولكن لا شىء يخلق من العدم ، فكل حضارة تنشأ وليدة أجيال ومكتسبات سابقة ، ومربية لحضارة جديدة . لقد كانت حضارات الشرق القديم بسبقها الحضارى أماً مرضعاً لحضارة اليونان . وهذه مربية لحضارة الرومان . ثم دار الدهر دورته فعاد الشرق يحمل مشعل الحضارة لينير حلك العصور الوسطى فى قارات العالم القديم . وليكون بمثابة المغذى والمحضر لحضارة الغرب وامتدادها عبر القارات فى العصور الحديثة . وفى هـــذا المعنى يشترك بناء الإنسانية فى البناء الحضارى المتجدد ، ويزول الادعاء بالتفوق العنصرى والشروط العرقية للحضارة . وفكرة الحضارات الكبرى التى صنعها العرق الآرى . والقول

بأن هنالك نوعاً من البشر من شأنه أن يصنع الحضارة ويفيد منها ويحافظ عليها من الضياع وهو الجنس الأبيض عامة .

والمتأمل فى تاريخ الحضارة يرى أنها لم تكن لتظهر فى قارة دون قارة ، بل ظهرت فى عصور مختلفة . وفى أماكن متعددة على سطح الكواكب . وأن الحضارة من حيث الأصل لا وطن لها ، وأن أرقى الشعوب المتقدمة حضارياً لمدينة إلى تلك الشعوب البدائية فى اختراعاتها الأولى مهما كان شأنها وقيمتها وأن الاختلافات العرقية ليس لها أى تأثير على التاريخ البشرى العام ، لأن القول بنقاوة دم بعض العروق وتفوقها على غيرها زعم باطل لا نصيب له من الصحة فضلا عن أن العلم يرفضه ولا يقره . فمنذ عصور ما قبل التاريخ المتفانية فى القدم والمجتمعات البشرية على اتصال دائم . مهما كان هذا الاتصال بطيئاً أو سريعاً متسارعاً . واختلاط مستمر ، وعلاقات متواشجة ، وما من عرق أصيل اليوم على سطح الأرض . فقد أسقطت الاعتبارات العرقية من حساب الحضارة وأخذت العلاقات البشرية الدائمة السلم والحرب مكان الصدارة فى تفتح الحضارة وازدهارها .

ومن المسلم به أن أول ما اتجه إليه الإنسان مذ وجد على سطح الأرض كان المأكل والملبس والمسكن . وأن البحث عن هذه المطاليب الأولية كان أقدم نشاط عرفه الإنسان . وبنيت عليه الحضارة وما زالت هذه الحقيقة قائمة مهما اختلفت صور النشاط . وغير أن هنالك عوامل أخرى لها أهميتها . وبخاصة عندما تجاوز الإنسان مرحلة العيش وأخذ يتطلع إلى الحياة الأفضل . فهو لا يرغب فى العيش وحده مجرداً من كل رفاه وزخرف. بل إنه يطمع فى الحياة وفى كل ما يزينها ويجملها رخصة جميلة وجميلة دوماً فى ناظره . وإنا لنشاهد فى تاريخ البشرية أن كثيراً من أنواع النشاط الانسانى الطموح يفترض البذل الثقافى والتضحية والعاطفة . مما هو بعيد عن كل مؤثر اقتصادى . والرأى الذى نذهب إليه هو الأخذ بالأسباب المتعددة المتكاملة التى يعتمد بعضها على بعض ويساند بعضها بعضاً دون الاكتفاء بسبب واحد.

ولا شك فى أن الطبيعة تهيىء إمكانياتها الانسان بقدر ماتخلق أمامه من مصاعب والإنسان بما أوتى من نشاط وفكر يفيد من إمكانيات الطبيعة ويطوعها حسب حاجاته ورغباته . ولكن يجب أن نقر بأن الحضارة بالرغم مما وصلت إليه من تقدم

ورق. مازالت عفنة رقيقة هشة أمام بعض العوامل الطبيعية كالشروط المناخية القاسية والحركات الأرضية التى يمكن أن تؤخر نموها أو تقيد نشاطها أو تطيح بها. وبالمقابل إن بعض هذه الشروط يمكن أن يساعد على النشاط الحضارى.

على أن ثمة بعض الشروط البشرية التى يساعد توافرها على نمو الحضارة وازدهارها كوجود النظـــام السياسى واستقراره واستتباب الأمن ووجود النظم الأخلاقية والإجتماعية التى توجه الناس وتعطى الحياة قيمة ومعنى عن طريق التربية والتعليم والإرشاد. غير أن تدنى الأخلاق والطباع والقيم وتدهور النظام الاجتماعى والأخلاقى والتربوى والاقتصادى يمكن أن يؤدى إلى فساد المجتمع وانحطاط الحضارة واضمحلالها. وبخاصة أن فقدان القوى الخلاقة، أى سيادة العقل على الغريزة. فى نظر شبنغلر. وإخفاق الأقلية المبدعة. فى رأى توينبى. التى تؤهلها مواهبها لقيادة المجتمع وتوجيهه فى تدبير الاستجابات الملائمة لبعض التحديات التى تعترض المجتمع. وإنا لنرى أن آراء معظم الفلاسفة والمفكرين تتشابه كثيراً فى الطور الأخير للحضارة وهو طور التحلل النهائى الذى يقترن بالعقم الفكرى وعدم القدرة على الخلق والإبتكار. ومن هنا تبدو ضرورة: وهى أن الحضاره. باعتبارها إبداعاً بشرياً. بحاجة إلى كل ما يغذيها باستمرار ويحفظها من الانحطاط والضياع.

والحضارة فى حد ذاتها روح. ولكن عامل العصر الحاضر يضيف إليها الكم والعدد. وإذا نظر إليها بأنها مجموعة من السلوك والعقائد والنظم التى يحافظ عليها، وتتحول دون انقطاع، أو بالتباين بين استهلاك السلع والقدرة على إنتاجها، أو التفكير بالغد والاستعداد له، أو بأنها جملة مكاسب، أو قابلية للحصول على مكاسب جديدة، أو بالاختلاف بين الكينونة والصيرورة. فيجب أن ينظر إليها من حيث أنها كينونة وصيرورة معاً، ومكاسب وتمتع بهـذه المكاسب وتطلع إلى مزيد من المكاسب الجديدة، أو بتعبير آخر يجب أن ينظر إلى الحضارة من حيث أنها حاجة إلى بعض المعارف أكثر من تملك هـذه المعارف، وقابلية إلى العمل أكثر من الاعتياد على بعض أشكال العمل، وبحث عن مظاهر الجمـــال أكثر من تذوق التأمل. إنها استعداد عاطفى نشيط داخلى فى الكائن أكثر منه ركام ثروات خارجية فكرية أو مادية. إنها جو من التأثر الدقيق المعقد يحيط بالحياة كلها. وكما يشف الجمال عن

الفكر فى الاشياء ، فكذلك تشف الحضارة عن الفكر فى التاريخ ، ولذا كان نصيب الجهود المبذولة لتحقيق الجمال فيها عظيماً .

ومهما اختلفت وجهات النظر فى الحضارة فهى تبدو كسلسلة متكاثرة ومتنوعة الحلقات لكل ما أتى به الفكر الإنسانى عبر الزمان والمكان . ولذا فإن الحضارات الخاصة تتواكب وتنسجم مع بعضها لتؤلف تاريخ الإنسانية ونموها فى مختلف ميادين الحياة وبما فيها من أنماط معيشة وأخلاق وعلوم وتقنية وعقائد ونظم وآداب وفنون وأديان وفلسفات . وهكذا يجد الإنسان نفسه بالفكر عبر الزمان والمكان .

ومن غير الممكن أن نتصور الفكر دون حريته لأن أعظم ما فى الفكر حريته . إنها شرط إبداعه وإنتاجه ، ولأنها تساعده على التحرر من قوانين الطبيعة ، هذا التحرر صانع الحضارة البشرية وإبداع الإنسان الخالد .

وبعد . ففى هذا العالم المتلاطم بالأفكار والعقائد . بل والوساوس والهواجس أيضاً وبالحرب والخوف من الحرب ، يتملك إنسان العصر الحاضر الضياع والتمزق ، بعد أن أصبحت الحضارة مهددة بالدمار ، وليس الفن التجريدى وأدب اللامعقول والقمصان السوداء الشيبية الشائحة إلا ظاهرة معبرة عن هذا القلق النفسانى الذى يخامر ذهن الإنسان فيجعله يتساءل عن مصيره ومصير الحضارة التى أبدعها وشادها على مر الزمان بالجهد المتواصل والعمل الدائب الحثيث . ومن عجب أن الإنسان صانع الحضارة ، يقف موقفاً متناقضاً . فهو يخطى على الحضارة فى الوقت نفسه يهددها بالخطر والفناء والقضاء عليها وعلى نفسه أيضاً ، إذا ماركب متن الطيش واستسلم لغرائزه الحيوانية . وأفلت زمام القيادة من يده .

ترى هل يبقى الإنسان أنيساً أم يعود وحشاً إلى حياة الغاب ؟ !

غانة فى العصور الوسطى

دكتور ابراهيم على طرخان

أقدم إمبراطورية قامت فى السودان الغربى — تفسير إسمها — عناصر سكانها : السوننك — حكومة البيض الأولى — حكومة السوننك — العاصمة غانة أو كومبى صالح — ما أسفرت عنه عمليات الحفر — ظهور الإسلام وقدم انتشاره فى غربى أفريقيا — قدم الإسلام فى غانة — نمو المدينة الإسلامية أو القسم الإسلامى فى عاصمة غانة — الحنيهيون — أهمية المسلمين فى غانة — إسلام بعض ملوك السوننك — دور المرابطين — قيام حكومة غانة الإسلامية وارتباطها بالخلافة العباسية — أحوالها العامة : نظم الحكم وتقاليده — الحياة الاقتصادية : صادرات غانة ووارداتها — تجارة الملح — نقاره وتجارة الذهب — التجارة الصامتة — تجارة الرقيق — البناء الاجتماعى فى إمبراطورية غانة — ترف الملوك — التتريب والتصفيق فى التحية الملكية — بعض العادات الوثنية — الحياة الروحية والثقافية — العلاقات الخارجية — نهاية غانة (١٢٠٣ م) — الجمهوريات الحديثة التى قامت فى أراضى غانة — لم استعارت جمهورية غانة الحديثة اسم الأمبراطورية التاريخية العريق ؟

* * *

تعتبر إمبراطورية غانا التاريخية أقدم الإمبراطوريات الأفريقية القومية التى قامت بالسودان الغربى ؛ وقد بلغت هذه الإمبراطورية ذروة مجدها خلال القرن الحادى عشر الميلادى[(١)] .

ونظراً لندرة الوثائق الخاصة بغـانة ، فان المعلومات المتداولة عن فجر تاريخهـا ليست من الدقة بحيث يمكن الاعتماد عليها ، وتبدأ المعلومات والمعارف المتعلقة بتاريخ غانة تتضح منذ القرن الثامن الميلادى فصاعداً . يقول الفع محمود كعت ، عن ملوك غانة الأوائل :

« وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا يتأتى لمؤرخ فى هذا اليوم أن يتأتى بصحة شىء من أمورهم يقطع بها ، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه »[(٢)] .

اشتهرت إمبراطورية غانا بهذا الاسم بالنسبة إلى عاصمتها مدينة غانة Ghana أو Ghanate (٣)، ويقول جويى Gouilly عن مدينة ولاتا Oualata — وهى الواردة فى رحلة ابن بطوطة باسم « أيوالاتن » — أنها ليست سوى تحريف لكلمة « غاناتا » ، كما ينطقها السود ، (٤) وذلك نقلا عما ذكره ما رمول Marmol فى القرن السابع عشر(٥). والمعروف أن مدينة ولاتا ، أنشأها أو عمرها المسلمون الجافلون من أهل غانة ، على أثر هجوم الصوصو عليهم (١٢٠٣) .

والراجح أن كلمة غانة ، كانت أصلا ، لقباً ، يلقب به ملوك هذه الإمبراطورية(٦) والملاحظ أن هذه التسمية ليست لها أصول عربية (٧). يقول البكرى : « وغانة سمة لملوكهم واسم البلد أوكار » .(٨) ويقول ياقوت : « غانة كلمة أعجمية لا أعرف لها مشاركا من العربية ، وهى مدينة كبيرة فى جنوبى بلاد المغرب ، متصلة ببلاد السودان »(٩) وعن القلقشندى : أن بلاد غانة تقع « غربى صوصو ، وتجاور البحر المحيط الغربى ، وقاعدته — أى قاعدة هذا الإقليم — مدينة غانة ، وهى محل سلطان بلاد غانة »(١٠) وعند المقريزى : ومدينة غانة محل سلطان بلاد غانة (١١) .

وللمؤرخ الغينى جبريل نيان Djibril Nian ، تفسير ، يلتقى مع الدلالات السابقة لعاصمة « غانا » ، قال جبريل فى كتابه عن غانا ، تعنى كلمة غانة ، بلغة السوننك « القيادة العسكرية » ، ثم صارت تعنى العاصمة ، مركز القيادة ، ثم اتسع المدلول حتى صار يطلق على الإمبراطورية(١٢) .

* * *

أما عن أصول سكان إمبراطورية غانا التاريخية ، فهناك أساطير مختلفة حول هذه الأصول ، من ذلك ما وضح فى بعض وثائق قبائل الهوسا ، أن أهل غانة القدماء ، كانوا يسمون أنفسهم التورد أو التوروث Taurud or Towrooth وأنهم جاءوا أصلا من وادى دجلة والفرات ، أى أن لهم أصولا أشورية وبابلية قديمة ، ومعنى هذا انتماؤهم إلى العنصر الذى يرجع أصل موطنه إلى منطقة جبال طوروس ، ووصل ذروة مجده فى التاريخ فى وادى دجلة والفرات(١٣) .

والنسبة إلى الأصول الشرقية أمر مألوف عند كثير من شعوب السودان الأوسط والغربى ، وهى الشعوب التى اشتهرت فى التاريخ وكونت لها إمبراطوريات واسعة ،

مثل مالى ، وارثة غانة ، وصنغى وارثة مالى ، وكذلك عند أباطرة برنو وغيرهم (١٤) .

والمحقق أن أهم القبائل التى تكون أغلب سكان إمبراطورية غانة فى العصور الوسطى ، هى قبائل السوننك Soninke وهى من فروع « الماند » الأساسية ، أى من مجموعة الشعوب أو القبائل المتكلمة بلغة « الماند » (١٥) . وتنفرد مجموعة السوننك : عن بقية فروع الماند الأخرى ، بصفات جثمانية خاصة ، وتقاليد اجتماعية معينة .

كان السوننك يقيمون فى الصحراء ، ثم تركزوا بعد ذلك على حافتها الجنوبية ، فيما اشتهر باسم « الساحل » حيث امتزجوا بالبربر والفولانيين ، وهم زراع مرتبطون بالأرض ، غير أن هذا لم يحل دون عملهم فى التجارة ، ولعل اختلاط السوننك بغيرهم من العناصر ولا سيما البربر ، هو الذى غير بعض الشىء فى ألوانهم حتى أن الولوف يطلقون على السوننك المقيمين فى حوض السنغال اسم : سيركول أو سرا كول Sarakole أو Sere-Kule أو Ser-Koulé وتعنى هذه التسمية عند الولوف : الرجال الحمر أو الناس الحمر Red Men مما يدل على أنهم لم يكونوا صريحين فى الصفات الزنجية النقية .

تضم مجموعة السوننك فروعا مختلفة : اشتهرت بأسماء متنوعة ، تبعاً للأماكن التى قامت بها ، أو تبعاً لأسماء العشائر التى برزت من بينها ، أو بحسب تسمية جيرانهم لهم . فقبائل البامبارا ، وهى فرع من الماندنجو ، تطلق على السوننك المقيمين فى منطقة منحنى النيجر ، اسم ماركا Marka أو ماركنك Mark-nke ويعرف السوننك المقيمون فى ديا Dya ، غربى ماسنة ، باسم دياكانك Dyakanke نسبة إلى محل إقامتهم ، ويبدو أن منطقة ديا كانت مركز تجمع للسوننك ، ومنه تفرقوا فى شتى الجهات بالسودان الغربى ، بل إن هذه التسمية ، دياكانك ، أطلقت على المستعمرات التى استقروا فيها فى أعالى نهر غمبيا وفى فوتاجالون .

وكذلك يعرف السوننك عند المغاربة باسم « أسوانك » Aswanik ، واشتهرت هذه التسمية على فريق من السوننك يقيم جنوبى نهر النيجر ، ونسب المقيمون منهم فى مدينة طوبى Tuba إليها ، وهذه تسمية عربية إسلامية ، انتقلت إلى غربى أفريقية ولذلك فهم يعرفون باسم الطوباكى Tubaki . وفى مدينة جنى ، اشتهر السوننك باسم « نونو » نسبة إلى اسم أول عشيرة سوننكية هاجرت إلى

جى . أما المجموعات القليلة التى بقيت فى الصحراء ، فاشتهرت باسم «الأزير» Azer

هذا ، وقد استعمل الفولانيون والهوسا والصنغى ، تسميات أخرى ، أطلقتها على السوننك وهى : أنجرا أوونقاره(١٦) أو وعكرى (١٧) Wangara-Wangarabe Ungara-Wankere-Wakore وكانت هذه المجموعة قد هاجرت فيما بعد إلى بلاد الهوسا ، وتدعى أنها من أصل فارسى ، واشتهرت المنطقة التى أقامت فيها بهذه التسمية « ونقاره » ، والمعروف أن هذا المصطلح يطلق كذلك على الماندنجو ، كما عرفت به منطقة مناجم الذهب .

أما مجموعة الدياوارا Dyawara التى استقرت فى منطقة كنجى Kingi ، وهى أصلا من منطقة ديا Dya ، فبالرغم من لغتها السوننكية ، إلا أنها تختلف من الناحية التاريخية ، عن بقية المجموعات السوننكية ، كما أن مستعمرات هذه المجموعة المتفرقة فى جيديمابا Gidimaba وكيز Kayes وبافولاب Bafulabe وغيرها ، تتكلم بلغة القبائل التى أقامت بينها واختلطت بها .

ومن أشهر أقسام السوننك الرئيسية ، كما يقول بنجر Binger تسعة ، هى :

١ — السسيون Sissé

٢ — آل بكر Bakaré

٣ — السليون Sillé

٤ — الديابى Diabi

٥ — الساخو Sakho

٦ — الكابا Kaba

٧ — الدوكورى Doukouré

٨ — النياخاتى Niakhate

٩ — الدياورا Diaoura وهؤلاء الآخرون ، ينقسمون بدورهم إلى فرعين هما : الساجوى Sagoué والدابو Dabo .

والراجح أن هذه الأقسام : عبارة عن العشائر الكبرى أو الأسرة الكبيرة التى اشتهرت بين السوننك ، بدليل أن الحكومة السوننكية الوطنية ، كان ملوكها من آل سيسى(١٨) .

وهناك أقسام أخرى ثانوية أو فرعية ، منها : الجاساما Gassama والتابورى Tabouré والدياخابا Diakhaba والفسورو Fissourou والفاديجا Fadiga والدافى Dafé والبيريق Béréte(١٩) الخ .

* * *

وأول حكومة قامت فى غانة ، حكومة من البيض ، يقال إنها ترجع إلى حوالى القرن الأول الميلادى ، ثم صارت ذات بأس وسطوة خلال القرن الرابع الميلادى ، والمتواتر فى بعض المصادر أن جماعة من المهاجرين البيض الساميين ، جاءت من الشرق ، أو من شمالى أفريقيا ، ومن برقة بصفة خاصة ، واستقرت هذه الجماعة فى منطقة أوكار Awkar أو Aoukar(٢٠) وسط مجموعة من الزنوج تتكلم لغة الماندى ، وأغلب هذه المجموعة من السوننك . كان نزوح هذه الجماعة أقرب إلى الهجرة السلمية منها إلى الغزو المسلح ، واختلطت هذه الجماعة بالوطنيين من السوننك ، حتى تغير لونها بطول الزمن ، وأخذت لغة الوطنيين(٢١) .

وفى وقت ما خلال القرن الرابع الميلادى ، استطاع هؤلاء البيض أن يبسطوا نفوذهم على الوطنيين الذين عاشوا بينهم ، وظهر بين البيض زعيم قوى اسمه « كارا » استطاع أن يؤسس دولة نواتها منطقتا كارا Kara وحوض Hodh ويطلق المغاربة اسم أوكار ليشمل حوض كذلك وظلت سلالته تحكم هذه الدولة حتى قرب نهاية القرن الثامن الميلادى .

يقول دلافوس Delafosse وسبيتز Spitz أن هؤلاء البيض من اليهود السوريين الذين كانوا يقيمون فى برقة ، وأنهم هم الذين أسسوا حكومة غانة الأولى(٢٣) وعن المسعودى أن حكام غانة الأول جاءوا إليها من الحبشة ، وهم من جنس به دماء عربية(٢٤) .

والمحقق أن حكام غانة الأول من البيض ، يقول السعدى : « وهم بيضان

فى الأصل» (٢٥) غير أن الشك حول أصولهم الغامضة ، هل هم من اليهود أم من البربر ؛ ويقول السعدى : « ولا نعلم أصلهم » ، والراجح أنهم من البربر ، الذين اختلطوا بالزنوج . وصلة قبائل البربر ببلاد السودان قديمة ، ثم أن أهل غانة أنفسهم يقولون ، إن أسرة بربرية كان تحكم فى بلادهم منذ زمن بعيد ؛ ويقول بومان Baumann بأن مؤسس حكومة غانة الأول هم : البيض الأفريقيون من البول أو من البربر الليبيين (٢٦) ، ويقول محمود كعت : « واختلف أى قبيلة هم كانوا منها ، قيل من وعكرى (٢٧) ، وقيل من ونكر (٢٨) ، وهو ضعيف لا يصح ، وقيل من الصنهاجة ، وهو أقرب عندى ، لأنهم يقولون فى نسبهم أسكع . وهو حم فى اصطلاح سودان لقباً ، والأصح أنهم ليسوا من السودانيين والله أعلم ، وقد بعد زمانهم(٢٩) . . » والخلاصة أن حكومة غانة الأولى من البيض ، وأنهامن البربر ولها أصول شرقية .

والمتواتر عن عدد ملوك هذه الأسرة التى حكمت غانة : أنه بلغ نحو ٤٤ ملكا ، يقول السعدى . « وأول سلطان فى تلك الجهة هو قيمع ، ودار إمارته غانة ، وهى مدينة عظيمة فى أرض باغن (٣٠) ، قيل إن سلطتهم كانت قبل البعثة ، وتملك ٢٢ ملكا ، وبعد البعثة ملكها (٢٢) ملكا ، وهم بيضان فى الأصل ، ولا نعلم أصلهم ، وخدامهم عكريون »(٣١).

على أن هذا الرقم ليس دقيقاً بدليل أن صاحب الفتاش ، ذكر ، أن من حكم من هؤلاء الملوك قبل البعثة النبوية ، بلغ عددهم نحو ٢٠ ملكا (٣٢) . وقد أوضح صاحب الفتاش كذلك أن كيمع ، كما ضبطه بفتح الكاف والياء والميم والغين ليس اسماً ، وإنما هو لقب . يقول : « وكيمع فى لغة وعكرى ملك الذهب » (٣٣).

وأورد صاحب الفتاش اسم ملك ، كان يعاصر الرسول (صلعم) أى فى القرن الأول الهجرى والسابع الميلادى ، وهو كنسمى ، كما ضبطه . قال : «وحدثنى بعض السلف أن آخرهم كنسمى . . وهو الملك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣٤) .

الخلاصة : لم يعرف ، حتى الآن ، فيما أعلم ، من ملوك الحكومة الأولى ، التى

قامت فى غانة سوى ثلاثة أسماء أو اسمين ولقب ، هى : كيمغ أو كيمع وكارا وكنسعى (بفتح الـكا وكسر النون وفتح السين والعين وسكون الياء) .

١ — (كيمع) كان يحكم فى وقت ما قبل القرن الرابع الميلادى .

٢ — كارا حكم خلال القرن الرابع الميلادى .

٣ — كنسعى كان يحكم خلال القرن السابع الميلادى .

وقد ظل ملوك هذه الحـكومة يحكمون إمبراطورية غانة حتى قرب نهاية القرن الثامن الميلادى(٣٥) .

اتسع نفوذ هذه الحـكومة ، حتى صار يشمل المساحات الممتدة بين أعالى نهر السنغال وأعالى نهر النيجر ، وذكر سبيتز Spitz أن إمبراطورية غانة زمن هذه الحـكومة كانت زراعية إقطاعية (٣٦) ، غير أن هذا لم يحل دون اشتغالها بالتجارة واستخراج الذهب ، إذ أن عظمة غانة التاريخية قامت على ثروتها من الذهب والتبادل التجارى وأن ملوكها قد بلغوا من القوة والثراء ، بحيث صاروا يلقبون بملوك الذهب ، كما صارت بلادهم تعرف بأرض الذهب(٣٧) .

ولقد أفاض صاحب الفتاش فى وصف قوة غانة وسعة نفوذها وعظمة ملوكها وأورد أخباراً عن الملك كنسعى ، المعاصر للرسول (صلعم) ، هى أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة ، إلا أنها تصور ، على أية حال ، عظمة ملوك هذه الدولة ، ومدى ما كانوا عليه من ثراء وقوة ، فهو يقول ، مثلا :

« إن له ألف خيل مربوطين فى داره ، عادة معروفة ، إن مات واحد منهم فى صبح جىء بآخر مكانه قبل المساء وفى الليل كذلك ، ولا ينام واحد منهم – أى من الخيل – إلا على زربية ، ولا يربط إلا بحرير فى عنقه وفى رجله ، ولكل منهم آنية من النحاس يبول فيها ؛ لا يقطر من بوله على الأرض قطرة ، إلا فى الإناء ، لا فى ليل ولا فى نهار ؛ ولا ترى زبلا واحداً تحت واحد منهم ولكل واحد منهم من الخدم ثلاثة أنفس ، يجلسون تحته ، واحد منهم يقوم بعلفه ، وواحد منهم يسقيه ، وواحد منهم موكل على رصد بوله وحمل زبله »(٣٨) .

وحوالى نهاية القرن الثامن الميلادى ، قامت أسرة من السوننك ، وهى أسرة سيسى Sissés أو Sosse ، ونجحت فى طرد أسرة البيض الحاكمة ، أو دولة كيمع ، وكانت هذه الأسرة الجديدة تتحكم فى منطقة وجادو Wagadou (٣٩) .

ويحتمل أن أول ملوك الحكومة السوننكية لم يكن من آل سيسى الذين اشتهر أمرهم ، وإنما كان من آل وكورى ، وإن آل سيسى أزالوا حكم هذه الأسرة السوننكية المنافسة وحلوا مكانها ، فقد ورد أن الملك بنتجوى Bentigui Doukouré كان يحكم حوالى عام ٧٩٠ م .

وصور صاحب الفتاش نهاية الحكومة الأولى بقوله :

« ثم أفنى الله ملكهم ، وسلط أراذلهم على كبرائهم من قومهم واستئصالهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم ، حتى يبقروا بطون نسائهم ويخرجوا الجنين ويقتلونهم » (٤٠) .

ظلت الأسرة السوننكية الجديدة تحكم إمبراطورية غانة حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى باستثناء الفترة التى استولى خلالها المرابطون على عاصمة غانة من عام ١٠٨٦ — ١٠٨٧ م (٤١) وفى عهد هذه الأسرة بلغت إمبراطورية غانة ذروة مجدها وعظمتها واتساعها . كما اشتهرت بثرائها وقوتها . أما أعضاء الأسرة الهاربة . فقد اتجهوا مع أنصارهم إلى بلاد تكرور . حيث اختلطوا بالتكاررة . ويقال إن هؤلاء البيض الهاربين لم يعودوا بيضاً . كما كانوا فى الأصل . إذ تغيرت ألوانهم حتى صاروا أشبه بالزنوج . نجحوا فى التحكم السياسى فى منطقة تكرو . وظلوا أصحاب النفوذ حتى القرن الحادى عشر . عند ما هب التكاررة . وطردوا هؤلاء المغتصبين . ويقول بعض الكتاب إن هؤلاء البيض هم الذين اشتهروا فيما بعد باسم الفولانيين (٤٢) .

وليس من المعروف من ملوك الحكومة السوننكية سوى خمسة أسماء هى : بنتجوى وتكلان وبلوتان وبسى ومن بعده تكامنين Tenkamenin وهو ابن أخت بسى . وكان تكامنين يعاصر البكرى (١٠٩٤ م) وولى هذا الملك عرش غانة حوالى عام ٤٥٥ هـ/١٠٦٣ م أى قبيل فتح المرابطين لغانة بقليل (٤٣) .

١ — بنتجوى دوكورى كان يحكم حوالى عام ٧٩٠ م .

٢ — تكلان Tiklan . كان يحكم حوالى مطلع القرن التاسع الميلادى .

٣ — تلوتان أوبولاتان Tloutan or Boulatan وهو ابن السابق كان يحكم حوالى عام ٨٣٧ م .

٤ — بسى Becl توفى حوالى عام ١٠٦٣ م .

٥ — تنكامنين وهو ابن أخت السابق ، ولى عرش غانة حوالى عام ١٠٦٣ م .

* * *

والظاهر أن لقب « كيمع » أى ملك الذهب ، ظل يطلق على جميع ملوك غانة ، سواء أكانوا من الحكام البيض الأول ، أو من حكام السوننك السود ، الذين حكموا منذ نهاية القرن الثانى الميلادى ، بدليل ما ذكره صاحب الفتاش ، من أن سلطنة مالى لم يستقم أمرها إلا بعد انقراض دولة كيمع ، والواضح تاريخياً أن زوال إمبراطورية غانة كان فى مطلع القرن الثالث عشر على يد الصوصو .

ولعل شمول هذا اللقب لجميع ملوك غانة ، هو الذى جعل بعض كتاب الغرب يخلطون ، أمثال ج. يفر G. Yver ودى بدرال De Pedrals ، فجعلوا كيمع أول ملوك حكومة السوننك الزنوج من آل سيسى ، وهى التى ورثت السلطة فى غانة بعد حكومة البعيض الأولى ، مع أن الفع محمود كعت يقول إن « كيمع من الملوك الأوائل وقد قضى منهم عشرون ملكاً قبل ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٤٤). ويقول السعدى : «وأول سلطان فى تلك الجهة هو كيمع ودار إماراته غانة»(٤٥) .

والخلاصة أن لقب ملك الذهب أو قيمع ، أطلق على جميع حكام غانة ، أرض الذهب منذ عهد الحكومة الأولى حتى اختفاء غانة من التاريخ فى القرن الثالث عشر الميلادى .

كان حكام غانة الجدد أقوى من أسلافهم البيض(٤٦) إذ عملوا على توسيع حدود ملكهم ، ففى عهد هذه الأسرة ، استولت غانة على أودغست(٤٧) ، وهى عاصمة إمبراطورية إسلامية سادتها من البربر من قبيلة لمتونة ، وقد تم فتح أودغست حوالى عام ٩٩٠ م ، ووضع حكام غانة عليها حاكماً سوننكياً أسوداً ، وربما اتخذها ملك غانة محل إقامة له فى بعض الأوقات ؛ ومنذ ذلك التاريخ ، أصبحت أودغست خاضعة

لغانة وتدفع لها الجزية ، حتى منتصف القرن الحادى عشر تقريباً ؛ وكان خضوعها لسادة غانة ، من بين الأسباب التى دفعت المرابطين فيما بعد إلى مداهمتها وعقابها جزاء هذا الخضوع (٤٨) .

ومن البلاد الهامة التى خضعت لإمبراطورية غانة ، مدينة ولاته وأنباره وكوغه والوكن وسامة ؛ ويصف البكرى أهل سامة ، بقوله : « إنهم يسمون بالبكم ، ولهم حذق بالرماية يرمون بالسهام المسمومة ، ويورثون الإبن الأكبر مال الأب كله » (٤٩) .

بلغت إمبراطورية غانة ذروة قوتها واتساعها خلال الفترة من القرن العاشر الميلادى إلى قرب أواخر القرن الحادى عشر ، وشملت من الأقاليم الهامة ، بجانب أوكار وهوذ ، باسيكورو Bassikuru ووجادو فى الشرق وديارا Diara فى الغرب وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو ، فى الجنوب الشرقى (٥٠) والواقع أن مدى اتساع إمبراطورية غانة ، ليس معروفاً بالضبط ، ولكن المحقق أن نفوذها كان واسعاً ، بحيث أنها كانت صاحبة السيادة والنفوذ فى جميع المساحات الواقعة بين النيجر والمحيط الأطلسى ، وصارت أعظم قوة سياسية فى السودان الغربى ، ويمكن القول بصفة عامة ، أنها امتدت من ناحية الشمال ، وخضع لها أغلب قبائل الصحراء الجنوبية ، وربما وصلت غزواتها إلى منطقة أدرار وامتدت من ناحية الغرب إلى أعالى السنغال وفرعه باول Bawle وحدود مملكة التكاررة ، ومن الشرق إلى قرب تمبكتو ، وجنوباً بغرب إلى أعالى النيجر وأعالى السنغال ومنطقة الذهب فى ونقارة ، لكنها لم تتحكم فى ونقـارة نفسها ؛ وهناك احتمال بأنها امتدت فى بعض الأحيان إلى المشارف الشمالية لجمهورية غانة الحديثة ، وهى التى كانت معروفة من قبل باسم مستعمرة ساحل الذهب وإلى أطراف منطقة الغابات الاستوائية ، بحيث اقتربت من مواطن الوثنيين المعروفين فى الكتب العربية باسم « الكفار اللملمية » lem lem كما يقول الإدريسى (٥١) وعن المسعودى : « وتحت يد ملك غانة عدة ملوك وممالك » (٥٢) .

وحسبنا ما يقوله الفع محمود كعت عن قوة ونفوذ إمبراطورية غانة وسعة أملاكها ، فقد ذكر أن إمبراطورية مالى — وارثة غانة — لم يستقم أمرها « إلا

بعد انقراض دولة كيمع سلطان المغرب كله بلا استثناء مكان ما منه ، وسلطان مل من عبيده وخدمه ووزرائه »[٥٣] .

* * *

أما عاصمة هذه الإمبراطورية فقد ازدهرت زمن حكومة السوننك الوطنية إلا أن تأسيسها يرجع إلى عهد حكومة البيض الأولى ، ويقال إنها بنيت حوالى عام ٣٠٠ م[٥٤] ، وظلت تنمو بالتدريج ، ونظراً لقدم الإسلام فى بلاد غانة[٥٥] فان حياً إسلامياً قام بعاصمة غانة حتى صار مدينة كبرى قائمة بذاتها ، وحسبنا الأوصاف الدقيقة التى أوردها الكتاب العرب المسلمون عن هذه المدينة وأقسامها ..

يقول البكرى :

«ومدينة غانةمدينتان سهليتان ، إحداها المدينة التى يسكنها المسلمون ، ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة[٥٦] والمساكن بينهما متصلة ، ومبانيهم من الحجارة وخشب السنط ، وللملك قصر وقباب ، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور . وحول مدينة الملك قباب وغابات . . يسكن فيها سحرتهم ، وهم الذين يقيمون دينهم ، وفيها دكاكيرهم — الدكور هو الصنم — وقبور ملوكهم . ولتلك الغابات حرس ، ولا يمكن أحد دخولها ولا معرفة ما فيها ، وهنالك سجون الملك ، فاذا سجن فيها أحد انقطع عن الناس خبرة»[٥٧] .

وتشبه هذه الغابة ما عرف عند الجرمان الأولين باسم الغابة المقدسة[٥٨] وعن الإدريسى : « غانة مدينتان على ضفتى البحر الحلو ، وهى أكبر بلاد السودان قطراً ، وأكثرها خلقاً وأوسعها متجراً »[٥٩] ، ويقول فى موضع آخر : « ولهم — أى سكان العاصمة — زوارق يتصيدون فيها ويتصرفون بين المدينتين بها»[٦٠] .

وعن ابن الوردى :

« هى مدينتان على ضفتى النيل ، ويقصدها التجار من سائر البلاد »[٦١] ويقول القلقشندى « إنهما مدينتان على ضفتى نيلها، إحداهما يسكنه المسلمون ، والثانية يسكنها الكفار »[٦٢] . وعن المقريزى « وغانة مدينتان : إحداهما يسكنه المسلمون والأخرى الكفار »[٦٣] .

* * *

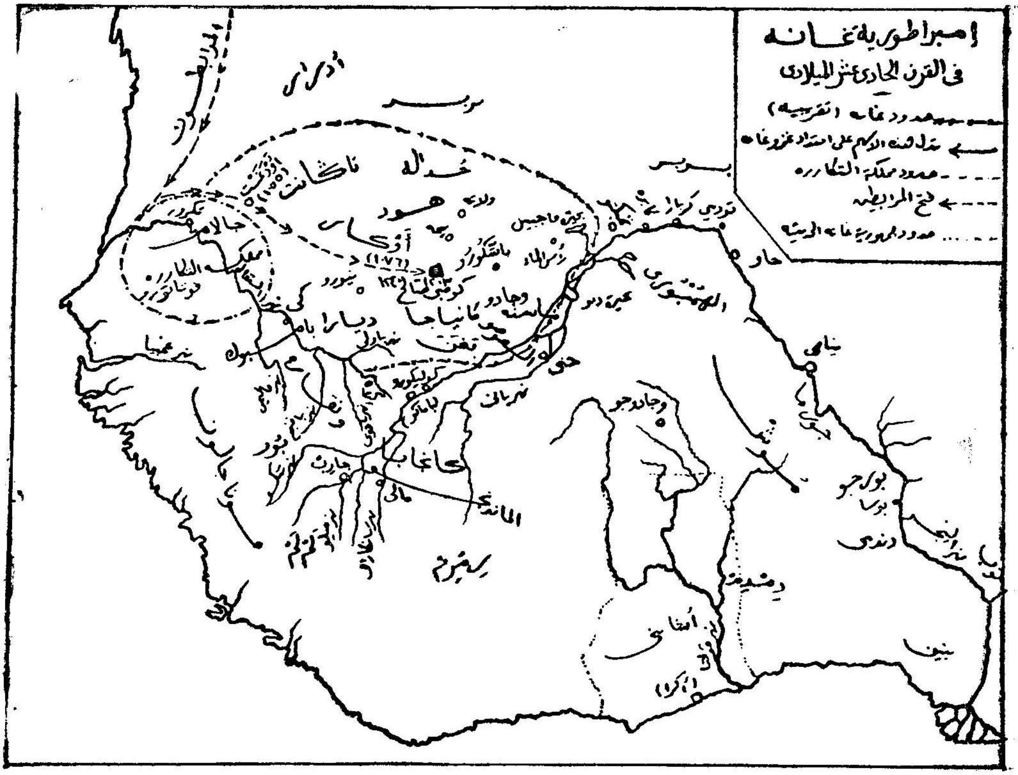

وموقع مدينة غانة القديمة ، موضع نقاش وجدل ، ولـكن أطلالها ، تقع اليوم بالقرب من الحدود الجنوبية لجمهورية موريتانيا الحديثة ، وتقع ضمن أراضى جمهورية مالى الحديثة . لقد أخطأ ليو الافريقى حين قال ، إن غانة هى نفس مدينة « كانو » الواقعة فى شمالى بلاد الهوساء بنحو ٢٠٠ ميل(٦٤) وظل هذا الخطأ شائعاً عند الأوربيين حتى ظهر كتاب كولى Cooley عام ١٨٤١ ، وأوضح بدقة موضع غانة فى مكان ما جهة الغرب(٦٥) وهى على طريق القوافل الغربى القادم من مرا كش ، والمـكان الصحيح يبعد عن تمبكتو بمسيرة بضعة أيام إلى الجنوب الغربى من تمبكتو وعلى بعد نحو ألف ميل شمالى جمهورية غانة الحديثة ، ونحو ٢٠٠ ميل شمالى باماكو عاصمة جمهورية مالى الحديثة(٦٦) .

قامت حفائر للبحث عن آثار هذه المدينة ، التى كانت خلال القرن العاشر

والحادى عشر الميلاديين أعظم مدن السودان الغربى كما كانت سوقاً عظيمة بين بلاد البيض وبلاد السودان ، فضلا عن أنها ملتقى طرق القوافل »(٦٧) .

بدأت هذه الحفائر عام ١٩٠٧ م على يد العـالم الأثرى الفرنسى دبلاج فعثر على أطلال مدينة تدل على أنها كانت مزدهرة ، وقال : إن هذه هى أطلال غانة ، وأنها كانت تقع على جانبى بحيرة صغيرة ، وحدد مكانها على بعد نحو مائتى ميل غربى مدينة جنى ونحـو ٤٠ ميلا شمال شرقى مدينـة كوليـكورو ، الواقعة شمالى باماكو(٦٨) .

وفى عام ١٩١٤ قام حاكم فرنسى لإحدى المقاطعات وإسمه بونل ميزيير وحفر فى موقع فى المنطقة المشهورة باسم « الساحل » جنوبى الصحراء الـكبرى ، واقتنع بأن هذا الموقع يحتمل أن يكون مكان عاصمة غانة ، التى وصفها البكرى . استمر الحفر فى هذا الموقع المعروف باسم « كومبى صالح » وحدد بعده عن باماكو بنحو ٢٠٥ ميلا(٦٩) وقد ساهم المعهد الفرنسى لأفريقيا السوداء بداكار IFAN فى هذه الحفريات(٧٠) .

تجدد الحفر عام ١٩٣٩ ، ولم يقف إلا عندما اندلعت نيران الحرب العـالمية الثانية ، وبعد عشر سنوات ، قام توماس وموني MAUNY (١٩٤٩ — ١٩٥٠) باتمام العمل ، وفحصا ما عثرا عليـه من آثار ، على ضوء المعلومات التى تجمعت لديهما(٧١) .

أوضح هذان الباحثان ، فى عام ١٩٥١ ، أن الآثار التى عثرا عليها ، ليست سوى بقايا المدينة الإسلامية أو القسم الإسلامى من مدينة غانة ، ودلت هذه الآثار على أن هذه المدينة كانت زاهرة ، وتشغل نحو ميل مربع من الأرض ، وسكنها ما لا يقل عن ٣٠ ألف نسمة ، وهو عدد ضخم بالنسبة لسكان مدن العالم المعروفة يومئذ(٧٢) .

والراجح أن هذه المدينة الإسلامية كانت مركز الحكومة الإسلامية التى قامت فى غانة فى عهدها الأخير ، أى عندما صار ملوك غانة على الإسلام(٧٣) وتشبه هذه المدينة الصنهاجية حالياً والمعروفة باسم سالونجارى الواقعة قرب مدينة كانو(٧٤) .

كشفت الحفريات عن عدد من المنازل والمساجد ، ومن بين ما كشفه توماس ، مؤسستان أو مبنيان كبيران ، يحتمل أن أحدهما كان يبلغ فى الطول نحو ٦٦ قدماً وأن عرضه أو اتساعه بلغ نحو ٤٢ قدماً ، وبه سبع غرف مفتوحة داخل بعضها البعض ، وأن هذا المبنى كان يتكون من طابقين بينهما سلم . أما المبنى الآخر فهو أكبر من الأول ، وكان يضم تسع غرف ، ولا تزال على جدرانه الداخلية بقايا الطلاء الأصفر(٧٥) .

ولم يعثر على شىء من الذهب أو الفضة ، ولكن عثر على مخزن كبير به أدوات مصنوعة من الحديد ، وقد علق مونى على هذه المكتشفات بأنها دليل ناصع على حضارة متقدمة ، مما يدعم مقالة الزهرى عن شدة بأس أهل غانة لأنهم استخدموا الأسلحة الحديدية ، وكان ذلك سبب انتصارهم على الجيران الذين كانوا يحاربون بقضبان من الأبنوس(٧٦) .

ومما عثر عليه فى أطلال كومبى صالح ، حراب وسكاكين ورؤوس سهام ومسامير ، ومجموعة مختلفة من الآلات والأدوات الزراعية ، وتعلق مارجريت شينى بأن هذه لا بد وأنها صنعت محلياً(٧٧) كذلك عثر على مقص حديدى دقيق الصنع ، ربما كان من أقدم ما عثر عليه من هذا النوع فى أية دولة (٧٨) ووجدا فضلا عن ذلك كمية كبيرة من الصنج الزجاجية ، من الواضح أنها كانت تستخدم فى وزن الذهب وهناك بقايا كثيرة من الأوانى الفخارية ، تحمل طابع البحر المتوسط و٧٧ قطعة من الحجر الملون ، منها ٥٣ قطعة أو لوحاً مكتوب عليها بعض آيات القرآن الكريم بالخط العربى ، بينما تضم الألواح الأخرى وعددها ٢٤ لوحاً زخارف ونقوشاً(٧٩) .

وكشف كذلك عن عدد كبير من المقابر ، من بينهما مقابر ملكية ، ومن بين هذه اللوحات شواهد قبور .

ولم يتم الحفر بعد فى موقع كومبى صالح ، ويمكن القول : إن هذا هو كل ما عثر عليه حتى عام ١٩٦٥ م ، ولم يعثر للآن على شىء من آثار مدينة الغابة الوثنية ، أو القسم الوثنى من مدينة غانة(٨٠) ويبدو أنها اندمجت فى المدينة الإسلامية وعفت

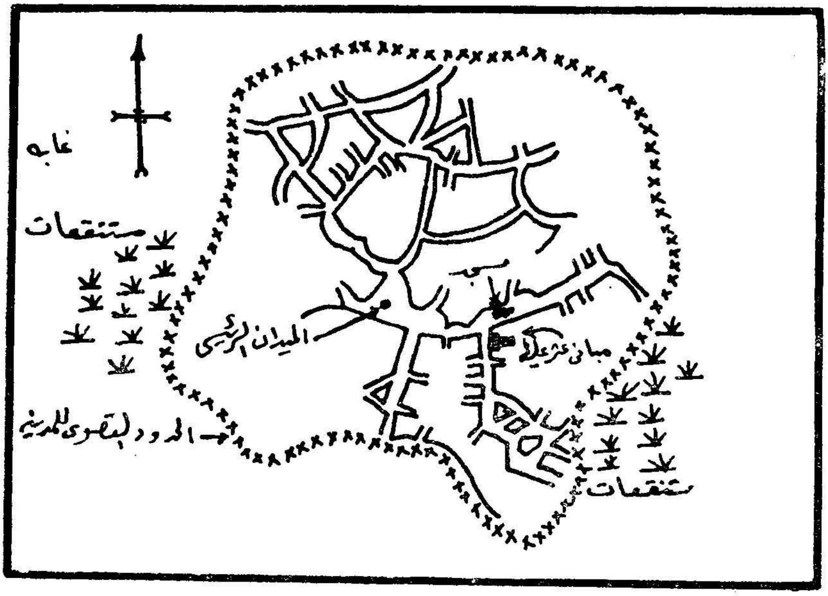

مدينة كومبي صالح عاصمة إمبراطورية غانة
(عن توماسي وموني)

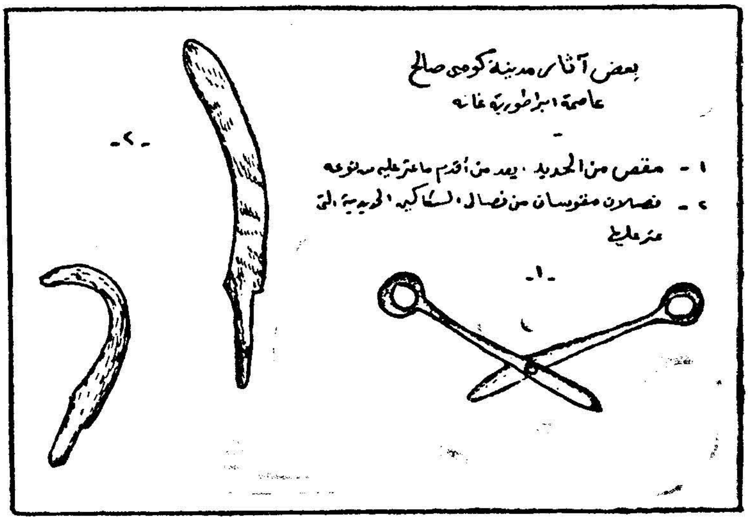

شاهد قبر لسيدة عثر عليه فى أطلال كومبى صالح ، مكتوب باللغة العربية والعبارة المكتوبة :

« اللهم ارحم
فاطمة الطا (هرة)
... بنت سيد
نا محمد ابن
سيد موسى
. . . .
. . . . »

آثارها الوثنية ، عندما تحولت حكومة غانة الإسلامية منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى .

* * *

أما عن الإسلام وانتشاره فى السودان الغربى ، فالمعروف أنه بدأ ينتشر منذ حوالى منتصف القرن السابع الميلادى أى بعد فتح مصر وشمالى أفريقية ، ولم يكن المرابطون الذين قاموا بنشر الدعوة الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، هم الذين أدخلوا الإسلام تلك البلاد لأول مرة ، بل إن حركتهم أدت إلى ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام .

فالصلة التجارية والثقافية قديمة منذ الأزمنة السحيقة ، بين بلاد السودان وبلاد البحر المتوسط ، وقد كثرت هجرات المسلمين بعد ظهور الإسلام ، من العرب والبربر إلى بلاد السودان، وذلك منذ الفتح العربى الإسلامى لمصر وشمالى أفريقية . واحتكر التجار المسلمون عملية الاتصال ببلاد السودان لأسباب دينية وتجارية ، واستقرت أعداد كبيرة منهم فى تلك البلاد .

وهناك جهود إمبراطورية أودغست الإسلامية وتفانى ملوكها فى نشر الإسلام بين الزنوج . بلغت هذه الإمبراطورية ذروة قوتها وعظمتها خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وقامت بدور كبير فى الدعوة إلى الإسلام قبل حركة المرابطين .

والمعروف أن أودغست مدينة سونكية الأصل ، ولو أن حكامها من البربر من قبيلة لمتونة ؛ جهدت هـــذه الإمبراطورية فى نشر الإسلام ، جنباً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمالى أفريقيا ، عبر الطرق الصحراوية ؛ والسلعة الهامة المطلوبة لبلاد السودان هى الملح . يقول ابن حوقل :

« وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام »(٨١) وفى موضع آخر يقول :

« وملك أودغست يخالط ملك غانة »(٨٢) .

ويذكر عن الملك الأودغسق تيبوتان أنه كان شـــديد التحمس لنشر

الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب(٨٣) . وأن الملك تين بروتان ابن ونسو بن نزار ، الأودغستى كان قد بلغ من سعة النفوذ وقوة السلطان ما جعله سيداً على أكثر من عشرين من ملوك السودان ، كلهم يؤدون له الجزية(٨٤) وكان هذا الملك يحكم فى الفترة ما بين ٩٦١ ، ٩٨١ م .

كل تلك جهود وصلات مباشرة بين المسلمين وبلاد السودان ، لها أثرها لا شك فى دخول أعداد كبيرة فى الإسلام قبل القرن الحادى عشر .

وفى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، جاء إسلام ملك التكرور وأرجابى ابن رابيس (ت حوالى ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠م) ، عنصراً هاماً فى ازدياد انتشار الإسلام وهو صاحب الفضل فى إسلام أهل « سلى »(٨٥) من أعمال تكرور ، ويقول البكرى ، أن المسافة بين سلى وبين غانة « عشرون يوماً فى عمارة بلاد السودان »(٨٦) .

وليس من شك فى أن هذه الصلات المتنوعة ، وهذه الجهود البارزة ، قد أدت إلى انتشار الإسلام فى غربى أفريقية ، ولما كانت غانة جزءاً من غربى أفريقية ، فلا ريب أن الإسلام دخلها وانتشر بين بنيها ، بدرجات متفاوتة . لكن لا نستطيع أن نقول إن البلاد كلها . . حكومة وشعباً ، أو حكاماً ومحكومين ، قد اعتنقت الإسلام ، أو أن الإسلام صار الدين الرسمى لإمبراطورية غانة .

والراجح أن أعداداً كبيرة من سكان غانة قد اعتنق الإسلام ، وأن مظاهر هذا الدين من الشعائر والمساجد والثقافة واللغة العربية ، قد وجدت طريقها إلى بلاد غانة فى زمن مبكر ، قبل المرابطين .

وهناك أكثر من دليل على قدم الإسلام فى غانة ؛ فقد ذكر البكرى (ت ١٠٩٤ م) أن بنى أمية أرسلوا جيشاً إسلامياً لفتح بلاد السودان ، فى صدر الإسلام ، واستقرت ذرية هذا الجيش فى غانة وكما يتضح من مضمون عبارة البكرى أن سلالة هذا الجيش أهملت التمسك بالإسلام ، إلا أن وصول هذه الموجة الإسلامية إلى غانا كان اتصالا مباشراً فى وقت مبكر .

وعبارة البكرى :

« وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيين ، من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام ، وهم على دين أهل غانة ، إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولا ينكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه »(٨٧) .

ويقول القلقشندى عن إسلام أهل غانة : « وكان أهلها أسلموا فى أول الفتح »(٨٨) ؛ ثم إن نمو الحى الإسلامى بعاصمة غانة ، أوالمدينة الإسلامية ، ليس من المعقول أن تكون قد ظهرت مرة واحدة أو خلال وقت قصير ، بحيث أصبحت تضم إثنى عشر مسجداً ، وأنها صارت موطناً لعدد كبير من فقهاء المسلمين وعلمائهم .

يقول البكرى :

« ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة الإسلامية التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجداً ، إحداها يجمعون فيه — أى يؤدون فيه صلاة الجمعة — ولها الأئمة والمؤذنون ، وفيها فقهاء وحملة علم ، وحواليها آبار عذبة ، منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات .. »(٨٩) .

ومن الظواهر البارزة فى تاريخ إمبراطورية غانة ، حتى فى عهد الحكومة الوثنية ، أن المسلمين لكثرتهم وأهميتهم وثقافتهم ونشاطهم ، سواء أكانوا من السوننك الوطنيين أو من المستوطنين العرب والبربر ، تمتعوا باحترام واضح من قبل الملوك الوثنيين ، ومجرد نمو القسم الإسلامى فى العاصمة ووجود إثنى عشر مسجداً به ، دليل كبير على هذا الاحترام وهذا التسامح ، وأكثر من هـــذا ، أقام الملك الوثنى مسجداً فى الحى الوثنى من العاصمة وهو « الغابة » لكى يؤدى فيه المسلمون الوافدون عليه ، شعائر دينهم ، يقول البكرى : « وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين ، على مقربة من مجلس الملك »(٩٠) ويصف البكرى الملك الغانى تنكامنين بقوله إنه كان « محمود السيرة محباً للعدل ، مؤثراً للمسلمين »(٩١) .

هذا ، وإسلام رعايا غانة قبل حكومتها ، لم يحل دون تولى المسلمين أسمى المناصب فى الحكومة ، وحسبنا ما ذكره البكرى عن كبار رجال حكومة الملك الوثنية .

« وتراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه »(٩٢) .

لـكن هذا لا يعنى أن جميع ملوك غانة ، كانوا على الوثنية ، بل هناك رواية دو لارونسيير De La Roncière ومؤداها أن الملك تلوتان أو بولاتان وهو ابن تكلان اعتنق الإسلام حوالى عام ٨٣٧ م ، وأنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين(٩٣) .

وإذا صحت هذه الرواية ، فإنها لا تدل على أن ملوك غانة صاروا مسلمين على التعاقب منذ القرن التاسع الميلادى فصاعداً ، بل المحتمل أن قلة منهم أسلمت وأن غالبيتهم ظلت على الوثنية إلى أن جاءت حركة المرابطين(٩٤) .

جاء المرابطون فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد بدأوا حركتهم فى المشارف الشمالية لبلاد السودان ، باخضاع أودغست عام ١٠٥٥ م ، عقاباً لها على خضوعها لحاكم سوننكى ، واتجهوا بعد ذلك إلى مدينة غانة واستولوا عليها عام ١٠٧٦ م ، وعينوا عليها حاكما من البربر(٩٥) .

ومنذ ذلك الوقت ، أى من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، يمكن أن يؤرخ لإمبراطورية غانة الإسلامية ، حتى اختفائها من التاريخ فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، فقد أضحت حكومتها إسلامية ، ويقال إن الملك تنكامنين السوننكى كان يحكم غانة عند فتح المرابطين لها ، وأنه قبل الدخول فى الإسلام ، والخضوع لسلطان المرابطين ودفع جزية ، وأنه باسلام هذا الملك دخل عدد كبير من سكان العاصمة وغيرها من المدن فى الإسلام(٩٦) .

والمحقق ، أن الـكثير من سكان إمبراطورية غانة ، قد اعتنق الإسلام قبل القرن الحادى عشر الميلادى ، وأنه منذ فتح المرابطين لعاصمة غانه ، ازداد عدد الداخلين فى الإسلام كما أسلم ملوكها أو أضحى ملوكها مسلمين ، وأصبحت الحـكومة إسلامية منذ ذلك الوقت(٩٧) .

ومع أن حركة المرابطين أدت إلى إضعاف غانة سياسياً وأن سيادة المرابطين فى غانة أو تبعية غانة للمرابطين ، لم تستمر طويلا ، فسرعان ما تخلصت من هذه السيادة على أثر وفاة أبى بكر أمير المرابطين ١٠٨٧ م ، وتفرق كلمتهم من بعده(٩٨) إلا أن هذه الحركة كانت بعيدة الأثر فى ازدياد انتشار الإسلام وتقوية العقيدة الإسلامية فى السودان الغربى عامة(٩٩) .

واشتهر أهل غانة ، وأغلبهم من السوننك ، بحماستهم للاسلام ، وبالدور الكبير الذى نهضوا به فى الدعوة إلى الإسلام ، إذ كانت هذه العقيدة ذات أثر عميق فى حياتهم الاجتماعية ، حتى إن بعض العشائر السوننكية ، تكاد تختص بالعمل فى الدعوة إلى الإسلام فقط ، بل إن كلمة « سوننك » فى أعالى نهر غمبيا ، استخدمها الماندنكا الوثنيون مرادفاً لكلمة «داعى» ، مما يدل على الدور الكبير الذى لعبه السوننك فى نشر الإسلام(١٠٠) . ووصف الغرناطى إسلام أهل غانة ومدى محافظتهم على أداء فروض الدين ، بقوله :

« وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ، سبط الشعور ، لهم عقول وفهم ، ويحجون إلى مكة »(١٠١) .

ازداد عدد الداخلين فى الإسلام ، واشتهر كثير من المدن الغانية ، غير العاصمة بكثرة من فيها من المسلمين ، من هذه المدن غيارو Ghiarou ، القريبة من نهر النيجر الأعلى ، يقول البكرى عنها . « وفيها كثير من المسلمين »(١٠٢) . كذلك مدينة يرسنى الواقعة غربى غيارو ، يسكنها المسلمون ، « وما حولها مشركون » على قول صاحب المغرب(١٠٣) .

أما حكومة غانة الإسلامية ، فقد عملت على الاتصال المباشر بالخلافة العباسية فى بغداد وأجبرت رعاياها على لبس العمامة(١٠٤) . كما أن ملوك غانة الإسلامية ادعوا أنهم ينتسبون إلى البيت العلوى .

يقول الإدريسى :

« وهلها — أى أهل غانة — مسلمون ، وملكها فيما يوصف ، من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو يخطب لنفسه ، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسى(١٠٥) . وأشار ابن الوردى(١٠٦) إلى إسلام ملك غانة الذى عناه الإدريسى فى مقالته ، ويقول المقريزى : «ومدينة غانة محل سلطان غانة ، ويدعى أنه من نسل الحسن بن على ، عليه السلام »(١٠٧) .

والنسبة إلى البيت العلوى أمر مألوف ومشهور عند كثير من ملوك السودان ، فقد ادعاها ملك مالى وارث غانة(١٠٨) كما أدعى ملوك برنو أنهم من سلالة سيف بن

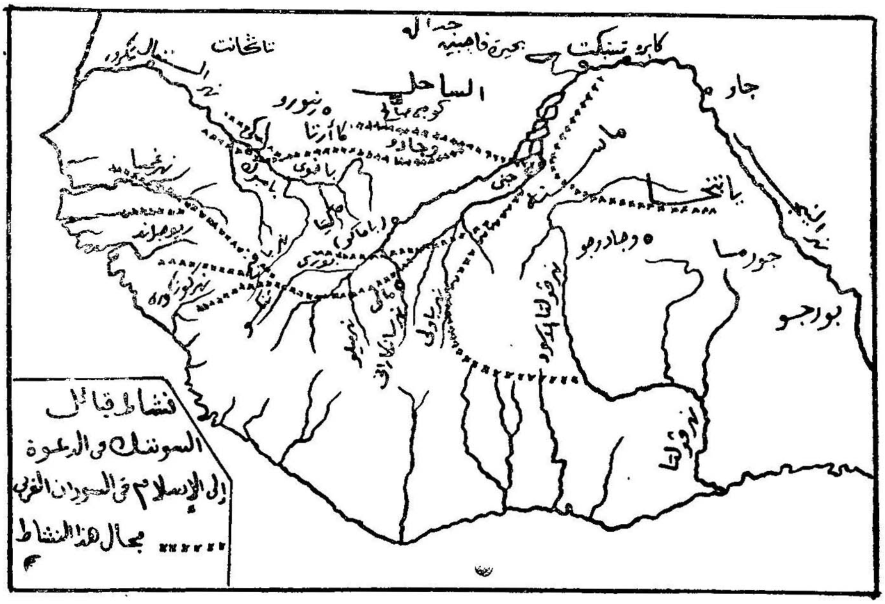

ذى يزن(١٠٩) وكل هذه أساطير إلا أنها تلقى ضوءاً من ناحية أخرى ، على أهمية علاقة الشرق الإسلامى بالإمبراطوريات الإسلامية التى قامت فى غربى أفريقيا ، وحرص تلك الإمبراطوريات على ارتباطها بالحضارة الإسلامية ، فضلا عن أهمية الانتماء إلى الأصول الشرقية فى نظرها .

ونظام الحكم فى إمبراطورية غانة ، ملكى استبدادى ، شأن جميع النظم القائمة فى الإمبراطوريات والممالك التى ظهرت فى السودان الغربى والأوسط ، سواء أكانت فى عهدها الوثنى أم فى عهدها الإسلامى .

والنظام السائد فى وراثة العرش هو توريث ابن الأخت . يقول البكرى عن هذا النظام فى غانة :

« وسنتهم أن الملك لا يكون إلا فى ابن اخت الملك ، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته ، وهو يشك فى ابنه ، ولا يقطع على صحة اتصاله به »(١١٠) . ويقول فى موضع آخر :

« ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره ، وغير ولى عهده ، وهو ابن أخته »(١١١) .

والمعروف أن الملك السوننكى تنكامنين الذى ولى عرش غانة حوالى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، كان قد ورث الملك عن خاله بسى Beci [١١٢] .

وعلل البكرى هذه الظاهرة ، بتوفر اليقين فى أن الوليد هو ابن أمه ، وهذا صحيح لكن من المعروف أيضاً ، أن لهذه الظاهرة أصولا ترجع إلى التقاليد الوثنية القديمة ، وهى التى تعلى من شأن المرأة عند أغلب القبائل الأفريقية الوثنية ، وبرزت عند السوننك ، وهؤلاء ، كما سبق ، فرع من الماندنجو ، والتقليد عام عند الأصول والفروع ؛ كذلك عرفت هذه الظاهرة عند قبائل البربر ولا سيما الطوارق ، وصلة هؤلاء ببلاد السودان ، ترجع إلى أزمنة موغلة فى القدم[١١٣] .

وقد أضعف الإسلام ظاهرة التوريث لابن الأخت ، وابن البنت ولكنه لم يقض عليها قضاءاً تاماً فى جميع الإمبراطوريات والممالك الإسلامية التى قامت بالسودان الغربى والأوسط ، بدليل بقائها فى بعض الممالك الإسلامية بالسودان الغربى وقد شهدها ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر فى مدينة تكده ، فلم تعجبه وعلق عليها بقوله : « وذلك شىء ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفار بلاد مليبار الهنود ، وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون »[١١٤].

وحدث شبيه هذا فى إمبراطورية مالى عندما انتقل العرش إلى ابن البنت ، وعلق القلقشندى على ذلك بقوله ، بأن هذا العمل جاء « على قاعدة العجم فى تمليك البنت وابن البنت »[١١٥] .

أما مكانة المرأة ، فلم تنحط بالإسلام ، وإنما نظمت ، وظلت منزلتها الرفيعة كما هى ، بدليل انتساب أعظم سلاطين مالى إلى أمهاتهم مثل كنكن موسى (ت حوالى ١٣٣٧ م) الذى نسب إلى أمه نانا كانجو[١١٧] وكذلك الشأن فى إمبراطورية بورنو مثل الماى إدريس بن حفصة I. Hafeami ت ١٣٧٦ م والماى داود بن فاطمة D. Fatimami (ت حوالى ١٣٨٦ م)[١١٨] وهكذا .

وكان ملك غانة ينظر فى جميع شئون الإمبراطورية ، مهما كانت صحته ومقدرته ولياقته ، أورد البكرى خبراً عن الملك بسى الذى أورث عرشه لابن أخته ، مؤداه أنه ولى العرش وهو ابن ٨٥ سنة وأن بصره قد كف فى أواخر أيامه ، فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته « ويريهم أنه يبصر وتوضع بين يديه أشياء فيقول هذا حسن

وهذا قبيح ، وكان وزراؤه يلبسون ذلك الناس »[١١٩] .

وأما الحكم المحلى ، فكانت الإمبراطورية مقسمة إلى ولايات أو ممالك ، يقول ابن الوردى : كان لملك غانة « ممالك عديدة فيها ملوك من تحت يده »[١٢٠] وكما كان للعاصمة وال أو حاكم كان لكل من الولايات أو الممالك الخاضعة لغانا ، حاكم أو ملك ؛ ومن أشهر الولايات ، أوكار وهى نواة إمبراطورية غانة ، وكذلك هوذ ، فى الوسط ، والممالك البربرية فى الشمال ، وديارا وتا كانت[١٢١] فى الغرب وباسيكورو فى الشرق وواجاد وكانياجا وبغن[١٢٣] فى الجنوب والجنوب الشرقى .

ومع أن نظام الحكم يقوم على أساس المركزية ، إلا أن بعض المقاطعات أو الولايات ، كان الحكم فيها وراثياً فى أسر معينة ، حتى إذا أحست هذه الولايات بضعف فى السلطة المركزية بالعاصمة ، ثارت واستقلت ، كما حدث عند دخول المرابطين ، غانة عام ١٠٧٦ م ، إذ استقلت كل من ديارا وكانياجا وجالام ، ولم يعد نفوذ السوننك باقياً إلا فى أوكار وباسيكورو[١٢٤] .

وكبار موظفى الملك ومستشاريه ووزرائه من المسلمين حتى فى العهد الوثنى ، إذ كان المسلمون أكبر طبقة مثقفة سواء من الوطنيين السوننك ، أو ممن هاجر من العرب والبربر واستقر فى غانة[١٢٥] وشجع على ذلك نشاط التجارة وازدهارها وتوفر فرص العمل فى حكومة غانا ، فضلا عن توفر الأمن لمدة تقرب من قرنين ، فقد كان لإمبراطورية غانة فرق من الحرس تجوب الصحراء[١٢٦] ولهذا أكبر الأثر فى نمو المدينة الإسلامية وازدحامها بالصفوة من العلماء والمثقفين ، وقيام المدارس العربية الإسلامية فيها[١٢٧] .

* * *

ومن تقاليد الحكم فى إمبراطورية غانة ، تلك المجالس التى يعقدها الملك للنظر بنفسه فى المظالم ، سواء أكان ذلك فى العهد الوثنى أم فى العهد الإسلامى ، وواضح فيها الأثر الشرقى ، ويصف البكرى هيئة جلوس الملك للنظر فى المظالم ، ويقول :

« وهو — أى ملك غانه الوثنى — يجلس للناس والمظالم فى قبة ، وحوله عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراءه عشرة من الغلمان ، يحملون الحجف(١٢٩) ، والسيوف المحلاة بالذهب ، وعن يمينه أولاد ملوك بلده — أى ملوك الأقاليم والولايات الخاضعة له — قد ضفروا رؤوسهم على الذهب ، وعليهم الثياب الرفيعة ، ووالى المدينة — أى حاكم أو محافظ العاصمة — بين يدى الملك جالس على الأرض ، وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض ، وعلى باب القبة كلاب منسوبة — أى أصيلة — لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه ، فى أعناقها سواجير(١٣٠) الذهب والفضة ، يكون فى الساجور عدد رمانات ذهب وفضة ، وهم ينذرون بجلوسه بطبل يقال له دبا(١٣١) ، وهو خشبة طويلة منقورة ، فيجتمع الناس »(١٣٢) .

ومن التقاليد فى مواكب الملك أن بعض الحيوانات كانت تتقدم هذه المواكب مثل : « الفيلة والزرازيف وضروب من الوحوش التى فى بلاد السودان » كما يقول الإدريسى(١٣٣) .

ويصف الإدريسى هيئة ركوب الملك المسلم للنظر فى المظالم . فيقول : « وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ، ومن سيرته ، قربه من الناس وعدله فيهم ، له جملة قواد يركبون إلى قصره كل يوم ، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فإذا اجتمع إليه جميع قواده ، ركب وسار يقدمهم ويمشى فى أزقة المدينة وداير البلد ، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر ، تصدى له ، فلا يزال حاضراً بين يديه حتى يقضى مظلمته ، ثم يرجع إلى قصره ، ويتفرق قواده ، فاذا كان بعد العصر ، وسكن حر الشمس ، ركب مرة ثانية ، وخرج وحوله أجناده فلا يقدر واحد على قربه ، ولا على الوصول إليه ، وركوبه فى كل يوم مرتين سيرة معلومة »(١٣٤) .

وقد أشار الإدريسى بهذا الوصف ، إلى ملك كان يحكم خلال القرن الثانى عشر الميلادى ، وهو صاحب القصر الذى يؤرخ لبنائه بعام ٥١٠ هـ — ١١١٦ م(١٣٥) .

ومن ناحية القوة الحربية ، اشتهرت امبراطورية غانة بقوة جيشها وكثرة تعداده، يقول ابن الوردى : « ولها ملك ضخم فى جنود وعدد وعدد »[١٣٦] ويتكون أغلب الجيش الغانى من القبيلة أو العشيرة التى تنتمى إليها الأسرة المالكة[١٣٧] ومع أن خيول غانة ، كما يقول البكرى قصيرة ، إلا أن جيشها عرف بقوة فرسانه[١٣٨].

يقول البكرى :

إذا احتفل ملك غانه ، ينتهى جيشه إلى مائتى ألف ، منهم رماة أزيد من أربعين ألف ، وخيل غانه قصار جداً[١٣٩] .

تسلح هذا الجيش بالأسلحة الحديدية ، مما مكنه من الانتصار على جيران غانه الذين كانوا دونها فى التسليح ، وقد لاحظ الزهرى قبل عام ١١٥٠ م أن سكان غانه قاموا بحملات حربية ضد جيرانهم ، وانتصروا عليهم بفضل أسلحتهم الحديدية من السيوف والحراب والرماح والخناجر فضلا عن القوس والنشاب ، وذلك على حين كان أولئك الجيران يحاربون بقضبان من الأبنوس[١٤٠] .

* * *

وعن الحياة الاقتصادية فى امبراطورية غانة ، الثابت أن عظمة غانة التاريخية وشهرتها وثراءها ، إنما ترجع أساساً إلى أرباحها التجارية الطائلة ، يقول ابن الوردى عن غانه وتجارتها :

« وهى أكبر بلاد السودان وأوسعها متجراً ، وهم فى سعة من المال ، ويقصدها التجار من ساير البلاد »[١٤١] » .

ثم إن موقع إمبراطورية غانة ؛ وموقع عاصمتها كومبى ، على حدود الصحراء الجنوبية ، وفى أقصى شمالى منطقة الزنوج ، قدجعلها حلقة اتصال بين الشمال والجنوب كما أن تحكمها فى طرق القوافل المؤدية إلى مناجم الذهب الكبرى فى جنوبها الغربى، أفادها وأثراها[١٤٢] .

أضحت مدينة كوبى صالح ، أكبر سوق فى بلاد السودان ، زمن ازدهار إمبراطورية غانه ، وقد استقر فيها عدد كبير من التجار البيض وتحكموا فى التجارة

السودانية ، وأهمها الذهب والرقيق ، وكان من بين التجار عدد كبير من التجار المصريين ، ويقال إن أحد التجار المصريين هو الذى اشترى كتلة الذهب الكبرى التى كان ملوك غانه يحتفظون بها فى قصورهم (١٤٣) .

تاجرت غانه مع جميع المدن الهامة فى شمالى أفريقية مثل طرابلس وأوجيلا وورقلان وسجلماسة ، واعتبرت المدن الثلاث الأخيرة ثغوراً للصحراء الكبرى ، وهى التى أمدت بلاد البحر المتوسط بسلع غانه وفى مقدمتها الذهب(١٤٤)

كانت إمبراطورية غانة تصدر الذهب والرقيق والجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل ، وكذلك القطن والقمح(١٤٥) ، وينسب إلى حكومة غانة الأولى إدخال زراعة القطن وصناعة النسيج فضلا عن بعض الحيوانات الأليفة ، منها الثيران ذات الأقتاب ، بل إن امبراطورية غانه فى فجر نموها ، وصفت بأنها إمبراطورية زراعية إقطاعية(١٤٦) . والدورة الزراعية فى غانه اثنتان ؛ يقول البكرى : وهم « يزرعون مرتين فى العام على ثرى النيل(١٤٧) كذلك عندهم الأبنوس الجيد ؛ ورواية صاحب المغرب « عندهم الأبنوس المجزع الجيد »(١٤٨) .

وتستورد غانه الملح والنحاس الأحمر والفواكه المجففة ، ومن بينها التمر ، وكذلك استوردت الودع والمسابح وأدوات الزينة ، وكانت هذه السلع توزع فى جميع أرجاء بلاد السودان ، والمعروف أن صناعة المسابح كانت من الصناعات الأساسية فى مدينة سوتا حيث نهضت ونشطت من أجل التجارة مع السودان ، وتوجد مصائد للمرجان عند شواطئها(١٤٩).

على أن أهم ما صدرته غانه هو الذهب والرقيق ، وأهم ما استوردته هو الملح .

يقول دافيدسون Davidson

« تقع غانه بين مناجم الملح فى الشمال ومناجم الذهب فى الجنوب » (١٥٠) واشتهرت أودغست بتصدير الملح إلى غانه ، يقول ابن حوقل : « وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسة ، من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فإنه لا قوام لهم إلا به ، بلغ الحمل الملح فى دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلثمائة دينار »(١٥١) كان هذا الملح يستخرج من مناجم تغازة فى الشمال ، ويحمله التجار

المتاربة فى طريقهم إلى بلاد السودان(١٥٢) وأهم طوائف التجار التى عملت مع غانه تجار سجلماسة ، يقول ياقوت :

« وأهل هذه المدينة — أى سجلماسة — من أغنى الناس وأكثرهم مالا ، لأنها على طريق من يريد غانه التى هى معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها »(١٥٣).

وعن الغرناطى :

« يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال ، من الملح المعدنى ، فيخرجون من بلد يقال لها سجلماسة ، آخر بلاد المغرب الأعلى ، فيمشون فى رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء ، يهتدون بالنجوم وبالجمال فى القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور ، فإذا وصلوا غانه ، باعوا الملح وزنا بوزن الذهب ، وربما باعوه وزنا بوزنين أو أكثر ، على قدر كثرة التجار وقلتهم »(١٥٤).

حصلت غانه على ثروة طائلة من الضرائب التى فرضتها على السلع الداخلة إلى بلادها ، والخارجة منها، وقد أقامت نظاماً دقيقاً للجمارك(١٥٥) ، وكان للمسلمين فى غانه خبرة واسعة بالشؤون المالية ؛ ولذلك استعان بهم ملوك غانه منذ العهد الوثنى ، حتى كان منهم من أشرف على الشئون المالية للحكومة(١٥٦) .

قرر ملك غانه ضريبة قدرها ديناران ذهب على كل حمولة حمار من الملح يدخل بلاده ، وديناران عن كل حمولة تخرج من دياره ، وعبارة البكرى :

والملكهم على حمار الملح دينار ذهب فى إدخاله البلد وديناران فى إخراجه ، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل(١٥٧) وعن حمل المتاع عشرة مثاقيل »(١٥٨) .

وكانت مدينة تكده الواقعة شرقى النيجر، مشهورة بإنتاج النحاس من مناجمها، وصدرته إلى جميع بلاد السودان الغربى والأوسط ، وكذلك كانت تصدره إلى مصر (١٥٩).

وأما تجارة الذهب ، فهى التى كانت مصدر الربح الكبير لامبراطورية غانه ، مع أن غانه لم تسيطر على المنابع الرئيسية للذهب فى منطقة ونقاره ، إلا أنها تحكمت فى الطريق المؤدية إليها ، فضلا عن أن بلادها ضمت بعض المناجم ولاسيما مناجم غيارو .

يقول الإدريسى : « وتتصل مملكته — أى مملكة صاحب غانه — بأرض ونقاره ، وهى بلاد التبر المذكورة ، الموصوفة به كثرة وطيباً »(١٦٠) ، وفى موضع آخر يقول : « وشرقى غانه ، أرض ونقاره ، أرض التبر ، بينهما ثمانية أيام ، وهى جزيرة كبيرة يحيط بها النيل(١٦١) .

والواقع إن هذه المنطقة لا تقع شرقى غانه كما يقول الإدريسى ، بل هى تقع فى جنوبها الغربى ، والمقصود بالنيل هنا السنغال ، وتقع هذه المنطقة بين فروعه العليا باخوى وبافنج وفاليمى(١٦٢) .

يقول ماجور دنهام D. Denham : « تطلق كلمة ونقاره Ouangara or Ouakoré على كل مناطق الذهب ، وعلى جميع القادمين منها» . والواقع أن هذا المصطلح أطلق كذلك على قبائل الماندنجو ولا سيما على قبيلتى أو فرعى الجولا Jula والسوننك .

وتشمل منطقة ونقاره أربعة أقاليم هى : بامبوك Bambuk الواقعة بين روافد السنغال العليا باخوى وبافنج وفاليمى ، وبور Bure عند أعالى نهر تنكسو Tinkisso رافد النيجر ، ولوبى Lobi عند أعالى نهر فولتا و اشانتى داخل جمهورية غانه الحديثة .

والراجح أن كلمة ونقاره كما عناها كتاب العرب ووصفوها بأنها أرض الذهب ، بعض هذه الأقاليم وليست كلها (١٦٣) .

ولكثرة ماحصلت عليه غانه من الذهب ، وصفت بأن أرضها كلها ذهب ، يقول ابن الوردى :

« وأرضها كلها ذهب ظاهر ، وأهلها يستخرجون الذهب ويصنعونه كاللبن ، وتسافر إليها التجار من سجلماسة فى مفازة نحو اثنى عشر يوماً »(١٦٤) ويقول المسعود : « وتحت يد ملك غانه عدة ملوك وممالك فيها الذهب ظاهر على الأرض يستخرجه أهله ويعملونه مثل اللبن » وظفر ملوك غانه بأكبر نصيب من هذه الثروة حتى قال ابن حوقل « وغانه أيسر من على وجه الأرض من ملوكها ، بما لديه من الأموال . (١٦٥) المدخرة من التبر المثار » (١٦٦) .

وأوضح البكرى أن هناك أنواعا من الذهب ، يستصفيها الملك لنفسه ، ويترك ما دونها لرعاياه ، حتى لا ينحط سعر الذهب أو تضعف قيمته ، وعبارته بصدد الذهب المستخرج من منطقة غيارو .

وأفضل الذهب فى بلاده(١٦٧) ما كان بمدينة غيارو ، وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوماً ، فى بلاد معمورة بقبائل السودان ، مسا كن متصلة ، وإذا وجد فى جميع بلاده الندرة(١٦٨) من الذهب استصفاها الملك لنفسه ، وترك منها للناس هذا التبر الدقيق ، ولولا ذلك ، لـكثر الذهب بأيدى الناس حتى يهون ، والندرة تكون من أوقية إلى رطل ؛ ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم »(١٦٩) .

قام ملوك غانه وتجارها ، بدور الوسيط بين منتجى الذهب فى الجنوب وبين العرب فى الشمال ، وهؤلاء بدورهم باعوه لأوربا ، وكانت الأسواق الأفريقية هى المنبع الرئيسى للذهب بالنسبة لأوربا قبل كشف أمريكا .

يقول مونى :

« كان السودان أعظم مصدر للذهب إلى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، حتى تم كشف أمريكا »(١٧٠) ولقد اعتمدت الدول الأوربية على الذهب الوارد إليها عن طريق غانه اعتماداً كبيراً (١٧١) كما كان الذهب الواصل إلى مرا كش ، عنصراً هاماً فى اقتصاد تلك البلاد خلال تلك العصور (١٧٢).

أما كيف حصلت غانه وتجار غانه وكذلك تجار المغاربة الذين صحبوا تجار غانه ، على الذهب من منتجيه فى أعالى السنغال ، فإن ذلك كان يتم عن طريق ما اصطلح على تسميته بالتجارة الصامتة أو التبادل الصامت Silent Trade or Dumb-Barter or Commerce Muet

ويعنى هذا المصطلح التعامل والمساومة أو المبايعة — على قول المسعودى — بين أقوام لا يعرف أحدهم لغة الآخر أو يحرص أحدهم على الاحتفاظ بسر منابع ثروته ، خوفاً من النهب والسطو ، أو لأن قوماً من السذج يتعاملون مع قوم أدت حوادث التعامل معهم إلى انعدام ثقتهم فيهم ..

يذهب تجار المغاربة بسلعهم من المسابح والودع والمصنوعات والملح وغيرها إلى كومبى صالح ، عاصمة غانة ، وفيها يجدون زملاءهم وعملاءهم الغانيين فى انتظارهم ،

يخرج الجميع ، ويسيرون نحو عشرين يوماً إلى أعالى السنغال ، وفى أماكن معلومة ، يضرب التجار بطبولهم إعلاناً على وصولهم بالبضائع ، ثم يضعون سلعهم فى أكوام أو مقادير معينة على شاطىء النهر ، ويختفون ، وحينئذ يخرج الزنوج العراة ويضعون بجوار كل كومة أو مقدار من السلع ما يرونه نظيراً لها من الذهب ، ثم يختفون ، فيظهر التجار ، وإذا اقتنعوا بقيمة الذهب حملوه وانصرفوا بعد أن يضربوا بطبولهم إيذاناً بانتهاء التبادل أو السوق ، وإذا لم يقتنعوا بالذهب الموجود ، لم يقربوه وتركوه واختفوا مرة أخرى ، فيخرج الزنوج ويزيدون من كميات الذهب ، وتتكرر عملية الاختفاء والظهور حتى يتم الرضا والاقتناع من الجانبين .

وقد حاول التجار مرة أن يعرفوا شيئاً عن منابع الذهب ، فقبضوا على أحد الزنوج ، وعذبوه حتى مات ولكن دون أن يصرح بشىء ؛ ومن أجل هذا الحادث ظل الزنوج الوطنيون يمتنعون من الظهور والتعامل مع أولئك التجار نحو ثلاث سنوات حتى اضطروا لاستئناف التعامل بسبب شدة حاجتهم إلى الملح بصفة خاصة .

وقد أورد المسعودى وصفاً للتجارة الصامتة بصدد حديثه عن مملكة غانه قال : « وملكها — أى ملك غانة — عظيم الشأن ويتصل ببلاد معادن الذهب ، وبها منهم أمم عظيمة ولهم خط لا يجاوزه من صدر إليهم ، فإذا وصلوا إلى ذلك الخط ، جعلوا الأمتعة والأكسية عليه وانصرفوا ، فيأتى أولئك السودان ومعهم الذهب ، فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون ويأتى أصحاب الأمتعة ، فإن أرضاهم وإلا عادوا ورجعوا . فيعود السودان فيزيدونهم حتى تتم المبايعة ، كما يفعل التجار الذين يتبايعون القرنفل من أهله سواء ؛ وربما رجع التجار بعد زوالهم مختفين ، فوضعوا النيران فى الأرض فيسيل الذهب ، فيسرقه التجار ثم يهربون لأن الأرض كلها ذهب عندهم ومعدن ظاهر ، وربما فطنوا بهم فيخرجون فى آثارهم وإن أدركوهم قتلوهم » (١٧٣) .

لقد أورد هيرودوت (ت حوالى ٤٥٠ ق . م) وصف مثل هذا المنظر فيما كتب عن تجار القرطاجنيين قديماً فى الذهب ، وفى نفس المنطقة من غرب أفريقية (١٧٤) ويبدو أن هذه الطريقة كانت مألوفة فى كثير من أجزاء أفريقية ، وشرح التجار العرب وكذلك تجار البربر من صنهاجه للرحالة كادا.وستو (فى القرن الخامس عشر الميلادى) أن هذه التجارة لا زالت هى السائدة ؛ وكذلك وصفها رحالة آخرون .

على أن التجارة الصامتة لم تكن من خصائص غربي أفريقيا وحده ، وإنما عرفت في تجارة الحرير كذلك في القرن الأول الميلادى ؛ مارسها الرومان والصينيون عند شاطىء أحد أنهـار بلاد بارثيا Parthia ؛ كذلك شهدها الرحالة الصيني فاهين Fa-Hein — في القرن الخامس الميلادى في جزيرة سيلان ؛ ويقال إن هذه التجارة كانت أمراً مألوفاً في تجارة الذهب في الحبشة خلال القرن السادس الميلادى ؛ وفي العصور الحديثة ، لا زالت صور من هذه التجارة تمارس بين أقزام الـكونغو ... وبما إلى اليوم(١٧٥) .

وأما تجار الرقيق فقد راجت كذلك وجنت منها إمبراطورية غانة أرباحاً طائلة ، وكان في العاصمة كومبي صالح مسوق رائجة لهذه التجارة ، وتمون السوق بالعبيد عن طريق الاقتناص من الحدود الجنوبية ، حيث يوجد الزنوج البدائيون ، وعمل أهل السودان الغربي والأوسط في تجارة الرقيق في جميع بلاد السودان بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر .

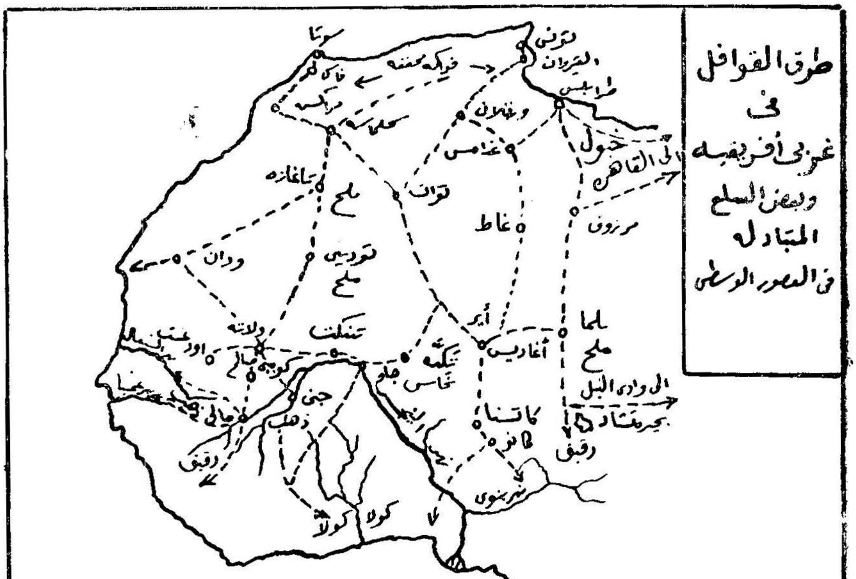

وحصلت غانة على رقيقها بصفة أساسية من القبائل المتوحشة التي عرفت في الـكتب العربية باسم الدمادم Dem Dem أو اللملميين Lem Lem فيقول البـكرى :

« مملكة الدمدم غربي غانة ، يأكلون ما وقع لهم ، ولهم ملك كبير وملوك تحت يده ، وعنده قلعة عظيمة ، عليها صنم امرأة يعبدونها » .

ويقول الإدريسى :

« وجنوب بريسى أرض لملم ، ويغير عليها أهل بريسى وسلى وتكرور وغانة ويسبون أهلها ، ويجلبونهم إلى بلادهم ، فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم ، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار ، وإذا بلغ أحدهم الحلم فى أرض لملم ، وشم وجهه وصدغه بالنار علامة لهم » وفى موضع آخر يقوم الإدريسى :

« وجنوب غانة أرض الكفار اللملمية » .

ونظراً لحاجة بلاد السودان إلى الملح وأهمية ذلك ، كان العبد يباع أحياناً بكمية من الملح لا تعدو قدر حجم قدمه ، فقد أورد الشنقيطى بصدد تجارة بلاده شنقيط — من أعمال سوس الأقصى بالمغرب — فى الملح مع بلاد السودان ، أن تجارة أهل شنقيط كانت رائجة وأن « أعظم ما يتجرون به الملح إلى السودان ، يقال إن العبد كان يباع بحذائه ، أى نعله ، أى أن الملح يقطع على هيئة اللوح الكبير فيشد بالحبال ويوضع على ظهر الجمل فإذا صار إلى السودان ، يجعل تحت قدم العبد منه مقدار نعل ، فيكون قيمة له » . .

وذكر كذلك ، أن هذا كان فى الزمن القديم ، ثم حدث باتساع التجارة وكثرة وصول سلعة الملح إلى بلاد السودان ، أن صار الثمن المألوف للعبد أو الأمة هو حمل جمل من الملح قال :

وحمل الجمل يباع فى عبد أو أمة — وكل ما عند السودان يباع فى الملح كالخيل والثياب — والزرع والعبيد ، ويقال إنهم كانوا يبيعون أولادهم فيه » (١٧٦) .

* * *

قام البناء الاجتماعى فى إمبراطورية غانة على النظام القبلى ، شأن غيرها من الإمبراطوريات والممالك التى قامت بالسودان الغربى والأوسط ، غير أن قيام حكومة مركزية مسيطرة ، ساعد على اضعاف التناحر بين القبائل ، كما أن الإسلام وتعاليمه

كانت أكبر عامل فى اضعاف العصبية القبلية وأن لم تمحها ، فبفضل الإسلام والثقافة العربية الإسلامية ، اتصل الغانيول بأرقى الحضارات الإنسانية المعاصرة وهى الحضارة الإسلامية .

واشتهرت قبيلة السوننك بحماسها للدعوة الإسلامية ونشر فضائلها ، حتى غدا اسمها فى بعض جبهات حوض السنغال مرادفاً لكلمة « داعية »(١٧٧) .

ولما كانت قبيلة السوننك هى مؤسسة إمبراطورية غانة ، وأن الملكية فى بعض عشائرها ، امتازت هذه العشيرة عن غيرها من عناصر سكان غانة ، فكان منها أغلب جيش الإمبراطورية وكثير من كبار أعوان الملك .

أما أعمال الناس فى إمبراطورية غانه ، فتنوعت بين الزراعة والصناعة وممارسة بعض الحرف الأخرى ، فيما يشبه التخصص ، فمثلا اشتهرت عشيرة كرروما Korma بالعمل فى صناعة الحديد ، فاشتهرت هى وغيرها ممن عمل فى هذه الصناعة باسم « قبيلة الحدادين »(١٧٨) والمعروف أن صناعة الحديد قديمة فى غربى أفريقية ولاسيما غانة (١٧٩) ، كذلك اشتهرت بعض القبائل بممارسة الزراعة ، عملا أساسياً لها ، وغيرها بالحياكة وأخرى فى الرعى ، والصيد وهكذا (١٨٠) .

وهناك طبقة التجار ، وهى طبقة ممتازة ، وتضم كثيراً من المسلمين الوطنيين فضلا عن العرب والبربر الذين استقروا فى كومبى صالح وغيرها من المدن التجارية الهامة مثل ولاته (١٨١) .

* * *

ونظراً لشهرة غانة بثرائها ، تمتع ملوكها بالنصيب الأوفى من هذا الثراء فضلا عن الترف والسعة ، وكانت مصالح الملوك وذويهم هى المفضلة دائماً ، وهذه ظاهرة عامة فى جميع الإمبراطوريات التى قامت بغربى أفريقيا ، فالعامل المشترك بينها جميعاً ، هو استغلال الرعاية لصالح الحاكمين المستبدين .

كان ملك غانة يستصفى الجيد من الذهب لنفسه (١٨٢) ، بل كان لبعض ملوكها المسلمين قطعة ذهب ضخمة فى قصورهم ، استخدموها مربطاً لخيولهم ، واختلف فى

وزنها ما بين ثلاثين رطلا وطن ، كما اقترن بهـا كثير من الأساطير ، واشتهرت وعرفت فى معظم أنحاء العالم (١٨٣) .

وعبارة ابن الوردى : « وفى قصره تبرة واحدة من الذهب كالصخرة العظيمة ، وفيها ثقب كالمربط ، وهو مربط فرس الملك » (١٨٤) .

ويقول الإدريسى . . « والذى يعلمه أهل المغرب الأقصى علمـاً يقيناً لا اختلاف فيه ، أن له فى قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب تبرة واحدة ، خلقها الله تعالى خلقة تامة من غير أن تسبك فى نار أو تطرق بآلة ، وقد نقر فيهـا ثقب وهى مربط لفرس الملك ، وهى من الأشياء المغربة التى ليست عند غيره ولا صحت لأحد إلا له ، وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان »(١٨٥) .

وقد تصرف بعض ملوك غانة المسرفين فى هذه القطعة ، فيقال إن بعض التجار المصريين اشتروا هذه القطعة ، ويقال كذلك أن وزنها يبلغ نحو طن (١٨٦) .

وقد وصف الأدريسى قصر ملك غانة ، الذى بناه عام ٥١٠ هـ / ١١١٦ م ، وما به من زخارف فقـال : « وله قصر على ضفة النيل (١٨٧) ، قد أوثق بنيـانه ، وأحكم إتقـانه ، وزينت مسـاكنه بضروب من النقوشات والأدهان شمسيـات الزجاج » (١٨٨) وكان طراز هذا القصر وما به من زخارف ونقوش وألوان وتحف، قد استوردت من مصر وسوتا وصقلية (١٨٩) .

ونظام تحية الملك ، هو المألوف عند غيره من ملوك السودان الغربى ، وهو نظام التتريب وهى ظاهرة من العهد الوثنى ، وتقضى بأن يضع القـادم على الملك التراب على رأسه ، غير أن المسلمين فى غانه لم يمارسوها ، فكانت تحيتهم لملوك غانه الوثنيين بالتصفيق باليدين .

يقول البـكرى : « فإذا دنا أهل دينه — أى دين الملك الغانى الوثنى — منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم ، فتلك تحيتهم له . . وأما المسلمون ، فإنما سلامهم عليه بكون باليدين »(١٩٠) .

وعرفت هذه الظـاهرة عند ملوك مالى المسلمين ، وشهدها ابن بطوطة ولم

تعجبه(١٩١) . وانفرد ملوك غانة وولاة عهودهم بزى خاص يميزهم عن سائر الرعايا ، فضلا عن أنواع الحلى التى يتزينون بها .

يقول بها البكرى : « ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وغير ولى عهده »(١٩٢) وفى موضع آخر ، يذكر البكرى : « وملكهم يتحلى بحلى النساء فى العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة ، عليها عمائم القطن الرفيعة »(١٩٣) ، وعن الإدريسى فيما يلبسه ملوك غانا « أزار حرير يتوشح به أو بردة يلتف بها وسراويل فى وسطه ونعل شركسى فى قدمه ، وله حلية حسنة وزى كامل يقدمه أمامه فى أعياده (١٩٤) ...

أما زى سائر أهل غانة ، فهو كما يقول البكرى : « ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم (١٩٥) ويقول الإدريسى : « ولباس أهل غانة الأزر والفوط والأكسية »(١٩٦) .

إلا أن الملك يتفق مع رعاياه ، فى مظهر واحد وهو حلق الشعر ، يقول البكرى : « وهم أجمع يحلقون لحاهم ، ونساؤهم يحلقن رؤوسهن »(١٩٧) .

* * *

ومن التقاليد التى سادت فى غانة الوثنية وأن شابتها الأخبار الأسطورية : اختلاط الملك برعاياه وسمره معهم ، يذكر الفتاش عن ملك غانة الوثنى ، وأسند هذا إلى كيمع ، أى ملك الذهب ، أنه كان « يخرج بعد عشاء كل ليلة يسمر مع قومه ، ولا يخرج حتى يجتمع عليه ألف حزمة — أى حزمة حطب — ويجمعوها فى باب دار مملكته ، ويوقد تحته نار ، ويشتعل مرة واحدة ، ويضىء له ما بين السماء والأرض ، ويشرق البلد كله ، ثم يأتى ويجلس على منصة الذهب الأحمر . ويأمر بعشرة آلاف من الموائد ويأكلون ، وهو لا يأكل ، فمتى تم الأكل ، يقوم ويدخل ولا يقومون حتى تصير الحزامات رماداً ، ثم يقومون ، وهذا على الدوام »(١٩٨) .

وهناك ما عرف باسم « حكم الماء » ، وهو نوع من نظم القضاء أو التحكيم فى العهد الوثنى ، شرح البكرى هذا التقليد بقوله :

« وببلاد غانة حكم الماء ، إذا اتهم أحد بسرقة أو قتل أو غير ذلك ، عمد أمينهم

إلى عود فيه حرافة ومرارة ورقة ، وصب عليه من الماء قدراً ما ، وسقاه المتهم ، فإن رماه من جوفه ، علم أنه برىء وهنىء بذلك ، وإن لم يرمه وبقى فى جوفه ، صحت الدعوى عليه »(١٩٩) .

ومن عادات الدفن فى العهد الوثنى ، دفن الملك ومعه المقربون إليه من خدمه ، فضلا عن طعامه وشرابه وحليه ، ولهذا شبيه فى بلاد الشرق القديم . وقد أفاض البكرى فى وصف هذا التقليد ، يقول :

« ودياناتهم المجوسية وعبادة الدكاكير — أى الأصنام — إذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة ، من خشب الساج ووضعوها فى موضع قبره ، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطأ ، فأدخلوه فى تلك القبة ، ووضعوا معه حليه وسلاحه وآنيته التى كان يأكل فيها ويشرب ، فأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة ، وأدخلوا معه رجالا ممن كان يخدم طعامه وشرابه ، وأغلقوا عليه باب القبة ، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ، ثم اجتمع الناس ، فردموا فوقها بالتراب حتى تأتى كالجبل الضخم ، ثم يخندقون حولها ، حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد ، وهم يجذبون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور »(٢٠٠) .

ويبدو وضوح الأثر الشرقى القديم فى هذا التقليد ، فقد وجد عند ملوك السومريين القدماء(٢٠١) ، كما وجدت صور منه عند الفراعنة ، كذلك وجد هذا التقليد عند ملوك كاتسنا Kirina من دون الهوسا وذلك قبل اعتناقهم الإسلام(٢٠٢) .

غير أنه عندما صارت الحكومة الغانية إسلامية منذ نهاية القرن الحادى عشر ، اختفى هذا التقليد وحلت التقاليد الإسلامية ، وعثر على شواهد لقبور عليها بعض آيات القرآن الكريم ، فضلا عن دعوات لصاحب القبر ، وذلك باللغة العربية(٢٠٣) .

* * *

ومن ناحية الأحوال الصحية فى إمبراطوية غانة ، فهذه لم تكن ملائمة لسكنى الأجانب الذين لم يتعودوا عليها ، وهذا أمر واضح ، لسبب عدم ملائمة المناخ فى تلك البلاد لغير أهلها ، ولعدم وضوح واجب الحكومة فى العناية بالصحة العامة ، وكان البكرى صادقاً حين قال :

وغانه بلد مستوبية — أى موبوءة — غير آهلة ، لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض ، عند امتلاء زروعهم ، ويقع الموتان فى غربائها عند استحصاد الزرع»[(٢٠٤)].

* * *

وفى الحياة الروحية والثقافية ، برزت الآثار العربية الإسلامية ، وأوضح ما كانت فى العاصمة كومبى صالح والمدن الزاهرة الكبرى أمثال ولاته ونيمه وأودغست .

وقد ضمت غانه منذ فجر تاريخها ، وحتى قبل أن تتحول حكومتها إلى الإسلام ، نحو اثنى عشر مسجداً ، ألحق بكل مسجد مدرسة لتعلم القرآن وقواعد الدين واللغة العربية ، كما أن القسم الإسلامى من العاصمة كان مليئاً بالعلماء والفقهاء والأئمة[(٢٠٥)] وكذلك كانت ولاته ونيمه ، وأودغست التى كانت مراكز ثقافية عربية إسلامية كما كانت مراكز لنشر الدعوة الإسلامية .

كانت اللغة العربية هى لغة العبادة والثقافة الوحيدة فى البلاد ، وهذا بجانب كونها لغة التجارة المستعملة فى التبادل التجارى والمكاتبات ، واحتلت هذه اللغة فى غانة وفى غيرها من بلاد السودان الغربى والأوسط المكانة التى احتلتها اللغة اللاتينية فى أوربا فى العصور الوسطى ، بل زادت عليها إذ بقيت اللغة العربية بتلك البلاد لغة للدين والثقافة حتى فى العهد الاستعمارى ، بينما زالت اللغة اللاتينية تدريجياً أمام زحف اللغات الجرمانية القومية بأوربا فى تلك العصور ، أكثر من هذا ، شهد بعض المكتشفين والمستمرين فى مطلع العصور الحديثة بأن إلمام سكان غربى أفريقيا باللغة العربية ، يفوق إلمام أوربا باللغة اللاتينية فى العصر الوسيط[(٢٠٦)] .

أقبل الأفريقيون المسلمون على مناهل العلم العربية فى حماس تلقائى ، بسبب ما اتصف به انتشار الإسلام ولغته من تسامح وفضائل ، وبفضل ما امتاز به المسلمون من العرب والبربر الذين استقروا فى غانة وغيرها من بلاد السودان ، والذين اتصلوا بتلك البلاد ، من كفاءة وخبرة فى شتى الميادين الاقتصادية والإدارية فضلا عن الجانب الثقافى ، إذ كان المسلمون يمثلون حضارة رفيعة ومدنية سامية بدليل استعانة ملوك غانة الوثنيين بهم فى أجل أعمالهم[(٢٠٧)] .

ومن ناحية العلاقات الخارجية ، أبرزها العلاقات التجارية والثقافية ، وهى العلاقات التى ربطت غانه ببلاد البحر المتوسط ، فقد كان ذهب غانه ووارثتها مالى ، عنصراً أساسياً فى اقتصاديات شمالى أفريقية بصفة خاصة ، وكذلك بالنسبة لأوربا وعلى الأقل قبل كشف أمريكا(٢٠٨) .

ومن البيوت التجارية التى ساهمت فى تنشيط هذه العلاقة ، على نحو منظم ، شركة المقرى جداً الكاتب المعروف أحمد بن محمد المقرى المتوفى عام ١٦٣٣ م ، وهو صاحب كتاب نفح الطيب ، ويحتمل أن هذه الأسرة بدأت أعمالها التجارية منذ القرن الثانى عشر الميلادى أى قبل نهاية إمبراطورية غانه بما يقرب من قرن ، وكان لها ممثلون فى مدينة ولاتا الخاضعة لغانا وقد شهد هؤلاء المقيمون فى ولاتا نهاية إمبراطورية غانه على يد الصوصو عام ١٢٠٣ ، وهجرة العلماء والتجار المسلمين من كومبى صالح إلى ولاته بعد دخول الصوصو(٢٠٩) .

وظهرت غانه فى الخرائط التى صدرت بأوربا فى العصور الوسطى عن مدرسة ميورقه ، ففى الخريطة القطالونية أو الأطلس القطالونى لابراهام كرسك A. Cresques (١٣٧٥) — ظهرت مدينة نيمه Nayma باعتبارها المركز الرئيسى لإمبراطورية غانه Guynoa كذلك ظهر اسم غانه Gheneoa على خريطة فلادست Vill adestes (١٤١٣) ، وأشارت هـذه الخريطة أيضاً إلى أمير المرابطين باسم Rev Bubeder والمقصود به الأمير أبو بكر الذى فتح غانه ١٠٧٦ ومد ملك المرابطين إلى جنوبى الصحراء(٢١٠) .

وازدادت علاقات غانة مع بلاد العـالم الإسلامى الشرقى فى عهد الحكومة الإسلامية التى قامت فى غانه منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ولا سيما بعد أن اتصل ملوك غانة المسلمون بالخلافة العباسية وربطوا أنفسهم بها ، وقاموا فى بلادهم كممثلين للخلتفة العباسى ، بل ادعوا النسب العلوى(٢١١) فانتشرت التقاليد الشرقية فى غانة ، ومنها لبس العمامة ، كما أن صلة مصر لم تنقطع بغانه وغيرهامن بلاد السودان الغربى والأوسط ، فإن مصر تقع على طريق الحاج ، وظلت أهمية مصر قائمة بالنسبة لبلاد غربى أفريقية ، رغم اضطراب أحوال الشرق الأوسط منذ أواخر القرن الحادى عشر بسبب الصراع الداخلى فى مصر أواخر العصر الفاطمى ثم حلول الخطر

الصليبي الاستعماري ببلاد الشرق الأوسط منذ عام ١٠٩٩م ومحاولة قادة المسلمين توحيد الجبهة الإسلامية للجهاد ضد العدو المشترك، وهي المحاولة التي بلغت ذروة النجاح في عصر صلاح الدين المتوفى عام ١١٩٣م، أي قرب نهاية إمبراطورية غانة الإسلامية.

وحتى بعد سقوط غانة، ظل حجاجها يمرون بالقاهرة، وقد شاهد ابن خلدون بعض حجاج كومبي صالح في القاهرة عام ١٣٩٠ م، وهم في طريقهم إلى الحج.

* * *

أما الجيران الأفريقيون الأقربون إلى غانة، فكانت علاقتهم بها أقرب إلى الصراع المستمر منها إلى الهدوء والاستقرار، ولا سيما تلك الممالك التي خضعت لغانة وكانت تدفع لها الجزية، لكنها تتحين الفرصة للخروج عليها، فمن جيران غانة الغربيين، مملكة التكرور، وهذه استطاعت أن تحتفظ باستقلالها وقوتها ضد توسع جارتها الشرقية القوية، وكانت مملكة تكرور أسبق من غانة في اعتناق الإسلام، وازدهرت في القرن الحادي عشر إلى أن طوتها إمبراطورية مالي ومن بعدها صنغي(٢١٢). وهناك مملكة سلي الإسلامية التي استطاعت أن تحتفظ باستقلالها أيضاً، كما أن مملكة ماسنة في الجنوب الشرقي من غانة، وملوكها من الفولانيين، وأغلب سكانها من البربر والفولانيين، لم تخضع لغانة.

وفي جنوبي غانة تقع مملكة الصوصو في كانياجا، وهذه خضعت لغانه ودفعت لها الجزية لكنها لم تخلص لها إذ كان الصوصو حينئذ على الوثنية، بينما كانت غانة حافلة بعدد كبير من المسلمين، ولذلك عندما داهم المرابطون غانة عام ١٠٧٦ م، استقلت كانياجا، وأضحت هي الخطر الأكبر على غانة فيما بعد؛ وأما مملكة مالي في ذلك الوقت، فكانت بعيدة عن غانة ولم يكن خطرها قد وضح بعد.

ومن أقوى ممالك البربر المجاورة لغانة من ناحية الشمال، مملكة أودغست حيث تسود قبائل لمتونة القوية، ومع أن غانة استولت على أودغست حوالي عام ٩٩٠ م، إلا أنها استعادت استقلالها بعد صراع طويل(٢١٣).

* * *

جاءت نهاية إمبراطورية غانة واختفاؤها عن مسرح التاريخ السياسي في غربي

أفريقيا فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى ، غير أن عوامل الإنهيار بدأت قبل ذلك بأمد طول ، وأولها عامل طبيعى ، بدأ قبل القرن الحادى عشر ، وهو الجفاف التدريجى الذى حل بالمناطق الواقعة شمالى حوض السنغال ، مما حمل الناس على الهجرة والتفرق (٢١٤) وجاء العامل الآخر وكان حاسماً ، وهو الغزو الحربى لبلاد غانه ، وما يعقبه عادة من انفلات زمام السلطة واختلال الأمن فى الداخل وخروج الإمارات أو الممالك الخاضعة لغانة ، وتطلعها إلى السلطة والسيادة .

ويمكن تقسيم الغزو الحربى إلى ثلاثة فصول ، أولها استيلاء المرابطين على غانة قرب نهاية القرن الحادى عشر ، إلا أن غزو المرابطين لم يؤد إلى اختفاء غانة ، وإنما أدى إلى تحول حكومة غانة إلى الإسلام كما أن سيادة المرابطين على غانه أو نفوذهم فيها لم يستمر طويلا ، فقد استطاع السوننك أن يستعيدوا استقلالهم عقب وفاة ابن بكر أمير المرابطين عام ١٠٨٧ م .

والذى اقترن بفتح المرابطين لغانة ، هو اضطراب الأمن وتزعزع الولاء نحو السوننك من قبل الممالك الخاضعة لهم ، وثانيها غزو الصوصو فى مطلع القرن الثالث عشر ، وهو الذى أنهى إمبراطورية غانة ، ثم جاء الفصل الأخير قبيل منتصف النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وذلك على يد إمبراطورية مالى النامية فى كانجابا وكان متمماً لحركة الصوصو .

تعرضت غانة لزحف المرابطين ، إذ كانت وثنية ملوكها المعاصرين قد جعلتها هدفاً من أهدافهم للقضاء عليها وتعميم العقيدة الإسلامية فى جميع أنحاد بلاد السودان ، بالإضافة إلى مطامع المرابطين فى ذهب السودان وثرواته الأخرى .

بدأ غزو بلاد السودان جنوبى الصحراء الكبرى فى حياة ابن ياسين (ت ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م) القطب الروحى لحركة المرابطين وإمبراطوريتهم ، واشتد الضغط والإلحاح على غانة زمن إمارة أبى بكر بن عمر اللمتونى (ت ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م)(٢١٥) .

فتح المرابطون مدينة أودغست عام ١٠٥٥ م وعاقبوها على خضوعها لامبراطورية غانة واستسلامها لها بدفع الجزية وقبول سيادة السوننك ، فترة من الزمن(٢١٦) ؛ وبعد أن فرغ المرابطون من أودغست ، اتجهوا إلى كومبى صالح عاصمة غانة نفسها

واقتحموها عام ١٠٧٦ م وأقاموا عليها حاكماً مسلماً(٢١٧) . ومنذ ذلك الوقت صار ملوك غانة مسلمين ، سواء كانوا تابعين للمرابطين حتى عام ١٠٨٧م أم انفصلوا عنهم بعد ذلك العـــام ، وهو سنة وفاة أبي بكر زعيم المرابطين ، وأعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسى فى بغداد مباشرة(٢١٨).

أدى هذا الغزو إلى خروج بعض الممالك الخاضعة للامبراطورية ، وإعلان استقلالها بحيث لم تعد سلطة ملوك غانة المسلمين نافذة إلا فى مناطق أوكار وباسيكور، وديارا(٢١٩).

كانت الصدمة الثانية هى القاضية على الوجود التاريخى لإمبراطورية غانة ، أما فتح المرابطين السابق ، فلم يترتب عليه زوال غانة ؛ جاءت هذه الصدمة القاضية على يد قبائل الصوصو الوثنيـة فى ذلك الوقت Soso أو Soso أو Su Su ، والصوصوفرع من الفولانيين ، هاجر من بلاد تكروروكون طبقة حاكمة فى إقليم كانياجا Kamiaga التابع لامبراطورية غانة ، وظل حكام الصوصو يدفعون الجزية لحكومة غانة فترة طويلة ، حتى إذا كان فتح المرابطين لغانة عام ١٠٧٦م خرج الصوصو وأعلنوا استقلالهم وانفصالهم عن غانة وأخذوا يتوسعون فيما حولهم حتى إنهم انتزعوا إقليم ديارا من غانة الإسلامية أواخر القرن الثانى عشر(٢٢٠) .

وفى مطلع القرن الثالث عشر ، استولى أعظم أباطرة الصوصو وهوسومانجورو Sumanguru على العاصمة كومبى صالح عام ١٢٠٣ م(٢٢١) وبذلك أنهى الصوصو سيادة الملوك الغانيين المسلمين ، فتفرقوا فى البلاد ، كما أن عدداً كبيراً من المسلمين من سكان العاصمة الغانية ، هاجر بزعامة رجل اسمه الشيخ إسماعيل ، واتجهوا إلى مدينة ولاتا ، حيث أقاموا مركزاً تجارياً لهم ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة حتى صارت من أعظم المراكز التجارية فى السودان الغربى(٢٢٢) .

وسع سومانجورو إمبراطورية الصوصو وتوجه نحو الجنوب حيث توجد دولة الماندنجو النامية فى كانجابا وهى التى اشتهرت باسم امبراطورية مالى ، ويقال إن سومانجورو قتل أولاد الملك الماندجى « نارى فامغان » N. Famagham (حكم من حوالى ١٢١٨ — إلى حوالى ١٢٣٠ م) من أسرة كيتا ؛ وكانوا اثنى عشر ولداً ، إلا أن أصغرهم قـد أفلت من القتـل ، وهو الذى اشتهر باسم « مارى جاطه » أى ولد الأسد .

على أن نهاية إمبراطورية الصوصو وسومانجورو نفسه جاءت على يد مارى جاطه الذى ضم جميع أملاك الصوصو بما فيها أراضى إمبراطورية غانه إلى إمبراطورية الماندجو وذلك بعد واقعة حربية فاصلة عام ١٢٣٥ م كيرينا عند Kirina ؛ ويحتمل أنها تقع شمالى كوليكورو فى أعالى نهر النيجر .

وفى عام ١٢٤٠ م نجح مارى جاطه فى تدمير مابقى من كومبى صالح عاصمة غانه وهى التى أفل نجمها منذ هجرها المسلمون على إثر غزو الصوصو ؛ وتدمير العاصمة فى عام ١٢٤٠ م هو الفصل الثالث أو الحلقة الأخيرة فى اختفاء إمبراطورية غانه(٢٢٣) .

* * *

تلك كانت نهاية إمبراطورية غانه الإسلامية ؛ أما الجمهوريات الحديثة التى قامت على أنقاضها ، أوضمت أجزاء منها ، فهى جمهورية مالى (استقلت ١٩٦٠) وجمهورية موريتانيا (استقلت ١٩٦٠) .

بقى أن نتساءل :

لم اتخذت جمهورية غانه الحديثة اسم « غانه » وهو اسم إمبراطورية غانه التاريخية ؟

الراجح أن جمهورية غانه الحديثة استعارت هذا الاسم التاريخى العريق من باب التيمن باسم عريق لأول إمبراطورية قومية أفريقية قامت بالسودان الغربى ، أقامها شعب أفريقى وطنى ، هوشعب السوننك أوقبائل السوننك . لقد اتخذت جمهورية غانه هذا الاسم من أجل التفاؤل بعودة المجد القومى الأفريقى السابق .

ثم إن أراضى امبراطورية غانه القديمة ، تبعد عن حدود جمهورية غانه الحديثة بنحو ألف ميل ، إلا أن هناك احتمالا ، بأن حدود إمبراطورية غانه السابقة قد وصلت إلى المشارف الشمالية لحدود جمهورية غانه الحديثة ، مما يفسر حرص جمهورية غانه على هذا الاسم ، وربما رأت جمهورية غانه الحديثة أنها أول مستعمرة إنجليزية ظفرت بالاستقلال فى غربى أفريقية فى ٦ مارس ١٩٥٧ م ، فهى من أجل ذلك أجدر بأن تحمل اسم أول إمبراطورية أفريقية قامت فى غربى أفريقية .

ومن الاحتمالات كذلك ، فى تعليل اتخاذ جمهورية غانه اسمها ؛ ما تواتر من أن أسلاف قبائل الآكان Akan أغلب سكانها جمهورية غانه الحالية ، كانوا يقيمون عند الحدود الجنوبية لإمبراطورية غانه القديمة ؛ وأنهم هاجروا من تلك المناطق إلى أراضى جمهورية غانه (ساحل الذهب سابقاً)(٢٢٤) فى الفترة ما بين القرن الثالث عشر الميلادى والسابع عشر ، أى منذ تدهور امبراطورية غانه السابقة على يد الصوصو فى مطلع القرن الثالث عشر ، بل يقال إن أوائل المهاجرين من الأكان تحركوا من غانه على أثر دخول المرابطين العاصمة عام ١٠٧٦ م ومن فروع الأكان قبائل أطلقت على نفسها اسم الأشتانتى Ashanti عندما انفصلت عن أشقائها واخترقت الغابات الاستوائية ، منذ القرن الخامس عشر الميلادى ، لهذه الصلة القديمة جانب فى تفسير اسم جمهورية غانه الحديثة(٢٢٥) .

الحواشى والمراجع

(١) Church, R.G., West Africa, A Study of the Environment and Man's Use of It, p. 237 ; L. Lugard, A Tropical Dependency, p. 95 ; Hogben, S.J., The Muhammadan Emirates of Nigeria, p. 28; lCooley, W.D., The Negroland of the Arabs, pp. 33-47 ; Wiedner, D.L., A Hist. of Africa South of the Sahara, p. 28; Talbot, P.A., The Peoples of Southern Nigeria, p. 62 ; Bernard, H., Afrique Septentrionale et Occidentale (Géogr. Univ.) T. XI, p. 428 ; Baumann H. and Westermann, D., Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique, p. 392.

(٢) تاريخ الفتاش ص ٤٢ .

(٣) استعمل ترمنجهام كلة جانا Ghana للدلالة على الإمبراطورية ، وكلة غانه للاشارة إلى جمهورية غانه الحديثة (راجع كتابه : Islam in West Africa, p. 3. .

(٤) فى كتابه : L'Islam dans l'Afrique Occidentale Française, p. 50, No. 1.

انظر كذلك : Dudly Stamp, Africa, A Study in Tropical Development, p. 271 ; Okafor (In the New West Africa), p 27.

(٥) وعبارة مارمول : "Gualata quo Otros Ilaman Ganata".

راجع كتابه : L'Afrique, Paris, 1661 ، وانظر كذلك :
Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moors, p 85

(٦) Fage, J.D., Introduction to the Hist. of West Africa, p. 20

(٧) De La Roncière, Ch., La Découverte de l'Afrique au Moyen-Age, I, p. 103

(٨) المغرب ص ١٧٥ . انظر كذلك : الشنقيطى : الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ص ٤٣٧ — ٤٤٤ .

(٩) معجم البلدان ج ٣ ص ٧٧٠ .

(١٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٤ .

(١١) الإلمام ص ٢٢ ، انظر كذلك : ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٦٨ ، ٨٧ .

(١٢) نعيم قداح : أفريقيا الغربية فى ظل الإسلام ص ٢٨ .

(١٣) L. Lugard, loc. cit., p. 54 ;

(١٤) هذه الإمبراطوريات للمؤلف تحت الطبع .

(١٥) إمبراطورية مالى للمؤلف فى المطبعة راجع :
Mc Cullock, M., The Peoples of Sierra Leone Protectorate (Ethnography Survey of Africa, edited by D. Forde), pp. 1-4 ; Hollis, A.C., The Mandi, their language and folklore, pp 1-5.

(١٦) الصيغة العربية عن البكرى والإدريسى .

(١٧) الصيغة العربية عن الفتاش والسعدى .

(١٨) انظر ما يلى :

(١٩) راجع : L. Lug., loc. cit., p. 59 ; Baumann, loc. cit., p. 453 Wiedner, loc. cit., p 28 ; Bovill, loc. cit., pp. 69, 81, 194 ; Bernard, loc. cit., p. 423 ; Le Chatelier, A., L'Islam dans l'Afrique Occidentale, pp. 95, 101-102 ; Urvoy, Y., Petit Atlas Ethno-Démographique du Soudan, p. 29 ; Spitz, G., L'Ouest Africain Français, p. 61 ; De La Roncière, loc. cit., p. 84 ; Trimingham, loc. cit., pp. 13-14 ; Palmer, R. The Bornu Sahara and Sudan, The Map (Pocket at End);
سلجمان : السلالات البشرية فى أفريقيه (الترجمة العربية) ص ٥٤ ؛ امبراطورية البرنو الإسلامية للمؤلف فى المطبعة .

انظر كذلك : Binger, Du Niger au Golfe de Guinée, (Paris. 1892).

(٢٠) انظر خريطة إمبراطورية غانة .

(٢١) Fage, p. 18 ; Gouilly, p. 50 ; Wiedner, p. 28 ; Spitz, p. 61.

(٢٢) De Pedrals, Manuel Scientifique de l'Afrique Noire. pp. 131-132 ; Spitz, p. 61.

(٢٣) De La Roncière, I, pp. 86, 102-108. ، انظر كذلك :
Nahoum Slousch, Etude sur l'Hist des Juifs au Maroc (Paris, 1905)

(٢٤) Hogben, p. 27.

(٢٥) تاريخ السودان ٩ .

(٢٦) Bovill, p. 69 ; Hogben, p. 27 ; Baumann, p. 392 ; Fage, p. 18 ; Yver, p 139 ; Davidson, Old Africa Rediscovered, p. 63.

(٢٧) نقلتها المراجع الأجنبية Wakore

(٢٨) نقلتها المراجع الأجنبية Wangara

(٢٩) الفتاش ص ٤٢

(٣٠) نقلتها المراجع الأجنبية Baghana

(٣١) تاريخ السودان ص ٩ ، انظر كذلك :
Fage, p. 18 ; Okafor, p. 27 ; L. Lug., p. 90 ; De La Roncière, I, p. 103 ; De Pedrals, p. 132.

(٣٢) الفتاش ص ٤١

(٣٣) الفتاش ص ٤١ ، انظر كذلك : De La Roncière, I, p. 103.

(٣٤) الفتاش ص ٤١

(٣٥) اختلفت المصادر فى تحديد نهاية حكم الأسرة الأولى هذه ، فذكر بعضها أنها انتهت عام ٧٧٠ م ، بينما ذكر البعض الآخر أن نهايتها كانت فى عام ٧٩٠ م .

(٣٦) Spitz, p. 61.

(٣٧) راجع Bovill, pp. 67-68.

(٣٨) الفتاش ص ٤١

(٣٩) De La Roncière, I, p 88 ; Fage, p. 18 ; De Pedrals, pp. 132, 392.

(٤٠) الفتاش ص ٤٢

(٤١) أنظر ما يلي: Fage, p. 18 ; De Pedrals, pp. 59-62, 132, 151-152

(٤٢) Baumann, p. 390 ; Davidson, p. 64.

(٤٣) المغرب ص ١٧٤ ؛ أنظر كذلك :

L. Lug., p. 95 ; Hogben, p. 28 ; Wiedner, p. 28 ; Bovill, p. 69 ; Pedrals, p. 132 ; De La Roncière, I, pp. 86, 103

(٤٤) الفتاش ص ٤١

(٤٥) تاريخ السودان ص ٩

(٤٦) Yver, p. 139

(٤٧) أودغست لا وجود لها اليوم ، وكانت تقع بحسب رواية البكرى على بعد مسيرة نحو شهرين من سجلماسه وخمسة عشر يوماً من عاصمة غانة ، ومكانها الآن تجداوست Tegdaoust شرقي منطقة تاجانت Tagant وتقع ضمن جمهورية موريتانيا الحديثة .

راجع : الشنقيطي : الوسيط ص ٤٣٧ ؛ وعنه أخذت الصيغة العربية الأصلية لمنطقة تاجانت كما كان ينطقها العرب ؛ المغرب ص ١١٩ Baumann, p. 392 ; Bovill, p. 69.

(٤٨) البكرى ص ١٧٩ ؛ تقويم البلدان ص ٧٢ — ٧٣

Fage, p. 21 ; Davidson, p. 85 ; Le Chatelier, pp. 12-128 ; L. Lug., pp. 91-93 ; De Pedrals, p. 132 ; Yver, p. 139 ; De La Roncière, I, pp. 83-84, 129, II, p. 143

(٤٩) المغرب ص ١٧٩ ؛ أنظر كذلك : الشنقيطى : الوسيط ص ٤٤٢ ؛ نزهة المشتاق ص ١٠ ؛ Okafar, p. 27. Delafosse, Traditions..., pp. 6-18.

(٥٠) أنظر خريطة إمبراطورية غانة .

(٥١) نزهة المشتاق ص ١٤ ؛ قداح ص ٢٧ — ٢٩

Bovill, pp. 69, 84 ; Okafar, p. 27 ; Fage, pp. 18-19, 22 ; Davidson, pp. 84-85 ; Hogben, p. 28 ; Gouilly, p. 50 ; Yver, p.. 139

(٥٢) أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ٣٩ أ

(٥٣) الفتاش ص ٤١

(٥٤) Yver, p. 139 ; Davidson, p. 63 ; De Pedrals, p. 132 ; Spitz, p. 61 ; Baumann, p. 391 ; Gravier, Recherches sur les Navigations Européennes faites au Moyen-Age, p. 17.

(٥٦) أخذت الغابة اسمها من الأحراش التى كانت تحيط بها .

(٥٧) المغرب ص ١٧٤ — ١٧٥ ؛ أنظر كذلك :

Davidson, p. 89 ; Hogben, p. 28 ; Bovill, p. 81

(٥٨) راجع تاكيتوس والشعوب الجرمانية للمؤلف ص ٥٥

(٥٩) نزهة المشتاق ص ٦

(٦٠) نزهة المشتاق ص ١١

(٦١) تاريخ ابن الوردى ص ١٥٨

(٦٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٤

(٦٣) الإلمام ص ٢٣

(٦٤) ليو الأفريقى: الكتاب السابع ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ٢٩١

(٦٥) Cooley, p. 45-47

(٦٦) Fage, p. 20 ; L. Lug., p. 93
Shinnie, Ancient African Kingdoms, pp. 47-48

(٦٧) Bovill, pp. 80-81 ; Gouilly, pp. 50-51

(٦٨) Hogben, p. 28

(٦٩) De La Roncière, I, pp. 86-87, 108

(٧٠) قداح ص ١٥٤

(٧١) Church. p. 238 ; Shinnie. loc. cit., p. 49 ; Davidson, p. 86

(٧٢) Davidson, p. 86 : أنظر : خريطة مدينة كومبى صالح .

(٧٣) Davidson, p. 86 ; Bovill, p. 68

(٧٤) Davidson, p. 85

(٧٥) قداح ص ٣٤ ؛ Shinnie, p. 48 ; Davidson, p. 87 ; De Pedrals, pp. 131-132.

(٧٦) Shinnie, p. 45

(٧٧) Shinnie, p. 48 أنظر اللوحات

(٧٨) Ibid., p. 49 أنظر اللوحات

(٧٩) Shinnie, p. 49 ; Davidson, p. 87 أنظر اللوحات

(٨٠) Bovill, pp. 68-69 ; De La Roncière, I, pp. 85-86 ; De Pedrals, p. 133

راجع كذلك : Mauny, R., Gravures, Peintures et Inscriptions Rupestres de l'Ouest African (Dakar, 1954).
به مجموعة من الصور والخرائط والبيانات عن المواقع التى تمت فيها عمليات الحفر فى كاوار وتاجانت وولاته وغيرها ، فضلا عن مجموعة قيمة من المراجع العلمية . وقد صدر هذا الكتاب أو هذا التقرير عن المعهد الفرنسى لأفريقية السوداء (I.F.A.N.)

(٨١) صورة الأرض ص ١٠١

(٨٢) صورة الأرض ص ١٠١

(٨٣) L. Lugard, p. 107

(٨٤) البكرى ص ١٥٩

(٨٥) كتبتها المراجع الأجنبية Silla

(٨٦) المغرب ص ١٧٢-١٨٣ ؛ أنظر كذلك نزهة المشتاق ص ٣ ؛ ديشان : الديانات فى أفريقية السوداء (الترجمة العربية) ص ١٢٥

(٨٧) المغرب ص ١٧٩

(٨٨) صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨٤

(٨٩) المغرب ص ١٧٤ — ١٧٥ ؛ راجع ما سبق عن العاصمة .

(٩٠) المغرب ص ١٧٥

(٩١) المغرب ص ١٧٥

(٩٢) المغرب ص ١٧٥ ؛ أنظر كذلك :

L. Lugard, p. 95 ; Bovill, pp. 81, 84 ; Hogben, p. 28 ; Davidson, p. 29 ; Fage, p. 21

(٩٣) De La Roncière, I, p. 103

(٩٤) Bovill, p. 84

(٩٥) الاستقصاء ج ٢ ص ٢٠ — ٢١ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ص ٦ — ١١ ، الديانات فى أفريقيا السوداء ص ١٢٢ — ١٢٣ أوليفر ، فيج : موجز تاريخ إفريقية (الترجمة العربية) ص ٩١ — ٩٣

Davidson, p. 85 ; Fage, p. 22 ; Bovill, pp. 84-85 ; De La Roncière, I, pp. 84, 86, 134 ; De Pedrals, p. 147 ; Shinnie, p. 50 ; Marty, Etudes sur l'Islam et les Tribus Maures p. 2 ; Rinn, Marabouts, p. 14 ; Largeau, Le Sahara Algérienne, pp. 109-123 ; Hodgkin, T., Islam and National Movement in West Africa (Conference on Afr. Hist. and Arch., London, 1961).

أنظر كذلك : René-Basset, Mission au Sénégal, Recherches Historiques sur les Maures (Paris, 1910), p. 463 ; Brevié, Islamisme contre Naturisme au Soudan Français, p. 143.

(٩٦) قداح ص ٣٠

(٩٧) أنظر ما يلى وراجع : الديانات فى أفريقيا السوداء ص ١٢٣

(٩٨) الاستقصا ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ Hogben, p. 27

(٩٩) Davidson, p. 88

(١٠٠) Trimingham, pp. 13-14 أنظر خريطة نشاط قبائل السوننك فى الدعوة إلى الإسلام فى السودان الغربى .

(١٠١) الغرناطى : كتاب تحفة الألباب ص ٤٢

(١٠٢) المغرب ص ١٧٧

(١٠٣) المغرب ص ١٧٧ ؛ أنظر كذلك Bovill, p. 84 ; Davidson, p. 88

(١٠٤) نزهة المشتاق ص ٦ ، أنظر كذلك :
De La Roncière, I, p. 85 ; L. Lugard, pp. 98-99

(١٠٥) تاريخ ابن الوردى ص ١٦٠

(١٠٦) الإلمام ص ٢٢

(١٠٧) إمبراطورية مالى للمؤلف ، وراجع التعريف ص ٢٧

(١٠٨) إمبراطورية مالى للمؤلف ، وراجع التعريف ص ٢٧

(١٠٩) إمبراطورية برنو للمؤلف وراجع :
Palmer, The Bornu Sahara and Sudan, pp. 7-8

(١١٠) المغرب ص ١٧٥

(١١١) المغرب ص ١٧٥

(١١٢) راجع ما سبق وانظر البكرى ص ١٧٤ ؛ Hogben, p. 28
Davidson, pp. 88, 90 ; L. Lug., pp. 95, 119

(١١٣) راجع السعدى ص ٢٠ — ٢٢ ؛ L. Lug., pp. 113-114
Baumann, pp. 31, 409-410 ; Palmer, op. cit., pp. 7, 55, 81-82 ; Fournel, op. cit., p. 198.

(١١٤) تحفة النظار ج ٤ ص ٤٤٣

(١١٥) صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩٤ ، إمبراطورية مالى للمؤلف .

(١١٦) قداح ص ١٠٤

(١١٧) إمبراطورية مالى للمؤلف وراجع Monteil, pp. 59-60

(١١٨) إمبراطورية بورنو للمؤلف ؛ Palmer, pp. 6, 92, 209-210

(١١٩) المغرب ص ١٧٥

(١٢٠) تاريخ ابن الوردى ص ١٦٠

(١٢١) البكرى ص ١٧٥

(١٢٢) Tagant الصيغة العربية عن الشنقيطى . ويقول : إن معنى هذه الكلمة (تاكانت) الغابة (ص ٤٢٨)

(١٢٣) Baghan — الصيغة العربية عن السعدى

(١٢٤) قداح ص ٢٩ ، ١٠٩ ؛ Bovill, pp. 84-85 ; Fage, p. 22 ؛ Davidson, p. 85 ، أنظر ما يلى وراجع الخريطة رقم ١

(١٢٥) Bovill, p. 84

(١٢٦) قداح ص ٥١ ، ١١١

(١٢٧) Okafor, p. 27

(١٢٨) المغرب ص ١٧٥ ؛ راجع ما سبق وانظر : Bovill, p. 81
Fage, p. 21

(١٢٩) الحجف بفتح الجيم والحاء جمع حجفة ، وهو الترس المأخوذ من جلود وليس فيه خشب ولا عقب (المختار ، القاموس المحيط) .

(١٣٠) الساجور خشبة تجعل في عنق الكلب ، ويقال كلب مسوجر (المختار ، القاموس المحيط) .

(١٣١) دبا Daba أو دابا Daba بلغة السوننك طبول ملكية ، ولا زالت تعرف إلى اليوم بهذا الإسم عندهم — راجع Bovill, p. 81 Davidson, p. 85 ; L. Lug, p. 99

(١٣٢) المغرب ص ١٧٥ — ١٧٦

(١٣٣) نزهة المشتاق ص ٧

(١٣٤) نزهة المشتاق ص ٧ ؛ أنظر كذلك De Pedrals, p. 133

(١٣٥) المصدر السابق

(١٣٦) تاريخ ابن الوردى ص ١٦٠

(١٣٧) قداح ص ٣٧

(١٣٨) Bovill, p. 82 ; Davidson, p. 85 ; Spitz, p. 61

(١٣٩) البكرى ص ١٧٧

(١٤٠) Davidson, pp. 84-85 ; Shinnie, p. 47 ; Bovill, p. 82

(١٤١) تاريخ ابن الوردى ص ١٥٨

(١٤٢) أنظر خريطة القوافل وراجع : Fournel, pp. 115-133 168-190 ; Okafar, p. 27 ; Bovill, p. 82

(١٤٣) أنظر ما يلي وراجع : Bovill, p. 81

(١٤٤) Fage, p. 20 ; L. Lug., p. 100 ; Hogben, p. 29

(١٤٥) L. Lug., p. 100 ; Hogben, p. 29

(١٤٦) Spitz, p. 61

(١٤٧) المغرب ١٧٧

(١٤٨) المغرب ص ١٧٧

(١٤٩) Bovill, p. 82

(١٥٠) Davidson, p. 48

(١٥١) صورة الأرض ص ٩٨

(١٥٢) إمبراطورية مالى للمؤلف ؛ ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٤ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ ؛ De La Roncière, I, pp. 83, 88, 129, 138 ; II, p. 143 ; III, p. 44 Bovill, pp. 141-142 ; Fage, p. 20

(١٥٣) معجم البلدان ج ٣ ص ٥٣ ؛ راجع كذلك نشق الأزهار ص ٨ ؛ Bovill, p. 81

(١٥٤) تحفة الألباب ص ٤١ — ٤٢

(١٥٥) Hogben, p. 29; Shinnie, p. 47

(١٥٦) راجع ما سبق وانظر المغرب ص ١٧٥ ؛ Davidson, p. 89

(١٥٧) المثقال يساوى حوالى ثمن أوقية ذهب (Davidson, p. 88)

(١٥٨) المغرب ص ١٧٦ ؛ أنظر كذلك Davidson, p. 88

(١٥٩) إمبراطورية مالى للمؤلف ؛ ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٣٩ — ٤٤١ ؛ مسالك الأبصار ج ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٧ ؛ L. Lug., p. 117 : Bovill, p. 94 .

(١٦٠) نزهة المشتاق ص ٦ — ٧

(١٦١) نزهة المشتاق ص ١٤

(١٦٢) أنظر خريطة إمبراطورية غانة .

(١٦٣) Bovill, pp. 83, 191-192, 194-202 ; Davidson, pp. 78, 81 ; Fage, p. 21 ; Shinnie, p. 45 ; Spitz, p. 61 ; De La Roncière, I, p. 98 ; De Pedrals, p. 132

(١٦٤) تاريخ ابن الوردى ص ١٠٨

(١٦٥) أخبار الزمان (مخطوط) ورقه ١٣٩ ا

(١٦٦) صورة الأرض ص ٩٨

(١٦٧) الضمير عائد على ملك غانة .

(١٦٨) الندرة (Nugget) هى القطعة الكبيرة .

(١٦٩) المغرب ص ١٧٧ ؛ أنظر كذلك Davidson, p. 88 ; Bovill, p. 82

(١٧٠) Davidson, p. 83

(١٧١) Shinnie, p. 45

(١٧٢) Fage, p. 21

(١٧٣) أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ٣٨ ب ، ١٣٩ ا .

(١٧٥) من مراجع التجارة الصامتة :

Gautier, Le Passé de l'Afrique du Nord, pp. 48-58
De La Roncière, I, pp. 94-99 ; Shinnie, pp. 44-46 ; Bovill, pp. 82-83 ; Johnston, pp. 296-300 ; Kupe, p. 28 ; Wiedner, pp. 29-30 ; Ward, p. 30 ; Reindore, p. 2 ; Gsell, I, pp. 468-469 ; Fage, pp. 20-21 ; Hobbey. Early Explores, p. 7 ; Opening Afr., p. 4 ; Ivir Willks (Univ. Coll. of Ghana). A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Guinea (Paper Read before the third Conference on African Hist. and Arch., London, 1961).

(١٧٦) من مراجع هذه الصحيفة :

البكرى ص ١٨٣ ؛ نزهة المشتاق ص ٣ — ٣ ، ٨ — ٩ ؛ الشنقيطى : الوسيط ص ٤٩٣ - ٤٩٤ ؛

Cooley, pp. 111-115
Pruen, p. 208 ; Johnston pp. 151-154 ; Hobbey, Opening Afr., pp. 17-18 ; Bovill, p. 83 ; Ryder The Portuguese in West Africa, (Conference on Afr. Hist. and Archeol., London, 1961).

(١٧٧) راجع ما سبق وانظر Trimingham, pp. 13-14

(١٧٨) قداح ص ٣٦ ، ٤٢

(١٧٩) Davidson, pp. 70-74 ; Shinnie, p. 45

(١٨٠) راجع ما سبق وانظر المغرب ص ١٧٧ ؛ Spitz, p. 61

(١٨١) Bovill, p. 90

(١٨٢) راجع ما سبق وانظر المغرب ص ١٧٧ ؛ Davidson, p. 88

(١٨٣) Bovill, p. 81,

(١٨٤) تاريخ ابن الوردى ص ١٦٠

(١٨٥) نزهة المشتاق ؛ وانظر كذلك Shinniel p. 47

(١٨٦) عثر حوالى عام ١٩٠٠ م على قطعة ذهب تشبه هذه القطعة فى بامبوك ، إحدى مناطق الإقليم المشهور باسم (ونقارة) أو أرض الذهب ، كما وصفه الكتاب العرب ، وهذه المنطقة تابعة حالياً لجمهورية مالى ، وتقع بين رافدى السنغال : بافنج وفاليمى .

راجع Bovill, p. 81 .

(١٨٧) المقصود بالنيل نهر « النيجر »

راجع De La Roncière, I, pp. 89, 90

(١٨٨) نزهة المشتاق ص ٦

(١٨٩) De La Roncière, I, p. 85

(١٩٠) المغرب ص ١٧٦

(١٩١) إمبراطورية مالى للمؤلف ؛ ابن بطوطة جـ ٤ ص ٣٠٩ ؛ Davidson, p. 85 ; L. Lug., p. 99 ; Bovill, p. 81

(١٩٢) (١٩٣) المغرب ص ١٧٥

(١٩٤) نزهة المشتاق ص ١٤

(١٩٥) المغرب ص ١٧٥

(١٩٦) نزهة المشتاق ص ١٤

(١٩٧) المغرب ص ١٧٥

(١٩٨) الفتاش ص ٤٢

(١٩٩) المغرب ص ١٧٩

(٢٠٠) المغرب ص ١٧٦ ؛ أنظر كذلك Bovill, p. 82 ; Hogben, pp. 28-29

(٢٠١) أنظر برستد : انتصار الحضارة — ترجمة أحمد فخرى ص ١٦٨

(٢٠٢) دول الهوسا للمؤلف ، راجع : Hogben, p. 29

(٢٠٣) راجع ما سبق وانظر آثار كومبي صالح .

(٢٠٤) راجع ما سبق وانظر البكرى ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٢٠٥) المغرب ١٧٧

(٢٠٦) الإسلام واللغة العربية فى نيجرشيا للمؤلف ، راجع : قداح ص ٤١ ، ١٣٩ ، ١٤١ — ١٤٢ ، ١٤٩ ؛ Blyden, pp. 14-15

(٢٠٧) راجع ما سبق وانظر البكرى ص ١٧٥

(٢٠٨) راجع ما سبق

(٢٠٩) إمبراطورية مالى للمؤلف ؛ راجع De La Roncière, I, p. 88
Bovill, pp. 98-99 ; L. Lug.. pp 101-103

(٢١٠) راجع De La Roncière, I, pp. 129-136 ; Palmer, pp. 205-206

(٢١١) نزهة المشتاق ص٦ ؛ L. Lug., pp. 98-99

(٢١٢) ظهر التكاررة مرة أخرى فى تاريخ غربى أفريقيا ، وقاموا بدور كبير فى حركة الجهاد الإسلامى والكفاح الوطنى زمن الحاج عمر وابنه أحمد وفى القرن التاسع عشر الميلادي ، وكان لهم إمبراطورية كبرى أزالها الاستعمار الفرنسى (إمبراطورية التكاررة للمؤلف) وراجع : تاريخ ابن الوردى ص ١٥٢ ، ١٧٢ ؛

Delafosse, Takruer (Encycl. of Islam), Vol. IV, p. 633 ; L. Lug., p. 115 ; Urvoy, p. 31 ; Trimingham. p. 13 ; Cooley, pp. 97-98 ; Le Chatelier, p. 80 ; Fage, pp. 146-147

(٢١٣) Shinnie, pp. 49-50

(٢١٤) Spitz, p. 61

(٢١٥) راجع ما سبق وانظر Thompson and Adloff, p. 521

(٢١٦) ، (٢١٧) راجع ما سبق وانظر :
Hogben, p. 27 ; Davidson. p. 85 ; L. Lug., p. 93,

(٢١٨) راجع ما سبق وانظر : Bovill, pp. 74, 84-5 ; Gouilly. pp. 50-51

(٢١٩) راجع ما سبق وانظر : الاستقصا ج ٢ ص ٢١ — ٢٢ ؛
Bovill. pp. 74, 84-85 ; Hogben, pp. 50-51 ; L. Lug., pp. 99, 110 ; Oliver and Fage. pp. 11-15 ; Spitz, p. 61 ; Davidson, p. 85 ; Fage, p. 22

(٢٢٠) L. Lug., p. 115 ; Fage, p. 22 ; Le Chatelier, p. 80

(٢٢١) ورد إسم سومانجورو بصور مختلفة منها : سومانهورو وسوماجور ؛
Sumanhoro, Sumanguruer (Delafosse, Soso, Encycl. of Islam, Vol. IV), pp. 489-490 ; Traditions, pp. 21-30 ; Le Chatelier, p. 80 ; L. Lug., p. 115 ; Fage, p. 22 ; De Pedrals, p. 152 ; Talbot, p. 63)

(٢٢٢) Bovill, p. 90 ; Yver, p. 140 ; Baumann, p. 392 ; L. Lug., pp. 165-166

(٢٢٣) إمبراطورية مالى للمؤلف ؛ صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ ؛ ليو الأفريقى : الكتاب السابع ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، قداح ص ٣١ ؛ ابن خلدون ج ٥ ص ٢٩٣ ، ج ٦

ص ٢٠٠ ؛ Delafosse, Traditions, pp. 20, 30 ; Monteil, pp. 65-66, 69-70 ; Labouret, pp. 203, 241 ; Bovill, p 86 ; Baumann, p. 392 ; Fage. pp. 24-28 ; Cooley, p. 69 ; Urvoy. pp. 23-24 ; Shinnie, p. 51 ; Hogben. p. 30 ; Oliver and Fage, pp. 85-86 ; Okafar, p. 28 ; De La Roncière, I, p. 86 ; Spitz, p. 61 ; L. Lug., p. 119

راجع خريطة إمبراطورية غانة .

(٢٢٤) كان الهولنديون هم الذين أطلقوا إسم ساحل الذهب على هذه المنطقة فى القرن السابع عشر الميلادى.

(٢٢٥) من مراجع هذه الصفحة الأخيرة :

ساجهان (الترجمة العربية ، ص ٥٧) ؛ شبل ، دراسات فى اقتصاديات القارة الأفريقية ، ص ١٠١ ؛ قداح ص ٢٨ ؛ د. حسنين : الاستعمار الفرنسى ص ٨٣ — ٨٧ ، ١٠٠

Johnston, pp. 301-315 ; Apter, D.E., The Gold Coast in Transition, pp. 21-27 ; Church, pp. 227-229, 237-245, 360-363 ; Wiedner, p. 42 ; Bourret, Ghana, pp. 1, 11, 14 ; Ward, pp. 46-47 ; Fage. pp. 70-71, 75 ; Talbot, p. 62 ; Thompson and Adolff p. 238 ; Kitchen, (Edit.) pp. 326-346 ; Hance, The Geography of Modern Africa (New York, 1965) ; Fage, Ghana, A Historical Interpretation (Ma disons 1959). Meyerowitz, The Akan of Ghana Their Ancient Be lief (London, 1958).

بهو السباع

بقصر الحمراء بغرناطة

دكتور جمال محرز

بهو السباع أحد أبهاء قصر الحمراء القائم فوق جبل السبيكة مشرفاً على مدينة غرناطة ، اكتسب اسمه من تلك النافورة بوسط فناء هذا البهو ، وذاع صيته بسببها وطبقت شهرته الآفاق .

وهو آية من آيات العمارة الإسلامية ، والواقع أن قصر الحمراء جميعه من أجمل الآثار الإسلامية ليس فى الأندلس فحسب بل وفى العالم الإسلامى أجمع ولقد شاءت الظروف أن يظل هذا القصر سليماً لم يلحقه التدمير الذى أصاب العمائر الإسلامية بالأندلس عقب استرداد المدن الأندلسية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى اتخاذه مسكناً للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابلا عقب سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ فى يدهما .

والحق أن الزائر لهذا البهو ليأخذه العجب ويحار فى أمره فبأى شىء يعجب ، أفبحسن التخطيط وتنسيقه أم برشاقة الأعمدة والعقود المقربصة كأنها خلايا النحل أم بفن الزخارف ووفرتها وتنوعها وكأنها الدنتلا فالواقع أن المشاهد لهذا كله تكاد روعة المنظر تملك عليه أنفاسه .

ويحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا البهو أن نذكر كلمة عن تاريخه وما أصابه به الزمن وما حدث له من إصلاحات وترميمات .

ولعل أقدم إشارة وصلت إلينا عن هذا البهو هو ذلك الوصف الذى يرجع إلى عام ١٥٠٢م أى بعد أربع سنوات من سقوط غرناطة فى أيدى الأسبان وقد ورد فى هذه الإشارة أن أرضية الفناء كانت مغطاة برخام وأنه كان به أشجار من أشجار البرتقال وأن الأروقة كانت مكسوة بالرخام أيضاً ، كما تذكر أن عدد الأعمدة ٢٥٠ عاموداً .

وتدل وثيقة موجودة فى أرشيف قصر الحمراء ترجع إلى عام ١٥٥٢م على أن القباب الخارجية التى كانت تغطى الكشكين قد هدمتا وقاية للقباب الداخلية من التلف وحماية لها من الدمار كما تذكر الوثيقة أيضاً أن السقف قد أصلح ونزع الحائر القديم (الرفرف) وذلك عند إصلاح الجص .

هذا وقد أصاب قصر الحمراء تلف كبير عام ١٩٥١م وبخاصة القاعة الملاصقة لبهو الرياحين أو البركة كما يسمى أحياناً وكذلك قاعة بنى سراج نتيجة حريق من إنفجار ذخيرة .

وقد تناولت يد الإصلاح هذا البهو عام ١٥٩٥م واستمرت حتى عام ١٦٦١م فغطيت قباب كثيرة وأصلح القرميد الأبيض اللون والأخضر الذى كان لا يزال يغطيها . كما نزعت أرضية قديمة بداخل وخارج الممر مكونة من قطع صغيرة من الحجر والزليج وكذلك أصلح الجص .

والظاهر أن الرخام الذى كان يكسو الأرضية قد نزع فى القرن السابع عشر الميلادى ويستدل على ذلك من إشارة ترجع إلى عام ١٦٤٠م . إذ تقول إن فسيفساء البهو كلها قد نزعت وأجريت إصلاحات متعددة بهذا البهو خلال عام ١٧٠٨م ، ١٨٣٨م ، ١٨٧٨م ، غير أن إصلاحات العام الأخير بالرغم من كثرتها جاءت ثقيلة الظل بغيضة إلى النفس رديئة الصنع الأمر الذى أدى إلى تشويه الأصل تشويهاً كبيراً .

وفى عام ١٩٢٩م نزع الملاط الذى يغطى جدران الممرات فظهرت الرسوم المفتعلة البعيدة عن الأصل التى قام بعملها مرممو القرن الماضى كما ظهرت أيضاً أجزاء من الشريط الجصى القديم المكون من دوائر ومربعات بها كتابات نسخية كان فى مكان السفل المصنوع من الزليج . كما فتحت النوافذ التى تضىء الممرات وكانت قد سدت خلال الأعمال التى تمت عام ١٧٠٨ م ، وأعيد تغطية أرضية الممرات بالرخام على النحو الذى كانت عليه فى عام ١٥٠٢ م . وفى عام ١٩٣٤م نزعت القبة ذات القرميد المزجج التى بنيت عام ١٨٥٩ م وحل محلها غطاء هرمى الشكل .

وزائر هذا البهو يصل إليه من باب صغير مفتوح فى الجدار الفاصل بينه وبين بهو الرياحين أو البركة الذى كان المقر الرسمى لسلاطين بنى الأحمر حيث كانت تقام حفلات الاستقبال فى قاعة السفراء ببرج قمارش المطل على الفناء المحتوى على بركة مستطيلة محاطة بشجر الريحان .

وبعبور هذا الباب نجد أمامنا بهو السباع وهو القصر الخاص بسكنى السلاطين شيده السلطان محمد الخامس (١٣٥٤ — ١٣٥٨م ، ١٣٦١ — ١٣٩١م) كما تدل على

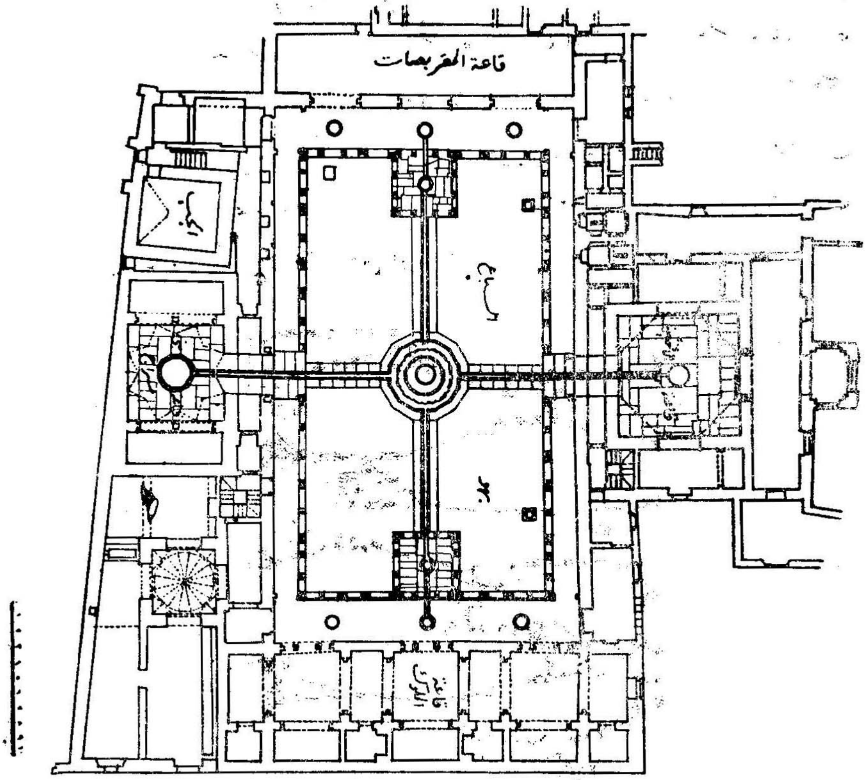

شكل ١ — تخطيط بهو السباع

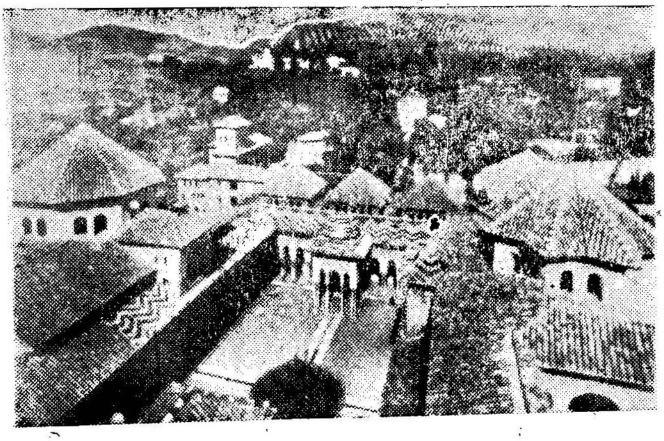

شكل ٢ — بهو السباع [منظر مأخوذ من فوق قصر شارل الخامس]

ذلك النقوش الكتابية التى تزين الجدران . وهو عبارة عن فناء يحيط به ممر ومن خلف القاعات والحجرات . شكل ١ ، شكل ٢ . أما الفناء فمستطيل الشكل تبلغ أبعاده ١٢٦ × ٧٣ × ٢٢,٥ قدماً وتتوسطه تلك النافورة التى طبقت شهرتها الآفاق ألا وهى نافورة السباع ، وهـذه النافورة (شكل ٣) عبارة عن قصعة كبيرة من الرخام قطرها ١٠,٥ قدماً وعمقها قدمان ويدور حول حافتها العليا من الخارج نقش عربى عبارة عن أبيات من الشعر من قول ابن زمرك الشاعر الوزير فيقول :

شكل ٣ — جزء من نافورة بهو السباع

تبارك من أعطى الإمام محمداً ... مغانى زانت بالجمـال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدايع ... أبى الله أن يلقى لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها ... تحلى بمرفض الجمان النواعيا
يذوب لجين سال من جواهر ... غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد ... فلم ندر أياً منهمـا كان جاريا
ألم تر أن المـاء يجرى بصفحها ... ولـكنهـا مدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه ⁂ وغض ذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هى فى التحقيق غير غمامة ⁂ تفيض إلى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ عدت ⁂ تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهى روابض ⁂ عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لا عن كلالة ⁂ تراث جلال يستخف الرواسيا
عليك سلام الله فأسلم مخلداً ⁂ تجدد أعيـــاداً وتبلى أعاديا

ويحمل هذه القصعة إثنا عشر أسداً ارتفاع كل واحد منها ٢,٥ قدماً تمج الماء من أفواهها حيث تنساب فى قنوات تصل إلى نافورتين إحداهما بغرفة ابن سراج والأخرى بغرفة الأختين كما تصل أيضاً إلى نافورتين أسفل الكشكين بكل كشك نافورة وهى من الرخام أيضاً .

ويصل الماء إلى قصر الحمراء من نهر حدرة وهو عمل هندسى رائع يدل على براعة المهندسين المسلمين إذ استطاعوا أن يرفعوا الماء من أسفل الجبل إلى قمته فأحالوا تلك المنطقة إلى جنة خضراء وارفة الظلال .

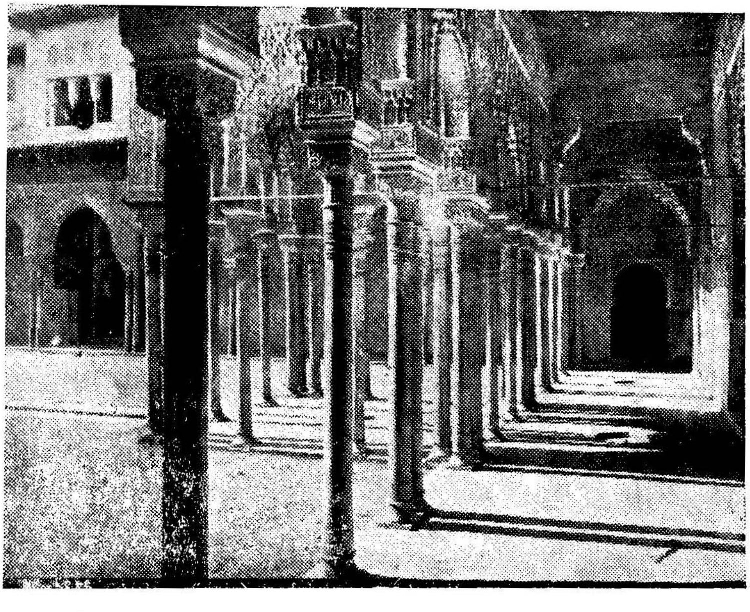

شكل ٤ — بهو السباع وواجهة حجرة مبنى سراج ومن فوقها غرف السكن

ويحيط بالبناء أعمدة تبلغ ١٢٤ عموداً موزعة حوله فرادى أو مثنى أو ثلاث أو رباع (شكل ٤) وهى من الرخام الأبيض الوارد من إقليم المرية ويبلغ طول العمود الواحد ٠ أقدام وتمتاز برشاقتها وأن لها حلقات بالقرب من تيجانها المخروطية الشكل من أسفل والمكعبة من أعلا ، وزخارفها جامدة بالقياس إلى باقى أجزاء الحمراء ونقرأ أحياناً فوق تيجانها عبارة « ولا غالب إلا الله » شعار بنى الأحمر الذى نجده فى مختلف أنحاء القصر ويحتمل أن أصل هذا التاج من شمال أفريقية حيث نجد ما يماثل صفاته الأساسية فى عمائر عصر الموحدين . ويعلو التاج طبلية من رخام أبيض تقوم بمثابة قاعدة لدعامة من الطوب تستخدم مسنداً للأربطة الخشبية الأفقية التى تربط الأعمدة بعضها إلى بعض . وتغطى هذه الأربطة بالجص والإسكايولا بحيث تكتسب شكل العقد المفصص إلا فى طرفى الضلعين الطويلين والكشكين حيث تحل المقربصات محل العقد المفصص ، ومما أكسب هذا البهو أصالة استخدام الأعمدة محل الأكتاف فى حمل العقود وهى هنا غير متساوية فيما بينها مما يضفى صفة التنوع لأشكالها فمثلا نجد بمنتصف كل من الضلعين الكبيرين عقداً كبيراً مستديراً أما باقى العقود فهى دائرية مفصصة غنية بزخارفها الجصية (شكل ٥) .

ومن صفات الأصالة أيضاً بهذا الفناء بروز كشكين بالضلعين إلى الفناء كشك بكل ضلع . ارتفاع الواحد منهما ٢٩ قدماً ويتكون من ١٢ عقداً من المقربصات يحملها ٢٠ عموداً ذوات تيجان مزينة بنقوش كتابية ومزخرفة بالجص المخرم كأنه الدنتلا . وقبة الكشك نصف كروية ومزخرفة بمتشابكات من نجوم وأشكال متعددة الأضلاع بشكل يدل على بلوغ النجارين الغرناطيين القمة فى الإتقان ويذكر أحد الأساتذة الأسبان أن ثمة شرفات كانت لهذين الكشكين تشابه شرفات جامع السلطان حسن بالقاهرة .

ومن خلف هذين الكشكين والأعمدة المقامة حول الفناء ممر عرضه ٧,٥ قدماً ويدور حول الفناء وعن ارتفاع واحد كورنيش من الخشب المزخرف الذى يحمل الحائر (الرفرف) الطائر المحمول على كوابيل مزخرفة .

وقد جاء فى وصف الرحالة الذين زاروا قصر الحمراء ما يفيد بأن ثمة أشجار برتقال كانت مزروعة بالفناء وأن الأشجار النباتية المتسلقة التى تغطى الواجهة على

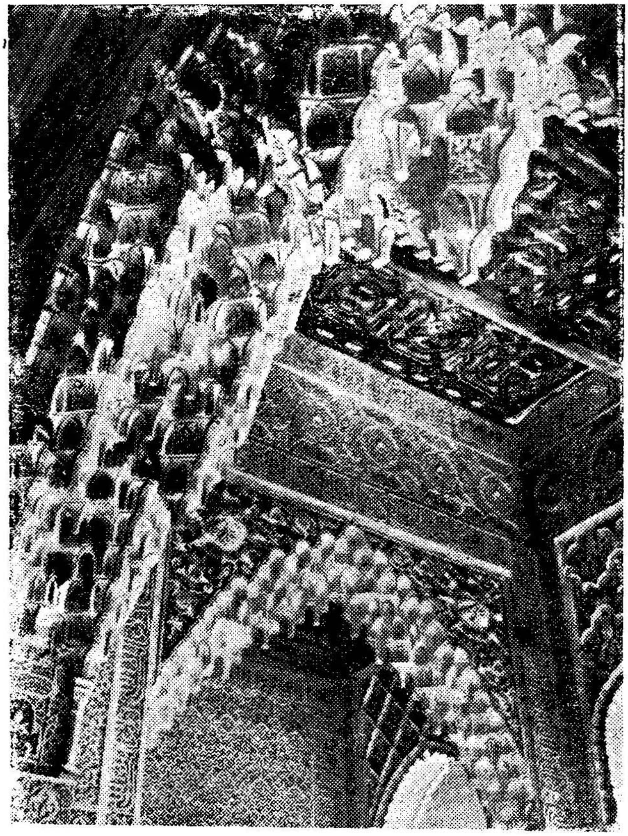

شكل ٥ — تفاصيل من العقود ببهو السباع

النمو الذى نجده فى الشرق كانت مزروعة فى بعض الزهريات. ولم يكن بالفناء حديقة وهناك من يذهب إلى أن ثمة بركة كانت موجودة بالفناء فضلا عن نافورات أخرى غير التى ذكرناها .

ونجد بعد هذا الممر المزخرفة جدرانه بالعناصر المختلفة بالجص حجرة بكل من الضلعين الكبيرين وقاعة كبيرة مفتوحة على الفناء بالضلعين القصيرين ، تسمى إحداهما حجرة بنى سراج نسبة إلى بنى سراج تلك الأسرة الغرناطية التى لعبت دوراً كبيراً فى حوادث غرناطة ونكبت كما نكبت أسرة البرامكة فى عهد هارون الرشيد . وهذه الحجرة رائعة فى زخارفها وبجدرانها بعض أبيات من نظم ابن زمرك فنى دائرتين بالجهة اليمنى واليسرى نقرأ :

فتحسبها الأفلاك دارت قسيهـــا تظل عمود الصبح إذ لاح باديا

وفى الصدر :

تبيت له خنس الثريا معيــذة ويصبح مثـل النواسيم رواقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا

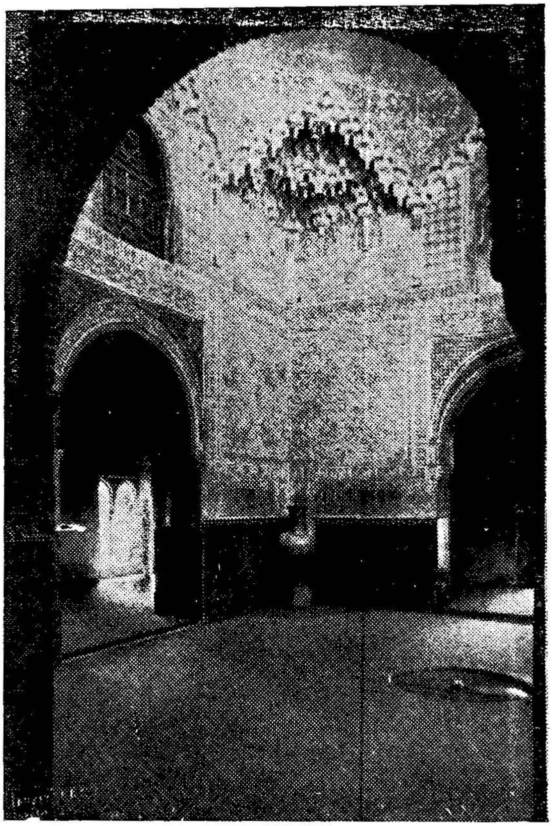

شكل ٦ — حجرة الأختين

أما حجرة الأختين (شكل ٦ ، ٧) فقد سميت بهذا الاسم لوجود لوحين من الرخام متشابهين وهى لا تقل حسناً وبهاء عن قاعة بنى سراج ويزين جدرانها بعض أبيات من قصيدة ابن زمرك بخلاف العناصر الزخرفية الأخرى فنستطيع أن نقرأ :

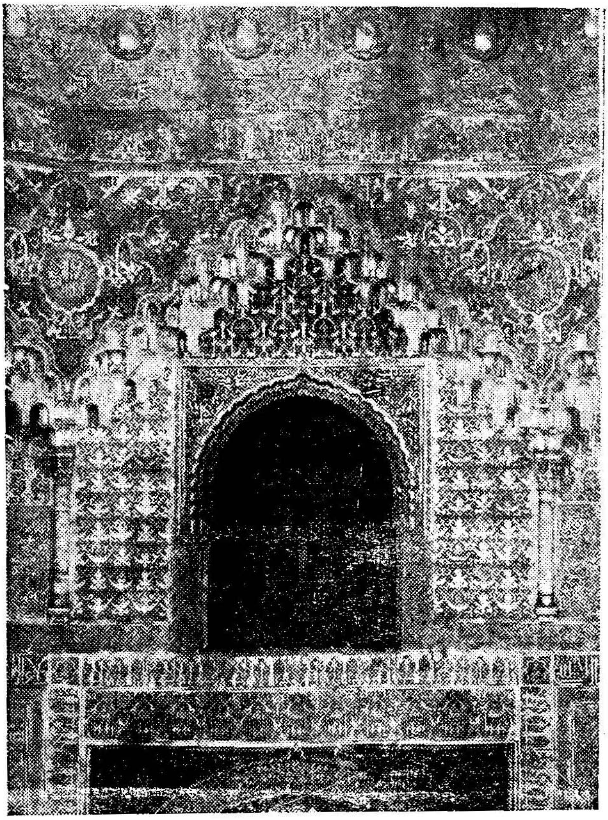

شكل ٧ — حجرة الأختين

تبيت له خنس الثريا معـيزة ويصبـح مثـل النواسيم رواقيا
فبين يدى مولاى قامت لخدمته ومن خدم الأعلى استفـاد المعاليا
وكم من قسى فى ذراه ترفعت على عمـد بالنور باتت مواليا
به المرمر المجـلد قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان راجيا

أما القاعتان بالضلعين القصيرين المفتوحتين على الفناء فتختلف كل واحدة منهما عن الأخرى من حيث التصميم وتسمى أحداهما قاعدة المقربصات والأخرى قاعة الملوك أو العدل وهى فى غاية الفخامة والأبهة وقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب وجود رسم يمثل سلاطين بنى نصر حول مائدة بالجزء الأوسط من السقف وهم فى هيئتهم

يشبهون بعض رسوم المدرسة السلجوقية فى التصوير التى ازدهرت فى القرن ١٣ م بملابسهم العربية وعمائمهم وسحنتهم السامية غير أن رسوم الحمراء تختلف من حيث طريقة رسمها عن أسلوب المدرسة السلجوقية إذ رسمت فوق جلد بعد تغطيته بطبقة رقيقة من الجص وهى هنا أقرب إلى صناعة جلود الكتب من اللاكيه منها إلى التصوير الإسلامى وكذلك تخالفها فى ألوانها . ولذا يظن أنها من عمل بعض الفنانين الأوربيين الذين كانوا موجودين فى غرناطة حينئذ والذين أتيحت لهم الفرصة للاطلاع على صور بعض المخطوطات العربية . ومما لا يمت بصلة إلى التصوير الاسلامى الرسوم الموجودة على جانبى رسوم الملوك ، تلك التى تمثل صور فرسان وصيد وهى ذات أسلوب أوربى واضح.

أما العناصر الزخرفية التى نشاهدها فى مختلف أنحاء هذا البهو فلا تختلف عن العناصر الزخرفية التى تزين باقى أنحاء قصر الحمراء وهى عناصر نباتية وهندسية وخطية ، فمن العناصر النباتية نشاهد الورقة الملساء والمثلثة الشكل ذات الفص الواحد ولها كأس أو بدون الكاس والورقة المتماثلة ذات الفصين وكلتاهما مأخوذتان عن زخارف عصر الموحدين وكذلك نجد الورقة المهشرة الأندلسية والمفصصة ويكثر استخدامها أكثر من السابقتين اللتين كانتا مستخدمتان فى عصر المرابطين ومما يلاحظ على الزخارف النباتية بصفة عامة أنها أقل غنى من زخارف القرن ١٢ الميلادى وأقل تنوعاً ، وتتكون العناصر الهندسية أساساً من اتصالات الأشكال المتعددة الأضلاع البسيطة ونجدها فى الخزف والزليج وأرض الغرف وبعض أجزاء من الجص وتبلغ العناصر الهندسية درجة غير عادية من التعقيد والإبداع الهندسى فى التكوينات المتشابكة ونلاحظ فيها التماثل التام والخضوع للقوانين الحسابية وهى سهلة التنفيذ معقدة المظهر. وتعد الحمراء بمثابة متحف للرسوم الهندسية المتشابكة غير أنها مملة ؛ أما النقوش الخطية فهى إما من الخط النسخى المغربى أو الكوفى وتشتمل على أدعية وتمنيات لسلاطين بنى نصر وأبيات من أشعار ابن زمرك فى وصف القصر وأجزائه وكذلك عبارة شعار بنى نصر .

هذا وتغطى الزخارف الجصية المختلفة الأنواع ما بين نباتية وهندسية وخطية وكذلك الزليج سطوح الجدران جميعها فكأنها قد اسدل عليها ستار مزخرف بمختلف أنواع الزخارف .

وقد بلغت العناصر الزخرفية فى الحمراء وفى الفن الغرناطى عموماً درجة عالية

من الإبداع والإتقان بالرغم من عدم تنوعها قياساً على القرون السابقة ولا غرو فإن الفن الغرناطى يمثل أقصى ما وصل إليه الفنانون المسلمون بالأندلس من درجات الإبداع وليس ذلك بغريب فإن غرناطة كانت المعقل الأخير أمام حركة الاسترداد الأسبانية وإليها التجأ الفارون من وجه الأسبان فتجمع بها فنانون من مختلف العواصم الإسلامية الأندلسية يلوذون بها من اضطهاد الأسبان فكان ذلك سبباً لازدهار الفنون بها إلى درجة كبيرة ، وفى وقت قصير ولذا هناك من يدعو إلى البحث عن مصدر هذه الزخارف فى قشتالة وشمال إفريقية .

وثمة ظاهرة فريدة نلاحظها ضمن هذه العناصر الزخرفية وهى عبارة عن بعض عناصر طبيعية المظهر لا تمت بصلة إلى التقاليد الإسلامية إذ تمت إلى الأسلوب الأوربى القوطى ، وكان هذا بتأثير الجوار او وجود بعض الفنانين الأوربيين بين المسلمين ، ولا يقتصر هذا على قصر الحمراء فقط بل غيره ممثلا فى بعض إنتـــاج الفن الغرناطى كالخزف ذى البريق المعدنى .

والملاحظ فى التخطيط العام لهذا البهو التماثل فى الأوضاع بالرغم مما يوجد من اختلاف بين كل وحدة وأخرى وقد ظهر تخطيط قريب الشبه من تخطيط بهو السباع فى إقليم مرثية بحصن الكاستييخو (شكل ٨) ، وقد قيل إن هذا البهو من تصميم

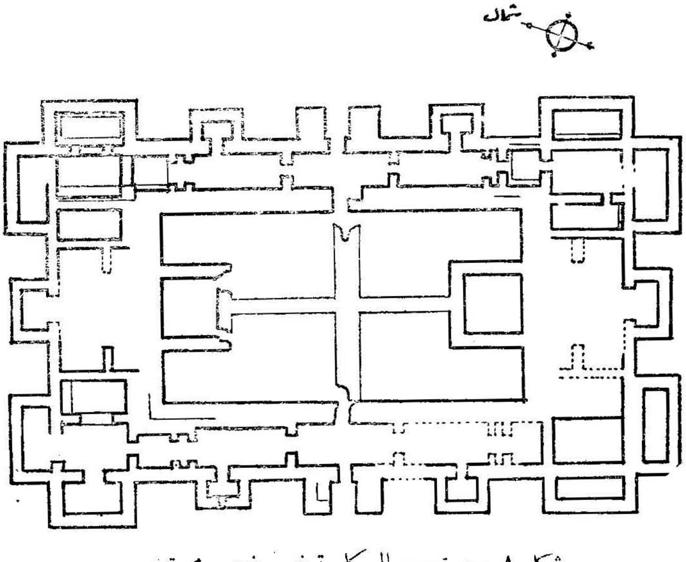

شكل ٨ — تصميم الكاستييخو بفحص ممرثين

مهندس مصرى يدعى ABENCENEID وواضح شدة التحريف فى الاسم الأسبانى الأمر الذى يجعل التعرف على الاسم العربى من الصعوبة بمكان ، وهذه هى المرة الثانية التى يذكر فيها اشتراك مهندس مصرى فى عمل معمارى اندلسى ، إذ سبق أن ذكر لنا المقرى اسم مهندس من أهالى الاسكندرية يسمى على بن جعفر عمل فى إنشاء مدينة الزهراء .

وهناك من يرى أن مصدر هذا التصميم القاهرة ، ولكن لما كانت أعمال الحفائر التى أجريت فى الفسطاط والمنازل التى لا تزال باقية إلى اليوم ، لم تمدنا بمثل واحد يتشابه مع بهو السباع فإننا نميل إلى القول بأن مصدر هذا البهو قد يكون بهو حصن متقودة وليس هناك ما يمنع فى هذه الحالة من أن يكون مصممه هو المهندس المصرى المشار إليه وأنه اشتق تصميمه من أمثلة موجودة بالأندلس .

المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان

كان لظهور الإسلام آثار عظيمة ونتائج باهرة فى تاريخ العرب . فقد أمدت الرسالة المحمدية الأمة العربية بسياج دينى وفكرى ساعدهم على خلق وحدة وقتية عبرت عن نفسها بإنشاء امبراطورية عظيمة الشأن . وتحت راية الإسلام إندفعت الجيوش العربية صوب الشرق والغرب والشمال حتى بلغت أماكن لم تصلها الهجرات العربية التى كانت تنساب عبر الحدود من وقت لآخر . وقد ثبت أن الجزيرة العربية ذات الإمكانيات الغذائية والرعوية المحدودة ، كثيراً ما عانت من ازدياد فى عدد سكانها دفعهم فى دورات متباعدة للهجرة عبر حدودها طلباً للغذاء والكلأ(١). ومن نافلة القول أن أضيف أن بعض القرائن ترجح أن عدداً من هؤلاء المهاجرين قد شقوا طريقهم إلى السودان، إما عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق الديار المصرية قبل ظهور الإسلام وهما الطريقان اللذان سلكهما العرب مؤخراً(٢) .

وقبل أن نمضى فى مناقشة العوامل التى ساعدت على هجرة العرب إلى السودان يحسن أن لانتعرض فى شىء من الإيجاز إلى وصف الحالة فى البلاد التى تقع جنوب أسوان والتى نسميها تجاوزاً فى حديثنا هذا « السودان » .

ففى الوقت الذى ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تلك الديار تتكون أولا من أرض البجة وهى تشمل تقريباً موطنهم الحالى . وثانياً — ثلاث ممالك تركز نفوذها فى وادى النيل بين أسوان وسنار : أما المملكة الأولى نوباتيا أو المريس فسرعان ما اتحدت مع المملكة الثانية المقرة وكونتا مملكة النوبة وعاصمتها دنقلا وتمتد هذه المملكة حتى كبوشيه جنوباً ، والمملكة الثالثة هى علوه وعاصمتها سوبا(٣). أما السكان وخاصة الشماليين والشرقيين منهم فكانوا يمثلون فى الأصل ، جنساً أقرب إلى المصريين الأوائل دون سواهم ولكنهم تأثروا فى درجات متفاوتة بالقبائل شبه

---

(١) B. Lewis : *The Arabs in History*, London, 1958, pp. 23-4, 28.

(٢) Yusuf Fadl Hasan : *The Arabs and the Eastern Sudan from the seventh to the early sixteenth century*, Ph.D. thesis, London, 1964, pp. 77-80.

(٣) Ibid., pp. 63-67.

الزنجية التي نزحت من الجنوب(١) . وكانت الوثنية الدين الغالب في معتقدات هؤلاء القوم ، ولكن ما أن اكتمل عقد القرن السادس الميلادي حتى توغلت المسيحية بين سكان مملكتي النوبة وعلوه وبين قليل من البجة ممن يسكنون الأطراف . فلما بدأت الفتوحات الإسلامية كانت المسيحية قد ضربت بجذور عميقة وصارت من مقومات النوبة الأساسية(٢) . ولعل هذه النقطة تفسر لنا شيئاً من الأسباب التي أدت إلى الصدام بين النوبة والمسلمين فاتحي مصر بقيادة عمرو بن العاص ؛ فقد إغتاظ النوبة على ما لحق بإخوانهم في الدين من هزيمة على يد المسلمين وأخذوا يتحرشون بالحدود المصرية . صحيح أن النوبة اعتادوا على غزو مصر كلما سنحت لهم الفرصة أو أحسوا ضعفاً في الإدارة القائمة هناك . أما الآن فيبدو أن هذه الهجمات قد أخذت شكلا مزعجاً مما حدا بالخليفة عمر بن الخطاب أن يأمر واليه على مصر بغزو النوبة(٣) .

تضطرب المصادر العربية في تحديد عدد الغزوات التي أرسلت لصد هجمات النوبة وطبيعتها . ولكن المرجح أن المسلمين بعثوا حملتين رئيسيتين عدا الغزوات ، الأولى منها في ولاية عمرو بن العاص عام ٦٤١م ، والثانية في أيام عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٦٥١(٤).وقد وجدت الحملة الأولى مقاومة عنيفة من النوبة الذين اشتهروا بإجادة رمي السهام حتى سماهم العرب « رماة الحدق » . وقد حكى شيخ حميري ممن حاربوا النوبة فقال : « لقد شهدت النوبة مرتين في ولاية عمرو بن العاص ، فلم أر قوماً أجد في حرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمي منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال في مكان كذ وكذا فلا يخطئه . . . وخرجوا إلينا

---

(١) انظر C.G. Seligman : "Some aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan", *Journal of Royal Anthropological Institute (J.R.A.I.)*, XLIII, 1913, pp. 593-610 ; A.M. Batrawi, "The racial history of Egypt and Nubia", *J.R.A.I.*, LXXVI, (1946), p. 155 ; U. Monneret de Villard, *Storia della Nubia Cristiana*, Roma, 1938, pp. 53-70.

(٢) J.W. Crowfoot, "Christian Nubia", *Journal of Egyptian Archaeology*, XIII, (1927), p. 142.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ، باريس ، ١٨٦١ ، جـ ٣ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٤) ابن عبد الحكم : كتاب فتوح مصر وأخبارها ، ليدن ، ١٩٢٠ ، ص ١٦٩ـ١٧٠ و ١٧٤ .

ذات يوم فصافونا . نحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم رمونا حتى ذهبت الأعين . فعددت مائة وخمسين عيناً مفقوءة . فقلنا ما لهؤلاء خير من الصلح ، أن سلبهم لقليل وأن نكايتهم لشديدة . ولكن عمرو بن العاص رفض أن ينهى الحرب(١) . وظل العرب يجاهدون النوبة حتى عام ٦٥١ حين توغلت جيوش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح، فى حملتهم الثانية ، حتى دنقلا. وهنالك أشتبك الجيشان فى ملحمة رائعة لم تنته إلى نتيجة قاطعة . فقد أبدى النوبيون على عادتهم بسالة فائقة . ولكن ما أن ضربت كنيستهم بالمنجنيق ، الذى لم يعرفوه من قبل ، حتى دخل الرعب فى نفوسهم مما اضطر ملكهم قليدروت إلى طلب الصلح(٢) . وفى رأيى أن المسلمين مالوا إلى قبول ذلك الاقتراح بعد أن لاقوا قتالا شديداً وهم بعيدون عن ديارهم . ويثير هذا الاستنتاج نقطة هامة وهى أن المسلمين لم يقصدوا فتح بلاد النوبة بل أرادوا أن يضعوا حداً لهجماتهم .. وكانت النتيجة أن غزوهم دون أن يقضوا على سلطانهم قضاءا تاماً.وتؤكد هذه النتيجة الدراسات التفصيلية للروايات المختلفة لعهد النوبة .

وكان هذا العهد عبارة عن هدنة أمان أو معاهدة عدم إعتداء بتعبير حديث ، يلتزم بها الطرفان ، ويقوم على تبادل المنافع التجارية بين المسلمين والنوبيين . ولعل اشتهار هذا العهد فى المصادر العربية بالبقط(٣) يؤكد هذه الحقيقة . فكلمة بقط — وهو تعبير لاتينى (Pactum) — اشتهر فى الأمبراطورية البيزنطية ، التى كانت مصر جزءاً منها ، تعنى مجموعة الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات(٣) . وهذا ما حدث . فبعد أن جعل عبد الله بن سعد بن أبى سرح أماناً وهدنة جارية بين المسلمين والنوبة عام ٣١ هـ /٦٥١/٢ ميلادية ، اتفق الطرفان على أن يدفع النوبة أربعمائة من أوسط رقيقهم كل عام على أن يتسلموا قيمة ذلك مواداً غذائية وثياباً كما نص العهد على أن يصرح للتجار المسلمين بدخول بلاد النوبة ، مجتازين غير

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٨ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (الخطط) ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، جـ ٣ ص ٢٩٠ .

(٣) F. Lokkegaard, "Bakt", *Encyclopaedia of Islam 2*, I, p. 966.

مقيمين ، ويسمح للنوبة بالتجول فى مصر لنفس الغرض . هذا أهم ماورد فى معاهدة البقط[١] . وتؤكد المواد ماذهبنا إليه من قبل فى أن المسلمين كانوا يسعون فى ذلك الحين لتأمين حدودهم الجنوبية ، وقد وفقوا عرضاً فى فتح بلاد النوبة للتجار المسلمين دون أن يعترض طريقهم نوبى[٢] .

وكما يتوقع فان النوبة حاولوا التخلص من هذه الالتزامات الجديدة وعبروا عن ذلك أول الأمر بغزو صعيد مصر فى أواخر الدولة الأموية ، ولكن محاولاتهم هذه باءت بالفشل[٣] . وفى عهد الخليفة المهدى العباسى احتج النوبة بأنهم يلاقون صعوبة كبرى فى العدد المطلوب من الرقيق عاماً بعد عام . واستجاب المهدى لمطلبهم هذا ففرض عليهم تسليم الرقيق مرة كل ثلاثة أعوام[٤] . وتفيد بعض المصادر أن هذا التعديل قد تم فى عهد الخليفة المعتصم ، فقد ذكرت تلك المصادر أن النوبة قد تكاسلوا فى تسليم ما عليهم من بقط ، ويبدو أن الاضطراب الذى ساد مصر فى عهد الخليفة المأمون قد شجعهم على عدم الإيفاء بالتزاماتهم ، فأوقف المسلمون ما عليهم من مؤن ، وأخذوا يتحرشون ببلاد النوبة . وناقش ملك النوبة زكريا بن يحنس وابنه جورج الأمر واتفقا على أن يزور الأخير الخليفة المعتصم فى بغداد طالباً تخفيف ما على النوبة من التزام[٥] . وكانت النتيجة شبيهة بالاتفاق الذى تم فى عهد المهدى . والمهم فى الأمر أن معاهدة البقط الأولى صارت ركناً أساسياً فى تكييف العلاقات بين المسلمين والنوبة لمدة ستة قرون دون تغيير جوهرى فى مضمونها .

وبالرغم من أن الاتفاق بين المسلمين والنوبة كان يحول دون توغل العرب واستقرارهم فى بلاد النوبة إلا أنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هذا المنع . فبعد مقتل آخر خلفاء بنى أمية ، مروان بن محمد فى بوصير بمصر اتجه أبناء عبد الله

(١) ابن عبد الحكم : نفس المصدر ، ص ١٨٦ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٢٩٠ — ٢٩٢ .

(٢) لتوضيح معاهدة البقط أنظر : Yusuf Fadl Hasan, op. cit., pp. 82-97.

(٣) Ibid., 98.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٩ .

(٥) ساويروس « ابن المقفع الأشمونى » : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة جـ ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٢ : المقريزى : الخطط ، جـ ٣ ، ص ٢٩٥ .

وعبيد الله ومعهما ألفان وربما أربعة آلاف من أتباعهما إلى بلاد النوبة بقصد الإقامة فيها حتى يتمكنوا من استرداد ملكهم على رواية اليعقوبى . ويبدو أن ملك النوبة الذى استضافهم كان على علم بانتقال الأمر من بنى أمية إلى بنى العباس ، فلم يتردد فى أن يطلب منهم الخروج من دياره. وهددهم قائلا «إن السودان كثير عددهم قليل سلبهم» فلما تبين لعبد الله بن مروان وأتباعه عداء الملك قرروا الذهاب إلى الجزيرة العربية وبعد عناء كثير فى بلاد البجه واستطاع عبد الله أن يعبر البحر الأحمر من ميناء باضع ومعه حوالى أربعين أو خمسين من اتباعه (١) وبالرغم من أن هؤلاء الهاربين السياسيين لم يستطيعوا البقاء فى بلاد النوبة إلا أن الطريق الذى سلكوه شهد هجرات كثيرة فى القرون اللاحقة . ومنذ عهد مبكر أخذ العرب يتدفقون نحو السودان . ففى الوقت الذى تذمر فيه النوبة مما يدفعون من رقيق لبيت المال ، اشتكى ملكهم للخليفة المأمون ، من بعض الأعراب لشرائهم أراضى رعاياه فى المنطقة الواقعة بين أسوان وبجراس — فرص(٢) . وهى منطقة لا يجوز للعرب الاستقرار فيها حسب منطوق معاهدة البقط . ولم تفد شكوى الملك شيئاً وظل الملاك العرب فى مكانهم . فلما زار الرحالة الفاطمى ابن سليم الأسوانى تلك المنطقة سنة ٩٦٩ وجد أن كثيراً منهم قد اختلطوا بالنوبة إلى درجة أن عدداً منهم قد نسوا اللسان العربى(٣) .

لم تكن مصر هى الطريق الوحيد الذى دخل منه العرب إلى السودان . فقد توغلت جماعات أخرى منذ السنوات الأولى للامبراطورية الإسلامية عن طريق البحر الأحمر . فقد ذكر المؤرخ الطبرى أن الصحابى أبا محجن الثقفى قد غرب إلى ميناء باضع (بالقرب من عقيق) سنة ١٦ هـ/ ٦٣٧ م(٤) . وذكر أن الخليفة أبابكر

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ابن واضح ، ليدن ، ١٨٨٣ ج ٢ ، ٤١٥ — ٤١٦ ؛ البلاذرى : أنساب الأشراف : مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ ٧٨٥٦ ، القاهرة ، ج ٨ ورقات ٥٠٠ — ٥٠٣ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٢ ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٤ ؛ ساويرس : نفس المصدر ، ج ١ مجلد ٢ ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) المسعودى : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ليدن ، ١٨٧٩ ، ج ١ ، ص ٢٤٧٩ — ٢٤٨٠ .

الصديق قد نفى جماعة من الأعراب إلى منطقة عيذاب[١] . وفى ذلك العهد المبكر حدثت اشتباكات بين القراصنة الأحباش والمسلمين . فقد هاجم الأولون ميناء جده، فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب حملة مكونة من خمس سفن لتأديبهم[٢] . وكرر الأحباش هجماتهم فى خلافة سليمان بن عبد الملك الذى أمر باحتلال مركزهم وهو يتكون من مجموعة جزر دهلك ، ليضع حداً لنشـــاطهم[٣] . وبذلك يكون هذا الاحتلال بمثابة رأس الجسر للنفوذ العربى فى الساحل الغربى . وقد اتخذ الأمويون ومن بعدهم العباسيون دهلك هذه منفى للعناصر العربية غير المرغوب فيها ، وكان من بين هؤلاء بعض الشعراء[٤] . ولا أريد أن أبالغ فى أهمية هذا الاتصال ، فدهلك هذه (أو مصوع) ، ميناء الجزء الشمالى من الحبشـة ، وباضع وعيذاب مدخلان رئيسيان لأرض البجة والممالك المسيحية . وفوق هذا كان التجار العرب يمارسون نشاطهم الذى ورثوه عن أجدادهم دون توقف .

وفى الربع الأول من القرن الثامن الميلادى أخذ البجة يكثرون أذية سكان صعيد مصر . فأرسل عبيد الله بن الحبحاج ، عامل الخراج على مصر ، حملة انتصرت عليهم . وعلى أثرها فرض المسلمون على البجه أن يدفعوا سنوياً ثلاثمائة من الأبل ، وألا يعتدوا على المسلمين أو رعاياهم ، ولـكن أعطوهم حق التجول فى مصر[٥] . هذه المعاهدة شأنها فى ذلك كمعاهدة البقط ، ساعدت على وضع حد لهجمات البجه ، كما فتحت بلادهم للنفوذ العربى ، وأدت إلى خلق نوع من الاطمئنان هيأ سفر كثير من الحجيج إلى الحجاز عن طريق بلاد البجة . وفى سنة ٨١٤ سافر إبراهيم القفطى

---

(١) البكرى (عبد الله بن عبد العزيز) : الممالك والمسالك (مخطوط ، المتحف البريطانى ، لندن) ، ص ١٠ ب .

(٢) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٥٩٥ ؛
A. Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, Le Caire 1929, I, Part III, p 322.

(٣) الفاكهى (محمد بن اسحاق) : كتاب المنتقى فى أخبار أم القرى ، نشر وستنفلد لايبزيق ، ١٨٥٩ ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ القنائى (أحمد بن محمد) : كتاب الجواهر الحسان فى تاريخ الحبشان ، بولاق ١٣١٥ ، ص ١٥ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٥٥ ، ج ٢ ص ١٧٧٧ ؛ أبو الفرج الأصبهانى كتاب الأغانى ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ج ٤ ، ص ٤٥ ، ٢٣٩ ، ج ٧ ، ص ٥٦ .

(٥) ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص ١٨٩ .

حاكم قفط فى جماعة من أهله على نفس الطريق . وكان ابراهيم هذا خبيراً بتلك الديار عليما بمسالكها ، فتطير البجة منه وخافوا على سلامة وطنهم ، فأغروا زعيمهم محا ليسمح لهم بقتله(١) . وانتهت القصة بقتل ابراهيم هذا وجماعته فى ظروف غامضة ولم يسلم منهم إلا صبى استطاع أن يحمل الخبر لأهله فى قفط . فكتم أولئك الأمر حتى قدم محا واتباعه من البجة على عادتهم للتجارة ، فاعمل أهل قفط السيف فيهم . ورد البجة الصاع صاعين فهاجموا قفط وقتلوا عدداً من بنيها وسبوا سبعمائة من سكانها . وظل أهل قفط يطلبون العون من الوالى ثمانية سنوات حسوما ولكن دون مجيب . وجاء العون من حكم النابغى من قيس عيلان التى تسكن الحوف فى مصر ، وكان رجلا ثرياً فاضلا محباً للجهاد فى سبيل الله . فخرج حكم فى ألف من رجاله ودام على حرب البجة ثلاث سنوات حتى يسترد ما أسروه وزاد عليه(٢) . وتطوع هذا العدد من العرب ونزوحه من الحوف ، وهى من أكثر الأماكن رخاءاً فى مصر ، يدل على أن هناك دوافع عميقة حدت بهم ليقوموا لنصرة أهل قفط ، ويحاربوا البجه . وحقيقة الأمر أن الصلة بين العالم الإسلامى والسودان لم تبلغ درجة من الأهمية ، ولم يكثر ذكر تلك الصلات فى المصادر العربية إلا بعد أن ساء حال العرب فى الإمبراطورية الإسلامية عامة ، وفى مصر خاصة . وشرح هذه النقطة يتطلب شيئاً من الاستطراد .

ظل العرب طوال عهد الراشدين والعصر الأموى والحقب الأولى من الدولة العباسية يكونون أقلية مصطفاة فى مصر . فهم يمثلون طبقة المقاتلة والأرستقراطية الحاكمة . وكانوا يتسلمون رواتب سخية ويدفعون ضرائب بسيطة ، وحتى يحافظوا على مقدرتهم الحربية حرم عليهم اقتناء الأرضى والاشتغال بالفلاحة ، ومن ثم ظلوا يسكنون المدن . ولكن فى أواخر الدولة الأموية بدأت جماعات منهم تحترف الزراعة وتختلط بالمصريين ، وكان ذاك بداية للاستعراب وانتشار الإسلام فى مصر(٣) .

يصعب حصر العرب الذين دخلوا مصر ولكن الأرقام التى توردها المصادر

(١) ابن حوقل : نفس المصدر ، ٥١ — ٥٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ — ٥٢ .

(٣) Yusuf Fadl Hasan, op. cit., pp. 103-4.

العربية قد تفيدنا فى رسم صورة تقديرية . إذ تذكر المصادر أن عمرو بن العاص غزا مصر فى ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمده الزبير بن العوام بخمسة آلاف وفى رواية أخرى باثنى عشر ألفاً . وأن عبد الله بن سعد بن أبى سرح غزا النوبة فى عشرين ألف مقاتل ! وقد بلغ عدد العرب المقيمين فى الفسطاط فى خلافة معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، وفى اسكندرية عشرين ألفاً أخر[١].

واستمر العرب يفدون لمصر لأسباب مختلفة منهـا كثرة تغيير الولاة الذين اعتادوا على اصطحاب أفراد من قبائلهم ليشدوا من أزرهم فى وظائفهم الجديدة . وقد ذكر أن عدد من تبع بعض الولاة بلغ ست آلاف أو عشرة أو عشرين ألفاً[٢] . فاذا تذكرنا أن ثلاثة وثمانين والياً تعاقبوا على مصر بين ولاية عمرو بن العاص الثانية وولاية عنبسة بن إسحاق الضبي آخر وال عربى تكونت لدينا فكرة عن عدد من هاجر فى مثل تلك الأحوال : كما شجع الأمويون هجرة القبائل القيسية ليقللوا من نفوذ القبائل اليمنية . وقد استقرت جماعات من هؤلاء فى مصر حيث مارست الزراعة[٣] .

وبسقوط الدولة الأموية انتهت دولة العرب وقامت الدولة العباسية على تأييد الموالى وبعض العرب ، ومن ثم حاول العباسيون استرضاء تلك العناصر ، وحاولوا فى نفس الوقت أن يبرهنوا على عروبتهم فى كثير من أعمالهم . غير أن عوامل جديدة حالت دون ذلك ، فقد اعتمدت الدولة على الجند الخرسانى وهم مزيج من الفرس والعرب فقل اعتمادها على المقاتلة العرب ، وبذلك حرم العرب من كثير من امتيازاتهم . فأصبحت الرواتب مثلا تدفع للمقاتلة من العرب فقط ، لا للعرب جميعهم كما كان الحال فى أول الأمر ، وحتى هؤلاء فقدوا وظائفهم تدريجياً واحتلها الجنود الأتراك[٤] . فلما أحس العرب بهذا التغيير أخذوا يحترفون الفلاحة ، وظل

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦١ ، ٢٦٠ ؛ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب (البيان) ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩٥ .

(٢) S. Lane-Poole : *A History of Egypt in the Middle Ages*, London, 1901, p. 29.

(٣) المقريزى : البيان ، ص ٩٨ — ٩٩ ، ٦٦ — ٦٨ .

(٤) B. Lewis, *op. cit.*, pp. 80, 84, 92-3.

البدو على بداوتهم . ولـكن جزءاً آخر ممن لم يعجبه الوضع آثر الهجرة لأطراف الإمبراطورية الواسعة . ومنذ ذلك الحين صارت كلمة عرب أو أعراب تطلق فى الغالب على البدو منهم .

أبدى العرب فى مصر استياءهم الشديد لهذا التحول فى سياسة الدولة . وكثرت ثوراتهم فى أول قرن للدولة العباسية . ففى سنة ٧٨٢ ثار دحيه وأعلن نفسه خليفة أموياً على صعيد مصر وأيده كثير من العرب . ولم تفلح الحـكومة المركزية فى إخماد ثورته إلا بعد مجهود جبار عام ٧٨٦[١] . وفى عام ٨٠٢ أعلنت قبائل قيس العصيان ورفضت دفع الخراج[٢] . وقد تبع هذه الاضطرابات حروبات كثيرة بين هؤلاء العرب الذين أرادوا التمتع بخيرات الأرض التى يفلحونها دون دفع خراج عنها . ولم تهدأ الأحوال فى مصر إلا بقدوم الجيش الخراسانى بقيادة عبد الله بن طاهر سنة ٨٢٦ . فما أن بارح مصر إلا رفع العرب راية العصيان مرة ثانية . وفى سنة ٨٣١ أرسل الخليفة المأمون أخاه المعتصم بأربعة آلاف من الجند الأتراك ليفرقوا العرب الذين حاصروا الفسطاط نفسها . ولم يمض عام حتى اضطر الخليفة المباشرة الأمر بنفسه وكبح جماح العصاة . وغاية ما هناك أن هذه الحروبات قد بعدت الشقة بين العرب وحكام مصر[٣] .

فلما آل الأمر إلى الخليفة المعتصم كتب إلى واليه بمصر يأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع العطاء عنهم . ففعل ذلك[٤] . ويعد هذا القرار نقطة تحول خطيرة فى تاريخ العرب فى مصر . إذ يعنى أن الدولة قد زهدت فى خدمة المقاتلة من الأعراب واستبدلتهم بالجند التركى .

عرف العالم الإسلامى الترك منذ العهد الأموى ، ولـكن المعتصم أكثر من

---

(١) ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ج ٢ ص ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٠ — ٦١ ؛ المقريزى : الخطط (ط. القاهرة) ج ١ ، ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٢) الـكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ليدن ، ١٩١٢ ، ص ٤٣ ؛ المقريزى ، الخطط ج ١ ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

(٣) المقريزى : الخطط : ج ١ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

استعمالهم ، إذ اتخذهم حرساً له ، وعهد لهم بإخماد ثورة قيس فى مصر قبل أن يصبح خليفة . فلما آل الأمر إليه اعتمد عليهم كلياً لأسباب لا محل لذكرها هنا ؛ ولكن من المؤكد أن مهارتهم الحربية كانت تفوق مقدرة المقاتلة من العرب والجند الخرسانى فى ذلك الحين[(١)] . ومنذ ذلك التاريخ كثر استعمال الجنود الأتراك ، والجنود النوبيون بدرجة أقل .

ولم يمض قرار المعتصم دون احتجاج صارخ من العرب فى مصر ، فقد ثار يحيى بن الوزير الجروى فى جمع من لخم وجذام وأعلنــوا العصيان حتى ترد لهم حقوقهم المغتصبة على حد تعبيرهم[(٢)] ، ولـكن ثورتهم هذه لم تفد شيئاً : فقد اكتشفوا أنهم فقدوا مصدر رزق هام وبقى أمامهم أحد أمرين ، إما أن يستقروا ويختلطوا بالمصريين أو ينزحوا نحو صعيد مصر بعيداً عن سلطة الوالى ، حيث تسهل الثورة ضد الحـكومة أياً كانت . ولعل مما زاد من حنق العرب أن الولاة بعد سنة ٨٥٢ صاروا تركاً .

وباختصار فإن السياسة التى اختطها المعتصم فى تجنيد الترك تعتبر فى نظرى العامل الأساسى الذى شجع العرب على الهجرة إلى السودان . فكلما زادت قبضة الأتراك على الحـكومة والجيش فى مصر ، اضطر العرب إلى الهجرة نحو السودان . وقد بلغت قبضة الأتراك القمة فى العهد المملوكى .

والرأى عندى أن العرب منذ أوائل القرن الثالث الهجرى أخذوا يدخلوا السودان فى مجموعات صغيرة دون أن تسترعى انتباه أحد ، أو يسجل تفاصيلها التاريخ . وقد دفعتهم لذلك الأخبار التى سمعوها من التجار عن المراعى الشاسعة التى تقع جنوب بلاد النوبة . قد يقال إن الحدود بين مصر وبلاد النوبة يحرسها صاحب الجبل أو حاكم المريس الذى يقطن بجراش ، والذى يحول دون دخول أى شخص غير مصرح له بذلك[(٣)] . ولـكن لنذكر أن هذه النقطة من الحدود يسهل تفاديها .

---

١ انظر Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 109.

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤ ؛ ابن تغرى بردى . نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) أبو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبو صالح الأرمنى ، اكسفورد ، ١٨٩٤ ، ص ١٢٠ ، المقريزى : الخطط ، ٣ ص ٢٥٣ .

ولقد استغل البجة انشغال حكام مصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى بالفتن الداخلية وبدأوا يغزون الصعيد مرة أخرى . فبعث الخليفة المعتصم ، عبد الله ابن الجهم الذى هزم رئيسهم كنون بن عبد العزيز وفرض عليهم صلحاً لا يختلف فى مضمونه عن عهد عبد الله بن الجحاب معهم ، بل يؤكد امتداد نفوذ المسلمين فى تلك الجهة . تنص المعاهدة باختصار على أن تكون بلاد البجة ومن فيها من أسوان إلى تخوم باضع ومصوع ملكا للخليفة . وأن يكون كنون بن عبد العزيز نائباً عنه ، وأن تدفع البجة مائة جمل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال وألا يعترض البجة المسلمين الذين يسافرون أو يستقرون فى بلادهم بأذى . وألا يهدموا المساجد التى بناها المسلمون وأن يسمحوا عمال بيت المال بجمع الصدقات ممن أسلم . وأكدت المعاهدة السماح للتجار البجة بالدخول فى مصر(١) . لا أريد أن أطيل فى مناقشة هذه المعاهدة ، لكن من الواضح أنها وضعت الأساس لتجول المسلمين واستقرارهم فى حرية تامة (أكثر من ذى قبل) . والإشارة إلى وجود مساجد والحديث عن جمع الصدقة يدلان على أن العرب قد دخلوا فى أعداد كبيرة ساعدت على نشر الإسلام . ثم أن اسم رئيسهم كنون بن عبد العزيز يدل على أثر عربى . والجدير بالذكر أن تلك المعاهدة قد ترجمها إلى البجاوية عربيان أحدهما من جدة والآخر من قبيلة قريش ، ولابد أنهما عاشا فى تلك الديار حتى تعلما تلك اللغة »(٢) .

وفى أثناء حملة عبد الله بن الجهم تسامع الناس بوجود الزمرد والذهب فى أرض البجة(٣) ، فتدفق الناس فى أعداد كبيرة زهداً فى الحياة فى مصر ورغبة فى الثراء السريع .

ولا بد من وقفة هنا لنبين معالم هذه الهجرة ، فبالرغم من أن سياسة الدولة لم تعد تغرى كثيراً من العرب بالبقاء فى مصر ، إلا أن أسباباً اقتصادية بحتة دفعت بكثير من العرب ورعاياهم للتوغل فى السودان وهى باختصار تجارة الرقيق ، والعمل بالتعدين فى الصحراء الشرقية ، والاشتغال بالتجارة الهندية ونقل الحجيج وما صاحب الأخيران من تطوير الموانى .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ، ص ٥٣ .

ربما كان العامل التجارى هو السبب الرئيسى فى توغل العرب فى المقره وعلوه خلال القرون الإسلامية الأولى ، فكانوا يجلبون المواد الغذائية والثياب والخزف ويعودون بريش النعام والعاج والماشية والرقيق[١] . وكانت تجارة الرقيق تمثل جزءاً مهماً من ذلك النشاط ، وقد تزايد الطلب للرقيق فى العالم الإسلامى بعد أن قل الوارد من السبي . وكان جزء من هذا الرقيق يعملن جوارى أو حاضنات وبعضهم يعمل خدماً وعمالا[٢]. غير أن الأغلبية كانت تتخذ جنداً ، خاصة فى مصر بعد عهد أحمد ابن طولون الذى عين أربعين ألفاً منهم فى جيشه[٣] ، وازداد هذا العدد أيام الأخشيديين والفاطميين[٤] . ولم يكن هذا الطلب وقفاً على مصر وحدها ، بل كانت الحجاز سوقاً هاماً[٥] . وذكر الرحالة ابن بطوطه أنه رأى جارية نوبية فى بلاط خان التتر فى بلاد القرم فى أوائل القرن الرابع عشر[٦] .

أين موطن هؤلاء الرقيق ؟ من المرجح عندى أن الجزء الأكبر كان يجلب من البلاد التى تقع جنوب المقره وعلوه ، أى الجزء الغربى من بلاد السودان بمعناها العام. وكان التجار العرب يعتمدون على التجار المحليين فى اعتناء الرقيق[٧] .

ويهمنا أن نذكر فى هذا المقام أن تجارة الرقيق سهلت الهجرة العربية لسببين: أولا : بالرغم من أن معظم هؤلاء العبيد كانوا يجلبون من بلاد السودان بمعناها العام إلا أن الجزء الذى اشترى من المقره وعلوه قد حرم تلك البلاد من العنصر الشاب فيها (وهو النوع المرغوب فيه) ومن ثم قلل بمرور الزمن من فرصتها لتحول دون توغل العرب مستقبلا . ثانياً : ساعد توغل التجار المسلمين فى زيادة معرفة

---

(١) ناصرى خسرو : سفر نامه ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٤١ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ص ٧٦. Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 116.

(٢) ابن بطلان : رسالة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٧١ — ٣٧٨ .

(٣) المقريزى : الخطط (ط القاهرة ، ١٨٥٣) ج ١ ص ٣١٥ .

(٤) المقريزى : الخطط : ج ٢ ، ص ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، القاهرة ١٩١٩ ، ج ٢ ص ٢٤ — ٢٥ ، Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 119-126.

(٥) Ibid., pp. 126-7.

(٦) ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، باريس ١٨٩٣ ، ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٧) أنظر Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 121-123.

العرب بتلك البلاد : مسالكها ومراعيها . ولا شك أن هذه المعرفة أفادت المهاجرين كثيراً وفتحت أمامهم عوالم جديدة . وعلى ضوء ماحدث مؤخراً يبدو جلياً أن التجار قد عملوا بعد أن وسعوا نطاق التجارة ، كدعاة ومبشرين للاسلام ، وأنهم فى توغلهم وترحالهم الكثير من منطقة لأخرى داخل السودان قد حملوا الدعوة الإسلامية إلى تلك المناطق .

كان لاكتشاف الزمرد والذهب فى الصحراء الشرقية أثر أخاذ على نفوس العرب فى مصر . فاندفعت جماعات منهم نحو تلك المنطقة التى أسموها « أرض المعدن » فى أوائل القرن التاسع الميلادى وكان مركزهم الرئيسى وادى العلاقى. ولكن البجة الذين لم يشتهروا بالعمل بالتعدين طردوا العرب وقتلوا جماعة منهم ، وامتنعوا عن دفع الجزية وهاجموا الصعيد . وبعد تردد من حكومة بغداد ، خوفاً من البجة وصحرائهم الموحشة ، عهد الخليفة المتوكل لمحمد بن عبد الله القمى بمحاربتهم(١) . واستعد القمى إستعداداً كاملا ويزعم الطبرى أن القمى سار فى عشرين ألف مقاتل من العرب الذين طردتهم البجة من أرض المعدن . ولا شك أن هذا عدداً كبيراً لا تحتمله حملة صحراوية(٢) : ومن المرجح أن عددهم ثلاثة ألف مقاتل من قبائل ربيعة ، ومضر ويمن بالتساوى كما ذكر ابن حوقل(٣) . وقد أرسل القمى الأطعمة فى سبع سفن أبحرت حتى مكان بالقرب من عيذاب . أما الجيش فبعد أن اخترق أرض المعدن ، قابله على بابا زعيم البجة الذى جعل يناوش المسلمين حتى ينفذ زادهم ويأخذهم دون مجهود . فلما علم البجة بوصول المراكب يئسوا من هلاك جيش القمى وبدأوا القتال . ولجأ المسلمون إلى خدعة ساعدتهم على النصر ، فقد ربطوا عدداً من الأجراس على رقاب الخيل فلما سمعتها إبل البجة وكانت ذعرة ألفت من تحمل وولت لا تلوى على شىء ، فتم النصر للمسلمين . والتزم البجة بدفع الجزية والسماح للعرب بالتعدين . وتأكيداً لهذا الإتفاق اصطحب القمى على بابا لزيارة الخليفة ببغداد وتقديم فروض الطاعة(٤) .

---

(١) الطبرى : نفس المصدر : ج ٣ ص ١٤٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ١٤٢١ .

(٣) ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ج ٣٣ ص١٤٢ والبلاذرى : نفس المصدر : ص ٢٣٩ ؛ ابن حوقل : نفس المصدر ص ٥٣ .

وما أن استتب الأمن حتى تقاطر العرب نحو أرض المعدن زرافات ووحداناً . فجاءت قبائل من مضر وربيعة بن حنيفة من نجد ، على سبيل المثال لا الحصر، وسكنت وادى العلاقى(١) . ولعل خير مثال للهجرة العربية فى تلك الظروف نشاط عبد الله ابن الحميد العمرى(٢) ، الذى قدم مصر سنة ٨٥٥ ومنها اتجه نحو أرض المعدن بعد أن اشترى رقيقاً وحط رحاله بالقرب من معدن لمضر ، ثم فارقهم أثر خلاف لمعدن الشنكة ، الذى يظن أنه بالقرب من أم نباردى أو وادى هدقليب (٣) ، ولكن العمرى لم يجد ماء كافياً لعمليات التعدين فى ذلك المعدن ، فورد النيل ، ومنعه أهله منه شكا فى نواياه . فهاجم العمرى سكان شنقير ، وهى المنطقة التى تقع بين أبى حمد وبربر . وسبى منهم كثيراً وباعهم فى أسواق مصر . فكثر ماله ، وزاد سلطانه وأخذت القوافل ترد إلى معسكره محملة بالغذاءات . ولكن زعامته لم تدم طويلا إذ دخل فى حروبات طويلة مع النوبة انتهت بانهزامه . فأثرت هذه الهزيمة على موقفه من حلفائه العرب ، فقد اتهمته سعد العشيرة بموالأة قيس عيلان . وأخيراً اضطر العمرى ليتجه شمالا وأن يعسكر بالقرب من أسوان .

فلما بلغ خبره أحمد بن طولون وكان جيشه يتكون من الترك والنوبة ، خافه ، وخشى أن يتعاون مع البدو الذين تكثر ثوراتهم فى الصعيد . وقرر أن يباغته ، فانتصر العمرى على جيش ابن طولون ، وقفل راجعاً إلى أرض المعدن . وهنالك بسط نفوذه على قبائل جهينه وربيعة وسعد العشيرة ، فعظم نفوذه واتسعت سلطته حتى ذكر أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفائه ، عدا العير التى تجىء من عيذاب . وفى ذلك الحين فكر ابن طولون فى الإنتقام ، ولكنه آثر السلامة إزاء تهديدات العمرى . ومن حسن حظ الطولونيين أن الحلف العربى الذى أنشأه العمرى فى أرض المعدن لم يدم طويلا ، نتيجة اختلاف بين الحلفاء .

---

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٥٣ ؛ اليعقوبى: كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٣٣٤ .

(٢) المقريزى : المقفى (مخطوط ، المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم Arabe 2144 ج ٤ ، أوراق ١٦٤ — ١٦٧ .

(٣) U. Monneret de Villard, *op. cit.*, p. 111.

والسبب المباشر لذلك ، أن إبراهيم المخزومى ، أخو العمرى من أمه ، قتلته جماعة من البجة ، فطلب من حلفائهم ربيعة أن تنصفه فرفضت . وآثرت مضر الحياد بينما عاداه بنو هلال وبنو تميم . وأخيراً تمكن العمرى فى جماعة من أنصاره أن ينتصر عليهم ولكنه لم يمش طويلا إذ اغتاله غلامان مضريان[(١)] .

لا نبالغ إذا قلنا إن العمرى قد قارب النجاح عندما أنشأ أول إمارة عربية فى شمال السودان . وضرب بنجاحه هذا مثلا لكثير من المغامرين والراغبين فى الهجرة ليحذوا حذوه . وتعكس الأخبار المفصلة التى سجلها اليعقوبى[(٢)] بعد عشرين سنة من موت العمرى ازدياد النشاط العربى فى أرض المعدن . وقد شمل هذا النشاط التعدين ، والتجارة ، ونقل المؤن .

وقد لعبت قبيلة ربيعة وحلفاؤها دوراً هاماً فى انتشار الإسلام والنفوذ العربى فى أرض المعدن . فبعد أن حاربت ربيعة العمرى ، تحالفوا مع البجة وتزوجوا منهم . واستطاعوا بفضل عادة أهل السودان فى ذلك الوقت ، وهو أن يرث ابن بنت السلطان الملك ، أن يسيطروا على زعامة القبائل ومن ثم قوى نفوذهم حتى عم أرض المعدن[(٣)] . يؤكد المسعودى أن صاحب المعدن فى عام ٩٤٣ م كان بشر بن مروان بن اسحاق ، وكان يركب فى ثلاثة آلاف رجل من ربيعة وأحلافها وثلاثين ألفاً من الحداربة وهم مسلمون من سائر البجة[(٤)] . واستطاع أحد أحفاد بشر هذا ويدعى أبو المكارم هبة الله أن يساعد الفاطميين فى إلقاء القبض على ثائر أموى يسمى أبو ركوة ، فخلع عليه الخليفة الحاكم بالله لقب كنز الدولة[(٥)] . ومن ذلك الحين صار لقباً تتوارثه الأسرة فاشتهرت ببنى الكنز . وكان هذا اللقب تأكيداً وتأييداً لخدمات الأسرة التى امتد نفوذها على أرض المعدن وشمالى المريس : ومنذ ذلك الحين أصبح بنو الكنز قوة عربية محلية لها وزنها .

---

(١) المقريزى : المقفى ج ٤ ، ص ١٦٤ — ١٦٧ .

(٢) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٣ — ٣٣٥ .

(٣) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, p. 141.

(٤) المسعودى : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٣ — ٣٤ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ليدن ، ١٨٦٢ ، ج ٩ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ؛ المقريزى : البيان ، ص ٤٦ .

وبمرور الزمن بدأ إنتاج المناجم يقل شيئاً فشيئاً حتى توقف تماماً فى أواسط القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد أن غطتها الرمال . ولعل السبب فى تدهورها يرجع أولا لخوف أصحابها من هجمات البجة والإعراب ، ثانياً كان الإنتاج لا يغطى النفقات ومن ثم أخذ العاملون فى أرض المعدن يبحثون عن نشاط آخر ، متجهين إلى الداخل(١) .

و تقف الهجرة العربية فى بلاد البجة على أرض المعدن ، بل توغلت جنوباً . فقد وجدت آثار مستعمرة عربية عاشت لأكثر من قرن (بين ٨٢٥ — ٩٤١م) ، فى خور بنت على بعد سبعين ميلا شمال شرق محطة هيا . ومن المرجح أن سكانها كانوا يعملون بتربية الإبل والإتجار فيها(٢) : ولقد لعبت هذه الإبل دوراً هاماً فى نقل الحجاج . والبضائع بين الصعيد وموانى البحر الأحمر وفى أرض المعدن .

* * *

منذ فجر التاريخ ظل البحر الأحمر أحد طريقين تجاريين هامين يربطان الشرق بحوض البحر الأبيض المتوسط . وفى العصر الإسلامى نشأت على ساحله السودانى ثلاثة موانىء ، وهى باضع ، عيذاب وسواكن ، ساهمت كل منها بدرجة متفاوتة فى اتساع نطاق التجارة والهجرة العربية . أما باضع التى ورد ذكرها عام ٦٣٧ واندثرت فى القرن الحادى عشر ، فقد كانت مركزاً تجارياً هاماً لمنطقة البحر الأحمر ولكنها لم تلعب دوراً كبيراً فى التجارة العالمية وسرعان ما طغى عليها نشاط عيذاب الذى عززه الفاطميون(٣) .

كانت الرغبة فى السيطرة على التجارة الشرقية التى تسير على الطريق الثانى ، أى طريق الخليج الفارسى ، بغداد ، ثم البحر الأبيض المتوسط جزءاً من معركة الفاطميون ضد أعدائهم العباسيين . ومما شجعهم فى نقل هذه التجارة صلاتهم الحسنة

---

(١) Yusuf Fadl Hasan, *op cit.*, p. 143.

(٢) G.E.R. Sanders and T.R.H. Owen : "Notes on ancient villages in Khor Nubt and Khor Omek", *Sudan Notes and Records*, XXXII, (1951) pp, 326-31 ; H. Glidden, Khor Nubt tombstones, *Kush,* II, (1954), pp. 63-5.

(٣) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 149-152.

مع اليمن . فلما جاء الفاطميون إلى الحكم كانت ميناء القلزم مشغولة عن إرسال الحبوب إلى الحجاز ، وبعد سيطرة الفاطميين على التجارة الشرقية وجدوا أنها لا تصلح كميناء لذلك الغرض . والسبب فى ذلك أن كثرة الشعاب المرجانية ، والرياح الموسمية تعوق سير الملاحة التى تتوقف تماماً فى الليل . فوجد الفاطميون فى ميناء عيذاب العميقة ضآلتهم ، فهى أقرب إلى اليمن من القلزم ، ومن ثم قصر طول الرحلة بحراً(١) وفوق ذلك لا تبعد كثيراً عن جدة ، ميناء الحجاز .

حتى ذلك التاريخ كانت معظم قوافل الحجاج من مصر والمغرب تسافر عن طريق صحراء سيناء ولكن نسبة للمجاعات وسنوات الشدة التى بدأت فى سنة ١٠٦٧ أيام الخليفة المستنصر والتى أدت إلى خراب ذلك الطريق انتقل الحجيج إلى طريق عيذاب ، وتأكيد بقاء ذلك الطريق بعدقدوم الصليبيين وازدياد نشاطهم بالقرب من سيناء . وظل طريق عيذاب طريق الحجيج الرئيسى لفترة قرنين انتهت سنة ١٢٦٨(٢) . وفى نهاية القرن الثانى عشر أصبحت عيذاب من أهم الموانى فى العالم الإسلامى ، فكانت ملتقى للسفن التجارية من الهند ، واليمن ، وشرق أفريقيا ، وجدة ومنها تخرج القوافل تحت إشراف الضمان والحمالين من القبائل العربية وقد ورد ذكر أسماء بعضها مثل تميم وبلى(٣) .

وبعد أن تخلص المماليك من بقايا الممالك الصليبية انتقلت معظم قوافل الحجاج إلى سيناء وظلت القوافل التجارية تواصل نشاطها دون توقف ، ولكن بمرور الزمن قل الأمن فى تلك الجهة . ففى سنة ١٢٧٢ م هاجم الملك داؤد ملك النوبة عيذاب(٤) . ثم كثرت الاختلافات بين القبائل العربية : ففى سنة ١٢٨١ تحاربت رفاعة مع جهينة مما اضطر السلطان للتدخل(٥) . وفى عام ١٣١٥ هاجم الأعراب قافلة يمانية تحمل هدايا للسلطان محمد قلاوون ، فأمر السلطان بمعاقبة المعتدين .

---

(١) Ibid., pp. 152-156.

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٦٥ — ٧٣ .

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فى ما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ، ١٩١٩ ، ج ٢ ، ص ٢٢١ (١ و ٣٧٥) .

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ج ٧ ، ص ٢٢٦ .

وخرجت حملة مملوكية مكونة من خمسمائة جندى ؛ فسارت إلى عيذاب ، فسواكن ، فجبل كسلا ثم تابعت نهر عطبرة حتى التقت بنهر النيل وعادت إلى القاهرة بعد أن أمضت ستة أشهر دون أن تحقق شيئاً[١] . قد نتساءل عن الأسباب التى دفعت هؤلاء العربان بمهاجمة القوافل التجارية . كان هذا الهجوم موجهاً أساساً ضد المماليك وقد تركزت هذه الهجمات فى الصعيد كما سنرى . ولا شك أن كثرة الثورات ، والاضطرابات أثرت على سلامة القوافل . وفى آخر الأمر ولأسباب لا محل لذكرها (ولكن بموافقة السلطات الحاكمة) انتقلت التجارة الشرقية إلى جدة . فقلت أهمية عيذاب[٢] . وانتهت عظمة الميناء السودانى العربى سنة ١٤٢٦ على المرجح ، حين خربها السلطان برسباى انتقاماً من سكانها الذين هاجموا قافلة مصرية فى طريقها لمكة[٣] .

ويتوقف التعدين ، وانتقال طريق قوافل الحجاج ، وتدهور عيذاب واضطراب قوافل التجارة الشرقية ، توقف النشاط الاقتصادى الذى اعتمد عليه كثير من العرب فاضطرت أغلبيتهم للسير إلى داخل السودان ، إلا جزءاً بسيطاً ذهب إلى سواكن .

ورد أول ذكر لسواكن سنة ٩٤٥[٤] وقد استفادت سواكن كثيراً من تدهور باضع أولا وعيذاب ثانياً : إلا أنها لم ترق لمكانة الثانية ، وفائدتها الكبرى أنها كانت ذات صلة وثيقة بالحجاز كما كانت تربطها طرق كثيرة بالداخل[٤] . وكان سلطانها عند زيارة ابن بطوطة لها سنة ١٣٣٢ الشريف زيد بن أبى نمى الذى ورث السلطنة عن أخواله البجة ، وكان جيشه مكوناً من البجة ، وجهينة وبنى كاهل[٥] . وقد أورد السخاوى أسماء بعض التجار العرب الذين عملوا فى جزيرة سواكن فى القرن الخامس عشر[٦] .

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية . معارف عامة رقم ٥٤٩ ، القاهرة ، ج ٣٠ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٢) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit.*, pp. 172-175.

(٣) Ibid., pp. 175-6 ; Les Africanus, (al-Hasan b. Leo Muhammad) *The history and the description of Africa*, Hakluyt Society, London, 1958, III, p. 226.

(٤) الهمدانى (محمد بن أحمد) : صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٨٨٤ ، ج ١ ص ٤٠ ، ١٣٣ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦٠ — ١٦٣ .

(٦) ابن بطوطة نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٦٠ — ١٦٣ .

(٧) السخاوى : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ٤ ، ص ١٤٠ ، ٢٣٤ ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ ، ج ٦ ، ص ١٤٩ ، ج ١٠ ، ص ١٥٠ .

كل هذه المظاهر لنشاط العرب الاقتصادى كانت بمثابة المراحل الإعدادية التى مهدت الطرق لهجرة العرب وانتشار ثقافتهم . فكل عامل من العوامل الاقتصادية المختلفة ساعد بطريقته الخاصة فى فتح البلاد للنفوذ العربى وشجع على الهجرة : هذه الهجرة أصبحت حقيقة ملموسة بعد تدخل المماليك الإيجابى فى سياسة بلاد النوبة المسيحية ، ونتيجة ضغطهم على الإعراب فى مصر .

بالرغم من أن التعدين ، وقوافل الحج ، والتجارة الشرقية قد فتحت أبواب رزق كثيرة للعرب المستائين من الحياة فى مصر إلا أن الصلة بين حكام مصر والعرب كانت فى تدهور مستمر فلما آل الأمر إلى الفاطميين حاولوا استرضاء العرب ، خاصة قريش ، حتى يكسبوا تأييدهم ، فرحبوا ببنى عمر ، وبنى الزبير ، وبنى طلحة وبنى جعفر الصادق وأسكنوهم فى الأشمونى فى بلاد الصعيد ، فاشتهرت تلك الدار باسم بلاد قريش وكان يسكن تلك الديار فى بادىء الأمر قوم من جهينة وبلى اضطرتهم العساكر الفاطمية للنزوح نحو أعلى الصعيد(١) . وشجع الفاطميون هجرة بنى سليم وحلفائهم لمصر لأسباب أخرى فما أن حط هؤلاء البدو الرحال حتى بدأوا فى مضايقة الفلاحين ومهاجمة القوافل فاستحسن الفاطميون نقلهم لشمال أفريقية . فهاجرت أعداد كبيرة من بنى سليم وبنى هلال إلى برقة ولكن البقية آثرت البقاء وانتشرت حتى صحراء عيذاب(٢) . وبالرغم من هذه المعاملة العادلة ظل العرب يثورون بغير سبب واضح . فتتبع الوزير بدر الجمالى قبائل قيس ، فزارة ، سليم ، ثعلبة ، جهينة ، والجعافرة وعمل السيف فيها ، وطرد منها جماعة لبرقة وهرب الآخرون(٣) . ولم يكتف بذلك بل هاجم بنى الكنز الذين كافأهم الحاكم من قبله ، وقتل زعيمهم . ويبدو أنه قصد أن يضع حداً لمحاولاتهم لإنشاء إمارة عربية على حدود مصر الجنوبية(٤) .

فلما تسلم الأيوبيون مقاليد الحكم ظلت الصلة فاترة بين الطرفين . والملاحظ أن العرب لم يغفروا لحكام مصر الاستمرار فى إبعادهم عن السلطة والجيش . فقد

---

(١) المقريزى : البيان ، ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٨ ، ٣٠ ، ١٤٢ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٠ ؛ المقريزى : البيان ، ص ٢٨ .

(٣) ابن ميسر : نفس المصدر ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٤) ساويروس : نفس المصدر ، ج ٤ ، مجلد ٣ ، ص ٢٠١ — ٢٠٥ .

اعتمد الأيوبيون على الكرد والديلم والترك ولم يستفيدوا من العرب إلا نادراً . ومن ثم عبر العرب عن استيائهم كلما أحسوا تراخياً وضعفاً فى الدولة ، وقد ثاروا خمس ثورات تركزت كلها فى الصعيد . فلما تدهورت الدولة الأيوبية وأصابها التفكك تمكن الجندى التركى أو المماليك ، من السيطرة على مصر وسوريا . وكان هذا التغيير بداية لصراع عنيف بين أغلبية العرب الذين ظلوا على بداوتهم أو بين البداوة والحضر : فقد اعتاد هؤلاء كلما واتتهم الفرصة الهجوم على المجموعات المستقرة دون اعتبار لقانون أو رادع . وزاد حنقهم لما رأوا هؤلاء الرقيق من الترك يسيطرون على دست الحكم ويضيقون الخناق عليهم . وقد صدق حدس الإعراب : فقد ظل المماليك يمثلون دور القوة المحتلة التى لم تتعاطف مع المواطنين كثيراً ، بل ظل كثير منهم يجهلون العربية : ولم تكن نظرة المماليك قائمة على اعتراض عنصرى بل تشابه استياء سكان المدن والمجموعات المستقرة من البدو(١) .

عند بداية العهد المملوكى وفى سنة ١٢٥٣ بالتحديد ثارت معظم القبائل العربية ببلاد الصعيد والوجه البحرى ومنعت الخراج . وأعلن قائدها الشريف حصن الدين ثعلب ابن نجم الدين الجعفرى : « نحن أصحاب البلاد . . . ونحن أحق بالملك من المماليك وتوافد مؤيدوه من كل صوب حتى بلغوا اثنى عشر ألف فارس وتجاوز عدة الآخرين الإحصاء » . واستطاع السلطان آيبك أن يسيطر على الموقف بعد أن هزم الثوار وأسر حصن الدين(٢) .

واستمر الصراع بين المماليك والأعراب أو العربان كما يسميهم مؤرخو تلك الفترة دون أن يهدأ . فكلما فشلت الدولة فى قمع تلك الثورات تشجع العربان فى عصيانها ، فإذا أصابتهم الهزيمة سلكوا طريق من سبقوهم نحو البلاد ذات المراعى الخضراء بعيدين عن سيطرة الحكومة . وظل هذا النسق من الصراع يقل شيئاً فشيئاً حتى نهاية القرن الخامس عشر ؛ ولأستدل لكم على ما أقول اكتفى بأمثلة ثلاث :

ففى سنة ١٢٩٠ م قتل المماليك جماعة من العربان فى طوخ وخرقوا آخرين

---

(١) Yusuf Fadl Hasan, *op. cit*, pp. 200-202.

(٢) المقريزى : كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك . القاهرة ، ١٩٣٤ ، ج ١ ، ص ٣٨٦ ، البيان ، ص ٩ — ١٠ ، ٣٨ .

وأخذوا رهائن كثيرة ممن تبقى بعد أن سبوا منهم ألف جمل ، ومائتى حصان وعدداً كبيراً من الأغنام وكميات من الأسلحة(١) . ولما زاد الضغط المغولى على سوريا فرض المماليك ضرائب كثيرة قابلها الأعراب بالتحدى سنة ١٣٠١ وعاشوا فساداً . فقتل المماليك عدداً من القادة وجبوا ما يساوى مليون ونصف مليون درهم عدا ألف بعير وألف شاة . وصادروا كل الأسلحة وكل الخيل . وقابل العربان هذه الجباية بعدم الانصياع للقوانين والتجأوا لقطع الطرق وفرضوا الضرائب على السكان الآخرين . فحاصر المماليك العربان وحاول هؤلاء الإفلات من قبضة الجند المحاصر ولكن دون جدوى ، وأسر المماليك من بينهم ستة ألاف ممن يفلحون أرضهم . وأخيراً عاد إلى البلاد شىء من الهدوء والاستقرار(٢) .

ثم اشتبكت قبائل عرك مع الدولة سنة ١٣٤٨ واستطاع المماليك هزيمتهم سنة ١٣٥١ بمساعدة بنى هلال . ولكن محمد بن واصل الأحدب شيخ عرك واصل النضال حتى عظم أمره فى الصعيد . وفى سنة ١٣٥٣ سافر الأمير سيف الدين شيخو فى جيش كبير لمحاربته فطار الخبر وانتشر الهلع بين الأعراب ، فقرر البعض الهجرة لبلاد النوبة ، ونوى آخرون الحج بينما آثرت البقية الاختفاء . . . وانضمت إلى الأحدب عرب منفلوط ، والمراغة ، وبنى كلب وجهينة حتى تجاوزت فرسانه عشرة آلاف فارس تحمل السلاح سوى الرجالة المشاة فإنها لا تعد ولا تحصى لكثرتها . وما أن اشتبك الجيشان حتى انهزم الأحدب إلى أسوان . وهنالك انتصر الأحدب فى أوائل الأمر فلما تكامل الجيش المملوكى كانت الغلبة لشيخو(٣) . وتتبع المماليك العربان الذين هربوا ، مسيرة سبعة أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج — أى السودان(٤) . ولما انتهت هذه الحملة لم يبق بدوى واحد بصعيد مصر على حد تعبير المقريزى(٥) .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، سنوات ٦٥٦ ـ ٧٠٩ هـ ، مخطوط ، المتحف البريطانى رقم Add 23325 لندن ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ أ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣١ أ ؛ المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٩١٤ ، ٩٢٠ — ٩٢١ ، ٩٢٢ .

(٣) المقريزى : السلوك (مخطوط مصور ، دار الكتب المصرية ، تاريخ رقم ٤٥٥ ، القاهرة) ج ٦ ، ص ٦١٩ ب ، ج ٧ ، ص ١٠ — ١٢ ب .

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ط بولاق ، ١٨٩٨ ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٥) المقريزى : السلوك ، ج ٧ ، ص ١٢ ب .

وفى عام ١٣٩٥ غزا بنو الكنز والأحامدة أسوان بعد أن قتلوا واليها . وأمر السلطان بمعاقبة الجناة وطلب من شيخ هوارة ، القبيلة البربرية ، أن تساعد العسكر المملوكى ولكن الجيش لم يهتد لهم على أثر(١) . ومن الملاحظ أن السلطان الظاهر برقوق أمر فى سنة ١٣٨٠ بنقل جماعة من هوارة من الوجه البحرى وإسكانها فى الصعيد وبعد سنوات قليلة أصبحوا رؤساء على كل الصعيد ومن فيه من العرب(٢) .

يتبين لنا مما مضى أن سياسة المماليك لم تترك للعرب فرصة غير الهروب لبلاد النوبة . وفوق ذلك فان المجاعات المتكررة وموجات الطاعون التى لازمت العهد المملوكى الأول شجعت كثيراً من العرب بالهروب إلى بلاد النوبة خوف الموت . وقد حدثت أول هجرة لهذا السبب سنة ١٣٢٤(٣) . وقد كان لهذه الوباء والمجاعات أثر سيء على الحالة الاقتصادية العامة وقد صاحب كل ذلك زيادة فى الضرائب لمواجهة زحف المغول . ثم إن كثيراً من الأراضى الزراعية أقطعت للمماليك فأصبح من يفلحها أسوأ حالا مما كانوا عليه من قبل(٤) . كل هذه الأسباب شجعت العرب على الهجرة للسودان ، كما صاحب كثير منهم الحملات المملوكية التى غزت بلاد النوبة .

ذكرت فى مطلع حديثى أن معاهدة البقط ظلت تنظم العلاقات بين مصر وبلاد النوبة زمناً طويلا وقد تدهورت هذه الصلات فى حالات قليلة أدت إلى مناوشات على الحدود أو حرب محدودة . تمت أول محاولة جادة لغزو بلاد النوبة فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى حيث توغل الأيوبيون حتى أبريم وكانوا يؤملون اتخاذ بلاد النوبة مملكة لهم إذا ساءت الحال فى مصر (على رواية ابن الأثير . لكنهم زهدوا

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٤٤٠ — ٤٤١ .

(٢) المقريزى : البيان ، ص ٥٨ .

(٣) العينى : تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر ، مخطوط ، المتحف البريطانى ، رقم Add 22360 لندن ، ص ١٥ ب .

(٤) Ibn Hajjar al 'Asqalani : 'Inba' al-ghumr bi-anba' al-Umr' ed. with an introduction by Hasan Habashi, Ph. D. Thesis, London, 1954, I, 151.

فى تلك المغامرة لما تأكد لهم فقر بلاد النوبة(١) . أما المحاولة الثانية فقد تمت فى عهد المماليك .

ذكرت كيف أدت ثورات العربان فى صعيد مصر والصحراء الشرقية إلى اضطراب سير القوافل التجارية فاضطر السلطان بيبرس لتأمين تلك الطرق ومد نفوذه حتى ميناء سواكن(٢) وأحس داود ملك النوبة أن المماليك قد قصدوا فرض حصار على الممالك المسيحية وحرمانها من الاتصال بالعالم الخارجى عن طريق البحر الأحمر . وعبر عن استيائه هذا بغزو الصعيد وتخريب عيذاب سنة ١٢٧٢(٣) . وبينما كان السلطان بيبرس يعد العدة لتأديب ملك النوبة وصله أمير نوبى يسمى شكنده وادعى أن الملك داود قد اغتصب العرش منه(٤) . فتبنى السلطان قضيته وبعثه مع الجيش الغازى سنة ١٢٧٦ .

كانت مهمة الجيش المملوكى ومن تبعه من عربان الوجه القبلى غزو بلاد النوبة ووضع شكنده على عرشه . فلما سارت الحملة واجهتها مقاومة عنيفة طوال رحلتها حتى التقت بالملك داود بالقرب من دنقلا وهزمته . وبعد أن تابع المماليك فلول جيش داود لثلاثة أيام عادوا إلى دنقلا وتوجوا شكنده ملكا على النوبة . وقبل شكنده الشروط التى أملاها الجيش الفاتح . وأهمها أن يصبح شكنده تابعاً للسلطان ونائباً عنه فى حكم بلاد النوبة ، وأن يسلم نصف دخل بلاده للسلطان وأن يدفع كل بالغ دينارين جزية إذا ما بقى على النصرانية ، وتعهد سكان النوبة بطاعة ملكهم ما طاع سلطان مصر . وتنص المعاهدة على أن يمنع العربان من البقاء فى بلاد النوبة وأن يرسل الملك من يجده منهم لسلطان مصر . هذه المادة تصور مدى الهلع الذى أصاب

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٨٧٠ ، ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر رسالة خطية ، جامعة لندن ، ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ؛ شافع بن على بن عباس كتاب المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية (مخطوط دار الكتب الوطنية ، باريس رقم Arabe ١٦٥٦) ، ص ٨٣ أ — ٨٣ ب .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) ابن الفرات : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

المماليك من العربان . ومن الجدير بالذكر أن الجيش عاد إلى مصر يحمل عدداً من الأمراء كرهائن استغلوا فى الوقت المناسب للتدخل فى شئون النوبة[١] .

وبإيجاز فإن هذه الحملة حققت فتح بلاد النوبة « فتحاً حقيقياً » .

أولاً — لم تعد بلاد النوبة مستقلة ، منذ ذلك التاريخ . ثانياً — أعطت هذه الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة الفرص للتدخل فى شئون النوبة من وقت لآخر ومن ثم كانت سياسة المماليك ترمى إلى جعل بلاد النوبة دولة تابعة . وقد ساعدت هذه السياسة على انتشار الإسلام والإسراع بالاستعراب الذى بدأ منذ زمن طويل فى بلاد المريس كما ساعدت على دخول كثير من العربان مع الجيوش الفاتحة فاستقروا فى بلاد النوبة على غير ما أراد بيبرس ، وتزوجوا من أهلها ومن أسرها الحاكمة حتى ملكوا زمام الأمر فى أوائل القرن الرابع عشر .

فلما مات شكندة سنة ١٢٧٧ اختلف الأمراء النوبيون فيمن يخلفه ، وأخيراً أقر المماليك شمامون . ولكنه سرعان ما استبد بالأمر ورفض دفع الجزية ، فأرسل السلطان منصور قلاوون حملة كبيرة سنة ١٢٨٧ لخلعه[٢] ، وقد اشترك فيها عدا الجند الرسمى ، كثير من العربان مثل أولاد أبى بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف وأولاد شيبان ، وأولاد الكنز وبنو هلال . فلما هزم شمامون عند دنقلة تقهقر نحو الجنوب . وعاد الجيش المملوكى لمصر بعد أن توج ملكا جديداً ، فما أن غاب الجيش المملوكى وراء الأفق حتى ظهر شمامون واسترد ملكه . وتدخل السلطان مرة ثانية وأرسل جيشاً كبيراً اشترك فيه أربعون ألفاً من عربان الوجه القبلى والبحرى . وقد نشك فى صحة هذا العدد ولكنه مهما كان ، فهو دليل على أن من اشترك من الأعراب كان كبيراً جداً . وانتصر المماليك وتكررت مراوغة شمامون مرة ثانية وثالثة وأخيراً نجح فى البقاء على العرش برضاء سلاطين مصر إلى نهاية القرن الثالث عشر

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ج ٧ ص ٤٦ — ٤٧ ؛ مفضل بن أبى الفضائل : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ النويرى : نفس المصدر ج ٢٨ ورقة ٢٥٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور « تشريف » القاهرة ١٩٦١ ص ١٥٤ ، ١٤٣ — ١٤٤ .

تقريباً (١) . وفى سنة ١٣٠٤ أرسل المماليك ملكاً آخر على بلاد النوبة وخلفه أخاه كرنبس عام ١٣١١(٢) ؛ فما أن توطد مركزه حتى استقل بالأمر وأرسل المماليك جيشاً آخر يتبعه حفيد الملك داود الأمير سيف الدين عبد الله برشمبو الذى اعتنق الإسلام أثناء وجوده فى القاهرة . فلما سمع الملك كرنبس بذلك أسرع بارسال ابن أخته كنز الدولة نصر ، حفيد بنى الكنز ، للأبواب السلطانية قائلا : « إن كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن اختى والملك ينقل إليه من بعدى » فرفض السلطان ذلك الطلب خوفاً من ازدياد نفوذ بنى الكنز وأنصارهم . وتوج سيف الدين عبد الله برشمبو أول ملك مسلم على بلاد النوبة المسيحية عام ١٣١٧(٣) ، وأرخ لهذا الحدث العظيم باتخاذ كنيسة دنقلا مسجداً . ولكن عهده لم يطل ، إذ ثار عليه النوبيون غالباً بإيعاز من كنز الدولة . وبعد حروب طويلة بين المماليك والقوى المحلية تم الأمر لكنز الدولة سنة ١٣٢٣ . وقد لخص النويرى وهو ممن عاصروا تلك الأحداث تلك الظروف قائلا « فاجتمع أهل النوبة على كنز الدولة وملكوه عليهم فملك البلاد حينئذ ، ولبس تاج الملك ، واشتغل بالمملكة وضم إليه العرب واستعان بهم على من ناوأه»(٤) .

منذ ذلك التاريخ قل ذكر بلاد النوبة فى المصادر العربية إلا من إشارات عابرة ففى سنة ١٣٦٥ ذكر أن ابن أخت الملك هاجم خاله بمساعدة بنى جعد وأخيراً انتقل الملك إلى الدو شمال دنقلا . وحاول المماليك عبثاً استرداد نفوذهم جنوب الدو . فقد سقطت تلك المنطقة فى يد بنى عكرمة وظلت فى حالة من الفوضى لانعدام حكومة مركزية قوية(٥) . وصفوة القول فإنه بسقوط مملكة النوبة المسيحية فى القرن الرابع عشر قد انهار السد المنيع الذى كان يحول دون دخول العرب السودان من طريق وادى النيل — وقد صادف هذا الحدث قمة الصراع بين العربان والمماليك فى مصر .

---

(١) ابن الفرات : نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٥٢ — ٥٣ ، ٦٩ جـ ٨ ص ٨٣ — ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ؛ ابن عبد الظاهر : تشريف ص ١٥٤ — ١٥٥ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧ .

(٣) النويرى : نفس المصدر جـ ٣ ورقات ٩٥ — ٩٦ .

(٤) النويرى : نفس المصدر جـ ٣ ورقة ٩٦ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ٧ ورقة ٤٨ .

فتدفق العرب نحو الجنوب دون رقيب واندفعت أعداد أخرى عن طريق الصحراء الشرقية وقد وجدوا أن كثيراً من إخوانهم قد سبقوهم منذ قرون خلت إلى تلك الديار (إما من مصر أو عبر البحر الأحمر) حيث استقروا وتزوجوا فى البجه ونشروا الإسلام ، واستمر من لحقوا بهم فى ترحالهم حتى بلغوا أرض البطانة ثم الجزيرة ، وعبر بعضهم النيل إلى كردفان . كما تابع آخرون شاطىء النيل الغربى فوادى المقدم أو وادى الملك حتى كردفان . كما تابع آخرون شاطىء النيل الغربى فوادى المقدم أو وادى الملك حتى كردفان ودارفور . فلما كثر عدد من المهاجرين قضوا على مملكة علوة فى ظروف لا نعرف عنها الكثير بعد . وظلت الأغلبية من هؤلاء العرب على بداوتهم ولكن جزءاً منهم اختلط بالمجموعات المستقرة فتزوجوا منها واعطوا القوم لغتهم ودينهم وجزءاً من تقاليدهم وبدأوا بذلك سفراً جديداً فى تاريخ هذه البلاد لم تكتب نهايته بعد .

دكتور يوسف فضل حسن

دولة البرين والبحرين

دكتور نظير حسان سعداوى

١ — التعريف بدولة البرين والبحرين سياسياً وقانونياً ودولياً .

٢ — العوامل المساعدة فى بناء الدولة .

٣ — التغييرات الجديدة التى أحدثتها هذه الدولة .

٤ — العوامل التى قوضت بناء هذه الدولة .

٥ — محاولات إحياء دولة البرين والبحرين .

— ١ —

من غير المعقول أن يخضع مواطنون أحرار فى بلد ما لسيطرة وحكم أرقاء وأغراب ، يستعبدونهم ، ويستذلونهم ، ويقررون مصيرهم قرابة خمسة قرون ! ! لكن هذا وقع فعلا فى مصر يوم أن تبوأ عرشها مماليك فرقتى البحرية والبرجية متكئين على عمد مُسنَّدة من الشجاعة والنظام (١) مكنتهم من إقامة ملك عريض ودولة كبرى فى زاوية الشرق والجنوب من مثلث البحر المتوسط ،وهى الزاوية الأساسية فى هذا المثلث الحيوى، ذات الموقع الفريد ، وذات القيم الحضارية والروحية والاقتصادية والاستراتيجية الضخمة المتراكمة ، وذات المواقع التاريخية العالمية الحاسمة . ويقع على ضلعى تلك الزاوية البلاد الشامية والديار المصرية . لذا يشاء المؤرخون المصريون فى العصور الوسطى أن ينعتوا تلك الدولة بنعت يدل على طبيعة موقعها فيطلقون عليها « دولة البرين والبحرين » البر المصرى والبر الشامى ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر (٢) ، كما يستفاد من نقش أثرى على البيمارستان القلاوونى مؤرخ فى عام ٦٨٤ هـ ويحمل عدة ألقاب للسلطان سيف الدين قلاوون منها « ملك البرين والبحرين ، وصاحب القبلتين ،

(١) Gibbon E. : *The Decline and Fall of the Roman Empire*, V. 3, p. 501.

(٢) محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية طبعة ١٩٦١ ص ٧٤ .

وخادم الحرمين الشريفين »⁽¹⁾. وكما يرد من نعوت تربو على المائة في رسالة للسلطان عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ببلاد الأندلس بعثها للملك الأشرف شعبان بن حسين سلطان مصر والشـــام في عام ٧٦٧ هـ . (١٣٦٥م) منها « ملك البرين والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين »[٢] . وقد يكتفى بلقب « سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية »[٣] .

ومهما كانت نعوت سلاطين دولة البرين والبحرين ، فان المتتبع لحدودها السياسية مبتدئاً بالإقليم المصرى حسبما تصفها كتب المعاصرين يلحظ أن حده الشمالى يبدأ من رفح إلى العريش ، ممتداً على الجفار[٤] إلى الفرما . ثم بساحل بحر الروم ماراً بالطينة ودمياط ورشيد والإسكندرية وبرقه ، آخذاً على الليونة إلى العميدين إلى العقبة ، وهى آخر حدود مصر ، ثم يعطف الحد جنوباً إلى ظهر الواحات مقتبلا على الصعيد إلى حدود النوبة ، مشرقاً إلى أسوان ، وينتهى حد مصر القبلى من ضفة القلزم حيث عيذاب على بلاد الحدارية إلى الروم من بلاد النوبة خلف الجنادل التى على مصب النيل إلى جبال المعدن إلى صحراء الحبشة ويبدأ الحد الشرقى من بحر القلزم قبالة أسوان إلى عيذاب إلى القصير إلى القلزم ، ثم يتسع مشرقاً إلى تبة بنى إسرائيل . ثم يعطف شمالا إلى بحر الروم عند رفح . وغالب ما بين بحر القلزم وبين مجرى النيل منقطع رمال ومحاجر وجبال ، ويسمى ما ساحل البحر فى هذا الحد بر العجم[٥] وقسمت ديار مصر إدارياً إلى قسمين كبيرين . الوجه القبلى والوجه البحرى، ويحتوى أولهما على ستة عشر إقليماً إدارياً ، وثانيهما على إثنى عشر إقليماً ، وعلى عهد السلطان

---

(١) Wiet G. : *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, t. 13, p. 36.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى : حـ ٧ ص ١٠٨ و ١١٣ .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد جـ ٣ ص ١٠١ .

(٤) سمى الجفار لان الدواب تجفر فيه أى تهلك من السير لبعد مراحله ومشقة السير فيه فتهلك ، فاشتق الجفار كما قيل العقال والحطام والحجاز . وكانت الجفار فى أيام فرعون معمورة بالقرى والمياه وفيها قال الله تعالى : ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ، ولذلك سمى العريش عريشاً . راجع أبى الفدا . كتاب تقويم البلدان طبعة ١٨١٥ ، ص ١٥٩ .

(٥) أبو الفدا : شرحه ص ١٠٣ — شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف طبعة ١٣١٢ هـ ، ص ١٧٣ .

الأشرف شعبان انسلخ إقليم الإسكندرية من البحيرة ٧٦٧ هـ ، وتحولت الإسكندرية إلى نيابة إدارياً ، لها نائبها ودواوينها وذلك لأهميتها الاستراتيجية والتجارية(١).

أما حدود بلاد الشام السياسية ، فتبدأ الغربية منها طرسوس التى ببلاد الأرمن مساحلة بحر الروم إلى رفح التى فى أول الجفار بين مصر والشام ، وتمتد الحدود الجنوبية من رفح إلى حدود تبة بنى إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيله من البلقاء . ويحيط بالشام من الشرق حد يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة إلى سلميه ، إلى مشاريق حلب إلى بالس ، ويبدأ الحد الشمالى من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهسنى إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس إلى بحر الروم(٢). وقسمت بلاد الشام إدارياً إلى ست أقاليم كبرى تعرف باسم النيابات هى : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك ، ثم أضيفت إليها مؤخراً نيابتا غزة وملطية وكانت نيابة حلب حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون أكبر النيابات الشامية ، فاستبدلها بنيابة دمشق ، وجعل نائب دمشق أوسع النواب نفوذاً ، ولقبه بنائب السلطنة فى البلاد الشامية ، وساواه فى الرتبة بنائب السلطنة فى الديار المصرية . فإذا قال السلطان « بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائبها » على قول صاحب التعريف (٣).

ومما يستوجب الالتفات فى حدود دولة البرين والبحرين السياسية أن يثير العالم الأثرى فيت الشكوك فيما ادعاه السلطان سيف الدين قلاوون فى معاهدة له مع أمير صور الصليبي من أن الحجاز واليمن تقعان داخل نطاق دولته . غير أن هذه الشكوك يبددها نص تاريخى أثرى عثر عليه العالم المذكور فى القاهرة ، يرجع تاريخه إلى عام ٦٨٧ هـ . ويلقب فيه قلاوون بعدة ألقاب منهـا « سلطان الشام واليمن ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، صاحب القبلتين ، ملك الديار المصرية والجهات

---

(١) القلقشندى : جـ ١١ ص ٤٠٥ — على ابراهيم: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٣٤ .

(٢) تعرف بلاد سيس ببلاد الروم أو الأرمن . وقد أدخلهـا أبو الفدا فى تقويمه (ص ٢٢٦) فى حدود الشام ، بينما أخرجها العمرى فى تعريفه (ص ١٧٦) وهو التحقيق على قول القلقشندى (جـ ١٤ ص ٦٥) .

(٣) العمرى ص ١٧٦ .

الحجازية ، والبلاد الشامية ، والأعمال الفراتية ، والديار بكرية »(١).

والمعروف تاريخياً أن الظاهر بيبرس أحيا الخلافة العباسية بمصر ليجعل سلطته شرعية ، ويكسب بلاطه تفوقاً فى نظر بقية الأقطار الإسلامية ، ويقمع فتن العلويين بمصر(٢). وكان طبيعياً أن يكافئه الخليفة العباسى فيقلده « الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار بكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ... » (٣) وترتب على هـذا التفويض الخليفتى أن قاد السلطان بيبرس حملة مصرية مملوكية إلى الحجاز ، قاتلت التتار وطردتهم ، وحاربت حليفهم صاحب مكة وقتذاك وهو أبو نمى بن أبى سعيد وعمه إدريس بن على شريكه . ودخل بيبرس أم القرى ، وكسا البيت الحرام . وأعاد الحج إليه بعد انقطاعه إثنتى عشرة سنة بسبب فتن التتار(٤) ورتب بيبرس أمور المحمل على أسس منظمة دائمة ، وفرض الرسوم على أميرى مكة والمدنية(٥). ومن ثم غدا صاحب مملكة البرين والبحرين « يمتاز على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم بالكعبة المعظمة ، داخلة فى نطاق مملكته ، واختصاصه بكسوتها ودوران المحمل فى كل سنة » . بعد أن كان خلفاء بنى العباس يجهزونها من بغداد ، واستقرت القاعدة على ذلك إلى عصر القلقشندى(٦). على أن هذا لا يفيد استقرار الأحوال فى الحجاز لسلاطين المماليك بصفة دائمة بدليل قول المقريزى تحت أحداث عام ٦٧١ هـ . « وفى شعبان حلف الشريف أبو نمى أمير مكة للسلطان وولده بالطاعة لهم ، وأنه التزم تعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة فى كل موسم ، وأنه لا يعلق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم الملك المنصور على كل علم فى كل موسم ، وألا يتقدمه علم غيره » إلى أن يقول « وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالإسم الشريف المنصورى . وأن يفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى للسلطان ، ويلتزم مراسمه امتثال النائب للمستنيب » .

---

(١) Wiet : *op. cit.*, t. 13, p. 65.

(٢) فليب حتى : تاريخ العرب المطول : ج ٣ ص ٧٩٩ .

(٣) المقريزى : السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤٥٤ . أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١١٣

(٤) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٠٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٦) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٥٧ .

ويتفق هذا القول مع ما جاء فى التعريف للعمرى « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية إلا الحجاز ، وهو قطعة من جزيرة العرب ، وليس أمره بمضبوط ، ولا بحفظ الثقة منوط »(١). ولكن يبدو من المكاتبات الصادرة من الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى أرباب الوظائف القضائية والإدارية بالمملكة الحجازية أن الأمن استتب هناك والأمر استقر لمصر منذ عصر الناصر محمد وما بعده(٢).

أما بلاد اليمن التى يدعى السلطان قلاوون أنها جزء من الولايات الإسلامية الداخلة فى نظام دولته ، فكان يحكمها بنو رسول حكما مستقلا ، ويلقب صاحبها « سلطان الإسلام والمسلمين وقاهر الخوارج المتمردين ... سيد الملوك والسلاطين إلخ »(٣).

ورفض الإذعان والخضوع لسلاطين مصر ، بل سولت له نفسه أن ينتزع مكة من السيطرة المصرية ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ). لكن حملة مصرية أدبته وصدته ، فصار بعدها « يدارى صاحب مصر ويهاديه لمكان إمكان تسلطه عليه فى البر والبحر الحجازى ، ولذلك اكتتب الملك المؤيد داود وصية ، أوصى فيها الملك الناصر محمد صاحب الديار المصرية على ابنه المجاهد » فسير الناصر محمد سنة ٧٢٥هـ حملة مصرية برية إلى اليمن لتمكين الملك المجاهد هذا من الجلوس على عرشه. ودخلت الحملة المصرية زبيد وتعزة وفرح اليمنيون بقدوم العسكر المصرى فرحاً شديداً ، وبايعوا ملكهم المجاهد . وعادت الحملة إلى مصر مارة بمكة . لكن قائدها زج به فى السجن مقيداً ، لأنه قصر فى أخذ مملكة اليمن ، على القول الراجح(٤).

ومن ثم ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء والخضوع لسلاطين دولة البرين والبحرين ، ويرسلون سفاراتهم تحمل الهدايا النادرة من طرائف بلادهم من العود

---

(١) العمرى : التعريف ص ١٨٠

(٢) راجع القلقشندى : ج ١٢ ص ٢٣٢

(٣) Wiet G. : *Répertoire...*, t. 13, p. 134.

(٤) القلقشندى : ج ٥ ص ٣٧ — المقريزى : السلوك : ج ٢ قسم ١ ص٢٥٩-٢٦٨

والعنبر والصينى ورماح القنا ، فضلا عن التحف والفيلة والحيوانات والطيور(١) .
وتدل صيغ المكاتبات الصادرة من سلاطين القاهرة إلى ملوك بنى رسول باليمن على أن الأخيرين كانوا غالباً فى المرتبة الثالثة من ملوك الدول الإسلامية(٢) .

وكيفما تكن إدعاءات قلاوون ، فإنها — بلا جدال — تفصح عن الأطماع التوسعية الكبيرة لسلاطين البيت القلاوونى ، وعن آمالهم السياسية التى تهدف إلى خلق وحدة عربية إسلامية قاعدتها القاهرة حسبما تدل وثائق عصرهم ، ومنها ما يشيد إلى إسرافهم فى الألقاب العديدة التى يتصف بها الواحد منهم « سلطان العرب والعجم سيد الملوك والسلاطين .. سلطان الأرض ذات الطول والعرض .. ملك البسيطة .. سلطان العراقين والمصرين ... ملك البرين والبحرين ... سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم »(٣) . ومن تلك الوثائق كتاب الأشرف خليل بن قلاوون إلى كختو ملك مغول فارس سنة ١٢٩٣ م يطلب مفاوضته فى أمر تسليم بغداد لتكون مقراً له كما كانت للعباسيين من قبل ، ولو طال عمر خليل «لكان يفتح غالباً بلاد العراق» على قول ابن إياس(٤) . ومنها أخيراً كتاب الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك غازان محمود يطلب منه الجلاء عن العراق فى لهجة شديدة نصها « وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك . وعن قريب يخلو منك العراق والعجم ويبدل وجودك بالعدم ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً »(٥) ألم يفسر ذلك كله سعة أحلام وأطماع بيت قلاوون ، وما بلغته دولة البرين والبحرين فى عهد هذا البيت من سعة الإنتشار وقوة التأثير . وحسبك أن تعرف أنه وصل إلى بلاط الناصر محمد ثمانية رسل فى عام واحد (١٣١٦م) تقدم له فروض الولاء والطاعة وتتودد إليه ، وأنه أجرى لأحد سلاطين شمال إفريقية المخلوعين مائة درهم فى كل يوم قضاه فى ضيافة القاهرة . ثم جهز له حملة حربية مصرية سارت به إلى بلاده ، ومكنته من العودة إلى عرشه . وحسبك أن تعرف أيضاً أن

---

(١) السلوك : جـ ١ قسم ٣ ص ٧٠٢ .
(٢) السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٥٦٤ حاشية ١ — القلقشندى : جـ ٧ ص ٣٣٢ .
(٣) Wiet G. : *Répertoire...*, t. 11, pp. 9, 15, 36.
(٤) بدائع الزهور : جـ ١ ص ١٢٧ .
(٥) النهج السديد : جـ٣ ص ٧٤ — جمال سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢٠١ .

السلطان برقوق عظم أمره ، حتى خطب باسمه فى أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله ، فخطب بإسمه فى توريز من بلاد العجم ، وفى الموصل وفى ماردين وفى سنجار وضربت السكة بإسمه فى جميع هذه البقاع[١].

واتخذ سلاطين القاهرة من ولاء وإخلاص عرب البحرين لهم درعاً لحماية تجارة الشرق الأقصى والهند المارة بالخليج العربى من تهديد مغول فارس لها وتسلمهم عبر الخليج إلى الوطن العربى . ويصف مؤرخ معاصر عرب البحرين بأنهم «قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجارة ، يجلبون جياد الخيل وكرام المهارى واللؤلؤ وأمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحباء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك . وواصلهم إلى الهند لا ينقطع » واعترضوا مرة حاج العراق — نكاية فى أبى سعيد ملك فارس — فأخطرهم الحاج أنهم جاءوا بأوامر الناصر محمد صاحب مصر ، فقال عرب البحرين « لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شىء ، وسمح لهم بمواصلة السير إلى الحجاز »[٣] . وعلم الناصر بأمرهم فأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، وشكرهم على إخلاصهم ووفائهم لوطنهم وقوميتهم . هكذا اعتمدت دولة البرين والبحرين فى تأكيد هيمنتها على الشاطىء الأسيوى من البحر الأحمر على الأسلوب الحربى والسياسى . أما الشاطىء الأفريقى منه فكان يوجد فى أقصى الجنوب ملوك الحبشة الحريصين على توطيد صلاتهم بسلاطين القاهرة لعدة اعتبارات منها ، وجود سبعة ممالك إسلامية فى بلادهم ، ومنها اعتمادهم على الكنيسة المصرية فى تعيين مطران قبطى لكنيسة الحبشه فضلا عن التماسهم تيسير سبل الأمن والراحة لحاج الأحباش القاصدين بيت القدس . لذا جرت عادة متملك الحبشة أن يخاطب سلطان القاهرة بعبارة « أقل المماليك يقبل الأرض وينهى » . كما جرت عادة سلاطين القاهرة على تحصيل الزكاة من جهات سواكن وجزائرها ، ومكاتبة صاحبها بأن « يوفق بين عرب جهينه ورفاعه ، ولا يعين طائفة على أخرى خوفاً على فساد الطريق »[٤] .

---

(١) سعداوى : نظير حسان : صور ومظالم من عصر المماليك ص ٦٥ .

(٢) العمرى : التعريف ص ٨٠ – القلقشندى ج ٧ ص ٣٧٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ قسم ٢ ص ٢١١ — سرور ص ٢٠٨ .

(٤) السلوك ج ١ قسم ٢ ص ٥٥٨ وج ١ قسم ٣ ص ٧٠٠ .

وانتزع سلاطين دولة البرين والبحرين اعتراف معاصريهم من ملوك أوروبا المسيحية بحدودها السياسية ، وكل ما هو داخل فيها من سائر الأقاليم الرومية والعراقية والشرقية والشامية والحلبية والفراتية واليمنية والحجازية والديار المصرية والمغرب ؛ وآية ذلك نصوص المعاهدات السياسية والاقتصادية ، ومنها تلك التى عقدها سيف الدين قلاوون مع ملك أسبانيا ألفونس وأخوه جيمس ملك صقلية والتابعين لهما من الأمراء المسيحيين عام ١٢٨٩ م (٦٨٩ هـ) . وجددها معهم ولده الأشرف خليل ، وجاء فيها حد هذه البلاد والأقاليم وموانيها وسواحلها من البر الشامى من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية ، وهى : من طرابلس الغرب ، وسواحل برقة والاسكندرية دمياط والطينة وقطيا وغزة وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وعثليث وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل والبيرون وأنفة طرابلس الشام وأنطرسوس ومرقيه والمرقب وساحل المرقب: بانياس وغيرها. وجبلة واللاذقية والسويدية، وجميع الموانى والبرور إلى ثغر ودمياط وبحيرة تنيس . وحدها من البر الغربى : من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانيها إلى ثغر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس وسواحلها وبلادها وموانيها[1] .

— ٢ —

بعد ذلك التعريف السياسى والإدارى والشرعى والدولى بدولة البرين والبحرين يتساءل المرء عن العوامل الأساسية التى أسهمت فى بناء تلك الدولة على هذا النحو من الاتساع والمهابة .؟ . . وتفرض معركة عين جالوت فى رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) نفسها على رأس تلك العوامل ، لا لأنها أنقذت الحضارة الإسلامية ، فقد تحضر التتار بها بعد استقرارهم فى فارس ، بل لأنها أنقذت الشام ومصر من الخراب الذى حل بالعراق وأهله ، وحفظت لهما موضعهما من العروبة ، وأدت إلى تصفية أمر التفرقة السائدة فى الشام والجزيرة ، فانتهى بها ما كان من أيام الأيوبيين ، وما كان باقياً من ملك الصليبيين . وقامت بتلك المعركة الوحدة المصرية السورية ، وابتدأ فصل رائع من فصول ازدهار الحضارة العربية[2] .

(١) القلقشندى ، جـ ١٤ ص ٤٦ . سعداوى : الحرب والسلام ص ١٤٧ .

(٢) غربال : من زاوية القاهرة ص ٨٢ و ٨٥ .
Runciman : *A History of the Crusades*, V. 3, pp. 311, 313.

على أن بطولة المماليك التى تجلت فى عين جالوت مرت فى ثلاثة أدوار : الدور الأول كانت بطولة جمع الكلمة مع تقليد الحكم والزعامة للرجل الذى يستطيع مواجهة الشر والخطر ، ذلك قطز حفيد أخت أحد شاهات خوارزم ، قبض عليه التتر ، وباعوه فى دمشق حيث اشتراه أيبك[١]. ينكر قطز على الملك المنصور على بن أيبك لهوه ولعبه ، ويقول لزملائه الأمراء « فى مثل هذا الوقت الصعب لا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد ، وينتصب للجهاد فى التتار » فأجابه الجميع « ليس لها غيرك »[٢]. وفى الدور الثانى كانت بطولة قرار الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين وعدم انتظارهم فى أرض الوطن ، وكان قطز كذلك هو صاحب الفضل فى اتخاذ هذا القرار ، إذ قال للأمراء « ينبغى أن نختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن[٣]. وفى الدور الثالث كانت بطولة القتال وإدارة المعركة ، وأن الفخر للجميع ولكن الفخر الأكبر لقطز نفسه ، فهو الذى يشجعهم ، ويحسن إليهم الموت ، وهو يكر بهم كرة بعد كرة حتى قتل جواده فى المعركة فترجل وبقى واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال فى المعركة ، وهو فى موضع السلطان من القلب حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ومال على العدو بكل ثقله حتى نصر الله الإسلام وأعزه على قول أبى المحاسن[٤] ، الخبير العالم بالأمور العجيبة التى اتفقت عامئذ (٦٥٨ هـ) بسبب تغير الدول ومتولى الحكم بالشام . فكان أول السنة إلى نصف صفر فى مملكة الناصر يوسف بن أيوب ، ثم صار فى مملكة هولاكو ملك التتار إلى الخامس والعشرين من رمضان ، ثم صار فى مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل فى ذى القعدة ثم صار فى سلطنة الملك الظاهر بيبرس ، وقد شركه فى دمشق الملك المجاهد سنجر[٥]. ولئن قطف الظاهر بيبرس البندقدارى ثمار معركة عين جالوت ، وتسلطن على عرش المملكة ، إلا أنه تشبه — فى جهاده — بصلاح الدين الأيوبى . وصعّد فلول التتار إلى ما وراء الفرات ، وأعلن قيام

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٠ حتى جـ ٣ ص ٧٩٧ .

(٢) السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٤١٧ — النجوم ص ٥٥ .

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ جـ ١ قسم ٢ ص ٣١٢ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٢٥ — النجوم جـ ٧ ص ٧٩ .

(٥) ابن كثير : جـ ٣ ص ٢٢٣ — أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٣١١ .

الوحدة المصرية السورية ، وعزم على ضم العراق إليها بأن جهز الخليفة العباسى أبا القاسم أحمد الملقب بالزراتيق بعسكره إلى جهة بغداد طمعاً فى أن يستولى عليها ويجتمع عليه الناس(١). وسرعان ماعلا شأن بيبرس ، وأرسل فى استخراج الزكاة من سائر الجهات ، وأسلم على يديه « عالم كبير من التتار الواصلين ، ومن الفرنج المستأمنين والأسرى ، ومن النوبة القادمين من عند ملكها »(٢).

وكيفما كانت أهمية عين جالوت فى بناء دولة البرين والبحرين فان اختيار حاضرتها يأتى فى المرتبة الثانية . أتكون العاصمة فى البر الشامى تمشياً مع الواقع والمنطق على ضوء غارات المشارقة ومؤامرات الغزاه ودسائس الانفصاليين ، أم تكون العاصمة بالبر المصرى حيث تربى المماليك وشبوا على الإفتتان بمصر ، وكما جرت السوابق التاريخية المشتبهة فى الأحوال والمناسبات وأقربها إلى علم أمراء البحرية ما قضت به المعارك على عهد أسيادهم الأيوبيين . لذا قرروا العودة إلى مصر « أطيب الأرضين وعجمها أكرم العجم أنساباً » . على قول الحديث النبوى الشريف . ومصر فى تقدير المقريزى تمثل صدر الطائر ورأسه ، على حين يمثل أحد جناحيه المشرق الإسلامى ، ويمثل الآخر المغرب(٣) . تمتاز مصر بموقع جغرافى فريد ، وأرض خصبة ، غنية فى مواردها ، وغلتها ، وشعبها يستجيب للنظام والطاعة ، ويستكين — فطرياً — للعرف والقانون ، لا يستقيم أمره إلا بالوحدة والنظام ، يقول الشاعر فى مصر وأهلها : سقياً لمصر وماحوت من أنسها وأناسها(٤).

ومهما يكن شيوع الخلاف قديماً وحديثاً فى المفاضلة بين دمشق والقاهرة ، فسرعان ما غدت القاهرة على زمن صاحب التعريف « أم الممالك وحاضرة البلاد ، ودار الخلافة ، وكرسى الملك ، ومنبع العلماء ، ومحط الرحال ، وتبعها كل شرق وغرب وبعد وقرب ، خلا الهند »(٥) . . ويصدق عليها قول أحد مشايخ العلم فى

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٩٩ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١ و٤٩ .

(٥) العمرى : التعريف ص ١٧٢ .

المغرب العربى آنذاك : «من لم يرها لم يعرف عز الإسلام»(١) . ويصفها أبو القاسم البرجى بعد أن أسفره إليها سلطان المغرب فى مهمة سياسية بقوله « إن الذى يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التى يتخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فانها أوسع فى كل ما يتخيل فيها » . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك الوصف(٢) . ولم لا يكون الإعجاب وفى القاهرة الجامع الأزهر ، يفد إليه طلبة العلم والفقراء ، يلازمون الإقامة فيها ، ويشتغلون بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو . وتعقد به مجالس الوعظ وحلقات الذكر ، فيجد الزائر له « من الأنس بالله والارتياح وتروح النفس ما لا يجده فى غيره » على قول المقريزى(٣) .

وما أبلغ قول ابن خلدون فى القاهرة يوم الفاتح من ذى القعدة سنة ٧٨٤ هـ حين انتقل من الإسكندرية إليها « فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الامم ، ومدرج الدرر من البشر وإيوان الإسلام . وكرسى الملك . تلوح القصور والدواوين فى جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه . . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه .. »(٤) .

ويصف الزعيم المغولى هولاكو القاهرة فى إحدى رسائله أنها « كروان سراى » أى محط الرحال والمتاجر والمال وفندق المسافرين ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها فى سائر جهات الشرق والغرب فى القرون الوسطى(٥) . ويبرز هذا الوصف على أية حال أهمية القاهرة كسوق عالمى ، يزخر

(١) ابن خلدون : المبتدا والخبر جـ ٧ ص ٤٥٢ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٤ .

(٣) الخطط : جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٣ .

(٥) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٤١٦ وجـ ١ قسم ٢ ص ٤٢٦ حاشيه ٣ للدكتور زيادة .

بمتاجر الشرق وبخاصة بعد أن امتد نفوذ المغول إلى الخليج العربى وتحويل التجارة الهندية منه إلى الطريق البرى عبر أفغانستان وفارس(١) . ويحتوى سوق القـاهرة على القيساريات والفنادق والوكالات والخانات والبنوك وكل ما يثير إعجاب الزائر من أصناف البضائع ، وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . يصف المقريزى فندق بلال بقوله « ما برح يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال . ولقد كنت أدخل فيه ، فاذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفصل عنها فى الفندق غير مساحة صغيرة بوسطه . وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه ... وعلى باب سوق السلاح فى الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار » . ويمضى المقريزى فى وصف نبضات الحياه وحركة السوق فى القاهرة فيقول : وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل . يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها ، فان هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخـذ ما فيها ألقيت إلى المزابل »(٢) .

أما حجم سوق القاهرة فيفوق العد والحصر ، وحسب القارىء أن سوقاً واحدة من أسواق القاهرة وهى القصبة يقول عنها المقريزى « سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول إنها تحتوى على إثنى عشر ألفاً حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرملة إلى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتباراً جيداً لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع ، فضلاً عن إحصاء ما فيها من

(١) Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 360.

(٢) الخطط : جـ ٢ ص ٩٢ و٩٣ .

الأشخاص »[١] . ويشمل سوق القصبة المسافة الحالية الممتدة من جامع الحاكم شمالا إلى جامع ابن طولون ومسجد السيدة نفيسة جنوباً . ويشبهه فى هذا الوصف شارع الموسكى فى وضعه خلال الربع الأول من القرن العشرين على قول ڤيت[٢] .

كذا ، اختار سلاطين المماليك القاهرة بدلاً من دمشق عاصمة لدولتهم ، فأصبحت — فى رأى السائح المعاصر — أم البلاد ومحط رحل الحاج والراحل ، ومحشر الأمير الغادر ، ومنزل القصاد والوافدين ، ومجمع الصادر والوارد ، تزخر بالعالم والجاهل ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وكثرة عمائرها . ينقل إثنا عشر ألف سقاء الماء إليهم على الجمال ، ويقوم ثلاثون ألف مكار بنقلهم على حميرها ، وتصعد بهم ست وثلاثون ألف مركب إلى الصعيد وتنحدر بهم إلى الإسكندرية ودمياط[٣] .

ويشكل نظام الحكم المملوكى — بخيره وشره — الدعامة الثالثة من دعائم بناء دولة البرين والبحرين . والمعروف أن المماليك هبطوا مصر مختارين أو أسارى أو متخطفين فى جماعات يرتفع عددهم حيناً ويهبط حيناً آخر . وتضاعف عددهم من ثمانمائة إلى خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان . عدا قوات إقليمية بلغت مائة وسبعة آلاف من المشاة وقوات احتياطية من العرب وصلت إلى ستة وستين ألف رجل[٤] . والمماليك خليط من جنسيات شتى ومن أوطان متباينة ، ومن آباء مجهولين . هبطوا غرباء فى بيئة جديدة حيث تربوا تحت ظروف واحدة وفرص واحدة كشفت عن مواهبهم ثم شكلوا بعدها تشكيلا صيرهم «سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ، ويردعون من جرأ وتقوى » على قول المقريزى[٥] . يعطون أسيادهم عملهم وقت السلم وسيفهم وقت الحرب . ويرجع فضل استخدامهم على هذا النحو إلى الملك الصالح أيوب حين انفض عنه عشيره وخذله أنصاره ، فاتخذ عامة عسكره من المماليك وارتبطوا

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٩٥ و١٧٤ وصور ومظالم للمؤلف ص ٩١ .

(٢) Wiet G. : *Histoire de la Nation Egyptienne*, V. 3, p 493.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٢٦ .

(٤) Gibbon : *op. cit.*, V. 3 p. 502.

(٥) الخطط : جـ ١ ص ٢١٤ .

بالوفاء له والتلمذ عليه[١] . وبذا حلت رابطة الأستاذية هذه محل العصبية الأيوبية المفقودة ، واتخذت شكلا عائلياً ، عبر عنه مماليك السيد الواحد بالخشداشية . ولما ورث المماليك الأيوبيين فى حكم مصر والشام غدت رابطة التبعية والولاء للأستاذ ، ورابطة الزمالة « الخشداشية » تكونان نظام الحكم عندهم . وكان قطز أول مملوك خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه : ولم يقع ذلك قبله من أحدمن الملوك[٢] .

ويذكر المقريزى أن الأمراء اختلفوا حول المناداة بالطفل الناصر محمد سلطاناً عليهم بعد مقتل أخيه الأشرف خليل ، فطلعت أم الناصر على السور وسألت عن غرضهم فقالوا « ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخماد الفتنة ، ولو بقى من بيت أستاذنا (قلاوون) بنت عمياء كنا مماليكها ، ولا سيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه الكفاية »[٣] . غير أن المعارضين لسلطنة الناصر محمد نجحوا فى إبعاده ونفيه إلى الكرك ، فتجمع مماليكه الذين اشتراهم لنفسه بسوق الخيل ومعهم راياتهم الصفراء وهم يتصايحون بوالى القاهرة « زودنا لنروح إلى أستاذنا الملك الناصر ونجىء صحبته » . ولسان حال كل منهم يقول « عدو أستاذى عدوى »[٤] . وصعد بعد الناصر محمد إلى عرش السلطنة إثنا عشر نفر من أولاده وأحفاده بفضل تمسك المماليك برابطة الأستاذية .

على أن رابطة الزمالة كانت فى واقع الأمر أقوى الروابط بين السلاطين والأمراء جميعاً . وكانت الطائفة الأقوى من طوائفهم الحزبية تنتخب للسلطنة غالباً أقدم زملائها وأكبرهم سناً وأسخاهم وعداً وعطاء ، وتخلع من أجله ابن السلطان المتوفى على الرغم من الإيمان المغلظة والمواثيق السابقة[٥] . حسبما تشهد عبارة الظاهر بيبرس لزملائه : « وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد فى سبيل الله »[٦] . ويؤكد لاجين هذا

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٧٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٦ .

(٣) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٨٠١ — النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٤٥ .

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٩٥ — صفحات لم تنشر فى ابن اياس ص ١٩١ .

(٥) زيادة : ملاحظات جديدة ص ٨١ وحاشية ص ٣٣٥ من ج ١ قسم ١ .

(٦) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥١٥ .

المعنى لزملائه بعد خلعهم للعادل كتبغا الذى قبض على خشداشة ، عز الدين أيبك الخزندار(١) ، ونص قوله « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسى عنكم ، ولست مولياً عليكم من مماليكى أحداً ، ولا أسمع فيكم كلا ما أبداً ، ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل ، وأنتم خشداشيتى (أى أنتم وأنا من تاجر واحد) ومحل إخوتى »(٢) وحلف لهم لاچين على هذا القول فاتفقوا معه ، وحلفوا له ونصبوه سلطاناً عليهم .

ومهما يكن أثر رابطتى الأستاذية والزمالة فى تدعيم سلطة الدولة ، فان محاولة بعض السلاطين الفحول أمثال بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى إقرار مبدأ الوراثة فى العرش لم تؤت أكلها تماماً لرفض الأمراء أن يكون ابن أحدهم الذى لم تحنكه التجارب ولم يشاركهم المحن سلطاناً عليهم ، بل يجب أن تؤول السلطنة إلى أكبرهم سناً وأكثرهم نفراً وأعزهم مهابة وجاهاً وأسخاهم عطاء كى لا يعدو أن يكون سوى واحداً بين قرنائه primus inter parés على قول لنبول(٣) وإذا كانوا قد أقسموا على الولاء لأبناء السلطان المتوفى ، فإنهم يوفون بقسمهم ، وينصبونهم لمدة شهر أو سنة أو سنتين على أكثر تقدير ، حتى يحوكوا مؤامراتهم وينسجوا دسائسهم فيعزلوهم ، ويسجنوهم وينفوهم أو يقتلوهم فى جو ملىء بالظلمة والغموض . وترتب على ذلك أمران : الأول أن بلغ عدد الأطفال الذين تسلطنوا على عرش دولة البرين والبحرين سبعة عشر طفلا ، منهم ستة أطفال تقل أعمارهم عن العاشرة ، وإحدى عشر طفلا عن السادسة عشرة . وامتدت سنوات حكمهم جميعاً إلى ما يقرب من نصف قرن ، توقفت خلالها نبضات الحياة فى البلاد ، وتعرضت أرواح العباد وأموالهم للارهاق والضياع والسلب ، وصارت قاعدة قتل السلاطين أو عزلهم وانتشار القتال فى الشوارع والطرقات الطريقة المفضلة للوصول إلى الحكم(٤) .

وجاء الأمر الثانى مترتباً على الأول ، وهو إشاعة الغموض والذعر وفقدان الأمن والنظام إلى درجة أن يتشبه العبيد والخدم بأسيادهم المماليك ، فينشئوا دولة

---

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) ابن أبى الفضائل : ج ٢ ص ٥٩٧ .

(٣) Lane-Pool : *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 325.

(٤) صور ومظالم للمؤلف ص ٦ و ٧ .

لهم كدولة السادة . ويكون لها منهم السلطان والأمير والوزير والحاجب والكاتب وغيرها من الرتب السلطانية . وتفسير ذلك أن العادة جرت بخروج العبيد يومياً فى أعداد غفيرة ، لا شاغل يشغلهم سوى خيول سادتهم ، يرعونها فى المرعى نهاراً وفى الاصطبلات ليلا . وفى ربيع ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) أقاموا بخيولهم مدة يسيرة فى إمبابة ، يلهون ويعبثون، والأمراء عنهم لاهون ، حتى كان شهر ذى القعدة فأظهروا العصيان ، ونصبوا عبداً من بينهم سلطاناً عليهم ، ورتبوا له أرباب دولة وأرباب وظائف ، وولوا نائب الشام ونائب حلب ، وصار هذا السلطان يحكم فيهم بما شاء ، ونصبوا له تختاً يجلس عليه ، وحوله الوزير والأمير الكبير والدوادار ، ويركب وعلى رأسه صنجق أصفر ، وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة فصاروا يفسدون هنا وهناك ، وينهبون ما يمر عليهم من غلال وحمير وإبل وماشية وغير ذلك . فحصل للناس منهم غاية الأذى وعظيم البلاء . وبقى سلطان العبيد يفعل ما أحب وأشتهى ، يصدر الأوامر بالقبض أو الحبس أو القتل أو الغرامة على من يشاء ، والضرب على من يشاء ، ولا يقدر أحد على رده حتى علم سلطان البلاد وقتذاك وهو الظاهر جقمق بقيام سلطنة العبيد فى إمبابة واستفحال خطرها ، فعين جريدة من مماليكه السلطانية تمكنت بعد معركة عنيفة من القضاء على دولة العبيد المزعومة ، وأخمد فتنتهم التى لم يسمع بمثلها فى سالف الأعصار على قول شاهد عيان(١) .

وأخيراً ، يأتى دور التشريع والقانون فى تدعيم دولة البرين والبحرين التى صحب قيامها حدوث بعض التغيرات الجذرية اجتماعياً واقتصادياً ، فبعد أن كان الحاكم والمحكوم يكونون وحدة جنسية ودينية ولغوية وثقافية وسياسية قبل تبوء المماليك عرش مصر ، صار الحاكم يكون طبقة اليجاركية متعالية ذات سمات معينة ، ويغذيها بين الفينة والأخرى موجات وهجرات بشرية ، وافدة من الخارج لها نفس السمات والخصائص ، منها على سبيل المثال موجة مغولية تعرف بالاويراتية أو العويراتية تعدادها نحو عشرة آلاف نسمة ، قدمت بلاد الشام خوفاً من الملك غازان وذلك على عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا — وكان من جنسها — فأنزلهم بالساحل

(١) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور : ج ١ ص ١٩ . وراجع التفاصيل فى صور ومظالم للمؤلف ص ١٣ وما بعدها .

الشامى قريب قاقون[١] . وأحضر كبراءهم إلى الديار المصرية ، ورحب بهم ، وأنعم على مقدمهم طرغاى أو طرغية بإمرة طبلخاناه وعلى ثلثمائة من أكابرهم ، بل من اللصوص — على حد تعبير المقريزى — بإمرة عشرة ، وأجرى على البقية الرواتب والإقطاعات وأنزلهم بحى الحسينية حيث تفاعلوا مع المواطنين ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم ، ونشروا بينهم من مظاهر الخلاعة والاستخفاف بالآداب العامة ما لم يكن معهوداً من قبل ، سيما وأن بعضهم ظل على وثنيته ولم يكرههم السلطان على اعتناق الإسلام . ولم يعترض على عدم صيامهم شهر رمضان . ويصف المقريزى أثر ذلك السلوك الأجنبى وانطباعاته على المواطنين فيقول « وكانوا على غير الملة الإسلامية ، وتظاهر بعضهم بدين الإسلام ولم يصم البعض الآخر شهر رمضان عند حلوله ، فشكا الناس للسلطان كتبغا ، فأبى أن يكرههم على الإسلام ، ومنع من معارضتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، فشق ذلك على الناس »[٢] .

لا بد إذن من وضع تشريع جديد للدولة يتمشى مع هذا التركيب الاجتماعى بشقيه العربى والمملوكى ، يحفظ لأصحاب البلاد قيمهم الاجتماعية ومقدساتهم الدينية وتقاليدهم الموروثة جيلاً بعد جيل ، ويقر للحاكمين الأجانب امتيازاتهم ، ويشبع شهواتهم وغرائزهم البدائية الخشنة ، فضلا عن تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الحاكم والمحكوم . يقول المؤرخون فى هذا الصدد أن الزعيم المغولى جنكزخان قرر لدولته — بعد أن استقرت فى بلاد المشرق — قواعد وعقوبات دونها فى كتاب على هيئـــة دستور أسماه ياسه Yassa على قول المقريزى أو اليسق على قول أبو المحاسن ، وجعله شريعة لقومه . اتخذ مواد أحكامه من شريعة أهل الاستبس وعرفهم ومن تجاربه الشخصية . وأعطت الياسه جنكزخان وأولاده من بعده السلطة المطلقة والكلمة القاطعة النافذة ، وحددت الياسه أصول القوانين المالية والجنائية والمدنية والتجارية للدولة المغولية[٣] .

وسار أهل جنكزخان بعده على هدى من الياسه ، والتزموا بموادها حتى

---

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) الخطط : ج ٢ ص ٢٢ و ٢٣ . وصور ومظالم ص ٣٧ .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨٢ Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 241.

قطع الله دابرهم ، وتفرقوا بين رقيق يباع أو وافدية ، فامتلأت بلاد مصر والشام بطوائف المغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ، وامتزج بلحم ملوك مصر ودمهم مهابتهم وتنظيمهم ، كما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن(١) ، وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من سار على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكزخان من أمر الترتيب والمذهب ، فهو الذى ابتدأ فى دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد ، وإن كان بعضها قبله ، فلم تكن على هذه الصيغة أبداً ، ويمثل أبو المحاسن لذلك مثلا فيقاس عليه ، وهو أن الدوادار ومعناه ماسك الدواة كان قديماً لا يباشره إلا متعمم . كذلك كان بيبرس أول سلطان بمصر يعين أربعة قضاة يمثلون مذاهب السنة الأربعة(١) .

ومن ثم غدت السياسة التشريعية فى دولة البرين والبحرين نوعين : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهى من أحكام الشريعة وصنفت فيها كتب ، ويشرف على تطبيقها وتنفيذها طبقة رجال الدين على المذاهب الأربعة . وسياسة ظالمة تحرمها الشريعة وهى من الياساه — أو الياساق — وهى قوانين ضمنها جنكزخان من عقله ، وقررها من ذهنه ، وجعل الناس يتحاكمون إليها وأكثرها مخالف لشريعة الله وكتبه(٣) ويشرف على تطبيق الياساة متولى الحجوبية الكبرى والحجاب عامة ، ويفصلون فى قضايا المماليك ، أمراء وعساكر ، وفق ما ورد فى قوانين الياسه . ولكن سرعان ما حدث تطور خطير فى النظام القضائى ، وطغت السياسة الظالمة على السياسة العادلة ، حسبما يشير المقريزى إلى ذلك الطغيان تحت أحداث ٧٥٣ هـ . حيث يقول « وفيها رسم للأمير جرجى الحاجب أن يتحدث فى أمر أرباب الديوان ويفصلهم عن غرمائهم بأحكام السياسة . ولم يكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية ، فاستمر ذلك فيما بعد . وكان سبب ذلك وقوف تجار العجم بدار العدل . وذكروا أنهم لم يخرجوا فى بلادهم إلا لما نزل بهم من جور التتار . وأنهم باعوا بضائعهم لعدة من تجار القاهرة ، فأكلوها عليهم ، وأرادوا إثبات إعسارهم على القاضى الحنفى وهم فى سجنه ، وقد فلس بعضهم فرسم لجرجى بإخراج غرماء التجار

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢١ .
(٢) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨١ — حتى : ج ٣ ص ٧٩٨ .
(٣) الخطط : ج ٢ ص ٢٢٠ — القلقشندى : ج ٣ ص ٣١٠ .

من السجن وخلاصهم مما فى قبلهم . وأنكر على القاضى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمديونين . فأخرج جرجى التجار من السجن ، وأحضر لهم أعوان الوالى وضربهم ، وخلص منهم المال شيئاً بعد شىء .

ومن حينئذ صارت الحجابة بالقاهرة وبلاد الشام تتصدى للحكم بين الناس فيما كان من شأن القضاة الحكم فيه »[١] . الأمر الذى أطمع قضاة السوء فى المناصب ، وصار المناحيس يطلعون إلى مصر ، ويتولون القضاء فى النواحى بالبذل ، وحصل بذلك وهن فى الأحكام الشرعية[٢] .

وكيفما اتصف قضاة المعاملات وقتذاك بالظلم والانحراف ، فان الضرائب ويعبر عنها فى المصطلح المملوكى بالأموال الديوانية كانت على نوعين كذلك . ضرائب عادلة تقرها الشريعة الإسلامية ، وسبق أن مارستها البلاد فى عصر ما قبل المماليك ، وتحصل من سبع موارد أساسية وهى : المال الخراجى ، ورسم المعادن ، والزكاة ، والجزية والجمارك ، ودار سك النقود . وضرائب غير شرعية تقرها الشريعة المغولية الظالمة أى الياسه[٣] . ويقل عددها ويكثر حسبما يعوز السلطان المال أو يضيق به الحال ، ويعبر عنها بالمكوس أو « الحقوق السلطانية والمعاملات المالية »[٤] أبطل منها الناصر محمد عام تولية السلطنة خمسة عشر نوعاً ، كما أبطل معها عقوبة الضرب بالمقارع[٥] .

وما أبدع ما حواه كتاب صبح الأعشى عن التراتيب الإدارية والديوانية لدولة البرين والبحرين ، وهى معقدة فى مجموعها ، لكنها مرتبة ترتيباً دقيقاً من أصغرها بالقاعدة فى الأطراف والنيابات إلى أكبرها بالقمة فى العاصمة . وتدل قوائمها على طول باع المماليك فى الضبط والربط ، وسرعة الحزم والبت فى أمور السياسة والحرب ، مبيناً فيها أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ومنهم أرباب الوظائف الديوانية وأصحاب الوظائف الدينية . ويحكم نظام البريد بأنواعه البرية والجوية

---

(١) السلوك : ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٢ .
(٢) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ١٥٤ .
(٣) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٥٢ .
(٤) الخطط : ج ٣ ص ١٠٥ .
(٥) الخطط : ج ١ ص ١٠٢ و ١٢٨ وابن إياس ج ١ ص ١٢٤ .

والضوئية والصوتية الصلة الوثيقة بين عاصمة الدولة وبين نياباتها وأطرافها . إذ المعروف أن سلاطين المماليك أنشأوا طرق البريد ، وأقاموا عليها الخانات ، وزودوها بالخيول والهجين والعمال والماء والزاد(١) . كما أقاموا مطارات الحمام الرسائلى لحمل مكاتبات الدولة ، ويعبر عنها فى المصطلح المملوكى بالهدى ، واتخذوا من قمم الجبال ومن الأبنية العالية فى أقصى الثغور كالبيرة والرحبة مناور لرفع النار ليلا والدخان نهاراً ، وأرصد فى كل واحد منها الديارب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم(٢) . وقد ترقى المناور فى سرعة وصول الأخبار إلى الدرجة القصوى . وذلك أن البريد يأتى من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتى من الخبر ما هو أسرع فى البريد ، والمناور تأتى من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك بوصول خبر فى الفرات إلى مصر فى مسافة يوم وليلة على الأكثر(٣) .

ويرجع فضل تدعيم وتطوير أجهزة الأعلام المملوكية على هذا النحو إلى السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أراد ترتيب دولته فى دمشق ، حين أزمع العودة إلى القاهرة ، فعين لها شرف الدين محمد بن عبد الوهاب عم ابن فضل الله العمرى كاتباً للانشاء هناك ، وقال له « إن قدرت أن لا تبيتنى كل ليلة إلا على خير ، ولا تصبحنى إلا على خير فافعل »(٤). وتمكن بيبرس — بفضل نظام البريد — من لعب البولو فى كلتا العاصمتين (القاهرة ودمشق) خلال أسبوع واحد(٥) ، فضلا عن كثرة تردده وأسفاره إلى الشام المحروس ليراقب عماله وليطمئن بنفسه على الأمن وسلامته ، وكان يعمل له موكب بمصر وموكب بالشام حتى قال القائل فى المعنى : يوماً بمصر ويوماً بالشام ويوماً بالفرات ويوماً فى قرى حلب(٦) . ويضيف ميور « ويوماً فى الحجاز »(٧) .

---

(١) راجع التفاصيل فى نظام البريد فى الدولة الإسلامية للمؤلف ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) التعريف ص ١٩٩ .

(٣) القلقشندى : جـ ١٤ ص ٤٠٠ — نظام البريد ص ١٥٢ .

(٤) نظام البريد : ص ١٢٣ .

(٥) حتى : جـ ٣ ص ٧٩٨ :

(٦) ابن اياس : جـ ١ ص ١٠٨ .

(٧) William Muir : *The Mameluke or slave dynasty of Egypt*, London, 1896, p. 138.

وما أروع وصف المقريزى لمشاعر الدماشقة وفرحتهم حين سماعهم بعزم أحد السلاطين على زيارة البلاد الشامية ؛ فيتسابقون فى إقامة الزينات ويتزاحمون على مشاهدة مواكبهم مثال ذلك تصويره لقدوم الناصر محمد بن قلاوون من الحجاز إلى دمشق يوم ١١ محرم ٧١٣ هـ . وكان دخوله إليها يوماً مشهوداً بلغت فيه أجر البيت مبلغاً زائداً ، حتى أن بيتاً أخذت أجرته للنظر إلى السلطان فى مدة من بكرة النهار إلى الظهر ستمائة درهم . وعبر السلطان جموع الدماشقة وزينتهم وهو على ناقة وعليه بشت (العباءة من الصوف بلونه الطبيعى) من ملابس العرب بلثام وبيده حربه(١). ويعنى ذلك كله أن مراكز البريد بدلت الخوف أمنا والوحشه أنسا فى سائر جهات الدولة ، «حتى صارت المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية ، لا تحمل زاداً ولا ماء» على قول المقريزى(٢) .

— ٣ —

هذه عمد أربعة (المعركة والعاصمة والنظام والتشريع) أسهمت — فيما يرى الباحث — فى بناء دولة البرين والبحرين ويتبعها سؤال عن نوعية التغييرات الجذرية التى صحبت قيام تلك الدولة ؟ . وأولها فى نظر الباحث زوال سيادة الجنس العربى وخضوعه لسيادة الجنس المملوكى التركى لعدة قرون (١٢٥٠ — ١٩٥٢ م) فقد خلالها العرب ثقتهم فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . ومن ثم لم يكن بين العرب والمماليك منذ قيام دولتهم حتى سقوطها سوى حب مفقود بسبب الكراهية الجنسية لمن مسهم الرق ، وصاروا حكاما على من هم أرفع مكانة وأولى بالحكم والولاية منهم وهم العرب الذين أعلنوا رأيهم بصراحة ، وعارضوا بزعامة أميرهم الكبير نجم الدين على الجعدى سلطنة المعز أيبك ، وامتنعوا عن دفع الخراج لأولئك العبيد الخوارج « نحن أصحاب البلاد أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد »(٣) . وتحايل سلاطين المماليك بمختلف الوسائل على إخماد ثورات العرب وبخاصة عربان الشام « فهم جل

---

(١) السلوك : جـ ٢ قسم ١ ص ١٢٢ .

(٢) شرحه : جـ ١ قسم ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٣) شرحه : جـ ١ قسم ٢ ص ٣٨٦ .

القوم وعين الناس ، ولا عناية للملوك إلا بهم ، ولا مبالاة بغيرهم ، ورأس الكل آل فضل وآل مراء وآل على ، وهم من آل فضل الذين كانوا فى نحر العدو . ولهم العديد الأكثر ، ولهم المال الأوفر . وآل على منهم ، نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا ، وبقى عيسى بن مهنا جار الفرات فى تلابيب التتار . ولذا يضاعف إكرامهم ، وتوفر لهم الإقطاعات ، وتسنى العطايا . وصاروا الآن أهل بيتين : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى[1] . وتوطرت الصداقة بين هذين البيتين وبين الناصر محمد بن قلاوون بخاصة — بعد نفرة عظيمة عدة سنين — حتى عظم العرب فى أيامه لجلبهم الخيل له وبذله فى أثمانها ما لم يسمع بمثله ، فشمل الغنى عامتهم ، وأقطع الناصر محمد أمراء البيتين عدة إقطاعات جليلة ، وخلع عليهم مائة وستين خلعة ، وأحضر أمراءهم إلى مصر لمشاركته فى سباق الخيل[2] . ويروى عن الناصر محمد أنه كان يقول « رأيت فى بعض الملاحم أن المغاربة تملك مصر وتبيع أولاد الترك فى سويقة مازن » . فأوجس المماليك خيفة من ذلك القول فى عام ٧٤٨ هـ حين شاع انتقال أبى الحسن المرينى صاحب المغرب من فاس إلى تونس وهى أقرب إلى مصر من فاس بثلاثة أشهر ، ولذا تودد ، السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر لعرب الكرك واتخذ منهم كاتب سره ومستشاريه ، ولبس زى العربان مجاملة للعرب[3] .

أما عرب مصر فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل ، لكنهم على سعة أموالهم واتساع نطاق جماعاتهم ليسوا عند السلطان فى الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من ينجد ولايتهم ، ولا يعرق ولا يشام ، لا يخرجون عن جدر الجدران[4]. تفرقوا فى الوجهين القبلى والبحرى ، فحلت قبائل بنى سعد وبنى وائل وبنى جذام وبنى بقر وبنى عطية وبنى النعائم بريف ومدن الشرقية . ونزل بنو هوارة وهم بطن من بنى عمر ببلاد الصعيد . أما عرب غزاله فسكنوا الجيزة ، على حين هبط عرب الجويلى ومرعى بالبحيرة ، وهم أشبه القوم بالتخلق بأخلاق العرب فى الحل

(١) التعريف : ص ٧٩ .
(٢) النجوم الزاهرة : ج ٩ ص ١٦٨ — المختصر : ج ٤ ص ١١٣ .
(٣) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٦٨ .
(٤) التعريف : ص ٧٦ .

والترحال . يغربون إلى القيروان وقابس ويفدون على الحضرة وفود أمثالهم من أمراء العرب معلنين ولاءهم ، طالبين الإقطاعات الوفيرة والاستقلال المحلى المحدود ووراثة المشيخات .

ومهما يكن من أوجه الخلاف بين عرب البرين الشامى والمصرى ، فان ثوراتهم لم تخمد ضد المماليك ، ولاسيما إذا ما اقترنت بفتن المماليك بعضهم بعضاً . من ذلك على سبيل المثال ماوقع عام ٨١٤ هـ . حين دبر الأميران شيخو ونوروز خلع الملك الناصر فرج من السلطنة المملوكية ، واتفقا على سلطنة الخليفة العباسى المستعين بالله مع احتفاظه بمنصب الخلافة ، على شريطة أن يحكم نوروز البلاد الشامية من غزة إلى الفرات ، ويحكم شيخو الديار المصرية من قطيا بالشرقية إلى أقصى بلاد الصعيد ، وأن لا يكتب الخليفة منشوراً أو مرسوماً قبل عرضه عليهما والحصول على موافقتهما . ولبس الخليفة العباسى شارة الملك ، وباس الأمراء له الأرض على عادتهم . ويعنى هذا الخبر أن الفرصة واتت العرب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم كما لو كانوا قبل سقوط بغداد ، وأن يستردوا مجدهم السالف وسيادتهم القومية . غير أن تفرق كلمتهم ، وفقدانهم صفات القيادة من ناحية ، وتفوق المماليك حربياً عليهم من ناحية أخرى أضاع عليهم تلك الفرصة الذهبية . إذ اتضح لشيخو — بعد ستة أشهر إلا أياماً — أن يخلع الخليفة من السلطنة ويجلس مكانه بحجة أن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة ، وكثر الفساد فى البر والبحر ، وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركى ، له سطوة بقمع أهل الفساد ، وتنصلح الأحوال على يده . وأحضر شيخو القضاه وسائر الأمراء ، وكتب محضراً بذلك ، وخلعوا الخليفة ، وسلطنوا شيخو ، فثبت دعائم الدولة ، وقطع دابر وجدر العصاة من العرب والمماليك على قول ابن إياس(١) . وجرى على الخليفه المستعين بالله ما جرى على أسلافه وأخلافه من حيث الانزواء والاكتفاء باللقب الخليفتى « وليس له من أمر ولا نهى ولا نفوذ ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور » على قول القريزى(٢) .

واستفحل خطر العرب على المماليك منذ عام ٨٧٢ هـ حينما انشغل السلاطين

---

(١) بدائع الزهور : جـ ١ ص ٣٥٧ و ٣٥٨ .

(٢) السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٤٤٢ تحت أحداث سنة ٦٥٩ هـ Lewis : The Arabs in History, p. 105.

بتقلب دولهم ، وتغير فى تلك السنة أربعة سلاطين ، استنجد الترك فيها بالعرب على بعضهم ، فكان من أعز ما يكون على قول مؤرخ معاصر(١) . وكاد الأمر يفلت من يد الترك إلى العرب لولا أن ولى السلطنة رجل فحل قوى الشكيمة هو قايتباى ، الذى نجح فى إخماد ثورات العرب بالصعيد ، وقتل منهم مالا يحصى ، ونوع بهم العذاب تنويعاً ، فقبض على نحو ثلثمائة من عرب غزالة الثائرين ، ووضع الرجال فى زناجير والنساء والصغار فى حبال ، وعلق رءوس من قتل من الرجال فى رقاب النساء ، وسمروهم على جمال ، وشقوا بهم من القاهرة يوم خروج المحمل، ثم علقوهم على أبواب المدينة(٢) . الأمر الذى عمق الكراهية فى نفوس العرب ضد الترك والمماليك ، وعبر عنها السلطان طومان باى الثانى أثناء مقاومته لسليم الفاتح العثمانى بقوله : إن العربان صارت كلها أعداء لنا وعوناً لعدونا ، لأنه ما منهم أحد إلا من قتلنا إما أباه وإما أخاه وإما إبنه وإما ابن عمه وإما واحد من أقاربه . وذلك لما كانوا يعصون علينا . فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثأره القديم(٣) .

وكان التغيير الثانى الذى صحب قيام دولة البرين والبحرين هو نقل مركز الثقل العالمى للغة العربية وآدابها وفنونها من العراق إلى مصر . إذ لم تعد بغداد عاصمة العالم العربى والإسلامى للنهضة العلمية والأدبية بعد أن خربت الخراب العظيم بقتل هولاكو خان لسبعمائة من القضاة والفقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان والمدرسون ، وكان منهم محيي الدين بن الجوزى وأولاده(٤) ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوماً ، ثم نودى بالأمان . وأحرق هولاكو كتب العلماء التى كانت ببغداد من سائر العلوم والفنون التى ما كانت فى الدنيا(٥) . وقيل إن هولاكو ألقى بها بدجلة معاملة — بزعمهم — لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن(٦) ومهما يكن الأمر ، فان سقوط بغداد وتخريبها على يد التتار قد وقع

---

(١) ابن تغرى بردى : منتخبات ج ٣ ص ٦٣٢ .

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٣٥٧ وج ٢ ص ١٨٠ و ٢٤٣ .

(٣) شرحه : ج ١ ص ٣٥٧ .

(٤) المختصر : ج ٣ ص ١٩٥ — مادة بغداد بدائرة معارف البستانى .

(٥) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٥١ .

(٦) العبر وديوان المبتدا والخبر : ج ٥ ص ٥٤٣ .

بعد مضى خمس وخمسون عاماً على سقوط بيزنطة وتخريبها على يد رجال الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٣ م . وأنهى ما كان بين المدينتين الخالدتين من توازن حضارى وثقافى ، ازدهرت فى ظله الحضارة الانسانية فى منطقة الشرق الأوسط لمدة قرون ، ومنذئذ لم تعد له القيادة العلمية والحضارية إلى اليوم(١) .

لكن مواطن علمية كبرى قامت على أنقاض بغداد فى الأقطار الإسلامية الناشئة فيما بعد المحنة ، ومنها على سبيل المثال مدينة مراغة التى عمل بها الخواجة نصير الدين الطوسى الرصد ، ونقل إليه كثيراً من كتب الاوقاف التى كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة ودار طب ودار حديث ، ومدرسة لكل فقيه ، ورتب فيها الفلاسفة والأطباء والمدرسين ذوى الرواتب الثابتة(٢). ولا شك أن غالب من رحل من علماء العراق والشام أيام النكبة والجفلة من التتار قد نال المكانة السامية فى القطر الذى حل فيه(٣) . وبخاصة من سكن منهم الديار المصرية ، ويذكر منهم أبو شامة على سبيل المثال لا الحصر : الجمال يوسف الدبابيسى ، والعماد أبى حامد الحسين المعروف بالحافظ ابن عساكر ، والكمال التفليسى والمحيى بن سراقة مغربى ، وكمال الدين أحمد بن القاضى زين الدين ، وأولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعيالهم وأموالهم ، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر(٤) . فضلا عن جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة ومقدمهم شمس الدين سلار(٥) .

أولئك خرجوا فى قفل كبير بعد قفل إلى مصر حيث « الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت » . على قول السيوطى(٥) . وحيث توفر لهم الأمن والرخاء والرعاية من السلاطين والأمراء الذين عنوا باللغة العربية وآدابها وفنونها ، ومنهم السلطان الأشرف خليل الذى اشتهر بعقد المجالس الأدبية ومطارحة الأدباء بذهن

---

(١) Runciman : op. cit., V. 3, p. 304.

(٢) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢١٥ .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ذيل الروضتين : ص ٢٠٩ و٢١٢ و٢٣٠ و٢٣٢ — المختصر : جـ ٣ ص ٢١٦ أحداث سنة ٦٦٠ هـ .

(٥) حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ٦٥ .

رائق ، وزكاء مفرط ، فضلا عن معرفته بصناعة الإنشا والتوقيع . فكان لا يعلم على مكتوب حتى يقرأه كله ، ولا بد أن يستدرك على الكتاب فيما يتبين لهم فيه الصواب ، إلا أنه تعاظم فى آخر أيامه ، وصار لا يكتب اسمه على المراسيم والمربعات ، ولا يكتب حرف الخاء (خ) إشارة إلى الحرف الأول من اسمه على قول المقريزى[١] . واشتهر كذلك السلطانان جقمق وخشقدم بفصاحة لسانهما بالعربية ، ولأولهما مسائل عويصة فى الفقه ، ترجم له فيها العلماء . وممن اشتغل من الأمراء بالعربية وعلومها ، وتحدث بها بفصاحة وطلاقة جانى بك المتوفى سنة ٨٦٨ هـ . وخاير بك المتوفى سنة ٨٨٧ هـ ، وجانى بك حبيب العلائى الإينالى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ[٢] .

ويروى عن السلطان المملوكى بصفة عامة حرصه الشديد على أن يخاطبه جلساؤه باللغة العربية ، ويؤاخذ من يخاطبه بالتركية مؤاخذة شديدة بدليل ما وقع لابن سالم (٨٧١ — ٨٥٢ هـ) واضع قواعد علم النحو على اللغة التركية يوم أن كلمه السلطان بالعربى فأجابه بالتركى قصداً للتقدم عنده بذلك ، فغضب منه السلطان ، وأمر بضربه فى حضرته ضرباً مبرحاً ، وأهانه إهانة بالغة على قول المراجع[٣] .

ورغم معرفة فئات الجنس المملوكى بالرطانة التركية والمغولية والفارسية وتحدثهم بها فيما بينهم ، فان اللغة العربية كانت لغة البلاد القومية فى المعاهد العلمية والدواوين الحكومية والمراسلات الدولية والمعاملات اليومية . ولذا أنشأت الدولة إدارة — فى ديوان الإنشا — لترجمة الكتب الواردة من بلاد العجم ، وعين لها رئيس وكتبة يجيدون تلك اللغات[٤] .

وكان الأزهر ولا يزال أكثر وأبرز معاهد العلم فى دولة البرين والبحرين للدراسات العالية فى علوم الدين بخاصة والدنيا بعامة . يفد إليه طلاب العلم ومشايخه من مشارق الأرض ومغاربها للتعمق فى دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقينه وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو ، ودراسة اللغة العربية وآدابها

(١) السلوك : جـ ١ قسم ٣ ص ٧٩٠ .
(٢) ابن أياس : جـ ١ ص ١٢٨ .
(٣) التبر المسبوك : ص ٤٢٥ .
(٤) الدرر الكامنة : ص ١٩٧ .

وفنونها . وتعقد بالأزهر مجالس الوعظ وحلقات الذكر والتدريس العام بحيث يجد الزائر له « من الإنس بالله والارتياح ونزوع النفس ما لا يجد فى غيره » . على قول المقريزى(١) . ويشارك الأزهر فى تلك النهضة العلمية والأدبية الزاهرة المدارس العامة والجوامع والمؤسسات الاجتماعية والثقافية من خوانق وربط وزوايا ، فضلا عن المعاهد الفنية والعسكرية التى أحدثت تغييرات جذرية فى حياة المجتمع بوجه عام . يشهد عليها ما خلفه النويرى والعينى والقلقشندى والعمرى والمقريزى وأبى المحاسن وابن خلدون وابن إياس وابن حجر ، أصحاب المصنفات والموسوعات المتشعبة الأطراف والأهداف ، والحافظة لتراث القومية العربية الحضارى(٢) .

وثالث التغييرات الجذرية التى أجرتها دولة البرين والبحرين كان استبدال اقتصاد البلاد النقدى التجارى بسماته الحركية فى الداخل والخارج بآخر يعتمد داخلياً على اقتصاد إقطاعى قوامه الزراعة . ولم يكن هذا التغيير فجائياً ، بل جاء تدريجياً ، إذ المعروف أن نظم المعاملات التجارية لم تكن موحدة فى دول الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ففى مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية على حين جرى التعامل فى فارس والعراق بالدراهم الفضية . وظل النظام النقدى ثابتاً فى مصر طالما كان الدينار الذهبى هو وحدة النقود وقاعدة التعامل . فلما قل التعامل به تدريجياً منذ أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، حين سك الدراهم من الفضة والفلوس من النحاس ، تنبأ خبراء الاقتصاد آنذاك بالآثار التى سوف تترتب على النقد مستقبلا ، وصدق تنبؤهم بحدوث الخلل فى النقد على عهد السلطان العادل كتبغا (١٢٩٦/٩٤ م) حين ضربت الفلوس وصارت المعاملة وزناً لا عداً ، ومن ثم راجت الفلوس ، وصارت من النقد الغالب فى البلد ، فطردت النقود الرديئة الجيدة من التداول(٣) .

على أن بداية الخلل الفعلى للنظام النقدى حدث منذ منتصف القرن الحادى عشر ، حين اتسعت رقعة الدولة السلجوقية وتعذر عليها الهيمنة على أطرافها ، واتضح لوزيرها ملكشاه آل ملك الطوسى الشهير أن قاعدة إعطاء مرتبات للجند على

---

(١) الخطط : ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) راجع : صور ومظالم للمؤلف ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٧ و ٧١ .

اختلاف أصنافهم وأجناسهم أرهقت الإدارة المالية بأبهظ المرتبات والتكاليف ، ففكر هذا الوزير فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالإقطاعات من الأرض لمختلف طبقات الجند حتى صار الإقطاع الحربى هو القاعدة[١] فى الدولتين السلجوقية والنورية ؛ وعنهما نقل السلطان صلاح الدين الأيوبى تلك القاعدة إلى مصر حسبما يروى المقريزى « ومنذ كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا هذا فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » فتقسم الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطاً منها أربعة قراريط للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد[٢] .

وورث المماليك نظام الاقطاع الحربى عن أسيادهم الأيوبيين وأرسوا قواعده على أسس مقننة بعد أن قاموا بمسح البلاد وحصر زمامها مرتين : الأولى على عهد السلطان حسام الدين لاجين وعرفت بالروك الحسامى نسبة إليه ، والثانية على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعرفت بالروك الناصرى الذى قضى بزيادة أنصبة الأمراء والأجناد فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر فى الروك الحسامى ، وخصصت العشرة قراريط الباقية للسلطان ومماليكه[٣] . ويصور أبو المحاسن هذا التحول التدريجى فى اقتصاد البلاد فى عبارة بليغة نصها « وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سنقر جد بنى زنكى ، ثم أنشأ بنو زنكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك ، فانظر إلى أمر الدنيا ، وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشؤها إلى يومنا هذا !! »[٤] واشترطت القاعدة الإقطاعية على الأمير المملوكى أن يحتفظ بعدد معين من الجند يتراوح بين الخمسة والمائة حسب رتبته وإقطاعه وأن يخصص ثلثى دخله للانفاق عليهم وأن لايرث الأبناء الإقطاع ، خشية قيام أرستقراطية إقطاعية ، وأن لا يقيم الأمير فى إقطاعه بل فى القاهرة أو فى عاصمة الإقليم الذى يوجد به إقطاعه ، ما دامت العبرة بالدخل لا بالملكية . لذلك لم يعرف الأمير الشرقى فن إقامة القلاع

---

(١) التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح الدين للمؤلف ص ٣ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٧ و١٥٦ .

(٣) راجع السلوك : حاشية ٢٢١ قسم ١ ج ٢ ص ١٤٦ .

(٤) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٢٧٩ .

والحصون والقصور المحلية المناهضة للسلطة المركزية كما كان حال زميله فى الغرب الأوربى[١] . وتختلف ضريبة الأطيان باختلاف أرض مصر ، فأغلب أرض الوجه البحرى تحصل الضريبة نقداً ، على عكس الوجه القبلى فتحصل عيناً ، ويزيد قدر الضريبة نقداً أو عيناً تبعاً لخصوبة الأرض ومقدار ما تنتجه من غلة وارتفاع النيل وانخفاضه[٢] . وحسبك أن تعرف أن خراج مصر على زمن السلطان الظاهر بيبرس بلغ اثنى عشر مليوناً من الجنيهات وهو أقصى ما جبته مصر منذ ولاية عبد الله ابن سعد بن أبى السرح[٣] .

ومهما قيل عن حسنات نظام الإقطاع الحربى وسيئاته ، فلا جدال أن تياراً إشتراكياً مشهوداً نما وعاش فى كنف هذا النظام على هدى من المبادىء الإنسانية العامة لأحكام الشريعة الإسلامية والعرف الشرقى ، إذ ظلت الملكية الفردية والميراث والأسرة أسساً جوهرية مرعية نظرياً وتطبيقاً ، كما ظلت حقوق الفقراء المساكين واليتامى والعجزة مقررة فى بيت المال تقضى من الزكاة والصدقة . وكانت فرص العمل وتكافؤها متاحة لغالب الناس . تمثل هذا التيار الاشتراكى الأصيل فى المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية والمشاريع العمرانية والزراعية التى تقيمها الدولة والأمراء والتى لايتسع المقام لذكرها هنا ومنها على سبيل المثال القرارات الثورية التى يصدرها بعض السلاطين لمواجهة أزمات التموين التى تعرضت لها البلاد وقت الأزمات كأزمة عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) حين ارتفعت أسعار الغلال وتعذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز لجشع الأمراء والمستغلين ، فأغرق السلطان الناصر محمد الأسواق بالغلال التى استوردها من الخارج على جناح السرعة. ونودى بالقاهرة ومصر « ألا يباع القمح بأكثر من ثلاثين درهما للأردب الواحد ، ومن باع أكثر من ثلاثين نهب حاله » . ورسم الناصر بفتح شونه وبيع ما بها ، واشتد بالضرب المبرح على المخالفين لبيعهم الخبز بأكثر من السعر المحدد[٤] . وكثيراً ما يلجأ السلطان المملوكى إلى مصادرة عقارات وحواصل ومتاجر وأموال كبار التجار والأمراء والحكام الجشعين

(١) Lewis : op. cit., pp. 155-156.

(٢) القلقشندى : ج ٣ ص ٤٤٨ .

(٣) ابن إياس : ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ١٩٦ .

والمنحرفين والمتجرين بأقوات الناس وعرضهـا فى الأسواق بالأسعـار التى يحددها المحتسب(١) .

ويشير ابن بطوطة إلى تيار اشتراكى آخر حين يتحدث عن الأوقاف الخيرية بدمشق وأوجه نشاطها ، ومنها أوقاف عن العاجزين عن الحج تعطى لمن يحج عن الرجال منهم كفايته ، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهى اللواتى لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لـكل واحد منها رصيفان فى جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير(٢) . ويذكر ابن بطوطة أن دير الفاروص بخارج اللاذقية يعتبر أعظم دير بالشام ومصر ، يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين ، فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والـكبر »(٣) . وتتمثل عينات الخدمات فى الجامع والخانقاه اللذان أنشأهما الأمير المقر السيفى شيخو بالصليبة الطولونية ، وأنشأ بها حمامين وربوعاً ودكاكين . وقرر بالخانكاه شيخاً إسمه أكمل الدين محمد الرومى الحنفى ، وقرر له فى كل شهر أربعمائة درهم ، وجعل عنده عشرين فقيهاً . وجعل خطيب الجامع جمال الدين خليل بن عثمان الزولى ، وجعل به درساً للمالكية أيضاً وولى تدريسه نور الدين السخاوى وقرر له ثلثمائة درهم فى كل شهر ، ورتب به قراء ومؤذنين وغير ذلك من أرباب الوظائف ، وقرر لهم معاليم بلغت جملتها فى الشهر ثلاثة آلاف درهم . وأوقف شيخو على هذا الجامع والخانقاه وأوقافاً كثيرة ، وقرر للصوفية الخبز والطعام فى كل يوم والحلوى العجمية فى كل شهر وغير ذلك من الجوامع والمرتبات للصوفية . وجعل فى الخانقاه تدريساً وقراءة سبع فى كل يوم(٤) .

---

(١) راجع : السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٨٨١ — وابن إياس ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) الرحلة : ج ١ ص ٨٣ .

(٣) شرحه : ج ١ ص ٦٠ و٦٦ .

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ٢٠٣ — السلوك : ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٤ .

— ٤ —

وكيفما كان الأمر ، فظاهرة الغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان فى دولة البرين والبحرين حسب عينات سلاطينها ، فالبحرية منهم « ماكان أحسن تدبيرهم ، وأصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم ، حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد ، واستجلبوا خواطر الرعية ، فنالوا الرتب السنية »(١) . فقطز كان أحد أولاد أخت السلطان خوارزمشاه ملك خوارزم ، أسر وهو صبى ، وجلب إلى مصر حيث أخذ يتقدم فى جيشها حتى نصب سلطاناً ، وتمكن من التنكيل بالمغل فى عين جالوت . وكان بيبرس من أسرى القفجاق قدمه البندقدارة إلى أحد أمراء الصالح أيوب فجعل يتقدم حتى بلغ الإمارة ، ثم قتل قطز وصار بيبرس سلطاناً لمملكة ضخمة ، وكان قلاوون من نفس الأصقاع القفجاقية وزميل قديم لبيبرس . وكان كتبغا زوج بنت هولاكو الذى فتك به الأمراء لما حاول تدعيم ملك مغولى . أما سلاطين البرجية ، فزمانهم بخلاف ذلك كله « فالمقدم مؤخر ، والصغير متنمر ، والقلوب متنافرة ، والشرور متظاهرة »(٢) . ويقول المقريزى فى خططه أن قوصون قال لبيبشناك عند وفاة قلاوون ، وكانا يتنازعان على السلطة « أنا ما يجىء منى سلطان لأنى كنت أبيع الطمسا والبرغالى ، والكشانديين ، وأنت اشتريت منى وأهل بلدى يعرفون ذلك . وأنت ما يجىء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك »(٣) .

هذا هو التفسير التاريخى لسقوط دولة البرين والبحرين على أيدى سلاطين من أقبح وأرزل الناس ، أهملوا نظام التجنيد المملوكى ، وأساءوا فهم الإقطاع الحربى ، فأفقروا العباد وخربوا البلاد حتى صارت الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم ، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد »(٤) . مما أدى إلى تدهور الاقتصاد وتوالى الأزمات ، فاستحدثوا سياسة الاحتكار فى الزراعة والتجارة لتغطية نفقاتهم المعيشية

(١ ، ٢) النجوم : ج ٨ ص ١٦٦ و ٢٢٨ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ — صبحى وحيده ص ٧٦ .

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٦ و ٤٦ .

وحملاتهم الحربية . يقول المقريزى إن أهل الدولة احتكروا الأقوات ، ومنعوا الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان ، وضرب لذلك مثلا عن احتكار السكر على عهد السلطان برسباى الذى ختم مطابخه وألزم من يدولب طبخ السكر ألا يتعرض أحد منهم لعمله ، ومنعت باعة السكر وباعة الحلوى فى شراء السكر إلا من سكر السلطان، وعمل لذلك ديواناً ، وأقيم له جماعة ليدولبو السكر ، فامتنع كل أحد من بيع السكر إلا للسلطان ومن شراه إلا من سكر السلطان ، فضاق الناس ذرعاً بذلك وتضرر به جماعة عديدة(١) .

وأكمل الوباء والجراد وإغارات البدو وزحف الصحراء وقصر النيل وغيره من العوامل الطبيعية عمليات التخريب الاقتصادى فاضطر السلاطين إلى القروض المالية والسلفيات من تجار الكارمية كى تمكنهم من القيام بمشروعاتهم الحربية والعمرانية على قول أبى المحاسن(٢) . فضلا عن فرض الضرائب غير الشرعية على الرعية . وفى هذا الصدد تقول الرواية التاريخية أن برسباى احتاج إلى المال فجمع قضاة المذاهب الأربعة ليقروه على فرض ضرائب إضافية ، فرد عليه أحدهم رداً بليغاً نصه « كيف نقر أخذ مال المسلمين بينما ترتدى زوج السلطان ، يوم ختان ولدها ، فستاناً تبلغ تكاليفه ثلاثين ألف دينار . وذلك فستان واحد وزوجة واحدة »(٣) .

ما أجرأ هذا القول وما أشبهه بقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام للملك المنصور على بن المعز أيبك يوم أن عقد مجلس القضاة بالقلعة عام ٦٥٧ هـ لإقرار أخذ أموال العامة ونفقتها على المعسكر لمواجهة التتار . ونصه « إذا لم يبق فى بيت المال شىء ، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ساغ أخذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم »(٤) وسار على نهجهما الحر الشيخ أمين يحى بن الأقصرائى الحنفى شيخ المدرسة الأشرفية برسباى الذى أنكر على السلطان قايتباى فرض زيادات على الناس فى أرزاقهم

---

(١) شرحه : ص ٤٢ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٢٧١ .

(٣) Lewis: op. cit., p. 157.

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ .

ووظائفهم وإقطاعاتهم وفائض أوقافهم لمواجهة فتنة شاه سوار . وكان مجلس الخليفة والقضاة والأمراء قد وافق على رغبة السلطان. أما الشيخ أمين فأجابه بأنه لا يحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بطريق شرعى ولو نفذ ما فى بيت المال فلا يأخذ من أحد شيئاً حتى ينفد ما بأيدى الأمراء والجند من الأموال والمتاع والأقمشة مما لا يحتاج إليه فى الحرب . وانفض المجلس على غير رضى السلطان وإقماعه عن الوصول إلى مراده بفضل معارضة الشيخ أمين هذا . وكان المعلوم عند كل أحد أن أرباب الوظائف والقضاة لا يميلون إلا حيث مال السلطان والقول ما يقوله السلطان ، فما بقى بعد ذلك إلا الإذعان والوزن لما أشار به الملك على قول مؤرخ معاصر(١) .

هذه أنماط لمواقف عديدة وقفها العامة والخاصة فى وجه الاستبداد والظلم تنذر بسوء عاقبة الظالمين . وبعدها جاءت الضربة المنذرة بقرب فناء دولة البرين والبحرين فى ١٧ مايو سنة ١٤٩٨ يوم أن وصل الملاح البرتغالى فاسكودى جاما إلى أرض الهند عن طريق البحر معطوفاً حول رأس الرجاء الصالح. ثم عاد فاسكو إلى لشبونه فى أغسطس سنة ١٤٩٩ محملا بالهدايا الشرقية النادرة ، ومعلناً اكتشاف طريق جديد من أوروبا إلى الشرق الأقصى ، أرخص وأسرع من طريق البحر المتوسط والمياه المصرية . وفى ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) وصلت طلائع الاستعمار البرتغالى إلى المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بقيادة البوكرك ، واحتلت — فى غفلة من السلطنة المملوكية المتداعية — سقطرى ، ودارت حول عدن ، وساحلت الشاطىء العربى الجنوبى حتى هرمز ، وألزمت ملكها بدفع الجزية(٢) . ومنذئذ « تزايد الضرر من الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ، ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها . فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد » . على قول ابن إياس(٣) .

وواصل البرتغاليون زحفهم جنوباً مع ساحل ملبار ، واحتلوا جوا ، وهاجموا

---

(١) أبى المحاسن : منتخبات ج ٣ ص ٥١٦ و٦٣٦ .

(٢) بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ .

(٣) بدائع الزهور لابن أياس ، بقلم زيادة : تراث الإنسانية ص ٢٦٢ .

قاليقوط مركز العرب لتجارة التوابل وأنزلوا الهزيمة بالأسطول المصرى الهندى المشترك فى معركة ديو البحرية ١٥٠٩ م . وبعدها بعامين (١٥١١ م) وصل البوكرك أمام ملقا وخطب فى رجاله مؤكداً « تلك الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وباطفائنا شعلة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب ... وإنى على يقين أننا إذا انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيدى المسلمين لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين »(١) .

تلك كانت نهاية القومية العربية والإسلامية فى بحر الهند والشرق الأقصى ، ولم يمض أكثر من خمسة أعوام على هذا القول حتى اجتاحت جحافل الاستعمار التركى العثمانى أطراف الشام الشمالية ، وبلغت مدينة حلب ، على أن أحداث هذا العدوان لم تجىء مفاجئة لعام ١٥١٦ م . بل إنها وقعت بعد سلسلة طويلة من العلاقات الودية المتبادلة بين السلطنتين العثمانية والمملوكية ظلت حتى ١٤٦١ م . وبعدها تحولت إلى معاداة ومباغضة ، لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة فى عام ١٤٨٣ م على عهد بايزيد العثمانى وقايتباى المملوكى ، واستمرت ثمانية أعوام حسوماً طويلة أعقبها سلام امتد من ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م على قول زيادة(٢) . وذلك حين صح عزم سليم العثمانى على الاعتداء ، وبعد أن مهدت له الطريق جاسوسية ناشطة غادرة مكنته من النصر السريع الحاسم يوم واقعه مرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦ . وانهارت فيها قوة المماليك وتفرق الجند شذر مذر تحت نيران العثمانيين على قول ابن إياس(٣) .

وقاد الخائنـان خايربك وجان بردى الغزالى سليم العثمانى إلى جنوب الشـام ، ودلاه على مواقع الدفاع المصرية والشامية ، وأطمعاه فى مواصلة الزحف إلى الديار المصرية حيث قضت معركة الريدانية يناير سنة ١٥١٧ على السيادة المصرية والقومية العربية ، وحولت البلاد إلى ولاية عثمانية ، ودعى الخطباء للسلطان سليم على منابرها ولقبوه « ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين

---

(١) بانيكار ص ٤٨ .

(٢) نهاية سلاطين المماليك ص ١٩٨ وما بعدها .

(٣) بدائع الزهور : ج ٣ ص ٦٨ .

الشريفين »(١) كرمز السيطرة على مملكة البرين والبحرين وعلى العالم الإسلامى(٢) وكان الأجدر بهم أن يلقبوه ملك البرر « الثلاثة والبحار الثلاثة » أى البر الأفريقى والبر الآسيوى والبر الأوربى ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود. وبذا انتقل مركز الثقل السياسى والحضارى فى مثلث البحر المتوسط من القاهرة إلى استامبول أو من زاوية الشرق والجنوب إلى زاوية الشرق والشمال ، وهما الزاويتان اللتان تبادلتا السيادة فى هذا البحر طوال عصوره التاريخية .

— ٥ —

هكذا طوى تاريخ دولة البرين والبحرين كطى السجل للكتب ، وعلقت صورها فى متاحف التاريخ ، على حين عاشت حيه مضيئة فى عقول وأفئدة أبنائها جيلا بعد جيل ، وقامت محاولات عدة لإحيائها ، أولها ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر حين تحولت حركة على بك الكبير (١٧٢٨/١٧٨٤ م) من منافسة عادية على مشيخة البلد عام ١٧٥٥ م بينه وبين خشداً شيئه أمراء الجراكسة المعروفين عند الجبرتى بالأمراء المصريين أو البكوات إلى حرب انفصالية فيما يرجح ، شنها شيخ البلد على بك الكبير المنتصر على السلطان العثمانى وقتذاك عبدالحميد الأول ، واتجه أثناءها اتجاهاً عربياً قومياً لا عهد لمصر بل وللبلاد العربية به منذ زوال السلطنة المصرية الشامية المملوكية ١٥١٧ م . فعلى بك انتهز فرصة إنشغال تركيا بحربها مع روسيا (٦٨ — ١٧٧٤ م .) وأدرك ما تعانيه الشعوب العربية من بؤس وشقاء واستعباد فى ظل السيادة التركية فأخذ يفكر فى التعبير عن رغبة تلك الشعوب فى التحرر ، وذلك يحقق فى الوقت نفسه أطماعه ومشروعاته التوسعية . فاستولى على الحجاز ١٧٦٩ م ومنحه شريفها لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » . وجعل بتلك الخطوة الجريئة البحر الأحمر بحيرة مصرية عادت إليها تجارة الشرق وسواحل الهند . وأرسل فى عام ١٧٧١ حملة مصرية بقيادة أبى الذهب إلى سوريا — وهو اتجاه طبيعى تسلكه مصر فى عصر الصحوة — لتحقيق وحدة مصر وسوريا

---

(١) ابن إياس : ج ٣ ص ٩٨ .

(٢) راجع الألقاب الإسلامية للدكتور حسن باشا ، طبعة ١٩٥٧ ص ١١٣ و ١٧٤ و ص ٣٣٤ و ٣٣٧ .

وكذلك انظر

Dehérain : L'Egypte turque, p. 103.

ومصالحهما المشتركة . وكانت هذه المرة الأولى التى يخرج فيها جيش مصرى إلى هذا الاتجاه الأسيوى منذ ١٥١٦ م . وسرعان ما تجاوب المصريون والشاميون إلى حركة الوحدة . وانضم الشيخ الثائر ظاهر العمر صاحب عكا إلى الوحدويين ، وتلاقت أهدافه مع أهداف على بك ، ودخلت جيوشهما معاً دمشق ونشرت الأمن والسلامة فى ربوعها ، وغدا على بك فى يونيه ١٧٧١ م . فى مركز يسمح له أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وسوريا ويحيى دولة البرين والبحرين بمفهومها القديم كما كان أسلافه على قول قنصل فرنسا فى صيد ، وقتذاك(١) .

وأزعجت هذه الحركة الوحدوية الخطيرة الباب العالى فلجأ إلى أساليب السياسة العثمانية واستمال إليه أحد أتباع على بك المقربين ، وهو محمد أبى الذهب الذى خان العهد وأعلن العصيان وانضم بقواته إلى قوات الاحتلال العثمانية وحارب على بك وظاهر العمر وهزمهما ، ومات على بك متأثراً بجراحه فى القاهرة فى مايو ١٧٧٣ م(٢)، وبذا فشلت حركة على بك وقيل فى تعليل فشلها تأخر وصول المساعدة الروسية إلى دمياط وكانت روسيا قد وعدت بتأييده ومساعدته بقوات بحرية وبرية .

وكانت المحاولة الثانية لإحياء دولة البرين والبحرين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين تحولت المنافسة بين واليين عثمانيين هما محمد على والى مصر وعبد الله باشا الجزار والى عكا إلى حرب انفصالية (٣١ — ١٨٤٠ م) شنها محمد على على السلطان نفسه ، وألبسها ثوب القرن التاسع عشر مدعياً أن حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق يجب أن تكون جبال طوروس .

ومن الراجح التى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان « يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم إليها البلاد العربية فى أفريقية وآسيا . ففى أفريقية قد استقل بمصر وفتح السودان . وفى آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية

---

(١) راجع : رفعت رمضان ، على بك الكبير ص ١٩٩ وأيضاً Deherain : op. cit., p. 130.

(٢) حسن عثمان : المجمل فى التاريخ المصرى ـ ٢٨٢ .

الـكبرى » . على قول المرحوم الرافعى[١] ، أى أن محمد على قدر حاجات مصر الدولة الناشئة على أساس من التاريخ ووحدة اللغة وتبادل المنافع الاقتصادية ، واعتمد فى تحقيق مشروعه هذا — الذى يحقق فى الوقت نفسه أطماعه ومغامراته — على الدعاية للقومية العربية وادعاء كراهيته للتركية بدليل قول ولده إبراهيم باشا لأحد بارونات فرنسا « أن أباه يحكم مصر والسودان وسوريا ، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه ، وأن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو فى صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ويعد نفسه عربياً ، ولذلك لا ينفك يطعن فى الأتراك » . فسأله البارون كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم فأجابه إبراهيم باشا على الفور « أنا لست تركياً فإنى جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دماً عربياً »[٢] .

ولا غرابة فى هذا القول فقد سبق إبراهيم فيه سلاطين المماليك الذين وفدوا صبياناً ، وتمصروا وتعربوا وأسلموا وعبروا عن شعورهم نحو القومية العربية الإسلامية قولا وعملا ، وقطفوا ما قطفه إبراهيم من ثمار « فاحتل إبراهيم وقتاً ما موقعاً على الفرات ومد سلطان أبيه نحو الخليج الفارسى ومدخل البحر الأحمر ، وخضعت له الحسا والقطيف من ناحية ، وانتصرت قواته على عسير ، واحتل لفترة قصيرة عدن من ناحية أخرى » . وزاد محمد على فبادل شاه فارس شعائر الود . ولـكن السياسة الإنجليزية نجحت فى وقف الاتساع المصرى فى مناطق كانت تعدها من مناطق نفوذها . لذلك تمسكت انجلترا بسياستها فى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها ، فتزعمت فى لندن مجمع الدول ، وأعلنت معاهدة لندن فى يوليو سنة ١٨٤٠ ، وظلت تسوية لندن فى أساسها قائمة حتى انتهت فعلا بإعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٩١٤ وقانوناً يتنازل تركيا عن سيادتها على مصر فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣[٣] .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) الرافعى : عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣٣ .

(٣) أحمد عزت عبد الـكريم : المجمل فى التاريخ المصرى ص ٣٣٧ .

وتوجت محاولات إحياء دولة البرين والبحرين بنزول المعجزة الكبرى وانفجار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الشعبية فى قلب القاهرة رائدة الأمة العربية والعالم الإسلامى نتيجة الوعى القومى العربى وتغلغله فى نفوس الجماعات ، وأدرك رائد الثورة المصرية منذ البداية « أن الدائرة العربية منا ونحن منهـا ، امتزج تاريخها بتاريخنا ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام »(١) . وتصرف إيجابياً بكل ما تملك الثورة من مقومات ، فعقد ميثاقاً عسكرياً للدفاع المشترك بين مصر وسوريا فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٥٥ نزلت بمقتضاه قوات مصرية حربية فى سوريا فى اكتوبر سنة ١٩٥٧ لتكون سنداً لها ضد المؤامرات الداخلية والحشود البرية ، التركية وحركات الأسطول الأمريكى السادس على شواطئها ، واستقبلت سوريا حكومة وشعباً هذه القوات بالترحاب والابتهاج ، لأنها لم ترها منذ محاولة محمد على .

وفى أول فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن رئيسا جمهوريتى مصر وسوريا توحيـدهما فى دولة واحدة اسمها « الجمهورية العربية المتحدة » ، بديلا عن التسمية السياسية القديمة « دولة البرين والبحرين » تمشياً مع القاعدة الدولية التى تسير عليها الدول العريقة والتى تعرف الأسماء السياسية ، فروسيا اسمها السياسى الجديد بعد ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ هو « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » وأمريكا اسمها الرسمى « الولايات المتحدة » وانجلترا تغير اسمها من بريطانيا العظمى إلى المملـكة المتحدة بعد أن ضمت إليها اسكتلندا وإيرلندا فى بداية القرن الثامن عشر الميلادى . يقول عبد الناصر فى خطبة له « هذه الجمهورية العربية المتحدة ستكون سنداً للعرب وقوة للعرب جميعاً ، ستعادى من يعاديها ، وتسالم من يسالمها ، وتتبع سياسة تنبع من نفسها ومن ضميرها »(٢) . ووقعت اليمن فى ٨ مارس سنة ١٩٥٨ إتفاقاً مع الجمهورية العربية المتحدة يتضمن إقامه اتحاد فيدرالى بين البلدين .

لـكن الاستعمار والصهيونية العالمية والرجعية العربية دبرت بليل فى دمشق

---

(١) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة .

(٢) الرافعى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ص ٣٥٦ ؛ أحمد سويلم العمرى ، دراسات فى المجتمع العربى ، ص ٦٥٠ طبعة ١٩٦١ .

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ الانفصال وكان الرد على جريمة الانفصال حاسماً سريعاً فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ — حين اندلعت الثورة اليمنية وقوضت عرش الرجعية المتوكلية فى اليمن. ومنذ ذلك التاريخ والقاهرة تقود زحفها المقدس على طريق الوحـدة والحرية والاشتراكية ، وتقوم بدور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه تفجير الطاقة الـكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بنا على قول عبد الناصر فى فلسفة الثورة ، وفقه الله وأيده بنصر من عنده .

مشاهير مؤرخى سيرة رسول الله

للدكتور إبراهيم أحمد العدوى

نشأ التاريخ الإسلامى نشأة مستقلة، ولها طابعها الخاص، ومقوماتها الذاتية الواضحة. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن طليعة المؤرخين المسلمين لم يتأثروا فى تدوينهم للأحداث بما كان متبعاً عند رجال التاريخ القدامى من اليونان والرومان، أو غيرهم من مؤرخى الأمم التى جاورت الدولة الإسلامية عند نموها واتساعها. فالمؤرخون المسلمون الأوائل كانت لهم نظرتهم الخاصة بهم فى تدوين الأحداث وعرضها، ثم طريقة التبويب وعرض الموضوعات. وصارت نشأة التاريخ الإسلامى بذلك نشأة صادقة، وتعبر تعبيراً حسناً عن المجتمع الإسلامى، وتطوره، واتساع أهدافه، وترامى آماله.

ودعم هذه النشأة الاستقلالية للتاريخ الإسلامى أن القائمين بأمر تدوينه لم يكونوا فى أوائل أمرهم من الرجال الذين عاشوا فى كنف الأمراء، أو ممن عهدت إليهم الدولة بجمع الوثائق والأسانيد، ثم عرضها بما يتفق ووجهة نظر السلطات الحاكمة، وإنما عاش أولئك المؤرخون عيشة بسيطة، مبتعدين عن زخارف الحياة وبريقها، قانعين بالقليل من أسباب العيش، قاصرين جهودهم على تتبع أحداث ماضيهم وشرح ما امتلأت به من نزعات مذهبية وعقائد سياسية وصور اجتماعية، مستهدفين بذلك تجنيب مواطنيهم العثرات وأخطاء السلف، وموضحين لهم النماذج العالية الجديرة بالدرس والاتباع. وجاءت مدونات المؤرخين المسلمين بذلك صورة نزيهة للمجتمع الذى عاشوا فيه، وتعبيراً صادقاً عن مشاعرهم وخبراتهم.

وساعد على نزاهة مصنفات المؤرخين المسلمين الأول أنها نشأت فى مهاد الدين، وشبت وترعرعت لخدمة مطالب الدين كذلك. فالتاريخ الإسلامى امتزج فى أول أمره برواية الحديث وتفسير القرآن الكريم، وصار حدثاً مقترناً بهما فى كل مراحل تطورها. ذلك أن المسلمين حين اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره، واستقصاء الحديث احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها

الأحاديث ، وتحروا فى ذلك منتهى الدقة والأمانة ، لأن القرآن الكريم حوى الأحكام والشرائع والاخبار التى تهدى الناس سواء السبيل ، فضلا عن أن الأحاديث المأثورة تعين على توضيح ما يواجه الناس من مشا كلهم وتساعدهم على حلها .

واستلزمت هذه الدراسات الدينية أن يكون النبى الكريم وسيرته أول موضوع يتناوله التاريخ الإسلامى ، لأن تفهم حياة الرسول الكريم وجهاده أمر جوهرى يفيد المجتمع الإسلامى فى السير على هدى السنة والاسترشاد بتعاليمها . وكان تاريخ النبى صلى الله عليه وسلم داخلا فيما يروى من الأحاديث ، حيث دأب المحدثون من علماء المدينة المنورة فى أول الأمر على جمع كل ما يصل إلى علمهم من أحاديث دون ترتيب ، ولكن متوخين الدقة التامة فى الحصول على تلك الأحاديث . ولما رتبت تلك الأحاديث فى الأبواب التى تشمل المواضيع المختلفة ، جمع منها ما يتعلق بسيرة الرسول الكريم فى أبواب مستقلة ، وكان ذلك إيذاناً بمولد التاريخ الإسلامى .

وكان أشهر تلك الأبواب ما يسمى باسم « السيرة والمغازى » ، لأن المغازى ولو أنه يقصد بها الغزو إلا أنها لم تلبث أن صارت قاصرة على جهاد النبى الكريم ومرادفة لسيرته السامية . وكان السبب فى اشتداد الاهتمام بسيرة الرسول الكريم فى القرنين الأولين للهجرة هو الإفادة من أقوال النبى فى التشريع وفى التنظيم الإدارى للدولة الإسلامية الفتية . ثم إن مغازى الرسول ، ومغازى أصحابه ، وهى التى عرفت باسم « السرايا » ، لأن الرسول لم يشترك فيها ، صارت مصدر اعتزاز للمسلمين ، ومواضيع محببة فى مجالس السمر . وفضلا عن ذلك غدت المشاركة فى مغازى الرسول الكريم وفى السرايا التى بعث بها إلى مختلف الجهات عاملا هاماً فى رفع المنزلة الاجتماعية ، وعنصراً هاماً فى تحديد العطاء فى الديوان ، ولا سيما فى تلك الأيام الأولى من حياة الدولة الإسلامية .

وتأسست فى مدينة الرسول الكريم فى ذلك الوقت ، أى فى أواخر أيام الدولة الأموية أول مدرسة للتاريخ الإسلامى . ثم أن هـذه المدرسة حفلت بطائفة من الأساتذة الأعلام ، أسهموا خالفاً عن سالف فى وضع الحجر الأساسى للدراسات التاريخية ، ثم إعلاء صرحها فى روح من التفانى والتعاون الصادق . واختص نشاط هذه المدرسة بالتأليف فى « المغازى » ، أى فى سيرة رسول الله . وبدأ هذا النشاط

فى جهود مشتركة ، تمثلت فى حلقات للدراسة ، وأحاطت كل حلقة بأستاذ . ثم إن الدراسة فى هذه المدرسة كانت مفتوحة لمن يريد ، والرواية تسير فى سلسلة منتظمة ، بحيث تسهل انتقال سيرة الرسول أو مغازيه جيلا عن جيل ، ومن شخص إلى شخص ، على شكل محاضرات عادة .

وأول من عرف بالتأليف فى هذا الميدان الجديد من المغازى والسيرة أربعة هم : أبان بن الخليفة عثمان بن عفان (ت بين ٩٥ — ١٠٥ هـ/٧١٣ — ٧٣٣م) ، وعروة بن الزبير (ت ٩٤هـ/٧١٢م) ، وشرحبيل بن سعد (ت ١٢٣هـ/٧٤٠م) ، ووهب بن منبه (ت ١١٠ هـ/٧٢٨ م) . ويقف على رأس هذه الطبقة الأولى من مؤلفى السيرة عروة بن الزبير . ويرجع السبب فى ذلك إلى مكانته الاجتماعية العالية التى تمتع بها ، والتى أتاحت له الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن سيرة الرسول الكريم .

وينتسب عروة إلى أسرة عربية عريقة النسب ، كان لأفرادها صلة وثيقة بحياة الرسول الكريم . فأبوه الزبير بن العوام ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وخالته السيدة عائشة ، وجدته خديجة بنت خويلد ، وأخوه عبد الله بن الزبير . وقد أتاحت صلة القربى السالف ذكرها لعروة الفرصة لجمع أعظم قدر من الروايات عن الرسول الكريم ، وبخاصة عن أدق التفاصيل . فقال عمر بن عبد العزيز عنه : « ما أجد أعلم من عروة » . وقد قضى عروة وقتاً كبيراً من حياته فى الدراسة والتدريس كذلك ، وصار له طلبة ينقلون عنه العلم ، كما صار مقرباً إلى البيت الأموى الحاكم ، ويزوده بالمعلومات التاريخية الهامة .

واشتهر عروة ، إلى جانب روايته أخبار الرسول الكريم ، بوضع بعض المعلومات كتابة ، وبخاصة فى الرسائل التى كان يبعث بها إلى أبناء البيت الأموى . وقد انتقلت دراسات عروة جيلا عن جيل ، واستفاد منهـا كثير من المؤرخين ، واحتفظوا بها فى كتبهم . ومن أمثلة ذلك ما جاء فى كتب ابن اسحق والواقدى والطبرى . وصارت كتابات عروة التى تناقلها أولئك المؤرخون هى أقدم دراسة لحياة النبى ، وعبارة عن خطوط أولية لمعالجة موضوع السيرة النبوية ، فضلا عن أنها صارت نماذج تحتذى ، عند من جاء بعده من مؤرخى سيرة رسول الله .

وتناول عروة فى دراساته معالجة المواضيع التى تتصل بسيرة الرسول الكريم ، من حيث : بدء الوحى وبداية الدعوة ، وهجرة نفر من المسلمين إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة . ثم تناول بعد ذلك أعمال الرسول الكريم طوال إقامته بالمدينة ، ومن أهمها الغزوات والسرايا ، مثل سرية عبد الله بن جحش ، وغزوة بدر الكبرى ، وغزوة قينقاع ، والخندق ، وغزوة بنى قريظة ، وصلح الحديبية ، وحملة موته ، وفتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف ، وبعض مراسلات الرسول ، وأخباره صلى الله عليه وسلم فى آواخر أيامه .

وترجع أهمية تلك الدراسات التى قام بها عروة إلى الثقة الكبرى فى رواتها ، فضلا عن أسلوبه فى تدوينها ، وهو الأسلوب الذى صار مثالا يحتذى عند الناقلين عنه . إذ كان أسلوب عروة سلساً بعيداً عن المبالغة ، مملوء بالحيوية ، ودأب على التمهيد للحادثة التى يتناولها بمقدمة تحدد موضعها التاريخى ، وتفيد القارىء فى الاحتفاظ بوحدة الموضوع ، والتسلسل كذلك . فعندما تناول الهجرة إلى الحبشة مثلا ، مهد لذلك ببيان تطور العلاقات بين المسلمين وقريش منذ بداية الدعوة ، وما أعقب ذلك من تطورات ، موضحاً السبب الذى حدا بالرسول الكريم إلى اختيار بلاد الحبشة بالذات ، مما يضفى على دراسته حيوية وقوة .

ومن ذلك أن عروة بدأ هذه الحادثة قائلا عن قريش : « لم يبعدوا عنه (أى الرسول) أول ما دعاهم ، وكادوا يسمعون له ، حتى ذكر طواغيهم .... » وأن قريشاً أخذت عندئذ تضطهد المسلمين . وأشار عروة إلى محاولة قريش العمل على أن يفتنوا من تبع الرسول من المسلمين ، « فكانت فتنة شديدة الزلزال ... فافتتن من افتتن وسلم الله من شاء » . ولما رأى الرسول ما حل بأصحابه أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة . وذكر عروة السبب فى اختيار الرسول للحبشة قائلا : إنها كانت مركزاً من مراكز تجارة قريش ، وهاجر إليها لذلك كثير من المسلمين .

وعلى هذا النهج الواضح سار عروة فى سرد السيرة ، واهتم فى نفس الوقت بالكثير من التفاصيل التى تساعد على فهم تلك السيرة العطرة . فاستشهد بالآيات القرآنية التى تتصل بالأحداث التى يرويها ، وبيان الظروف التاريخية لتلك الآيات . فأشار إلى الآية الكريمة التى تبين هجرة نفر من النساء بعد أن صلح الحديبية من

مكة إلى المدينة ، لإعتناقهم الإسلام ، وموقف الرسول الكريم منهن . ويعتبر عروة بذلك مثلا مبكراً من أمثلة المؤرخين المسلمين الذين أجادوا الجمع بين التفسير والتاريخ وهو الأمر الذى سيبلغ ذروته عند الطبرى فيما بعد .

ومن الأشياء الطريفة التى تكشف عن دقة عروة فى سرد السيرة ، أنه عمد إلى بيان الحالة النفسية للمسلمين ، وبخاصة فى الأحداث الكبرى ، مثل غزوة بدر . واستطاع عروة أن يجعل من أعماله وحدة متكاملة ، تشهد له بأن يحمل عن جدارة لقب أشهر مشاهير الطبقة الأولى من مؤرخى سيرة رسول الله .

ونالت دراسات عروة وأقرانه من مؤرخى السيرة اهتمام رجال الطبقة الثانية ، ممن اشتغلوا فى هـذا الميدان المبكر من التاريخ الإسلامى . ومن رجال تلك الطبقة الثانية عاصم بن عمرو بن قتادة (ت ١٢٠ هـ/٧٣٧م) ، وعبد الله بن أبى بكر بن حزم (ت ١٣٠هـ/٧٥٢م) ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (ت ١٢٤هـ/٧٤١م) . ويعتبر الزهرى من أشهر رجال الطبقة الثانية ، وحلقة الربط بينهما وبين رجال الطبقة الأولى من مؤرخى سيرة رسول الله .

وساعد الزهرى على أن ينال تلك المكانة العالية أنه تتلمذ على عروة بن الزبير ، واستفاد فائدة عظيمة من أعماله . وكان الزهرى ينظر إلى عروة نظرة احترام وتقدير ، ويراه بحراً لا ينزف . ثم تفوق الزهرى على أستـــاذه بقوة الذاكرة ، وتدوين ما يسمعه على « الألواح » و « الصحف » . وروت المراجع أشياء طريفة عن الزهرى ، منها أنه كان يحرص على شرب العسل ليقوى به الذاكرة ، ويدعم تلك الذاكرة بالتدوين . ورأى المعاصرون أن حرص الزهرى على التدوين هو الذى أعطى لدراسته الأهمية والقوة والأفضلية على معاصريه من رجال الطبقة الثانية .

واعتمد الزهرى على مقابلة كبار رجال العلم من معاصريه ، وكذلك النساء ، وجمع ما لديهم من معلومات عن سيرة الرسول . فكان يتردد على المجالس ، ويزور الناس الثقاة فى بيوتهم ، ويتحرى منهم عن الروايات الصادقة . وقد اعترف أحد المعاصرين بتفوق الزهرى عليهم ، موضحاً سبب ذلك قائلا : « كان (أى الزهرى) يأتى المجالس من صدورها ولا يأتيها من خلفها ، ولا يبقى فى المجلس شاباً إلا سأله ، ولا كهلا إلا سأله ، ثم يأتى الدار من دور الأنصار فلا يبقى شاباً ولا كهلا ولا عجوزاً ولا كهلة إلا سألهم ، حتى يحاور ربات الحجال » .

واستطاع الزهرى أن يحصل على أكبر قدر من الروايات عن سيرة الرسول الكريم ، وشهد له المعاصرون ، ومن استفاد من دراساته بالعلم الواسع فى هذا الميدان . وقد جمع الطبرى تلك الأقوال التى تركها العلماء عن سعة معلومات الزهرى قائلا : « كان محمد بن مسلم الزهرى مقدماً فى العلم بمغازى رسول الله (ص) وأخبار قريش والأنصار ، رواية لأخبار رسول الله (ص) وأصحابه » . وحفظ الزهرى بذلك ثمار الدراسات التى قام بها رجال الطبقة الأولى من مؤرخى السيرة ، وبخاصة عروة بن الزبير ، ثم بدأ يعمل على السير بتلك الدراسات خطوات إلى الأمام كان لها أكبر الأثر فى تنمية أصول الأبحاث الأولى فى التاريخ الإسلامى .

وتتضح أهمية الدور الذى قام به الزهرى فى عاملين هامين : أولهما أنه نقل السيرة من الخطوط العريضة التى اتضحت عند رجال الطبقة الأولى إلى المنهج المحدد المعالم ، سواء من حيث العرض أو أسلوب التدوين . أما من حيث العرض فقد بدأ الزهرى أعماله بتقسيم سيرة الرسول الكريم ثلاثة أقسام رئيسية هى : حياة الرسول قبل البعثة ، مع تمهيد طويل لذلك بدراسة عامة لما قبل الإسلام . وتناول فى القسم الثانى حياة الرسول الكريم فى مكة ، وأخيراً أوضح فى القسم الثالث نشاط الرسول الكريم بعد الهجرة إلى المدينة .

وأهمية هذا التقسيم الذى وضعه الزهرى أنه صار النموذج فيما بعد لكثير من كتب السيرة التى وصلتنا ، والتى ما زلنا نطالعها حتى الوقت الحاضر . هذا إلى أن التفاصيل التى أوردها الزهرى داخل كل قسم من أقسامه الثلاث صارت بدورها عناصر يعمل الخلف على توضيحها أو الإضافة إليها بما يجعل سيرة الرسول الكريم أكثر وضوحاً ، وأعم فائدة للناس . وكان منهج الزهرى فى تلك السبيل مبتكراً ، يشهد له بالتفوق والاطلاع الواسع ، والقدرة على العمل المتواصل . ويكفى إلقاء نظرة سريعة على ما وصلنا من أعمال الزهرى فى هذا الميدان لنعرف الدور الهام الذى أسهم به هذا المؤرخ فى بناء الدراسات التاريخية المبكرة فى الدولة الإسلامية ، وما قدمه من أجل الخدمات لأجيال الباحثين فى التاريخ الإسلامى .

تناول الزهرى فى القسم الأول من دراساته الحديث عن يوم خلق آدم ، ويوم دخوله الجنة وخروجه منها ، ثم هبوطه إلى الأرض ، حتى بعث الله الرسول الكريم .

وتناول بعد ذلك ذكر نوح وذريته ، وأبناء إسماعيل ، وأخبار العرب . وتدرج من ذلك إلى أخبار الأنبياء ، حتى بدأ يجمع الروايات عن الرسول الكريم وأسرته قبل البعثة . وتعتبر هذه الدراسة محاولة جريئة من الزهرى لدراسة عصر ما قبل الإسلام ، وفى وقت يصعب فيه على أى باحث إذ ذاك التصدى لمثل هذا الموضوع الصعب الخطير .

وانتقل الزهرى بعد ذلك إلى دراسة حياة الرسول الكريم فى مكة ، منذ بدأ نزول الوحى ، وكيف عرف الرسول الكريم عن يقين أنه صاحب رسالة سامية عليه الجهر بها . وتابع الزهرى دراساته موضحاً أعمال الرسول لنشر الدعوة بين قريش ، ومالاقاه من متاعب ، وهجرة المسلمين إلى الحبشة ، ومقاطعة قريش لبنى هاشم وأخيراً ذكر بيعة العقبة ، التى أورد نصها ، مشيراً بذلك إلى انتشار الإسلام مبكراً فى المدينة .

وخص الزهرى القسم الثالث ببيان نشاط الرسول الكريم فى المدينة ، فشرح حديث الهجرة إلى يثرب ، ووصول الرسول إليها ، وبناء مسجد ، هناك . وأشار إلى موقف اليهود من الرسول . ثم تناول بعد ذلك السرايا والغزوات ، موضحاً نشاط المسلمين فيها ، وقيادة الرسول الكريم لنشر الدعوة الإسلامية . واختتم هذا القسم ببيان الرسل والسفارات التى بعث بها النبى إلى سائر الحكام ، وبخاصة خارج جزيرة العرب ، ثم ذكر مرض الرسول الكريم ووفاته .

وسار الزهرى طوال هذا العرض الهام وفق طريقة جعلت دراساته ممتعة بعيدة عن الملل أو الجفاف . ذلك أن الزهرى لم يتبع الطريقة التقليدية فى رواية أخباره وهى الطريقة التى تجعل لكل خبر سلسلة من الرواة ، وإنما اتبع طريقة الإسناد الجمعى . فكان الزهرى يجمع عدة روايات التى تتصل بالأحداث فى قصة سهلة متسلسلة ويبدأها بذكر رجال الأسانيد . وجاءت هذه الطريقة عنصراً هاماً فى بناء وحدة الموضوع وإتاحة الفرصة أمام القارىء ليتابع دراساته دون أن يقطع عليه تفكيره اعتراض الروايات ، ولكل رواية أسانيدها العدية . وهكذا وضع الزهرى فى دراساته لسيرة الرسول الكريم الأساس السليم لصرح التاريخ الإسلامى ، وإعطائه طابعه المميز ، المتحرر من قيود الحديث ومحاكاة المحدثين فى الإقتصار على جمع الروايات

رواية رواية ، لكل منها سلسلة أسانيدها ، والتى لا رابط بينها .

ونهض تلامذة الزهرى بالمنهج الذى وضعه لهم أستاذهم على خير وجه ، وحفظوا فى نفس الوقت المعلومات القيمة التى جمعها هذا الأستاذ الكبير ، بعد أن كادت تتعرض للضياع ، نتيجة اختفاء المدونات التى قام بها الزهرى نفسه . فعلى الرغم من اشتهار الزهرى بحب التدوين فلم تصلنا أعماله إلا عن طريق تلامذته ، والذين تهيأت لهم سبل الإطلاع على مدونات أستاذهم — قبل ضياعها — والنقل عنها نقلا حرفياً فى كثير من الأحوال .

ويكوّن تلاميذ الزهرى الطبقة الثالثة من مؤرخى سيرة رسول الله ، ومنهم موسى ابن عقبة (ت ١٤١ هـ / ٧٥١ م) ، ومعمر بن راشد (ت ١٥٤هـ / ٧٦٥ م) ومحمد ابن اسحق (ت ١٥١هـ / ٧٦١ م) . وأخذت دراسات سيرة رسول الله تأخذ طابعاً هاماً على يد رجال تلك الطبقة الثالثة ، ومن أهمها تفوق الأسلوب التاريخى فى التدوين على أسلوب جمع الأحاديث . وكان السبب فى ذلك كثرة المصادر التاريخية ، واشتداد الرغبة فى تنسيقها ، بما يوضح سيرة رسول الله . وكان من أهم هذه المصادر الجديدة هو الجماعات التى دخلت فى الإسلام من أهل الديانات السماوية الأخرى من المسيحيين واليهود ، فضلا عن ظهور طبقة القصاص ، والذين انتشروا فى الأمصار الإسلامية يلقون على الناس سير أبطال المسلمين ، وبخاصة أولئك الذين أسهموا فى غزوات الرسول الكريم .

واشتهر من رجال الطبقة الثالثة ، محمد بن اسحق ، ألذى أقدم فى جرأة نادرة على تنسيق هذه الموارد على اختلاف مشاربها ، ثم وضع لها تبويباً فريداً ، جعل سيرة الرسول الكريم تأخذ مكانها اللائقة بها فى ميدان دراسات التاريخ الإسلامى خاصة ، والدراسات التاريخية الإنسانية عامة . وساعد محمد بن إسحق على أداء هذه المهمة الكبرى ما توافر له من قدرة فائقة على التنقل والترحال ، رغبة فى جمع المعلومات التاريخية ، وما اتصف به من جلد وصبر على مواجهة النقاد وكبار الخصوم كذلك .

ونشأ محمد بن اسحق فى المدينة ، حيث يرجح أنه ولد سنة ٨٥ هـ ، ولقى كثيراً من علماء المدينة ، وأخذ عنهم الحديث . ثم رحل سنة ١١٥ هـ إلى الأسكندرية ، حيث

اتسعت آفاق علمه ، فاستمع إلى يزيد بن أبى حبيب ، الذى كان يعد من كبار الفقهاء والمحدثين فى مصر . ثم عاد بن إسحق إلى المدينة ، ومنها رحل إلى بغداد . وظل محمد بن إسحق موضوع التقدير وبخاصة فى الدراسات التاريخية المتعلقة بسيرة الرسول الكريم . فقال الشافعى عن هذا المؤرخ : من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على محمد بن إسحق» . وقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصورمن ابن إسحق أن يؤلف لولى العهد المهدى كتاباً منذ خلق الله آدم إلى يومه .

وقد ألف ابن إسحق كتابه فى سيرة الرسول الكريم ، وسماه « المغازى » . واشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أقسام كبرى ، وكل قسم منها يتناول جانباً هاماً من الدراسات التاريخية : القسم الأول هو « المبتدأ » ، والقسم الثانى هو « المبعث » والثالث هو « المغازى » وقد صارت هذه الأقسام الثلاث ينبوعاً غزيراً للباحثين فى سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة فى الفترات السابقة على ظهور الإسلام ، وصدر الإسلام كذلك .

وتناول ابن إسحق فى القسم الأول وهو « المبتدأ » التاريخ الجاهلى . وقسم هذا الموضوع بدوره إلى أربعة فصول ، رتبها حسب التطور التاريخى . فذكر فى الفصل الأول الوحى قبل الإسلام ، منذ خلق الله العالم حتى عيسى عليه السلام . واعتمد محمد بن إسحق فى هذا الفصل على القصص والأساطير ، وما كان هناك من روايات قصصية عند أحبار اليهود وكبار رجال المسيحية . وأشار أيضاً فى هذا الفصل إلى قبائل العرب البائدة ، مثل ثمود وعاد ، موضحاً الرسل الذين بعثوا إلى تلك القبائل .

ومن أمثلة الأساطير التى ذكرها محمد بن إسحق فى هذا الفصل مما جاء عن « خلق آدم » ، قال : « فيقال — والله أعلم — إنه لما انتهى الروح إلى رأسه (رأس آدم) عطس فقال : الحمد لله . ووقعت الملائكة حين استوى سجوداً له ، حفظاً لعهد الله الذى عهد إليهم ، وطاعة لأمره الذى أمرهم به . وقام عدو الله إبليس من بينهم ، فلم يسجد متكبراً متعظما ، بغياً وحسداً ، فقال له : « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ؟ ... إلى قوله : لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين « قال ، فلما فرغ الله تعالى من إبليس ومعاتبته ، وأبى إلا المعصية ، أوقع الله تعالى عليه اللعنة ، وأخرجه » .

وتناول محمد بن إسحق فى الفصل الثانى من « المبتدأ » ، أى العصر الجاهلى تاريخ اليمن قبل الإسلام . ذلك أن الإشارات التى وردت فى القرآن الكريم عن « أصحاب الأخدود » دعى إلى دراسة إنتشار المسيحية واليهودية فى بلاد اليمن ، وتفسير الآيات التى تتعلق « بأصحاب الفيل » كذلك ، لمعرفة جيش أبرهة ، وموقف أجداد الرسول الكريم من حملة أصحاب الفيل على مكة .

ودرس ابن إسحق فى الفصل الثالث « من المبتدأ » القبائل العربية وعبادة الأصنام ، على حين خصص الفصل الرابع لأجداد النبى المباشرين وديانات مكة . وصار هذا العرض التاريخى يكون بذلك مدخلا لدراسة القسم الثانى من السيرة .

واشتمل القسم الثانى من دراسة ابن اسحق على « المبعث » وهو معالجة حياة الرسول الكريم فى مكة والهجرة . واعتمد ابن إسحق فى هذا الفصل على روايات علماء المدينة ، وكذلك على القصص التى رويت إذ ذاك عن حياة النبى . واستطاع ابن إسحق نتيجة سعة اطلاعه أن يضيف معلومات جديدة ودقيقة عن أسماء المؤمنين الأول بالرسول ، والذين هاجروا إلى الحبشة ، وقائمة بالمشتركين فى بيعتى العقبة . وعندما تحدث ابن أسحق عن الهجرة ذكر قائمة بأول من أسلم من الأنصار ، وقائمة بالمهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبى . على أن أهم شىء ذكره ابن إسحق فيما يتعلق بالهجرة وما أعقبها ، هو تدوين الوثيقة المشهورة التى أبرمها النبى مع قبائل المدينة واليهود بها ، وهى الصحيفة التى غدت تكون « نظام مجتمع المدينة » ، فى صدر الإسلام .

وأفرد ابن إسحق القسم الثالث والكبير من كتابه « المغازى » ، والمقصود به ذكر تاريخ الرسول الكريم فى المدينة ، منذ بدأ القتال فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية . وتناول ابن إسحق الغزوات والسرايا ، التى خرجت من المدينة ، أو التى تعرضت لها تلك المدينة ، وجهاد الرسول والمؤمنين فى تلك الحروب . واستخدم ابن إسحق منهجاً محدوداً فى عرض المادة العلمية ، فكان يذكر ملخصاً للمحتويات الخاصة بالغزوة فى المقدمة مع بيان الرواة فى سلسلة الإسناد ، وأحياناً يختتم هذا العرض ببيان أخبار فردية يرى أنها ذات أهمية خاصة . وأوضح ابن إسحق دراساته بيان مفصل عن الأشخاص الذين استشهدوا فى القتال ، وما قدموه من ضروب الشجاعة .

ويلاحظ أن ابن اسحق لم يقتصر فى جمع رواياته على علماء المدينة ، وإنما استند إلى روايات أهل الذمة الذين اعتنقوا الإسلام ، وكذلك بعض القصاص . وقد تعرض لنقد شديد من جانب علماء وفقهاء المدينة ، وعلى رأسهم الإمام مالك ، واشتدت الخصومة بينهما ، حتى اضطر ابن اسحق إلى مغادرة المدينة ، والاتجاه إلى العراق . ولقيت سيرة ابن إسحق اهتمام أهل العراق ، وكثر رواتها . ولم تصل تلك « السيرة » التى وضعها ابن اسحق كما دونها بنفسه ، وكما وضعها بتفاصيلها ، وإنما وصلتنا عن طريق تلامذته ، ومن أشهرهم ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨١٣ م) .

وعمد ابن هشام إلى تنقيح سيرة ابن اسحق ، واختصر بعض أجزائها ، وبخاصة الفصل الأول من القسم الأول الذى تناول فيه « المبتدأ » ، أو التاريخ الجاهلى . وشرح ابن هشام غرضه من تهذيب تلك السيرة قائلا : « وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ولده وأولادهم لأصلابهم ، الأول من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن اسحق فى هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شىء ، وليس سبباً لشىء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحد من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعضه يسوء بعض الناس ذكره ... ومستقصى إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له والعلم به » .

وصارت هذه النسخة المهذبة ، هى المعروفة بسيرة ابن هشام . ولكن المراجع التاريخية الأخرى ، مثل الطبرى ، حفظت الكثير من الأشياء التى اختصرها ابن هشام وصارت تكون إلى جانب النسخة المهذبة ، صورة واضحة المعالم عن جهد ابن اسحق فى دراسة سيرة الرسول الكريم ، وما قدمه من خدمات فى بناء صرح الدراسات التاريخية الإسلامية .

وإذا كانت الدراسات الخاصة بسيرة الرسول الكريم ، التى وضعها محمد بن اسحق قد لقيت نقداً شديداً من علماء المدينة باعتبارهم القومة على هذا اللون من البحث التاريخى الإسلامى ، فإن مؤرخاً آخر ، خلف ابن اسحق ، استطاع أن ينال احترام

الجميع ، وهو محمد بن عمر الواقدى . وقد ولد هذا المؤرخ فى المدينة سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م فى عهد الخليفة الأموى محمد بن مروان . ولقى الواقدى كثيراً من شيوخ المدينة وعلمائها ، وأخذ عنهم منهجهم ودراساتهم ، كما ظل أميناً فى نفس الوقت على تقاليدهم فى دراسة سيرة الرسول الكريم . وعبر الواقدى عن ذلك قائلا : « ما أدركت رجلا من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ، ولا مولى لهم إلا سألته : هل سمعت أحداً من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل ؟ فإذا أعلمنى مضيت إلى الموضع فأعاينه » . وبذلك نبغ الواقدى فى المغازى ، وصار حجة فى سيرة رسول الله . وقال عن ذلك البغدادى « وهو (أى الواقدى) ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره ، ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أمره ، وسارت الركبان بكتبه فى فنون العلم من المغازى والسير والطبقات وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، والأحداث التى كانت فى وقته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم » .

وقابل الواقدى الخليفة هارون الرشيد ، الذى جاء إلى الحج سنة ١٧٠ هـ فقد سأل الخليفة عن رجل يستطيع أن يطوف به فى أرجاء المدينة « عارف بها ومشاهدها ، وكيف كان نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أى وجهة كان يأتيه ، وقبور الشهداء » . وأشار الجميع على الخليفة بأن الواقدى هو ذلك الرجل .

وأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره يحى بن خالد البرمكى الذى كان فى صحبته إلى الواقدى ، وقال له يحى : « يا شيخ : إن أمير المؤمنين أعزه الله يريد أن تصلى عشاء الآخرة فى المسجد ، وتمضى معنا إلى هذه المشاهد فتوقفنا عليها » . وفعل الواقدى كل ما طلب منه ، ولم يترك موضعاً من المواضع ولا مشهداً إلا ومر بالرشيد عليه . وقد منح الخليفة هذا المؤرخ مبلغاً من المال صرفه فى قضاء ديون كانت عليه .

ولم تلبث الأحداث أن دفعت بالواقدى إلى الإنتقال إلى بغداد . وروى بنفسه سبب ذلك قائلا : كنت حناطاً (بائع حنطة) بالمدينة ، وفى يدى مائة ألف درهم للناس أضارب بها ، فتلفت الدراهم . ثم إن الدهر أعضنا ، فقالت لى أم عبد الله : يا أبا عبد الله ، ما قعودك ، وهذا وزير أمير المؤمنين قد عرفك وسألك أن تسير إليه حيث استقرت به الدر ، فرحلت من المدينة » .

وتابع الواقدى منذ انتقاله إلى بغداد الدراسة التاريخية ، مستفيداً مما آل إلى

هذه العاصمة الجديدة للدولة الإسلامية من نشاط علمى باهر . والمعروف أن أيام الخليفة المأمون خاصة اشتهرت بنشاط حركة الترجمة إلى اللغة العربية وازدياد وفود العلماء من شتى الأرجاء إلى بغداد ، والمساهمة فى النشاط العلمى الذى بدأ يدب بين جنباتها . وكان للواقدى شغف كبير بالإطلاع على ما دونه السلف من العلماء ، وتدوين ما يروق له منها من معلومات ، ويقال أنه كان عنده غلامان يمملان ليلا ونهاراً فى نسخ الكتب ، وأنه ترك عند وفاته ستمائة قمطر من الكتب يحتاج كل منهما إلى رجلين لحمله . وبرغم ضخامة مكتبة الواقدى فإنه يؤثر عنه قوله : ما من أحد إلا وكتبه أكثر من حفظه ، وحفظى أكثر من كتبي . ولم يكن فى هذا القول شيء من المبالغة لأن ما خلفه الواقدى من دراسة عن سيرة الرسول الكريم تشهد له بصدق قوله السالف الذكر .

وأطلق الواقدى على كتابه اسم « مغازى رسول الله » ، وهو يعتبر الصورة الأخيرة والكاملة من مراحل تطور دراسة السيرة النبوية فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، والأساس المتين الذى قام عليه الصرح الشامخ لعلم التاريخ الإسلامى . ذلك أن الواقدى اطلع على جميع المدونات والروايات التى جمعها من سبقه من مؤرخى سيرة رسول الله ، ثم انفرد بوضع منهج خاص به ، كفل له أن ينعم بحق بمركز الصدارة بين مؤرخى سيرة رسول الله ، وأن يحفظ لكتابه البقاء كاملا ، كما تركه ، حتى الوقت الحاضر .

وأهم شيء قام به الواقدى هو أنه لم يقتصر على النقل عن الرواة ، وإنما دأب على زيارة أماكن مغازى الرسول ، وبخاصة ذات الأهمية فى حياة الرسول الشخصية . وأعجب المعاصرون بهذا العمل ، وأشاد به أحدهم ، وهو هارون القروى ، الذى قال : رأيت الواقدى بمكة ومعه ركوة (أى إناء به ماء) ، فقلت : أين تريد ، قال : أريد أن أمضى إلى حنين حتى أرى الموضع والوقعة .

وارتبط بمنهج الواقدى أمر هام انفرد به عن سائر أقرانه من السابقين له فى تدوين السيرة ، وهو وضع نظام متكامل للتواريخ . فكثير من المغازى التى تناولها أسلافه غير مؤرخة ، وبخاصة عند ابن اسحق نفسه ، صاحب السيرة . ولكن التزام الواقدى فى منهجه بالنظام المتكامل للتواريخ جعل كل مغازيه التى تناولها ذات تاريخ معين ومحدد كذلك ، وساعدت القارىء على تتبع الموضوع فى سهولة ويسر .

واتسم منهج الواقدى فى هذه المرحلة المبكرة من نشأة علم التاريخ الإسلامى بالقدرة على نقد الروايات ، مع ذكر آرائه وأفكاره عن الأخبار التى كان يسجلها . وجاء هذا العمل من جانب الواقدى خطوة تقدمية ، هيأت لكتابه المغازى مكانة تاريخية وعملية ممتازة فوق ما له من أهمية وسط المؤلفات التى تناولت سيرة الرسول الكريم . فكثيراً ما يقول الواقدى عقب بعض الروايات رأيه قائلا مثلا : « وهو المثبت » ، « والثابت عندنا » ، « ولا اختلاف عندنا » ، إلى غير ذلك من العبارات التى توضح رأيه الصريح فى تقييم تلك الأخبار .

ولم تقتصر أهمية كتاب «المغازى» للواقدى عند المنهج الممتاز ، ولكن من حيث مادة الكتاب كذلك . فاقتصرت المادة العلمية على الفترة المدنية ، أى منذ هاجر النبى إلى المدينة ، ثم بيان ما قام به من غزوات فى سبيل نشر الدين الإسلامى حتى وفاته . واستهل الواقدى كتابه بمقدمة حدد فيها اليوم الذى هاجر فيه الرسول إلى المدينة ، ثم ذكر قائمة طويلة بالمصادر الأساسية للكتاب ، وهى تضم أسماء الرجال الذين اعتمد عليهم الواقدى فى نقل مادته العلمية . ثم أورد بعد ذلك قائمة أخرى بمغازى رسول الله وسراياه ، واحدة واحدة ، مع تحديد تواريخ كل غزوة منها تحديداً دقيقاً . واختتم الواقدى هذه القائمة الثانية بملخص جيد لجهاد الرسول قائلا : « فكانت مغازى النبى صلى الله عليه وسلم التى غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، وكان ما قاتل فيها تسعاً : بدر القتال ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح وحنين والطائف ، وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية .

وهذه المقدمة أشبه بالفهرس التفصيلى فى الكتب الحديثة ، تعطى صورة صادقة عن محتويات الكتاب ، وتساعد القارىء على تتبع ما جاء فيه من دراسات دون جهد أو عناء . ذلك أن الواقدى قام بعد هذه المقدمة بعرض دراسة تفصيلية لكل غزوة من الغزوات التى سبق أن أجمل ذكرها فى المقدمة ، وأوردها حسب تسلسلها التاريخى ، وبأسلوب موحد . فيذكر أولا اسم الغزوة وتاريخها والمستخلف على المدينة . ثم يروى سائر التفاصيل الحربية والجغرافية وغيرها من الأخبار التى تتصل بالغزوة بما يوفيها حقها من الدراسة والوضوح . وإذ كانت الغزوة قد نزل فيها آيات كثيرة من القرآن ، فان الواقدى يفردها وحدها مع تفسيرها ، ويضعها فى نهاية أخبار هذه

الغزوة . وفى المغازى الهامة أيضاً يذكر الواقدى أسماء الذين استشهدوا أو قتلوا فيها ومن شهدها كذلك .

وجاءت هذه الطريقة التى اتبعها الواقدى فى دراسته للمغازى سبيلا جعل من المغازى الهامة فصولا قائمة بنفسها ، توضح مراحل جهاد الرسول الكريم فى سبيل نشر الدين الإسلامى ، أما ما عدا ذلك من الغزوات الصغرى والسرايا فهى مقدمات أو نتائج للفصول الكبرى ، أشبه بالحلقات التى بين المواضيع الرئيسية التى اشتمل عليها الكتاب ، وتجعل منه وحدة متكاملة .

ويصور كتاب « المغازى » للواقدى خمسة جوانب كبرى ، أو فصول رئيسية من سيرة الرسول الكريم . والفصل الأول منها يوضح جهاد الرسول ضد قريش ، والفصل الثانى يتناول نشاط النبى من أجل القضاء على اليهود وسلطانهم ، والفصل الثالث يشرح سياسة الرسول فى سبيل هدم العصبية القبلية وما تبع ذلك من فتح مكة ، وذكر فى القسم الرابع كفاح النبى من أجل تأمين الدعوة الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية ، وما ارتبط بذلك من وصف لأهم ما حدث فى عام الوفود . وأخيراً أورد الواقدى فى الشطر الخامس حجة الوداع ، ثم وفاة الرسول الكريم .

وتعتبر الفصول الخمسة السالفة الذكر مثالا رائعاً لنشاط الواقدى ، ونجاحه فى توضيح سيرة الرسول الكريم ، وبخاصة الجوانب الشخصية من سيرته العطرة . وتجلت قدرة هذا المؤرخ فى تلك السبيل فى القسم الخامس ، عند ما تناول أعمال الرسول فى حجة الوداع ، إذ شرح كيف كان النبى المثل الأعلى أمام الألوف المؤلفة التى خرجت للحج معه . وأصبح كتاب «المغازى» للواقدى أكمل وأتم مصدر محايد لتاريخ النبى فى المدينة ، وأوفى مرجع أيضاً لجميع مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى فى الفترة بين هجرة الرسول إلى المدينة ووفاته بها .

ويختتم كتاب الواقدى مرحلة هامة من مراحل تدوين التاريخ الإسلامى بدأها مؤرخو سيرة الرسول الكريم . وصارت أعمال أولئك المؤرخين الحجر الأساسى للدراسات التاريخية الإسلامية ، والتى شيدت عليها سائر المؤلفات الكبرى التى حفلت بها الدولة الإسلامية على مر العصور ، من القرن الأول الهجرى إلى الوقت الحاضر .

الملابس فى العراق
خلال العصور العباسية

للدكتورة

مليحة رحمة الله

أستاذة التاريخ الإسلامى المساعدة كلية البنات — جامعة بغداد

المعلومات عن اللباس فى العصور العباسية قليلة المصادر ، وقد استطعت أن أجمع بعض الشىء عنها . والظاهر أن العباسيين تأثروا بالفرس كثيراً من حيث الاهتمام باللباس كما فعل بعض الخلفاء . وقيل إن المعتمد(١) أمر يوماً بالإقلال من أكل الجوارى والغلمان لشراء الملابس. وقد تأثروا فى طريقة لباسهم ونوعيته . فالمنصور(٢) فى سنة ١٥٦ هـ ، اتخذ من القلانس الفارسية الطويلة لباساً رسمياً لرجاله بدل العمائم . وكذلك الطيلسان(٣) والجوارب(٤) والسروال(٥) والأقبية(٦) إلى غير ذلك . والألبسة على ثلاثة أنواع : لباس الرأس ، لباس الجسم ، ولباس القدم .

أولا — لباس الرأس :

الشـــائع عند العباسيين فى ذلك الوقت العمامة(٧) والقلنسوه(٨) عند الرجال

---

(١) المسعودى : « مروج الذهب » ج ٤ ص ١٦٨ .

(٢) ابن الأثير : « الكامل » ج ٣ ص ٥٥٥ ؛ الطبرى ج ٦ ص ٢٩٦ .

(٣) مقامات الهمذانى ص ٣٠٧ .

(٤) الجاحظ : « التاج » ص ١٥٣ .

(٥) الطبرى : « تاريخ الأمم والملوك » ج ٧ ص ١٣٩ .

(٦) المقدسى : « أحسن التقاسيم » ص ١٢٨ .

(٧) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ١١٤ .

(٨) الجاحظ : « البيان والتبيين » ج ٣ ص ١١٧ .

والعصائب[١] والخمار[٢] والوشاح[٣] عند النساء[٣] . وقد اختلف لباس الرأس بين طبقات المجتمع . فلكل فئة لباسها الخاص ، فمنهم الخلفاء[٤] وأصحاب المراتب العالية كالوزراء[٦] والقضاة[٧] وقاضى القضاة[٨] والكتاب[٩] والفقهاء[١٠] والجند[١١] والمؤذنين[١٢] والخطباء[١٣] فى المساجد والزهاد[١٤] والشعراء[١٥] والمتصوفين[١٦] والتجار[١٧] وأهل الذمة[١٨] إلى آخره وحتى الطبقة الفقيرة[١٩] .

كما أنهم تفننوا فى نوعية القماش ، منهم من لبس الحرير[٢٠] والديباج[٢١] والأقمشة الموشاة بالذهب والفضة[٢٢] ومنهم من لبس الأقمشة البسيطة والرخيصة كالصوف[٢٤]

---

(١) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٤٩ .
(٢) ابن الجوزى : الأذكياء ص ٨١ .
(٣) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٧ .
(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ص ٩٨ — ٩٩ .
(٥) الصابى : رسوم دار الخلافة ص ٩١ .
(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ .
(٧) الصابى : رسوم ص ٩١ .
(٨) سيد أمير على : الحضارة ص ٣٨٨ .
(٩) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٤ .
(١٠) الثعالبى : لطائف المعارف ص ٨ .
(١١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٤ .
(١٢و١٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ .
(١٤) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص١٩٨ .
(١٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص١١٥ .
(١٦) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص١٩٨ .
(١٧) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص٢٩
(١٨) ادم متز : الحضارة ج ١ ص ٨٤ .
(١٩) ابن الهبارية : الصادح والباغم ص ٢٩ .
(٢٠) الثعالبى : فقه اللغة ص١٧ .
(٢١) الشابشتى : الديارات ص١٣٠ .
(٢٢) الوشاء : «أبو الطيب» الموشى ص ١٧٨ .
(٢٣) الجاحظ : البخلاء ص ٥٩ .

والقطن . هذا مع العلم أن بعض هـذه الألبسة تتغير تبعاً لمواسم السنة[١] والبعض الآخر كانت تلبس طيلة السنة وتعتبر شعاراً كالعمامة .

وفيما يلى شرح لبعض ألبسة الرأس :

(ا) العمامة : هى لباس الرأس عند الرجال لدى جميع الطبقات وقد تتغير من حيث الشكل والنوعية ، فللخليفة عمة وللفقهاء عمة وللقضاة عمة وللكتاب عمة وللبقالين عمة وللنصارى عمة وللأعراب عمة[٢] إلى آخره . فالعمامة هى لباس موروث عربى الأصل اتخذت قبل الإسلام ووصفها العرب فى كلامهم إذ شبهوها كالتيجان على رؤوس الرجال[٣] وأظهروا فوائدها . قيل لأعرابى مالك لا تضع العمامة على رأسك ، قال إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر[٤].

اعتبرت العمامة فى العصر الإسلامى الأول شعاراً دينياً بالإضافة إلى أنها تعطى صاحبها الوقار والهيبة . قال أبو الأسود الدؤلى فى وصف العمامة هى جنة فى الحرب ودثار فى البرد وكنة فى الحر ووقار فى الفدى وشرف فى الأحدوثة وزيادة فى القامة وهى عادة من عادات العرب[٥] .

ومنهم من وضعها على القلانس كالخلفاء[٦] ومنهم من جعلها طويلة كالظرفاء[٧] ومنهم من اتخذها من الخز[٨] ، أو من الصوف[٩] الخشن ، وحتى من الخرق الباليه كعمامة الفقراء[١٠] .

أما من حيث اللون فالشائع عند المسلمين الأبيض واعتبر هذا اللون من السنن

---

(١) الغزالى : التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ص ٤ .
(٢) الجاحظ : البيان ج ٣ ص ١١٤ .
(٣و٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٨ .
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٠ .
(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٥٣ .
(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٩ .
(٨) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ١٤١ .
(٩) ابن منظور : لسان العرب ج ٧ ص ١٧٣ .
(١٠) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٩٨ .

المتبعة ، فيذكر أن الرسول (ص) قال فى الحديث الشريف « خلق الله الجنة بيضاء تلبسونها فى حياتكم وتكفنون فيها موتاكم »[١].

أما اللون الأسود اتخذه العباسيون شعاراً لدولتهم فأصبحت العمامة سوداء اللون لدى الخلفاء والوزراء بالدرجة الأولى[٢] ولعامة الناس الداخلين على الخليفة فى يوم المواكب والاحتفالات[٣] ومنعت الطبقة العامة من لبس العمائم السوداء[٤] وهناك اللون الأخضر وهو شعار العلويين[٥] واللون الأحمر[٦] النادر والأصفر[٧] . ولبس الفلاحون والمتصوفون[٨] وأهل الذمة[٩] عمائم مختلفة الألوان .

وللعمامة أصول منها أن الرجل عليه ألا ينزع العمامة أمام الناس لأن ذلك يجعله غير محترم ويعتبر ساقط المروءة وتارك الآداب ، ويعاقب فيما لو نزعها فى دار الخلافة[١٠] وقد تنزع فى مناسبات منها كتعزية الخليفة[١١] مثـــلا وتنزع أيضاً عند التعبد لله[١٢].

(ب) القلانس : اتخذها المنصور لباساً رسمياً لجنوده ولما كانت طويلة لم تعجب كثيراً من الرجال فيذكر أن أبا دلامة دخل على المنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التى أمر بها الخليفة فقال له : كيف أصبحت يا أبا دلامة قال بشر قال المنصور : كيف ويلك ، قال ماظنك برجل وجهه فى نصفه وسيفه فى أسته وقد نبذ

---

(١) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ص ١٩٨ .

(٢) الصابى : رسوم ص ٩١ .

(٣) التنوخى : نشوار المحاضره ج ٨ ص ٩١ .

(٤) الصابى : رسوم ص ٩١ — ٩٢ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٦) الشابشتى : الديارات ص ١٢٨ .

(٧) الصابى : رسوم ص ٩١ .

(٨) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٨٦ .

(٩) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ١٧١ ؛ آدم متز : الحضارة ج ٢ ص ١٠٣ .

(١٠) الصابى : رسوم ص ٧٢ — ٧٧ .

(١١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٠ ص ١٩٠ .

(١٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٢٥١ .

كتاب الله وراء ظهره . فأمر المنصور تغيير الزى فقال أبو دلامة شعراً بعد ذلك في وصف القلنسوة إذ يقول :

كنـا نرجى من أمام زيادة　　فزاد الإمام المصطفى فى القلانس[1]
تراها على هام الرجال كأنها　　دنان يهود جللت بالبرانس

أما الرشيد فلم تعجبه القلانس الطويلة حتى قيل أن العمانى الراجز دخل يوماً على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوه طويلة وخف ساذج ، فقال إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الـكور وخفان دمالقان[2]. ولـكن المعتصم أعجب بها فأرجعها تشبهاً بملوك الأعاجم فلبسها الناس اقتداء بفعله وسميت بالمعتصميات[3] ثم فى عهد المستعين (٢٤٨ – ٢٥٢) صغرت[4] القلانس ولبسها جميع طبقات المجتمع من خلفاء[5] وقضاة[6] وفقهاء إلى آخره وحتى ، الطبقة العامة[7]، ما عدا الشطار من اللصوص حيث اعتبروا لبسها كفراً ولبسوا القناع[8].

اختلفت القلانس من حيث طولها وشكلها فبعض الخلفاء جعلوها طويلة ووضعوا العمائم فوقها وزادوا من طولها حتى تكون فوق قلانس الأمة[9] ومنهم من لبسها بدون العمائم كما فعل القضاة[10] وزادوا من طولها ومنها القلانس العادية البسيطة التى لبسها عامة الناس .

والقلانس أنواع مختلفة منها ما تسمى بالسمورية[11] وهى المصنوعة من الجلد

---

(١) الطبرى : جـ ٦ ص ٢٩٦ .

(٢) الجاحظ : الحيوان جـ ٣ ص ٢٧ .

(٣) المسعودى : مروج جـ ٨ ص ٣٠٢ الطبعة الأوربية .

(٤) المسعودى : مروج جـ ٨ ص ٤٠٢ الطبعة الأوربية .

(٥) الجاحظ : البيان جـ ٣ ص ١١٤ .

(٦و٧) التنوخى : نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ٥٠ .

(٨) الجاحظ : الحيوان جـ ٣ ص ٢٧ .

(٩و١٠) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٣ ص ١١٧ .

(١١) الشابشتى: الديارات ص ٢٧ (نسبة إلى سموره وهو حيوان برى يشبه أبو عرس) ..

والقلانس الطاقية[١] والشاشية[٢] والجالسية[٣] والقرافقات[٤] والدورقية[٥] وأشهرها جميعاً الرصافية[٦] . كما أنها كانت متنوعة الألوان فالمتوكل أمر يوماً غلمانه من الخدم والحواشى البالغ عددهم سبعمائة أن يلبسوا الأقبية والقلنسوة كل واحد على خلاف الآخر وصبغ الدراهم بلون الأحمر والصفرة والسواد وترك بعضها على لونها إلى آخره ... وجلس ومن حوله الندماء والخدم وأمر بنثر الدراهم كما تنثر الورود فنثرت فكانت الريح تحمل الدراهم تقف بين السماء والأرض كما يقف الورد فى ذكرى الاحتفال بشاذ كلاه[٧] .

وللقلانس أصول ورسوم تلبس[٨] عند الدخول على الخليفة والأمراء والعظماء ويستنكر نزعها فى حضرتهم .

ثانياً — لباس الجسم :

١ — الإزار .

٢ — الطيلسان .

٣ — الجبة .

٤ — الدراعة .

٥ — القباء .

٦ — السروال .

٧ — الثياب .

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ج ١٠ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) التنوخى : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٢ .

(٣) الصابى : رسوم ص ٩٦ .

(٤) الصابى : رسوم ص ٩١ .

(٥) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٦١٤ .

(٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣١٤ (نسبة محلة الرصافة ببغداد) .

(٧) الشابشتى : الديارات ص ١٠٣ .

(٨) جهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣١٠ ؛ الصابى : رسوم ص ٩١ .

الإزار :

لباس شاع بين طبقات المجتمع منذ عهد[١] الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر خلال العصور العباسية . والإزار أو المئزر[٢] كما يسمى أحياناً عبارة عن قطعة قماش كبيرة تلف على الجسم تعقد على وسطه[٣] من تحت السرة[٤] وربما فيها أزرار[٥] .

الإزار لباس الرجال[٦] والنساء[٧] على السواء استعمل لأغراض التستر لدى المرأة عند الخروج خارج البيت فيذكر ابن الجوزى أن امرأة جاءت إلى جارة لها تستعير منها إزاراً لتمضى فى حاجة وترده من ساعتها[٨] . وكذلك الرجل اتخذه لباساً عند ذهابه إلى المسجد . فالخطيب البغدادى يقول : إن فقيراً يجيئه بلا إزار نقرأ عليه الحديث ونبره بالشىء[٩] ، هذا وقد استعمل لستر العورة فى الحمام[١٠] للرجال والنساء[١١] أيضاً ، وقد لبس الجنسان الأزر الغير مفتولة[١٢] .

اهتمت المرأة بالإزار فتفننت فى خياطته وحياكته[١٣] فوضعت فيه الزنانير وخيوط الأبريسم[١٤] والذهب[١٥] ليزيدها جمالا وأناقة ومنهن من لبسن إزارين

---

(١) ابن منظور : لسان العرب جـ ٤ ص ١٧ .
(٢) ابن الجوزى : الأذكياء ص ٧١ .
(٣) مصطفى جواد : مجلة التراث الشعبى عدد ٨ ص ٥ .
(٤) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٤٩ .
(٥) ابن الجوزى : الحمقى والمغفلين ص ١٤٤ .
(٦) الأزدى : حكاية ابن القاسم ص ٥٤ .
(٧) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ٣٠٢ .
(٨) ابن الجوزى : الحمقى والمغفلين ص ١٧٧ .
(٩) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٣٧٤ .
(١٠) ابن الجوزى : الأذكياء ص ٧١ .
(١١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٣٢٦ .
(١٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٨٠ .
(١٣) ابن الجوزى : الحمقى والمغفلين ص ١٧٧ .
(١٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٧ ص ٣٠٢ .
(١٥) ألف ليلة وليلة جـ ١ ص ٢٠ .

مختلفين فى الألوان[١] . أما الألوان فالشائع الأبيض[٢] وهناك الأزرق[٣] ، واللون الذى تغلب عليه الحمرة والصفرة والمسمى خلوفى[٤] واللون المشرب بالصبغ أو ما يقارب الاحمرار[٥] . أما نوعيتـه فاستعمل الصوف[٦] والقصب[٧] والخز[٨] ، ومنها من القماش الرخيص ويسمى بالفوطى[٩] عند الفقراء ، ويذكر المقدسى أن الأزر تصنع فى مدينة النعمانية[١٠] وتستعمل فى جميع المدن[١١] ويذكر ابن منظور فى الـكوفة أزراً مخططة يلبسها الحمالون والخدم[١٢] .

هناك لباس آخر سمى بالـكساء يلبس فوق الثياب كالإزار والجبة وهو لباس شتوى قد يقوم مقام الجبة المحشوة[١٣] ويطلق عليه اسم الملاءة[١٤] ويسمى بالبرنكان وهو الـكساء الأسود[١٥] وقد ذكره الجاحظ فى شعره :

إنى وإن كان إزارى خلقا وبرنـكانى سملا قد أخلقا[١٦]

قد جعل الله لسانى مطلقا

ومنها الغالية الثمن المسماة بالـكساء الطبرى[١٧] والرخيصة المسماة بالـكساء

---

(١) الأزدى : حكاية أبى القاسم ص ٥٥ .

(٢) الأزدى : حكاية أبى القاسم ص ٥٤ .

(٣) التنوخى : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢١٨ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ١٥ ص ١٣١ .

(٥) الوشاء الموشى : أبى الطيب ص ١٧٨ .

(٦) الجاحظ : البخلاء ص ٥٩ .

(٧) الصابى : رسوم ص ٩٨ .

(٨) الثعالبى : فقه اللغة ص ٢٥٤ .

(٩) التنوخى : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٥٣ .

(١٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .

(١١) الشابشتى : الديارات ص ٢٩ .

(١٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٧ ص ٣٧٣ .

(١٣) الجاحظ : البخلاء ص ٥٩ .

(١٤) الجاحظ: البخلاء ص ١٠٥ .

(١٥و١٦) الجاحظ : البخلاء ص ٣٠٠ .

(١٧) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٢٧ .

القومسى[١] ونوع آخر يسمى بالكساء القرهى[٢] إلى آخره .

الجبة :

تلبس فوق الثياب[٣] فيها حشمة ووقار يتبع فى خياطتها مقاييس لها أكمام وجيوب[٤] طويلة وعريضة لبسها المسلمون فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت بسيطة فى شكلها مصنوعة من الصوف اتخذها عمال الخلفاء الراشدين عند دخولهم على الخليفة[٥] . وقد تطورت فى العصر العباسى وتنوعت ، فمنها المكفوفة[٦] الحواشى ، ومنها المحشوة المبطنة[٧] . وتلبس فى الشتاء[٨] ومنها المصنوعة من الحرير[٩] الغالى ، أو الخز[١٠] أو القطن ، أو الكتان[١١] ، أو من الصوف[١٢] .

وتعتبر الجبة لباساً عاماً لجميع فئات المجتمع ، فالغنى يتخذها من قماش غالى[١٣] حريراً أو خزاً أخضر ، طويلة وعريضة[١٤] ، أما المتصوف فيجعلها من الصوف مع أكمام طويلة مرقعة[١٥] والفقير قد لا يلبسها إن كان من عامة الناس ، أما الفقير

---

(١) الجاحظ ، الحيوان ج ٣ ص ٤٧ .
(٢) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين .
(٣) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦٥ .
(٤) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ص ١٨٤ .
(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ١ ص ٦ .
(٦) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس ص ١٨٤ .
(٧) الجاحظ ، البخلاء ص ٥٩ .
(٨) الأزدى ، حكاية أبى القاسم ص٧٢ ؛ الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٥١ .
(٩) البلوى ، ألف باء ج ٢ ص ١٨٧ .
(١٠) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين ص ١٧٧ .
(١١) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ١٠٦ .
(١٢) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٧٧ .
(١٣) الشابشتى ، الديارات ص ٢٩ .
(١٤) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٤٢ .
(١٥) ابن الجوزى ، تلبيس ابليس ص ١٨٥ .

من العلماء والفقهاء فلا بدله من لبسها . قيل إن أحد العلماء الفقراء اضطر أن يمكث في البيت لأنه لا يملك جبة[١] .

الدراعة :

أما الدراعة فهي جبة مشقوقة من المقدمة[٢] وجيبها طوقها[٣] لبسها الخلفاء[٤] والوزراء والأغنياء كما لبسها الفقراء[٥] ، أما أنواعها منها الرقيقة المفردة ومنها دراريع الديباج[٦] المفردة ، ومنها السوداء[٧] اللون ، ومنها الخضراء[٨] المصنوعة من الخز ، ومنها المصنوعة من الصوف وتسمى بالمدرعة[٩] .

القباء :

ثوب خارجي يسميه أهل العراق اليوم بالزبون وأهل مصر والشام (القنباز)[١٠] فارسي الأصل[١١] أصبح لباساً رسمياً لرجال[١٢] الدولة العباسية عام ثلاثمائة هجرية (سنة٩١٢م) وكان لا يدخل المقصورة في ليلة الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود . قيل حضر يوماً أحد الخواص بدراعة فرد حتى مضى ولبس القباء. وكان لبسه جارياً في جميع الجوامع حتى سنة أربعمائة هجرية ، ثم أصبح مقصوراً على الخطباء والمؤذنين[١٣] فقط .

---

(١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٥١ .
(٢) الشابشتي : الديارات ص ٢٩ ؛ ابن منظور : لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ .
(٣) جهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٧٦ .
(٤) الخالديان : الهدايا ص ١١٤ .
(٥) ابن منظور : لسان العرب ج ٨ ض ٨٢ ؛ الأزدي : حكاية أبي القاسم ص ٧٢ .
(٦) التنوخي ، نشوار المحاضرة ج ٩ ص ١٩١ .
(٧و٨) الشابشتي ، الديارات ص ٢٩ .
(٩) ابن منظور ، لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ .
(١٠) الشابشتي ، الديارات ص ٣٧ .
(١١) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٨١ .
(١٢) متز ، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢٠ .
(١٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ص ١٢٩ و ٤١٦ .

لبس الخلفاء قباء مولداً مصمتاً أو ملحماً أوخزاً[١]، أما الأمراء والقواد فلبسوا الأقبية السوداء من كل صنف[٢] ، وكان لباس الوزراء[٣] والكتاب[٤] ، كما أنه لباس الخدم والحاشية[٥] وصغار الصبيان[٦] حتى المرأة[٧] . أما الألوان فالشائع منها الأسود[٨] وهو الرسمى والأخضر[٩] والأبيض ومنه المختلف الألوان[١٠] .

والقباء لباس طويل قد يصل إلى الأرض[١١] ومفتوح عند الرقبة . يبدو القفطان من تحته كما فعل[١٢] الخلفاء ، والقباء أكمامه ضيقه حتى عهد المعتصم الذى استحدث الأكمام الواسعة ، ومنه من له شق من الخلف[١٣] أو من تكون أكمامه مشقوقة[١٤] . أما الأكمام كانت ضيقة وقصيرة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم[١٥] حتى عهد المستعين فى القرن الثالث أحدث لبس الأكمام الواسعة ، فبلغ عرضها نحو ثلاثة أشبار[١٦] وفى القرن الرابع الهجرى أصبحت مشقوقة عند القضاة[١٧] ، ولهذا الاتساع فائدة إذ استعملت للخزن مقام الجيوب[١٨]، فالمأمون خزن فيها حبات الدر

(١) الصابى ، رسوم ص ٩١ ؛ الشابشتى ، ديارات ص ٢٧ .

(٢و٣) الصابى ، رسوم ص ٩١ .

(٤) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١١ — ١٢ .

(٥) الشابشتى ، الديارات ص ٣٧و٩٩و١٣٠ .

(٦) الشابشتى ، الديارات ص ٩٩ .

(٧) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٥ .

(٨) الصابى ، رسوم ص ٩١ .

(٩) الشابشتى ، ديارات ص ١٠٦ .

(١٠) الشابشتى ، ديارات ص ١٠٣ .

(١١) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين ص ٨٩ .

(١٢) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .

(١٣) التوحيدى ، الأمتاع والموآنسة ج ١ ص ١٧٩ .

(١٤) التوحيدى ، الأمتاع والموآنسة ج ١ ص ١٦٦ .

(١٥) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٨٢ .

(١٦) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٤٤ .

(١٧) التوحيدى ، الأمتاع والموآنسة ج ١ ص ١٦٦ .

(١٨) متز ، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢٠ .

الـكبار ونثرها على حصير من ذهب عندما جليت بوران[1] ، كما حفظت فيها النقود أيضاً ، قيل أن رجلا خرج إلى السوق يشترى حماراً فلقيه صديق له فسأله إلى أين فقال : إلى السوق لأشترى حماراً ، فقال : قل إن شاء الله . فقال : ليس ها هنا إن شاء الله ، الدراهم فى كمى والحمار فى السوق[2] . وحفظت فيها الرقع لدى الوزراء والقواد[3] ، كما حفظ المسك[4] والدواء[5] عند الأطباء وحفظ العالم والـكاتب كتابه فى كمه[6] ، ذكر أن السجستانى المحدث المتوفى سنة ٢٧٥ هـ كان له كم واسع وكم ضيق ، فقيل له فى ذلك ، فقال : الواسع للـكتب والآخر لا أحتاج إليه[7] ، والمهندس وضع فيـه ميله[8] والخياط يحمل فيه الجلم[9] والقـاضى يضع فيه الـكراسة[10] والفلاح حمل فيها أنواع الحبوب[11] والمشعوذين خزنوا فيها مواد السحر كالحية[12] والبلبل[13] وحتى النساء خزنّ فيها البخور والريحان وأنواع

(١) الشابشتى ، الديارات ص ١٠٠ .

(٢) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين ص ١٤٥ .

(٣) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٠٤ ؛ طيفور ، بغداد ص ٨١ .

(٤) التنوخى ، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٨ .

(٥) ابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء ص ٢٩٦ .

(٦) متز ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٣٠٦ .

(٧) متز ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٠٦ .

(٨) متز ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٢١ .

(٩) المسعودى ، مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٥ الطبعة الرابعة .

(١٠) متز ، الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٢١ .

(١١) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٧٠ .

(١٢) الشابشتى ، الديارات ص ٨ .

قيل إن ابراهيم الملقب حمدون بن اسماعيل كان ينادم المعتصم ثم الواثق بعده وكان يعاتب المتوكل فى ذلك الوقت وجاءه بحيه فى كمه وأخرج رأسها تعريضاً بأمه شجاع وكان ذلك يعجب الواثق « شجاع اسم حيه » .

(١٣) ابن الجوزى ، الأذكياء ص ١٤٦ .

دخل أحد المشعوذين إلى دار المقتدر فرأى خادماً من خواصه يبكى على بلبل مات له فقال له ما عليك أيها الأستاذ إن أحييته فقال ما تريد فأخذ البلبل الميت فأدخله فى كمه وأدخل رأسه وأخرج بعد ساعة بلبلا حياً فعجب من كان فى القصر وظهر بعد ذلك أن أخبأ فى كمه بلبلا حياً فأخذ الميت وأخرج الحى ...

العطور ، فالجارية مثيم كانت تحب البنفسج لا يخلو كمها من الريحان لإعجابها به[١].

الطيلسان :

لباس فارسى معرب[٢] لبسه المسلمون اقتداء بالرسول (ص) مع العمامة[٣]. ليست له أكمام أو جيوب خال من التفصيل والخياطة[٤] وهو عبارة عن كساء مدور أخضر لحمته أو سداه من صوف[٥] يوضع فوق الكتف أو فوق الرأس ويتدلى على الجبين إذ يغطى نصف الوجه[٦] وقد يلف الطرفان الأماميان حول الرقبة ويتدليان على الأكتاف . أما الطرفان الخلفيان فيتركان على الظهر . ويعتبر من الألبسة الجميلة المنظر والثمينة . وقدّم الطيلسان كخلع من الخلفاء إلى الأمراء والوزراء[٧]. وكذلك بين أصحاب المراتب العالية[٨] . ويذكر أن محمد بن حرب أهدى إلى الحمدونى طيلساً خلقاً مرقعاً فأصبح مضرب الأمثال فى وصفه بالشعر :

يابن حرب كسوتنى طيلساناً　　　مل من صحبة الزمان وصدا
وطال ترداده إلى الرفو حتى　　　لو بعثناه وحده لتهدى[٩]

وذكر فى الشعر باسم السيجان[١٠] :

ولم تغن سيجان العراقيين نقرة　　　براقش القلنس بالرجال الأطاول

---

(١) الأصفهانى ، الأغانى ج ٧ ص ٣٠٦ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٣) سيد أمير على : الحضارة ص ٣٨٧ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٥) الصابى : رسوم ص ٩١ .

(٦) الأزدى : حكاية أبى القاسم ص ٥ .

(٧) ابن الجوزى : المنتظم ج ٦ ص ٣٤٠ .

(٨) الخالديان : الهدايا ص ٥١ — ٥٢ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٠ .

(٩) الثعالبى : ثمار القلوب ص ٦٠١ .

(١٠) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٨ .

وللطيلسان ألوان ، الأخضر[١] وهو الشائع والأبيض[٢]، والأسود[٣] كما قال الشاعر :

رفعت رأسي للخيـال فما رأى غير المطى وظلمـة الطيلسـان

هذا ولبس الطيلسان كل من القضاة[٤] والخواص من العلماء والمشايخ[٥] والنساك[٦] والكتاب[٧] والجند[٨] والوعاظ[٩] والأدباء[١٠] وحتى العامة . وخير دليل على انتشار لبس الطيلسان ما ذكره المقدسى فى القرن الرابع الهجرى وهو أن أهل العراق فى عهده كان من رسومهم التجمل والتطليس[١١] .

السروال :

لباس فارسى[١٢] قال الجاحظ إن السروال لباس العجم لم تستسغه العرب[١٣] إلا فى العصر العباسى وقال آخر: أنا والله العربى لا أرقع الجربان ولا ألبس التبان[١٤] إلى آخره . لبسه الرجال[١٥] والنساء[١٦] على السواء وكان شائعاً بين عامة الناس[١٧] .

أنواع الثياب :

كانت الثياب متنوعة فى مادتها وأشكالها ومتفاوتة فى أسعارها منها الغالية الثمن

(١) الهمذانى : مقامات ص ٣٠٧ .
(٢و٣) الجاحظ : البيان جـ ٢ ص ٣٤٢ .
(٤) التنوخى : نشوار جـ ١ ص ١٠٢ ؛ الشابشتى : الديارات ص ١٩٣ .
(٥) الجاحظ : البيان جـ ٢ ص ٣٤٢ ؛ الصابى : رسوم ص ٩١ .
(٦) الهمذانى : مقامات ص ٣٠٧ .
(٧) الخالديان : الهدايا ص ١١٧ .
(٨) متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٢٣ .
(٩) ابن جبير : الرحلة ص ١٩٨ .
(١٠) الخالديان : الهدايا ص ١٣٤ .
(١١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٩ .
(١٢) زيدان ، التمدن جـ ٥ ص ٨٣ .
(١٣) الوشاء ، الموشى ص ١٧٦ .
(١٤) الجاحظ ، البيان جـ ٢ ص ٩٧ .
(١٥) متز ، تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤١١ .
(١٦) الخالديان ، الهدايا ص ١٨٢ .
(١٧) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٩ .

التى وصل سعرها إلى ١٥٠٠ دينار[١]. وهى المحلاة بالذهب والفضة[٢] والجواهر والديباج[٣] ومنها الرخيصة الثمن كالصوفية والقطنية والكتانية ... واشتهرت الثياب المصمتة[٤] والثياب المسماة بقلمون التى وصفها الشاعر بقوله :

أنا أبو قلمـــون في كل لون أكون[٥]

والثياب التسترية التى اهتم بها المعتمد[٦] وثياب القوهى[٧] والقصب[٨] والإبريسم[٩] والقز[١٠] والملحم[١١] وهى التى أدخلها المتوكل وسميت باسمه المتوكليات وانتشرت بين الناس[١٢] وثياب الخز[١٣] والمشهور منها خز البصرة ، والثياب المسلية وتصنع فى مدينة النعمانية[١٤]. ومن الثياب نوع تسمى بالفوطة وهو ثوب قصير غليظ يجلب من السند وقد يكون من الصوف[١٥] ونوع آخر يسمى بالدرع وهو ثوب قصير تلبسه المرأة فتشده على الوسط وتجعل له يدين وتخيط فرجيه[١٦] ، ويقول ابن منظور : أن درع المرأة قميصها وهو ثوب قصير تلبسه الجارية فى بيتها[١٧] .

أما الألوان فكانت متنوعة منها الكثيرة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران مثال المللخم والدبيقى المعنبر وتعتبر ملبوسات النساء أو الفتيات والإماء[١٨]. أما اللون

---

(١) الشابشتى ، الديارات ص ٧٩ .
(٢) الخالديان ، الهدايا ص ١٦٧ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ص ١٨٧ .
(٣) الهمذانى ، مقامات ص ٤١٨ .
(٤) الشابشتى ، الديارات ص ١٧٣ .
(٥) الهمذانى ، مقامات ص ٩٣ .
(٦) المسعودى ، مروج ج ٤ ص ١٦٨ .
(٧) الوشاء ، الموشى ص ١٧٨ .
(٨) الصابى : رسوم ص ٩١ .
(٩) الثعالبى : فقه اللغة ص ١٧ .
(١٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
(١١) الوشاء : الموشى ص ١٧٨ .
(١٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى .
(١٣و١٤) المقدسى أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
(١٥) ابن منظور ، لسان العرب ج ٧ ص ٣٧٣ .
(١٦)و(١٧) ابن منظور ، لسان العرب ج ٨ ص ٨٢ .
(١٨) الوشاء ، الموشى ص ١٨٥ .

الأبيض فقد كان مقصوراً على الرجال لم تلبسه النساء إلا المهجورات منهن[١] ويلبسن البياض فى السراويل[٢] والريطه فقط[٣] .

فالظرفاء ، وهم يشكلون الطبقة الأنيقة الهندام ، كانت تراعى اختيار الألوان المناسبة والموافقة بعضها البعض ، تجنبوا لبس الثياب الملونة ، واعتبروها من لبس النساء والإماء ، وكانوا يؤكدون على أن أحسن الزى ، هو « ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق »[٤] . وبنفس الوقت منهم من اتخذ اللون الأبيض تمسكا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « البسوا الثياب البيض فانها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم »[٥] . أما طبقة الفلاحين فقد لبسوا الثياب الملونة[٦] والصوفية المصبغات ومنها الملون الأزرق التى اعتبرت شهيرة[٧] وحتى من أولاد الخلفاء وكبار رجال العرب من لبس المصبغات[٨] ومنهم من صبغ العمامة باللون الأصفر[٩] .

* * *

هذا عدا أنواع ملابس الرجال ، أما النساء فكن لا تلبسن الثياب الصفراء والسوداء والخضراء والموردة والحمراء ، إلا ما كان من جنسه الصفرة والتزريق والخضرة والتوريد والحمرة مثل اللاذ[١٠] والحرير والقز والديباج والوشى والخز[١١] ويلبس المصبوغ بلون الحمرة والصفرة المسماة بالحصى[١٢] ، فالمورد والأحمر والسيزى

---

(١) الوشاء ، الموشى ص ١٨٤ .

(٢) الثعالبى ، فقه اللغة ص ٢٥٣ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ج ٧ ص ٣٧ .

(٣و٤) الوشاء ، الموشى ص ١٧٩ « الريطه ملاءة إذا كانت قطعة واحدة وقيل الريطه كل ملاءة ذو منسج واحد وقيل كل ثوب لين ودقيق » ، ابن منظور ج ٧ ص ٣٠٧ .

(٥) ابن الجوزى ، تلبيس ص ١٨٦ .

(٦) ابن الجوزى ، تلبيس ص ١٨٣ .

(٧) ابن الجوزى ، تلبيس ص ١٨٦ .

(٨) الشابشتى ، الديارات ص ٢٢ .

(٩) الجاحظ ، البيان ج ٣ صفحة ٩٧ .

(١٠و١١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٥ الحرير الصينى الأحمر .

(١٢) الهمذانى ، مقامات صفحة ٢٥٠ .

الأخضر من لبس النبطيات[١] ، أما الأسود فلبس الحداد[٢] ، والأزرق من لبس الأرامل[٣] وللحداد[٤] أيضاً فى المغرب .

هذا وقد تفننوا فى خياطة وتطريز الثياب فكتبوا الأشعار الرقيقة على أكمام القمصان ، وعلى الأردية وعلى القمصان نفسها[٥] . قيل إن جارية لبعض الهاشميين اسمها عريب كتبت على قميصها الشعر التالى :

وإنى لأهـواه مسيئاً ومحسناً وأقضى على قلبى له الذى تقضى[٦]

والخيوط الذهبية التى استعملت فى التطريز تسمى بالـكلابدون[٧] ، ولا يزال شائعاً فى العراق حتى اليوم .

والقمصان كانت بصورة عامة طويلة تدعو إلى الخيلاء كما قال الشاعر :

معى كل فضفاض القميص كأنه إذا ما سرت فيه المدام فتيق[٨]

وبالنسبة للزهاد والمتدينين تعتبر القمصان الطويلة من الشهرة ولا تتماشى مع الدين الإسلامى[٩] بناء على قول الرسول صلى الله عليه وسلم فى نهيه عن لبس الثياب التى تجر على الأرض (فضل الإزار فى الستار)[١٠] وأنـكرها أيضاً العرافون[١١]، هذا وقد وضعوا فى القمصان والثياب أزرار تطلق فتنزع الثياب[١٢] .

---

(١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٥ .

(٢) ابن الجوزى ، المدهش صفحة ٣٠٧ .

(٣) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٥ .

(٤) آدم متز ، الحضارة جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٥) أحمد أمين ، ضحى الإسلام .

(٦) أحمد أمين ، ضحى الإسلام .

(٧) الصابى ، رسوم صفحة ٩١ — ٩٢ .

(٨) المبرد ، الـكامل جـ ١ صفحة ٤١ .

(٩) ابن الجوزى ، تلبيس صفحة ١٨٧ .

(١٠) زيدان ، التمدن جـ ٥ صفحة ٨٢ .

(١١) الجاحظ ، البيان جـ ٣ صفحة ٩٦ .

(١٢) الجاحظ ، البيان جـ ٣ صفحة ١١٥ .

ثالثا : لباس القدم الشائع منها :

الخفاف ، النعال ، اللالكة ، الجوارب :

(١) فالخفاف[١] كانت تلهج بذكرها الفرس بينما العرب تلهج بذكر النعال[٢] . وعرفت عند المسلمين فى صدر الإسلام ذكرها الإمام على (عليه السلام) إذ قال جمال المرأة فى خفها[٣] ، وكان مهماً بالنسبة لجميع الطبقات حتى الفقيرة . قيل إن أعرابياً عليه ثياب رثة وهو شاخص نحو الكعبة لا يضع شيئاً ثم دنا من الأستار فتعلق بها ورفع رأسه إلى السماء وأنشد يقول :

أما تستحى منى وقد قمت شاخصاً ... أناجيك يا ربى وأنت عليم[٤]

فإن تكسنى يا رب خفاً وفروة ... أصلى صلاتى دائماً وأصوم

هذا ولبسته المرأة . قيل إن امرأة ماتت فاشترى لها زوجها كفناً قصيراً فقالت له الغاسلة الكفن قصير فقال ألبسيها خفها[٥] . كما أنه مهم بالنسبة للطبقة الارستقراطية إذ لا يدخل على الخلفاء والأمراء والسادة العظماء إلا وفى رجله خف وهو دليل على الاحترام والتعظيم[٦] على أن تكون من النوع الجيد[٧] وكانت من لباس الخلفاء أيضاً[٨] .

الخفاف أنواع منها الهاشفية والمدارنية والمشمرة والخفيفة إلى آخره[٩] والألوان المتداولة السوداء والحمراء والصفراء ومنها ما اختلط فيها لونان الأسود والأحمر

---

(١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٠ ؛ ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ١٧٨ .

(٢) الجاحظ ، البخلاء صفحة ١٠٤ .

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ صفحة ١٠٦ .

(٤) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ١٠٨ — ١٠٩ .

(٥) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ١٦٤ .

(٦) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ صفحة ١١٣ .

(٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ١ صفحة ٩٥ .

(٨) الصابى ، رسوم صفحة ٩١ .

(٩) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٦ .

أو الأسود والأصفر[١]. فالأحمر اعتبر من لباس الخلفاء فقط فى القرنين الثالث[٢] والرابع[٣] الهجرى ولا يسمح لغيرهم بلبسها بينما فى السابق نهى أصحاب الرسول (ص) نساءهن من لبسها وقالوا «هى من زينة نساء آل فرعون»[٤]. هذا وقد جاء فى نشوار المحاضرة أن اللون الأحمر اعتبر من زى المتعطلين من الكتاب[٥] فى العصر العباسى الأول وقال متز إن الخفاف الحمر وإن لبسها عامة المسلمين ولكنها كانت من لباس المتخنثين المتطرفين الجهال[٦] وذكر الحصرى أن أحد العامة لبس الخفاف الحمر[٧]. وذكر متز أن أحد الخطباء فى الموصل لبس خفاً أحمراً فى سنة ٤٠١[٨].

للخفاف كما للأكمام فوائد إذا اتخذت للخزن فالحسن بن مخلد أحد وزراء المعتمد خزن فيها دستوراً فيه جمل ما فى الخزائن من الأمتعة والثياب[٩] كما أن الفتح ابن خاقان كان يخزن فيه كتاباً ليقرأه من مجلس المتوكل[١٠] وخزن الندماء فى خفاف غلمانهم طعاماً فاذا أمضهم الجوع تناولوا ما أعدوه من ذلك[١١] وحتى السكين خزنت فى الخفاف[١٢].

(ب) النعال :

عرف النعال عند العرب منذ زمن بعيد ووصفوه فى شعرهم قال الشاعر[١٣] :

يا ليت لى نعلين من جلد الضبع ... وشركا من استها لا ينقطع

(١) ابن الجوزى ، تلبيس إبليس صفحة ٤٠٨ ؛ التنوخى ، نشوار ج ٨ صفحة ٢٧ .

(٢) و(٣) الصابى ، رسوم صفحة ٧٥ و ٩١ .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٦ .

(٥) التنوخى ، نشوار المحاضره ج ٨ ص ٢٧ .

(٦) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٧) الحصرى ، جمع الجواهر ص ٢٦٤ .

(٨) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ١٠٣ .

(٩) الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢٨ .

(١٠) آدم متز ، الحضارة ج ١ ص ٣٠٦ .

(١١) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٠ .

(١٢) الصابى ، رسوم ص ٤٥ .

(١٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٦ .

وقال بعضهم إنها خلاخيل الرجال[١] . . والنعل أنواع منها (الزيحبيه والتخان الكتانية المشعرة واليمانية[٢] والفضية[٣] إلى آخره . واشتهرت النعل التى لها خصران دقيقان فقال الشاعر :

إلى معشر لا يخصرون نعالهم ولا يلبسون السيب ما لم يخصر[٤]

ويذكر المقدسى أن أهل العراق يكثرون التنعل[٥] فى القرن الرابع الهجرى ويقول إن المجوس تلبس النعال السندية أو تسير حافية .

واشتهرت نعل الطبقة الغنية فتفننوا فى صنعها فالسيدة أم المقتدر عرفت بنعلها المصنوع من ثياب دبيقية والمحشو بالمسك والمخيط بالحرير [٦] . وكذلك نعال السيدة زبيدة المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة[٧] : قيل إن بعض النساء استعملن النعال فى الضرب على صدورهن فى حالة الحزن فيقول الشاعر :

وقام بناتى بالنعال حواسرا والصقن وقع السبت تحت القلائد[٨]

هذا وقد تهادى الناس النعل كما فعل أبو العتاهية إذ أهدى للمأمون[٩] نعلا وكتب إليه يقول :

نعل بعثت بها لتلبسها تسعى بها قدم إلى المجد
لو كنت أقدر أن أشركها خدكما جعلت شراكها خدى[١٠]

---

(١) الجاحظ ، البيان ج ٣ ص ٩٨ .
(٢) الوشاء ، الوشى ص ١٨٠ .
(٣) الخالديان ، الهدايا ص ١٩٩ .
(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٩ .
(٥) المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .
(٦) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ .
(٧) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .
(٨) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٨ .
(٩) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٢١ .
(١٠) ابن المعتز ، الشعر والشعراء ص ٦٨٧ و ٨٦٨ .
الخالديان ، الهدايا ص ٢٧ .

(ج) الملائكة[1] :

كلمة فارسية وهى نوع من الأحذية لبسها الرجال[2] والنساء[3] على السواء ، وتكون مختلفة الألوان منها الحمراء[4] وهى لباس الخلفاء الخاص والسوداء هى لباس الأمراء والقواد تربط بالزنانير[5] أما العامة فتختار جميع الألوان ما عدا الأحمر[6] وهى من لباس الظرفاء أيضاً[7] .

هناك لباس آخر يسمى بالران قيل يشبه الخف إلا أنه لا قدم له وهو أطول من الخف على هامشه خرقة تعمل كالخف محشوة قطناً تلبس فى الشتاء وتمنع البرد[8] .

(د) الجوارب[9] :

لباس الرجال والنســاء[10] . منها السوداء اللون وهى لباس الأمراء والقواد[11] ومنها الخز والقز[12] والمرعزوى[13] .

هذا عن أنواع الملابس وأشكالها فى القرنين الثالث والرابع للهجرة ، أما عن طبقات المجتمع فى العراق فى هذين القرنين ، فيمكن أن نلخصه فيما يلى :

---

(١) ابن الجوزى ، الظراف ص ٩١ .
(٢) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
(٣) ابن الجوزى ، ذم الهوى ص ٨٩ .
(٤) الصابى ، رسوم ص ٧٥ .
(٥) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
(٦) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
(٧) ابن الجوزى ، الظراف ص ٩١ .
(٨) الشابشتى ، الديارات ص ٨٦ .
(٩) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
(١٠) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢٥ .
سيد أمير على الحضارة ص ٣٨٧ .
(١١) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
(١٢) الوشاء ، الموشى ص ١٨٠ .
(١٣) المرعزوى من القز الحرير .

١ — لباس الخلفاء:

اتخذوا اللون الأسود[١] شعاراً لهم ولبسوه عند الخروج لمقابلة العامة كما فعل المستعين[٢] وفرض أيضاً على كل من يدخل عليهم فى يوم المواكب[٣] واللون الأسود استعمل فى الراية[٤] والعلم[٥] وكيس النقود[٦] وحتى البوابون الواقفون على الباب للحراسة لبسوا الأقبية السوداء[٧].

للخلفاء لباس خاص فى المواكب يتكون من العمامة السوداء أو الرصافية ويتقلدون سيفاً وقضيباً وبردة الرسول (ص) ويحملون مصحف عثمان وسيف ثانى[٨].

أما بصورة عامة فقد لبسوا القلانس ووضعوا عليها العمائم السوداء كما أمر جعفر المنصور بذلك وقد زينها البعض بجوهرة غالية[٩]. ولبسوا العمائم السوداء لوحدها[١٠] أيضاً. ولبسوا القلانس الطويلة.

أما لباس الجسم فكان يشمل القباء الأسود المصمت أو الملحم وقد يكون من الخز[١١]. . كما قد يكون مفتوحاً من الصدر يظهر القفطان من تحته[١٢] ويلبس فوق الجبة السوداء[١٣] العباءة. ومن لباسهم أيضاً القميص والمطوف[١٤]

---

(١) الجاحظ ، البيان ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٤٨٦ .

(٣) الصابى ، رسوم ص ٩٠ .

(٤) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .

(٥) آدم متز ، الحضارة ج ٢ ص ٢٢١ .

(٦) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .

(٧) الخطيب البغدادى ، تاريخ ج ١ ص ٤٨ .

(٨) الصابى ، رسوم ص ٩٠ .

(٩) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .

(١٠) الخطيب البغدادى ، تاريخ ج ١ ص ٤٨ .

(١١) الصابى ، رسوم ص ٩٠ .

(١٢) سيد أمير على ، الحضارة ص ٣٨٧ .

(١٣) البيهقى ، المحاسن والأضداد ص ٤٩٩ .

(١٤) الجاحظ ، التاج ص ١٥٣ .

والطيلسان والدراعـــة(١) والسروال(٢) والرداء(٣) ، كما لبسوا الأقبيـة السوداء(٤) وقد تتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر(٥) وعند الركوب استحدث المعتز الحلية الذهبية وكانت قبلا فضية(٦) ، أما فى الاقدام فقد لبسوا الخفاف الحمر(٧) وقد يلبس النعل(٨) .

٢ — لباس أولاد الخلفاء :

أما أولاد الخلفاء فلم تشر المصادر إلى أن لهم لباساً خاصاً سوى بعض الاشارات العابرة إذ أشار(٩) التنوخى إلى لبسهم العمائم البيض وذلك عند خروج أبى أحمد ابن المقتدر مع أبيه لمقابلة مؤنس . ولبس إبراهيم بن المهدى المبطنة الملحم والعمامة(١٠) ووضعوا التيجان إذ قيل إن المعتز خلع على أخيه أبى أحمد تاجاً مرصعاً بالجواهر(١١) . أما أولاد الأنصار كان زيهم الخاص العمائم الصفراء(١٢) .

٣ — لباس الوزراء :

يتميز بلبس الأقبية السوداء المولدة(١٣) والخفاف وذلك فى حالتين الأولى عند الدخول على الخليفة يوم الموكب(١٤) والثانية عند القيام بمهمة الوزارة(١٥) وقال

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٣٤١ .
(٢) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٣٤١ .
(٣) البيهقى ، المحاسن والأضداد ص ٤٩٩ .
(٤) الصابى رسوم ص ٩٠ .
(٥) سيد أمير على ، الحضارة ٣٨٧ .
(٦) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٢ .
(٧) الصابى ، رسوم ص ٩١ .
(٨) البيهقى ، المحاسن والأضداد ص ٤٩٩ .
(٩) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ .
(١٠) طيفور ، بغداد ص ١١٥ .
(١١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ١٢٤ .
(١٢) الصابى ، رسوم ص ٩١ — ٩٢ .
(١٣) الصابى ، رسوم ص ٩١ .
(١٤) التنوخى ، نشوار المحاضرة جـ ٨ ص ٩١ .
(١٥) الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٤٢ .

الشاعر يصف حالة الوزيرين حامد بن العباس وعلى بن عيسى الأول الوزير الأصلى وعليه السواد والثانى الوزير الفعلى وليس عليه السواد .

أعجب من كل ما رأينا   أن وزيرين فى بلاد[1]
هـــذا سواد بلا وزير   وذا وزير بلا سواد

وذكر أنهم يحملون السيوف ولا يصلون إلى الخليفة إلا بقباء أسود ومنطقة وسيف[2] .

٤ — لباس القضاة والفقهاء :

لباسهم طيلسان أسود ودراعه سوداء[3] والقلانس المستديرة الضخمة وفى منتصف القرن الرابع أبدلت القلانس بالعمائم السود المصقولة[4] وأول من غير لباس العلماء أبو يوسف قاضى الرشيد[5] . وكانت العمائم من شاشات كبيرة والأكمام طويلة ويتميز قضاة المذاهب كالشافعى والحنفى بلبس طرحة فوق العمامة[6] .

ولا يلبسون الحرير بل الصوف الأبيض ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم على الأغلب[7] أما قضاة الأمصار والبلاد (القميص والطيالسة الدنيا والدنيات)[8] .

٥ — لباس الأمراء والقواد :

يتميزون بالأقبية السوداء من كل صنف مع لبس العمائم وفى أرجلهم الجوارب واللالكات السود مشدودة بالزنانير[9] .

٦ — لباس الكتاب :

كان زيهم فى القرن الثالث الهجرى لبس القباء والسيف والمنطقة والشاشية

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ٧ ص ٤٨٦ .
(٢) التنوخى ، نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٢١ .
(٣) الأصبهانى ، الأغانى ج ٥ ص ٣٩٠ .
(٤) الصابى ، رسوم ص ٩١ .
(٥) سيد أمير على ، ص ٣٨٨ .
(٦و٧) محمود العرنوسى ، ص ١٢٠ .
(٨) الصابى ، رسوم ص ٩٢ .
(٩) الصابى ، رسوم ص ٩١ — ٩٢ .

فى عهد المتوكل[١] ولبسوا الدراريع[٢] والطيلسان والقميص والسروال والمبطنة[٣].

٧ — لباس الأطباء :

يتميز بلبس العمائم الكبيرة[٤].

٨ — لباس الخطباء والمؤذنين :

يتميز بلبس القباء الأسود الذى كان رسماً جارياً على كل من يدخل المقصورة فى يوم الجمعة للصلاة وحتى سنة أربعمائة لم يبق إلا الخطباء والمؤذنون يلبسون الأقبية السوداء[٥]. والمنطقة السوداء حتى القرن الخامس الهجرى ويقول الجاحظ قد لا يلبس الخطيب الملحفة والجبة والقميص والرداء. ولكن لا بد من لبس العمامة والإزار وحمل العصا عند التأهب للخطابة[٦] ويذكر متز أن فى سنة ٤٠١ لبس خطيب بالموصل قباء دبيقى أبيض وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين[٧].

٩ — لباس الشعراء :

كانت تلبس الموشى والمقطعات والأردية الشرب وكل ثوب مشهر[٨]. قيل كان يلبس البعض ثياباً شاذة تجلب النظر يسمونها مشهر، وقال الجاحظ[٩] : إن بعضهم لم ينزع قميصه قط، وآخر لم ينزع ثوبه من جهة الرأس، بل يفك الأزرار فيسقط الثوب على الأرض، وآخر يلبس برداً أسود فى الصيف والشتاء فهجاه أحد الشعراء.

---

(١) التنوخى، نشوار ج ٨ ص ١١ — ١٢ .

(٢) متز، الحضارة ج ٢ .

(٣) الخالديان، الهدايا ص ١١٧ .

(٤) ابن الجوزى، الأذكياء ص ١٠٦ .

(٥) الخطيب، تاريخ ج ١ ص ٤٨ .
المقدسى، أحسن التقاسيم .

(٦) الجاحظ، البيان ج ٣ ص ٩٢ .

(٧) متز الحضارة ج ٢ ص ١٠٣ .

(٨) الجاحظ، البيان ج ٣ ص ١١٥ .

(٩) الجاحظ، البيان ج ٣ ص ١١٦ .

بع بردك الأسود قبل البرد   فى قوة تاتيك صما صرد[١]

١٠ — لباس الحرس :

منهم البوابون الواقفون على أبواب المقصورة وهم يتميزون بلبس الأقبية السوداء[٢]. أما الحرس السائر فى المواكب فيتميز بلبس الثياب الفخمة يمشون وفى أيديهم السلاح وكان ذلك فى عهد الهادى .

أما المعتصم فقد ألبس الغلمان أنواع الديباج والمناطق المذهبة[٣] .

١١ — لباس الخدم والحاشية :

يتميز بلبس القباء والمنطقة دائماً[٤] ولكنهم لبسوا الأقبية والرداء المورد فى مناسبة عيد النوروز . كما فعل شفيع خادم المتوكل[٥] :

١٢ — لباس التجار :

لهم زى خاص يتكون من رداء وطيلسان ونعال[٦] وطاق وقد يلبس الغنى ردائين .

١٣ — لباس العامة :

فالأغنياء منهم يلبسون القميص ورداء فوق السراويلات[٧] والجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد وتسمى موزاج[٨] والمتوسطو الحال يلبسون الإزار والقميص والدراعة والمسترة الطويلة وحزاماً يسمى قمربند[٩]. وقد تختلف ألبستهم

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) الصابى ، رسوم ص ٩١ . التنوخى ، نشوار ج ٨ ص ٩٠ .

(٣) محمد جمال سرور ، الحضارة صفحة ٢٣ .

(٤) الشابشتى ، الديارات صفحة ١٩٩ .

(٥) الشابشتى ، الديارات صفحة ٣٧ .

(٦) ابن الجوزى ، ذم الهوى صفحة ٤٧٥ .

(٧) متز ، الحضارة ج ٢ صفحة ٢٢٣ .

(٨) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣١٩ .

(٩) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٨ .

باختلاف صنائعهم وأحوالهم وطبقاتهم وأماكنهم ، ولكن بصورة عامة تشمل ألبستهم على ما ذكرنا بالإضافة إلى الجبة والنعال والجوارب والقباء[١]. أما الفقراء منهم الذين لايملكون شيئاً سوى الثياب الممزقة العتيقة فتسمى ثيابهم خلقان[٢]. ويذكر أن بعض الفقراء مر بامرأة فأعجبته فتزوجها فلما دخل البيت أنزعوه خلقانه وألبسوه ثياباً جدداً ... وتسمى أيضاً (بأسمال)[٣] ولبسوا المدرعة[٤] وهى نوع من أنواع الجبب .

١٤ — لباس المتصوفين :

نهتم بذكرهم لانتشار هذه الطائفة فى القرنين الثالث والرابع فتميزت بلبس الثياب الخشنة والمرقعة[٥] والصوفية مع فوطة مدلاة على رؤوسهم تحيط بقلنسوة طويلة[٦] . هذا وقد تميزت ألبستهم بكثرة الرقع[٧] فيها وذكر ابن الجوزى أن وزن الرقع فى كم من أكمام أحد المتصوفين بلغ أحد عشر رطلا[٨] ، وقال الشعراء فى وصف رقع الصوفية بقولهم :

ألبس قميصك ما اهتديت لجيبه   فاذا أضلك جيبه فاستبدل[٩]

أما اللون فكان الأزرق لسببين ربما لكونه لون حداد أو لأنه يلائم رجال قوم فقراء جوالين ويعتقد متزأن السبب الأول هو الأصح[١٠].

١٥ — لباس الظرفاء والمنادمة :

تجنبوا لبس الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران إلا فى حلقات الشراب

(١) زيدان ، التمدن جـ ٥ صفحة ٨٣ .
(٢) ابن الجوزى ، المدهش صفحة ٢٣٣ ؛ البيهقى ، المحاسن والأضداد صفحة ٤٠٣ .
(٣) ابن الهبارية ، الصادح والباغم صفحة ٢٩ .
(٤) ابن منظور ، لسان العرب جـ ٨ صفحة ٨٢ .
(٥) ابن التوحيدى ، الأمتاع صفحة ١١٦ .
(٦) متز ، الحضارة ج ٢ صفحة ٢٤ — ٢٥ .
(٧) ابن الجوزى ، تلبيس وابليس صفحة ١٨٤ .
(٨) ابن الجوزى ، تلبيس وابليس صفحة ١٨٥ .
(٩) الجاحظ ، البخلاء صفحة ٣٧ .
(١٠) متز ، الحضارة ج ٢ صفحة ٢٤ — ٣٥ .

وفى بيوتهم ولبسوا البياض[١]. والكتان الناعم النقى اللون مثل الدبيقى[٢]. أما لباس الندماء إن كانت تشمل الخليفة أو من يجالسه فى مجلسه الخاص بالشراب والأنس هى عبارة عن أثواب مصبغة الألوان الزاهية الاحمرار والاصفرار والاخضرار يصقلونها حتى تلمع[٣].

* * *

هذا عن الرجال ، أما عن ملابس النساء فى العراق فى القرنين الثالث والرابع للهجرة .

فالمعلومات قليلة عنهـــا وهى ثلاثة أقسام : ألبسة البدن والرأس والقدم . فالأولى منها الثياب الداخلية وتشمل على القرقر والآتب وألشوذر والصدار والمجول فكلها متقاربة الكيفية والقصر وعدم الأكمام تلبسنها فى الدار عند الخلوه[٤]. وثوب مشهور يسمى الغلالة[٥] يلى الجسد[٦] وأنواعها الغلالة الدخانية[٧] وغلالة القصب[٨] وأيضاً القميص الذى يلبس على الجسم ويسمى بالبدنة[٩] ويذكر المقدسى انتشار الفوط المصنوعة من القز فى القرن الرابع[١٠] أيضاً .

أما الثياب الخارجية فهى أنواع ، الثمينة الغالية كالديباج والموشاة بالذهب . وقد تبلغ أسعارها آلاف الدراهم والدنانير ومنها الرخيصة المصنوعة من الصوف أو القطن المسماة بالأسمال أو الخلقان (سبق وأن أشرنا إليها) .

---

(١) الوشاء ، الموشى ص ١٨٣ .

(٢) متز ، الحضارة ج ٢ ص ٣٤٧ .

(٣) زيدان ، التمدن ج ٥ ص ٨٣ .

(٤) الثعالبى ، فقه اللغة ص ٢٥٣ .

(٥) الثعالبى ، فقه اللغة ص ٢٥٢ .

(٦) الهمدانى ، مقامات ص ١٩٨ .

(٧) الوشاء ، الموشى ص ١٨٤ .

(٨) الأزدى ، حكاية أبى القاسم ص ٧٥ .

(٩) الشابشتى ، الديارات ص ١٧ .

(١٠) المقدسى ، أحسن التقاسيم ص ٤١٦ .

يتكون اللباس الخارجي من الإزار[١] ، والسروال[٢] الأبيض اللون والقباء وهذا نادرما تلبسهن ، كما فعلت عريب وصيفة الأمين[٣] . وهناك الأثواب والقمصان وهي متنوعة الأشكال منهـا الطبرية والفوهية والرشيدية والديبقية .. إلى آخره ولبسن الريطة[٤] . ولبسن الوشاح على الصدر[٥] وقال الشاعر في ذلك :

أما ترى وشاحها ما يقلق أما ترى حلماً لها ما ينطق[٦]

وعرفت (البدنة)[٧] وهي قميص لؤلؤ وجوهر وهي الدرع القصير ألبستها أم جعفر إلى بوران ليلة زفافها من عبيدة بن عبد الله التي لم ير في الإسلام مثلها .

أما لباس الرأس فيتكون من المقابع[٨] والخمار[٩] والعصابة[١٠] والبرنس ، فالمقابع منها[١١] : التيسابرية وعلى الأغلب سوداء اللون[١٢] والخمار أسود ، وقد يكون من الصوف[١٣] . أما العصابة سوداء منها المرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة وهي من ابتكار علية أخت الرشيد[١٤] . قيل دخل أبو الحسن على الرشيد يوماً وحوله وقفن جواري لبسن عصابة منضدة بالدر والياقوت مكتوباً عليها بصفائح الذهب شعراً .

---

(١) الأزدي ، حكاية أبي القاسم ص ٥٣ — ٥٤ .

(٢) الوشاء ، الموشى ص ١٨٤ .

(٣) الشابشتي ، الديارات ص ١٧ .

(٤) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٢٥٣ ابن منظور لسان العرب ج ٨ صفحة ٣٠٧ .
الهمداني . مقامات صفحة ٤٠٢ .
الشابشتي ، الديارات صفحة ١٧ .

(٥) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٣٤٩ .

(٦) ابن الهبارية ؛ الصادح والباغم صفحة ٧ .

(٧) الشابشتي ، الديارات صفحة ١٠٠ ؛ ابن الساعي ، نساء الخلفاء صفحة ٦٨ .

(٨) طيفور ، بغداد صفحة ١٠٤ .

(٩) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٢٥٤ .

(١٠) الثعالبي ، فقه اللغة صفحة ٢٤٩ .

(١١) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٤ .

(١٢) الأزدي ، حكاية أبي القاسم صفحة ٥٤ .

(١٣) الأبشيهي ، المستظرف صفحة ٣٢ .

(١٤) سيد أمير علي ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .

ظلمتنى فى الحب يا ظالم   والله فيما بيننا حاكم[١]

أما غطاء الرأس البرنس منه المنضد بالجواهر والحلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار وهو من ابتكار علية أخت الرشيد[٢] وقد يزين الرأس بحلية ذهبية حولها عصابة منضدة بالجواهر[٣] .

لباس القدم :

سبق أن ذكرنا شيئاً فى موضوع لباس القدم وبصورة عامة لبس النعال والخفاف والجوارب وربما سرن حافيات أو بنعال بسيط وهؤلاء نساء الطبقة الفقيرة ومنهن من لبسن النعل المرصعة[٤] بالجواهر كما فعلت زبيدة أو النعل المصنوعة من ثياب ديبقية تسمى بثياب النعال وذلك أنها كانت صفاقاً مقطع على مقدار النعال المحذوة وتطلى بالمسك والعنبر وتجمد وتجعل ذلك بين كل طبقين من الثياب من ذلك الطيب . . . حتى تلف بعضها على بعض وتصمغ بالعنبر وتلزق حتى تصير قطعة واحدة[٥] .

أما الخفاف فالطبقة الأولى منها بيضاء مصقولة وتحرز حواليها بالابريسم وقد يلبسنها عشرة أيام فقط وتتلف فترمى جملة دنانير[٦] فى ثمنهـــا ولبسن الجوارب أيضاً[٧] .

الحلى :

الكلام عن الحلى طويل لكثرة أنواعها وسنتكلم بايجاز عن بعضه فالمعروف أن النساء لبسن الحلى منذ زمن طويل فى عصور ما قبل التاريخ ولا تزال حتى اليوم وتطورت تلك الحلى من بسيطة ورخيصة إلى أحجار كريمة وثمينة وأشهر أنواع الحلى القلائد والأساور والخلاخل والخواتم والأكاليل إلى آخره .

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٨ صفحة ١٣٥ .
(٢) و(٣) و(٤) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .
(٥) التنوخى ، ج ١ صفحة ١٤٢ .
(٦) التنوخى ، ج ١ صفحة ١٤٣ .
(٧) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .

(ا) فالقلائد(١) كانت تستعمل من ودع وعظام وخزف واستعمل هذا النوع لدى النساء والرجال على السواء(٢) وربما لسببين الأول للحفظ والسلامة والثانى للزينة . ومنهاما استعملت من اللؤلؤ والدر والياقوت والتى بلغ سعرها عشرة آلاف دينار كقلادة أم سلمى التى أهدتها إلى أبى العباس(٣) أو عشرة آلاف درهم كقلادة المأمون التى أهديت إلى الحسن بن سهل(٤) وخيوط الياقوت الأحمر فى بدنة زبيدة التى أهدتها إلى بوران(٥) وبين النوعين من القلائد ربما توجد قلائد من ذهب مع قليل من الأحجار الكريمة أو من الفضة وهى من حلى الطبقة المتوسطة .

(ب) والنوع الآخر المهم الخواتيم ملبوس الرجال والنساء(٦) أنواعها كثيرة منها الفص الكبير أو الفص الصغير والخاتم الكبير فيذكر أن الإمام الشافعى قال إذا رأيت الرجل خاتمه كبير وفصه صغير فذاك رجل عاقل وإذا رأيت فصه كبير وخاتمه صغير فذاك عاجز(٧) . ومن الخواتم التى نقش عليها أسماء وألقاب أشخاص كخواتم(٨) الخلفاء وزوجاتهم وأمهاتهم فهذه نقشت على خاتمها (أنا . . . .)(٩) وهكذا فعل بقية الناس هذا واستعملت الخواتم كهدايا بين الناس ترمز للقطيعة أو للمحبة(١٠).

(ج) أما الخلاخل هى لباس النساء(١١) وتلبس فى الأرجل ولاتزال تلبسها نساء الطبقة العامة اليوم وتتدرج من الفضة إلى الذهب المرصع بالجواهر .

---

(١) الهمدانى ، مقامات صفحة ٩١ .

(٢) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ٤٧ .

(٣) الخالديان ، الهدايا صفحة ١٤٤ .

(٤) الخالديان ، الهدايا صفحة ٢٥٧ .

(٥) الشابشتى ، ديارات صفحة ١٠٠ .

(٦) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ١٧ .

(٧) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ١٨ .

(٨) ابن الجوزى ، الحمق والمغفلين صفحة ١٧ .

(٩) الثعالبى ، ثمار القلوب صفحة ١٢٩ .

(١٠) الوشاء ، الموشى صفحة ١٨٨ .

(١) ابن الجوزى ، ذم الهوى صفحة ٤٧٥ .

(د) المنطق وهو الحزام الذى يشد على الوسط واستعمل من الذهب المرصع بالأحجار كما فعلت زبيدة[١] وقال الشاعر فى المنطق والقلادة . .

ومنطق من نفسه بقلادة الجوزاء حسا[٢]

هذا بالإضافة إلى أنواع كثيرة من الحلى المتنوعة كالتيجان والأكاليل والأساور والأقراط[٣]. وهناك نوع من الزينة وهى الكتابة والنقش على القمصان[٤] والأكمام[٥] والعصائب[٦] والأحزمة[٧] والنعل[٨] وعلى الخواتم[٩] ، وتعدتها إلى الكتابة على الكؤوس ، والسيوف ، وبقية الأمتعة ، وحتى على الوجه والصدور والمراوح إلى آخره[١٠].

---

(١) سيد أمير على ، الحضارة صفحة ٣٨٩ .

(٢) الشابشتى ، الديارات صفحة ١٠٠ .

(٣) الشابشتى ، الديارات صفحة ١٠٠

(٤) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٩ وهى حلية تلبسها المرأة فوق الأذن ، الثعالبى يتيمة الدهر ج ٣ ص ٢٢٩

(٥) أحمد أمين ، ضحى الإسلام .

(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٨ صفحة ١٣٥ .

(٧) الهمدانى . مقامات ص ٩٧ .

(٨) التنوخى ، نشوار ج ١ صفحة ١٤٦ .

(٩) ابن الجوزى ، الحمقى والمغفلين صفحة ١٧ .

(١٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد صفحة ١٣٥ .

الـكارمية

الشاطر بصيلي عبد الجليل

يبدو أن الوقت قد حان للعمل على متابعة التاريخ الاقتصادى العربى ، والتعرف على الدور الذى لعبه العرب فى هذا المضمار ، بعد أن انتقلت إلى أيديهم هذه التجارة ، التى عرفت باسم عام هو « الـكارم » وصار رجاله يعرفون بالـكارمية كما أنه من الضرورى أيضاً ، القيام بمحاولة الـكشف عن العلاقات ، التى قامت بين العرب وبين المشتغلين بالتجارة ، فى حوض المحيط الهندى الذى كان يحتل مركزاً وسط فى التجارة العالمية . والواضح أن التجارة تخرج من بلدان على مستوى حضارى ، وتنتقل إلى من يشتريها أو يقايض عليهـا . فلهذا نجد أن المحيط الهندى ، قد كان السوق التجارى الـكبير الذى كانت تتجمع فى موانيه البضاعة من أقطار الشرق الأقصى والهند وغيرها . وأخذت هذه المرحلة تنتقل رويداً رويداً نحو الشمال حتى تم انتقالها إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وكان طبيعياً أن يتخذ العاملون فى هـذه التجارة مراكز لهم على مقربة من هذا البحر . ولهذا جاء هؤلاء التجار إلى مصر ، واتخذوا منها موطناً لهم فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، وكانت مرحلتهم هذه نهاية لنشاط واسع المدى ، عبر قرون بعيدة الغور ، وانتقلت هذه التجارة وزعامتها إلى الغرب منذ القرن الخامس عشر . وكانت بداية الغرب فى التجارة العالمية ، حلقة مكملة لما بدأه العرب بما أدخلوه من تحسينات فى التنظيمات التجارية بحكم الخبرة والتجربة وتطور الظروف .

ومرحلة انتقال الزعامة التجارية إلى الغرب وظروفها لأمر جدير بالبحث والدراسة للتعرف على أصوله والعمل على توضيح أسسه ، بمقارنتها مع ما عمل به الغرب ، والاستعانة فى هذه الدراسة بمجموعات وثائق الجنيزة التى نقلت من مصر القديمة (جنوب القـاهرة) فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى وأن عدداً كبيراً منها ما زال قيد الدراسة .

والـكارمية الذين عرفوا بهذا الإسم هم فئة من كبار التجار الذين اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من بهار وغيره من البضاعة . ويرجع احتكار هذه التجارة بيد جماعات من كبار المشتغلين بهذه التجارة إلى سيد رئيسى

وهو أنه ، بالنسبة للظروف التى كانت قائمة فى ذلك الماضى السحيق ، لم يكن من اليسير حصول التاجر الصغير على بضاعته إلا عن يد جماعة لها رأس مال كبير ، وتنظم وسائل النقل وما إليها وتعرض ما تنقله فى الأسواق الكبرى فى مصر وغيرها حيث كانت تعقد المزايدات ومن ثم تنتقل إلى يد تجار نصف الجملة ومنهم إلى التجار الصغار فى مصر وغيرها كما كانت تنتقل أيضاً إلى التجار والوكلاء من الغرب الذين يحضرون لشراء هذه البضاعة لتزويد الأسواق الأوروبية بحاجتها . وكانت الرغبة فى السيطرة على هذه التجارة التى كانت بين العرب من أول الدوافع ، إلى قيام البرتغال بكشف الطريق حول أفريقيا ، إلى المحيط الهندى ، منذ نهاية القرن الخامس عشر .

والواضح أن التجارة تتطور مع تقدم الحضارات ، ونشاط العاملين بها ، فالعرب قد انتشروا بعد الإسلام ، فى الموانىء المطلة على المحيط الهندى ، وتغلغلوا فى داخل القارة الإفريقية للعمل التجارى ، وإنشاء الشبكات العديدة لتجارة القوافل ، سواء بالنقل المائى أو على الدواب ، كما استخدم ، فى عدد من المناطق ، التى لا تصلح فيها عمليات النقل بالدواب والسفن ، الإنسان للنقل ، وحددت للانسان مناطق معينة يعمل فيما بينهـا ، وكان هؤلاء يقدمون عن طريق زعيم . يجمع هؤلاء من السلاطين المحليين ، الذين يتقاضون أجورهم من زعيم العمل ، وكان بين هؤلاء ، أسرى الحروب ، التى يشنها الزعماء على بعضهم البعض . تجدد النشاط العربى فى السيطرة على الملاحة فى المحيط الهندى بخاصة ، ووصلوا إلى الشرق الأقصى ، وازداد النشاط بعد أن كان فى الفترة السابقة ، لظهور الإسلام ، فى حالة أقرب إلى الكساد التام لأكثر من سبب .

ويهمنا بادىء ذى بدء ، الكشف عن أصل اللفظ « كارم » الذى ورد فى المراجع ، بإضافة الألف واللام (أداة التعريف) ، فكان يقال ، الكارم والكارمى والكارمية ، وهذا يؤكد أنه لفظ عام ، ويؤكد هذا ما ذكره القلقشندى ، كما سنبينه فيما بعد — إن هذا اللفظ قد وجد فى الدواوين ، على هذا النحو ، ولا معنى به فى العربية ، وبهذا أضعف الرواية التى ترجعه إلى « الكانم » ، على اعتبار القائمين لهذه التجارة كانوا من بلاد الكانم الإسلامية . وهذا بطبيعة الحال غير صحيح إطلاقاً .

وكان من الضرورى أيضاً ، أن نبحث عن أصول هذه الفئة التجارية . الأمر

الذى نجده وثيق الاتصال بمصدر اللفظ ، فالفئة قد وجدت ، فى صورة من الصور ، ثم تطورت ، مع الزمن ، مع التقدم الحضارى ، وصار هذا الإسم ، هو ما تعرف به ، وتوارثه من جاء بعدهم ، أو من تحولت إليه السيطرة التجارية ، فى أسواق الهند وغيرها . وجاء فى هامش الصفحة ٨٩٩ من كتاب السلوك للمقريزى ما يفيد أن الكارمية كانت معظمهم من أهل بلد الكانم الإسلامية(١) ، ويفترض ليتمان أن هذا اللفظ قد أخذ عن متاجرهم ، إذ وجد أن كلمة Wararima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى الحبهان وهو من التوابل التى اشتغلوا بها(٢) .

ويقول ابن ماجد فى كتابه ، أن طريق استجلاب الفلفل قديماً هو بلاد الكانم(٣) ويشير الإدريسى أن هؤلاء التجار كانوا ينقلون من حوض تشاد الشب إلى مصر(٤) .

ومما نوضح بعاليه نستطيع أن نصل إلى عدة نقاط من أهمها أن لفظ « كارم » هو اسم عام ، وأنه لم يكن إسماً عربياً ، ثانياً أن هؤلاء الكارمية قد جاءوا إلى مصر واتخذوا منها مركزاً لأعمالهم فى عام ١١٨١ م . أما ما جاء عن الصلات التجارية بين مصر والكانم فليس بالأمر ذى الأهمية فى الموقف الخاص بأصول اللفظ وتطوره ونحاول أن نستعين بأوراق الجنيزة ، ونجد فى هذه الأوراق ، أو بمعنى أدق فيما نشر منها حتى الآن أن التجارة « الكارمية » قد كانوا يمارسون تجارتهم فى المحيط الهندى وأنهم قد اتخذوا لهم مراكز رئيسية فى أمكنة تجارية هامة ، فمنها ما كان فى كوجزرات ومنها ما كان فى الخليج العربى مثل سيراف ، كما كانت لهم وكالات فى مختلف الموانى ، كما كانت جماعات منهم منتشرة فى مختلف المدن الكبيرة مثل بغداد والقاهرة ودمشق وغيرها .

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك القسم الأول نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٣٨ .

(٢) الدكتور صبحى لبيب فى مقاله « التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى » الذى نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الرابع — العدد الثانى لسنة ١٩٥٢ ص ٦ وما بعدها .

(٣) دكتور صبحى لبيب فى مقاله آنف الذكر .

(٤) الإدريسى : صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ٢٢ و ٣٩/٤٠ نقلا عن مقال الدكتور صبحى لبيب المشار إليه أعلاه .

وبعد أن تجمعت لدينا المعلومات الكثيرة عن النشاط الكارمى من القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده ، بما فى ذلك الافتراضات فى محاولة التعرف على أصولهم ننتقل إلى عرض لما كانت عليه الحالة التجارية فى بحر الهند (المحيط الهندى) منذ القدم ، فى صورة موجزة ، وقد يبدأ هـذا بما قامت به الملكة حتشبسوت التى حكمت مصر فى الألف الثالثة قبل الميلاد ، بمنع الوسطاء التجاريين فى الحصول على التوابل والمواد العطرية . وأرسلت السفن المصرية إلى بلاد بنت لشراء هذه الحاجيات ، وكانت لازمة بخاصة فى خدمة المعابد ، من أماكن عرضها ، وفى هذا دليل على قيام نشاط تجارى على مستوى مناسب — فى ذلك العهد السحيق .

وقد لا يعوزنا الموقف الحـالى إلى الخوض فى التطورات التجارية من الألف الثالثة قبل الميلاد التى أخذ بهـا كنقطة بعيدة فى القدم لبداية للنشاط التجارى بخاصة ما يتعلق معه بمصر .

ويتبين لنا بعد هذا العرض أن « الـكارمية » قد نشأت أولا فى المحيط الهندى أو على الشاطىء الغربى للهند ، وإذا اقتطعنا اللفظ قسمين لوجدناه يتكون من « كار » فى المقطع الاول ثم « يم » فى المقطع الثانى أى « كاريم » — وكار معناه الحرفة أو العمل أو التجارة أو الوظيفة إلخ إلخ ، ويم معناه « المحيط أو البحر البعيد الشواطىء أو النهر الـكبير ، وبهذا نخرج إلى النتيجة بتفسير هذا اللفظ إلى « كاريم » وسقط الياء وصار « كارم » أى « حرفة التجارة فى البحار » وهذا فيما نعتقد لفظ يرجع فى أصوله إلى لغة هندية على الجانب الغربى منها ونجد أيضاً أن لفظى كار ويم موجودان فى صورة أو أخرى فى المصرية القديمة وأن لفظ « كار » مازال متداولا حتى اليوم بمعنى الحرفة أو العمل « كارك أيه » .

* * *

وفى ختام هذه الـكلمة القصيرة عن الـكارمية فى العهد السابق لانتقالهم إلى مصر فى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى نجده لزاماً علينا التنويه والإشادة بالبحث القيم الذى كتبه الدكتور صبحى لبيب الذى جمع فيه الشاردة والواردة عن نشاطات

الـكارمية فى الفترة التى تعرض لهـا . ونعتقد أن مجال البحث ما زال واسعاً أمام الباحثين لتحقيق الجوانب المتعددة للموضوع بخاصة بعد ظهور دراسات من وثائق الجنيزة . والله المستعان

« مراجع البحث »

GOITEIN, S.D. : Studies in Islamic History and Institutions, Leiden, 1966.

WIET, GASTON : Les Marchands d'Epices sous les Sultans Mamlouks, Editions des "Cahiers d'Histoire Egyptienne", Le Caire, 1955.

دور العراق العثمانى

فى حرب القرم

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

تعتبر حرب القرم نقطة تحول رئيسية فى تاريخ أوربا الحديث وفى تاريخ الدولة العثمانية . ولقد تعرضت كثير من المؤلفات والأبحاث لتاريخ هذه الحرب ، والملاحظ أن الغالبية العظمى من هذه الأبحاث لم تعن بصدى هذه الحروب فى ولايات العراق العثمانى .

كانت الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية هجومية دفاعية ضد عدوان أوربا على الشرق الأدنى . واستطاعت خلال جهادها أن تقضى على الإمبراطورية البيزنطية ، وأن تقلم أظافر جمهورية البندقية ، وأن تمد سيطرتها على معظم البلقان والشام ومصر والعراق والخليج العربى[١] ، واليمن والحجاز وشمال أفريقية[٢] . ولكن الدولة العثمانية عجزت عن خض شوكة الأساطيل البرتغالية فى المياه العربية الجنوبية فآثرت الحكومة العثمانية أن تتقوقع على نفسها وراء سواحلها ، ولم تحاول القوى الداخلية أن تنطلق إلى مجالات التنافس الدولى على قدم المساواة مع الدول الأوربية القومية الناهضة[٣] . كما أن هذه الدول الأوربية لم تكن فى حاجة إلى أن تقتحم على الدولة العثمانية قوقعتها ، ولا شك أن نظم الحكم العثمانى مسئولة إلى حد كبير عن الجمود الذى أصاب الدولة ، حيث أن قوة الدولة كانت مستمدة — فى كثير من الأحيان — من قوة سلاطينها ورجالات الباب العالى ومن نزاهة كبار الموظفين وحكام الولايات (الولاة) . ولكن بعد السلطان مراد الرابع[٤] — آخر السلاطين العظام الفاتحين — تولى العرش عدد من السلاطين الضعاف الذين لم يحسنوا اختيار

(١) باستثناء الجزء الجنوبى الشرقى .

(٢) باستثناء مراكش .

(٣) باستثناء حركتى فخر الدين المعنى الثانى وعلى بك الكبير اللتين فشلتا فى إنشاء علاقات خارجية دائمة .

(٤) حكم من ١٦٢٣ — ١٦٤٠ .

موظفيهم أو حكام الولايات . ثم إن الدولة كانت مقسمة إلى ولايات يحكم كل منها « وال » كانت مدة حكمه قصيرة ، وكانوا لا يعنون إلا باستتباب الأمن وجمع الضرائب ، ولم يعنوا بالخدمات التعليمية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية. فتلك الخدمات كانت من جهة نظر الحكام العثمانيين من مسئوليات الشعب نفسه ، الأمر الذى حال دون وجود مثل هذه الخدمات بسبب انتشار الجهل بين أفراد الشعب ، ولعدم احتكاكه بشعوب خارجية يقتبس منها أشكالا حديثة من الخدمات الضرورية . هذا إلى أن الشعب كان يعيش على هيئة دوائر شبه مغلقة نتيجة لسطحية الحكم العثمانى من جهة ولأن الشعب كان مقسما إلى طوائف(١) ، وملل(٢) ، وأهل مدن(٣) ، وأهل أرياف(٤) ، وإلى عشائر(٥) وعصبيات محلية حاكمة معترفة بالتبعية للسلطان(٦). وهكذا كان التفكك هو الطابع الواضح للتشكيل الداخلى للدولة العثمانية حيث أن ذلك النظام كان يقوقع كل ولاية وكل ملة ، وكل عصبية وكل طائفة وكل عشيرة حول نفسها . ولم تلبث الولايات العثمانية أن أصبحت تحت حكم عصبيات محلية سواء بموافقة الباب العالى عن طيب خاطر أو رغم أنفه .

---

(١) كانت كل طائفة مسئولة عن تدبير أمورها بنفسها ، وكان شيخ الطائفة هو المسئول عن تحسين أحوال طائفته وحل مشاكلها الداخلية أو مشاكلها مع الحكومة .

(٢) كانت لكل ملة غير إسلامية قوانينها الخاصة بها . ولم تكن الدولة تتدخل فى القضايا المذهبية طالما لا يوجد تهديد مباشر للأمن . وكان للرئيس الدينى — كالبطريق مثلا — سلطات مالية وإدارية واسعة .

(٣) كان أهل المدن أقرب الناس إلى متناول أيدى الحكام . ومن ثم كانت أغلب المدن الكبرى خاضعة للحكم العثمانى فيما عدا تلك المدن التى ظهرت فيها أسرات حاكمة مثل مدن السليمانية وأربل والعمادية .

(٤) لم يكن الفلاحون طائفة متماسكة ، وإن كانوا يشكلون القاعدة الشعبية الكبرى فى المناطق الخصبة فى العراق ومصر والشام وشمال إفريقيا ، وكانوا يعانون من شدة استبداد الحكام بهم .

(٥) كانت العشائر العربية تملأ العراق والشام وشبه الجزيرة العربية وشمال إفريقيا وأطراف مصر ، وكانت كل عشيرة تحت إمرة شيخها ، وكانت هذه العشائر تكره الحكم العثمانى التركى وتقاومه كلما استطاعت ذلك . وأما العشائر الكردية فى شمال العراق فكانت تلعب على الحكام العثمانيين وعلى الفرس الطامعين فى الاستيلاء على العراق .

(٦) أبقى السلاطين العثمانيون الأمراء الأكراد ، وكذلك شيوخ العشائر وشريف مكة فى مشيخاتهم مكتفين بإعلان هؤلاء الزعماء الولاء للسلطان العثمانى .

ولقد ظهر المماليك فى العراق فى منتصف القرن الثامن عشر كعصبية احتكرت الحكم فى ولاية بغداد وتوابعها[1] وحاول المماليك أن يفرضوا حكمهم على العراق بأمره ، ولكن قاومتهم الإمارات والعشائر الكردية بقوة لا تقل عن مقاومة العشائر العربية لهم . وكان السلاطين العثمانيون ينظرون بقلق بالغ إلى تلك العصبيات ويودون لو استطاعوا أن يعيدوا حكمهم المباشر إلى ولاياتهم ، ولكن توالى الأزمات الداخلية والحروب الخاسرة ضد روسيا والنمسا شغلت الدولة العثمانية عن مهمة إعادة الحكم المباشر إلى جميع الولايات

وظل الأمر على هذا النحو حتى وقعت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأثبتت هذه الحملة عجز العصبية المحلية المملوكية الحاكمة فى مصر عن حماية البلاد ، كما أثبتت عجز الجيوش العثمانية عن طرد الفرنسيين من مصر إلا بمساعدة الإنجليز . وأصبح جلياً أن الدولة العثمانية أصبحت فى حاجة سريعة إلى تجديد جيشها إذا أرادت أن تدفع عن نفسها عدوان الغرب الذى تعددت لديه مشروعات تقسيم الدولة العثمانية بين دوله . ولقد أقدم السلطان سليم الثالث على محاولة جريئة لإعداد جيش على النظام الأوربى إلا أن الرجعية الانكشارية البكتاشية فى الآستانة وجهت ضربة سريعة وقاضية للسلطان ، أنهت حياته وأوقفت مشروعه ، ولكن إلى حين . فمع أن السلطان محمود الثانى تولى العرش فى أعقاب ذلك الانقلاب الرجعى (١٨٠٨) إلا أنه بمرور السنوات أدرك أن سلفه سليم الثالث كان على حق ، فدبر ضربة محكمة للانكشارية (١٨٢٦) قضت عليهم نهائياً ، وأطلقت يده فى إصلاح أمور الجيش ومختلف أجهزة الدولة . وكان من أعز أمانيه أن يعيد حكمه المباشر إلى كل الولايات الواقعة تحت حكم العصبيات ، ونجح فعلا فى أن يعيد حكمه المباشر إلى ولايات العراق والأناضول وطرابلس (ليبيا) . إلا أن اصطدام محمود الثانى بالثورة القومية اليونانية ، وبحركة التوسع المصرى أيام « محمد على » أدى إلى عرقلة تلك الجهود . ولقد أرغمت الدول الكبرى الأوربية محمد على على الانسحاب من المورة إلا أن « محمد على » انتزع

---

(١) كان العراق مقسما إلى ولايات أربع هى (بغداد ، الموصل ، شهر زور ، البصرة) ولم تلبث البصرة أن أصبحت متسلمية تابعة لبغداد ، بينما تلاشت ولاية شهر زور وأصبحت عدة إمارات كردية من أشهرها الإمارة البابانية فى السليمانية ، والبهدينانية فى العمادية ، والبوتانية فى جزيرة بن عمر ، والصورانية فى رواندوز ، وكانت هذه الإمارات تحت إشراف مماليك بغداد . أما الموصل فظلت ولاية قائمة بذاتها .

منه الشام ومع أن الحكم المصرى فى الشام كان حكماً تقدمياً — إذا قيس بالحكم العثمانى هناك — فإن الدول الكبرى الأوربية وعلى رأسها انجلترا ، عملت على سلب مصر مكاسبها وعلى منع قيام دولة عربية قوية فى المنطقة ، حيث أن مصر خلال الثلاثينات من القرن التاسع عشر أصبحت تسيطر سيطرة فعلية على خطوط المواصلات العالمية الحديثة السريعة بين أوربا والشرق الأقصى . ثم إن السلطان العثمانى عقد اتفاقية خنكارسكله سى (١٨٣٣) فى أعقاب هزائمه أمام الجيوش المصرية ، فاتحاً بذلك المضايق أمام الأسطول الروسى ، واعتبرت إنجلترا تلك الإتفاقية بمثابة حماية روسية على الدولة العثمانية .

لهذا وضع بالمرستون Palmerston — وزير خارجية انجلترا حينذاك — سياسته على أساس إعادة ولايات الشام وشبه الجزيرة العربية إلى السلطان العثمانى ، على أن تصبح انجلترا من وراء ذلك صاحبة اليد العليا فى خطوط المواصلات العالمية عبر العراق أو مصر . فأنزلت الحكومة الإنجليزية أربع بواخر مسلحة فى أنهار العراق بين ١٨٣٥ — ١٨٣٩ فجعلت العراق بذلك قاعدة دفاعية هجومية ضد الوجود المصرى فى الشام وتمنع أية محاولات لإيجاد تعاون بين شعبى العراق ومصر ضد الحكم العثمانى. كذلك عملت السلطات الإنجليزية على مساعدة العثمانيين فى القضاء على العصبيات المحلية المتطلعة إلى مصر أو المستفيدة من التوسع المصرى[١] .

وكما كانت الحملة الفرنسية على مصر من العوامل التى دفعت الدولة العثمانية إلى تنفيذ الإصلاحات العسكرية ، فإن انتصارات المصريين فى الشام كانت دافعاً مباشراً للعثمانيين لتطوير نظمهم ، فصدر خط كلخانه (١٨٣٩) الذى نص على المساواة بين الرعية أمام القانون بغض النظر عن الدين والمذهب ، وعلى أن يتحمل الجميع أعباء المواطنة العثمانية فيما يتعلق بموضوعى الضرائب والجندية . وإذا كانت الرجعية الانكشارية هى التى عصفت بمحاولة سليم الثالث الإصلاحية فإن السلبية البيروقراطية والجهل والضغوط الاستعمارية هى العوامل الرئيسية التى جمدت خط كلخانة وجعلته مجرد حبر على ورق . على أن هذا الخط يمكن أن يعتبر نقطة بداية لإصلاح جديد ، كما يعتبر بداية

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠-١٨٧٢ ، المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٨ الفصل الخامس ص ١٢٠ — ١٥١ .

لظهور مفاهيم جديدة عن الدولة العثمانية لدى بعض طوائف الدولة العثمانية ومللها. فقد اعتقد المسلمون أن ذلك الخط سيؤدى إلى تحول من جانب الدولة إلى المسيحية الأوربية. بينما اعتقدت الملل المسيحية فى الدولة أن ذلك الخط إيذان بانتصار قريب للمسيحية على الإسلام، وأن الوقت قد أزف لأن يضع مسيحيو الشرق أيديهم فى أيدى مسيحى أوربا لتحقيق ما فشلت فيه الحروب الصليبية، ولهذا رأى المسيحيون فى الدولة العثمانية فى ذلك الخط حقوقاً لهم، ولم يروا فيه واجبات عليهم نحو الدولة، فامتنعوا عن الدخول فى الجندية، ورحب المسلمون بذلك.

والملاحظ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر تزايد اهتمام الدوائر السياسية والكنسية الأوربية بمسيحى المشرق العثمانى، وأصبح هؤلاء المسيحيون يجدون فى قناصل انجلترا وفرنسا وفى المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والبروتستنت الإنجليز والأمريكيين قوة يعتمدون عليها فى التخلص من الواجبات المفروضة عليهم، وفى الحصول على حقوقهم، بل وفى الثورة على الدولة العثمانية وعلى الحكام المسلمين المحليين. وتطورات كهذه كفيلة بأن تثير فتناً هوجاء، وهذا ما حدث فى شمال العراق بين النساطرة[1] والأكراد (١٨٤٢) حيث وقعت مذبحة للنساطرة كان لها دوى كبير فى دوائر الدولة والدوائر العالمية.

ولم تكن الأزمات الطائفية بقاصرة على النزاع بين المسلمين والمسيحيين بل وقعت أزمات مشابهة بين الجالية الشيعية الكبيرة فى العتبات المقدسة وحكومة فارس من جهة والحكومة العثمانية من جهة أخرى[2]. وكانت فارس الجبلية الشيعية المذهب خلال القرون الماضية تتطلع إلى احتلال سهول العراق الخصبة التى تحتوى على قبرى

---

(١) النساطرة هم أتباع نسطوريوس أسقف القسطنطينية (٤٢٨ م) الذى دعا إلى المذهب الذى عرف باسمه والذى يجعل للمسيح طبيعتين إحداهما لاهوتية والثانية ناسوتية ولكن تحداه كيرلس بطريق الأسكندرية حتى نفاه ومات فى المنفى (٤٥٠). وخلال العصر العباسى كانت أكثرية نصارى العراق من النساطرة واستمروا متمسكين بمعتقداتهم دون أية اضطهادات مقصودة حتى القرن التاسع عشر. وقد درسنا الصراع الدموى بين النساطرة والأكراد فى ١٨٤٢ فى كتابنا « تاريخ العراق الحديث » الفصل السادس.

(٢) العراق قسمة تقريباً بين الشيعة والسنة وكربلاء والنجف مدينتان عربيتان تقطن فيهما جاليتان فارسيتان كبيرتان كانتا من القوة لدرجة الطمع فى السيطرة على المدينتين سيطرة كاملة.

الإمامين « على » و « الحسين » . ولا يكاد يمر قرن من الزمان حتى تنقض الجيوش الفارسية على العراق لتطردها الجيوش العثمانية ... وهكذا . وخلال الصراع بين محمد على (والى مصر) والسلطان محمود الثانى ، مد شاه فارس يده إلى « محمد على » لعله يتفاهم مع محمد على من أجل استحواذ فارس على العراق ، أو على الأقل ليضع يده على السليمانية والمحمرة . والعتبات المقدسة[1] . ولهذا عنيت الحكومة العثمانية قبيل وبعد انسحاب المصريين من الشام بتوطيد الحكم العثمانى فى العراق ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تزايد التوتر بين الدولتين العثمانية والفارسية ، وكاد الموقف أن ينفجر عندما حاصر نجيب باشا (والى بغداد ١٨٤٢ — ١٨٤٧) كربلاء وكانت قد استعصت على اسلافه . وحيث أن الجالية الفارسية بالمدينة تمسكت بالقوة بما كان لكربلاء من شبه استقلال ذاتى[2] ، فقد تحول هجوم القوات العثمانية على المدينة إلى مذبحة للشيعة هناك ، ولم تهدأ الأمور إلا بتدخل كل من روسيا وانجلترا حتى سويت الأزمة بالمفاوضات .

وفى جنوب العراق كانت هناك مشكلة معقدة حول المحمرة وعربستان (خوزستان) فقد سبق أن استولى « على رضا باشا » — والى بغداد — على المحمرة سنة ١٨٣٧[3] ولكنه تركها فى يد رؤساء عشيرة كعب العربية[4] ، وكان عملاء الفرس من هؤلاء الزعماء أكثر دهاء من عملاء العثمانيين الأمر الذى أدى إلى ضياع المحمرة وعربستان من الدولة العثمانية بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية (١٨٤٧) التى وقعت بوساطة من روسيا وانجلترا[5] .

---

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٠٤ .

(٢) وصفت كربلاء فى بعض الوثائق بأنها A self-governing semi alien Republic.
J. Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf Culcutta, 1915, Vol. I, Pt. I, pp. 1348-1349.

(٣) V. Fontanier : Voyage dans l'Inde, Paris, Tome I, pp. 360.5, 374.5, 602.4 ; R. Taylors, Memorandum (I.O.R., P.P.G., Vol. 35, pp. 799-818).

(٤) H. Layard : Early Adventures in Persia, London 1887, Yol. I, pvp. 455-459, Vol. II, pp. 216, 244, 271-272 ; Taylor's Despatch to the Secret Committee : July 8, 1842. (India Office Records, Political Agent at Bagdad, Vol. 13, pp. 77-79).

(٥) انظر نص الاتفاقية فى « الجمهورية العراقية (وزارة الخارجية) قضية الحدود العراقية الإيرانية — مطبعة الحكومة — بغداد ١٩٣٥ ص ٤ — ٨ .

وبينما حصلت فارس على عربستان بمقتضى تلك المعاهدة فقد تخلت عن جميع مطالبها فى السليمانية وكردستان. وكان ذلك تمهيداً للقضاء النهائى على العصبيات المحلية الحاكمة فى كردستان . ولقد كانت الإمارات الكردية فى شمال العراق مثار مشاكل معقدة متتالية بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، واستطاعت الحكومة العثمانية أن تقضى على الأسرات الحاكمة الكردية الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت الأسرة البهدينانية والأسرة البوتانية والأسرة الصورانية ولم يبق من العصبيات الكردية الحاكمة سوى الأسرة البابانية فى السليمانية . وكان أحمد بابان هو الأمير الحاكم أثناء المفاوضات التى سبقت عقد معاهدة أرضروم الثانية . وكان الرجل جريئاً طموحاً . ووجد فى القنصل الإنجليزى فى بغداد المستر هنرى رولنسون Henry Rawlinson قوة تشد أزره ضد العثمانيين . وكان رولنسون يحث حكومته والحكومة العثمانية على الإبقاء على أحمد بابان حاكماً على السليمانية ، إلا أن العثمانيين كانوا قد عقدوا العزم على تصفية الإمارات والعصبيات فى العراق ، وزحفت القوات العثمانية — بالتعاون مع عبد الله بابان أخى أحمد — صوب السليمانية وأرغمت أحمد على الفرار من عاصمته إلى إيران وتولى الحكم مكانه أخوه عبد الله(١) . وعلى عادة البابانيين عاد أحمد من الأراضى الفارسية على رأس جيش جديد لاستعادة حكمه ولكنه فشل فى هذه المحاولة رغم الدفاع الحار من جانب رولنسون عنه . وبعد ذلك بوقت قصير استدعى « عبدى باشا » — والى بغداد — من السليمانية حاكمها عبد الله بابان واحتفظ به فى بغداد ثم نفاه إلى الآستانه (١٨٥١) وانتهى بذلك حكم الأسرة البابانية(٢) .

تلك كانت الأوضاع العامة فى العراق قبيل حرب القرم ، ويمكن أن نوجزها فى النقاط الرئيسية التالية .

١ — كان العراق مقسما إلى ولايتين (بغداد والموصل) . كانت بغداد مسئولة عن أمور البصرة وكردستان .

٢ — أصبحت للعراق قيمة كبيرة فى مجال التنافس الدولى حول خطوط المواصلات العالمية بين الشرق والغرب بواسطة البواخر أو بواسطة السكك الحديدية.

---

(١) H. Rawlinson to S. Canning, August 6, 1842, June 24, July 8, 1846, Sept. 29, 1846, F.O. 195/237 ; Rawlinson to Addington, No. 4, June 26, 1846, F.D. 78/656.

(٢) Rawlinson to Aberdeen June 14, 1853, F.O. 195/957 ; Kemball to Canning No. 6, February 27, 1850, No. 21, July 3, 1850, F.O. 195/334.

٣ — انتهى عهد العصبيات المحلية الحاكمة ولكن ظلت العشائر العربية والكردية على ما هى عليه من التفاف شديد حول شيوخها ومن ثورات تكاد تكون موسمية على الحكومة .

وكانت عشائر الجاف الكردية السنية تثير مشاكل عديدة عبر الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية ، كما أن بعض العشائر العربية الشيعية كانت مستعدة للثورة بالتعاون مع الفرس . وكانت حكومة طهران وسلطانها فى المناطق المجاورة للعراق مستعدة لإمداد الثوار السنيين والشيعيين على السواء بالمساعدات المادية والعسكرية ضد الحكومة العثمانية ، خاصة وأن ذكريات أزمة كربلاء الدموية كانت لا تزال قريبة ، وأنه كانت هناك تطلعات قوية من جانب شيعة العتبات المقدسة نحو فارس . إلى جانب هذا كانت مشكلات الحدود لا تزال قائمة ، وكانت كل دولة تحاول أن تثبت بطريقة أو بأخرى أحقيتها فى الأقاليم المتنازع عليها (قطور ، زهاب ، المحمرة) . وكانت هناك لجنة مشتركة لتحديد الحدود تقوم بعملها فى وضع خريطة تفصيلية لتلك الحدود . وكانت هذه اللجنة مكونة من مندوبين عن الدولتين الفارسية والعثمانية وعن الدولتين الوسيطتين : روسيا وانجلترا . وخلال أزمات الحدود بين الدولتين اتضح أن روسيا كانت تشد أزر فارس ، بينما كانت انجلترا تشد أزر الدولة العثمانية[1] .

٤ — كانت ذكريات المذابح الطائفية بين الأكراد والنساطرة لا تزال تدوى فى الآذان وكان النساطرة على استعداد للتعاون مع الدول الأوروبية المعادية للدولة العثمانية ، خاصة وأن انجلترا وروسيا تدخلتا لصالح النساطرة خلال تلك المذابح[2] هذا إلى أنه كان من المعروف أن روسيا تحمى الأرثوذكس وفرنسا تحمى الكاثوليك وانجلترا تحمى البروتستنت فى الدولة العثمانية ، فدارت فى العراق منافسات شديدة بين المبشرين الفرنسيين الكاثوليك والمبشرين البروتستنت الأمريكيين ، وكان النشاط

(١) ع. نوار : تاريخ العراق الحديث : الفصل الثامن .

(٢) Ross : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902, pp. 38, 52-59, 66-69, 135, 147 ; J. Piolet : La France au dehors. Les Missions Catholiques Françaises au XIXe siècle. Publiées sous la direction du Père J.B. Piolet, 2 Tomes. Paris, Tome I, pp. 259-260 ; J. Samuel : Journal of a Missionary Tour through the Desert of Arabia to Bagdad. Edinborough 1844; A. Grant : The Nestorians, London 1841.

التبشيرى الفرنسى قوياً لدرجة أن الممثلين الإنجليز فى العراق تصوروا أن الفرنسيين بعد سنوات قليلة سيطروا سيطرة كاملة على مسيحي العراق ، فعمل المبشرون الإنجليز والأمريكيين على وقف النشاط التبشيرى الفرنسى الكاثوليكى بين النساطرة ، وسعوا إلى تحويل أكبر عدد منهم إلى البروتستنتية .

وبنشوب حرب القرم فى يونيو ١٨٥٣[١] كانت هناك احتمالات قوية لدى العثمانيين بشأن دخول فارس الحرب إلى جانب روسيا من أجل ابتلاع العراق ، كما كانت لدى الإنجليز احتمالات قوية أيضاً عن أن النشاط الروسى سيتزايد فى اتجاه العراق بسبب ظروف الحرب . وكان الإنجليز كذلك يخشون من أن يستخدم الروس حكومة فارس فى إثارة المشاكل فى وجه الحكومة العراقية ، خاصة وأن علاقات فارس الإنجليزية لم تكن أقل سوءاً من علاقات فارس بالدولة العثمانية حيث أن حكومة فارس كانت تعتقد أن الإنجليز هم المسئولون عن ضياع كردستان وأفغانستان منها . كما كانت حكومة فارس تنظر بعين القلق لذلك التفاهم القوى بينهم وبين السيد سعيد سلطان مسقط[٢] .

وكانت سنة ١٨٥٣ من أدق سنوات حرب القرم بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث وقفت الأخيرة وحدها أمام روسيا فلم تدخل فرنسا أو انجلترا الحرب ضد روسيا إلا فى مارس ١٨٥٤ . وكان من المعروف أن الجيوش العثمانية لا تقوى وحدها على الصمود أمام الجيوش الروسية ، ومن ثم أصبح من المحتمل أن تنهار الدولة العثمانية خاصة إذا ما طعنت فارس طعنتها فى العراق . وكان احتمال انهيار الدول العثمانية قوياً

---

(١) لن نخوض فى تفاصيل حرب القرم فهى أشهر من أن تعاد . ودراستنا هنا قاصرة على دور العراق فى هذه الحرب ويكفى أن نشير إلى أن الصراع الفرنسى الروسى السياسى المذهبي كان عاملا رئيسياً لتلك الحرب . على أن آمال روسيا فى المضايق بل فى الاستيلاء على الدولة بأسرها كانت الهدف الأسمى للروس . ونشبت الحرب فى يونيو ١٨٥٣ ودارت مفاوضات لعقد صلح دون جدوى . ولما دمر الأسطول الروسى القطع البحرية العثمانية الراسية فى سينوب دخلت فرنسا وانجلترا الحرب . وكانت الأخيرة قد عزمت على منع روسيا من أن تتوسع على حساب الدولة العثمانية .

(٢) كان السيد سعيد سلطان مسقط (١٨٠٦ - ١٨٥٦) أكبر حليف لبريطانيا فى الخليج العربى واشترك معها فى العمليات الانتقامية ضد المشيخات العربية المطلة على الخليج العربى فى ١٨٠٩ وفى ١٨١٩ .

جداً لدى هنرى رولنسون — القنصل الإنجليزى فى بغـــداد ، فطفق يدبر أمره على هذا الأساس واعتقد أن من واجبه أن يسهل أمر استيلاء انجلترا على العراق وكان يرى أن الإنجليز قد فاتتهم فرصة احتلال العراق خلال أزمة التوسع المصرى فى المشرق العربى (١٨٣٢ — ١٨٣٩) ، وأن الفرصة قد واتت الإنجليز مرة أخرى وعليهم أن ينتهزوها .

وكان رولنسون يرى أن المنطقة التى يجب أن تستعمرها بريطانيا هى ذلك المثلث الواقع بين الزاب الأدنى وعناه ومصب شط العرب . وأخذ رولنسون يحث حكومته على الإسراع بالعمل على احتلال العراق لقيمته الـكبرى على طريق الهند . ولأن أهل العراق أنفسهم — حسب اعتقاده هو — ينتظرون يوم الخلاص من الحكم التركى على يد الإنجليز(١) .

لـكن هذه المخططات التى وضعها رولنسون لم تكن تتمشى مع سياسة حكومة لندن التى أصرت على المحافظة على كيان الدولة العثمانية ومنع الأسطول الروسى من الخروج من البحر الأسود . فوجهت حكومة لندن أنظار قنصلها فى بغداد إلى ضرورة العمل على المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى دائرة اختصاصه ، وأهم ما يجب عليه أن يفعله فى هذا الصدد هو منع فارس من استغلال ظروف الحرب لاقتناص العراق(٢).

ومع أن المسئولين الإنجليز اتصلوا بالشاه ، وتأكدوا منه أنه لن يضرب السلطان فى ظهره وأنه لن يثير مطالبه فى قطور وكردستان وعربستان وكربلاء فى هذه الظروف إلا أن السلطات العثمانية كانت فاقدة الثقة تماماً بالحـكومة الفارسية وكان العثمانيون يعتقدون أن تلك الوعود ليست سوى تمويهات تخفى مخططات تهدف إلى اغتصاب العراق بالقوة(٣) .

واللاحظ أنه فى أعقاب نشوب الحرب بين السلطان والقيصر ، وقعت سلسلة

---

(١) H. Rawlinson to Addington, June 14, 1853, F.O. 195/957.

(٢) Clarendon to Rawlinson : November 3, 1853, F.O. 78/957.

(٣) Thompson to Clarendon : November 20, 1853 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239) ; Rawbinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.

من حوادث الحدود فسرتها السلطات العثمانية على أنها مقدمات غزو فارسى للعراق . فقد هاجمت عشائر من بنى لام[١] الشيعية العربية القوات العثمانية ثم فرت إلى الأراضى الفارسية دون أن تلحق بها قوات الحكومة العثمانية[٢] . كذلك أثارت بعض عشائر الجاف الكردية السنية الفوضى على الحدود العثمانية — الفارسية . وكانت لدى الممثلين الإنجليز فى طهران معلومات تؤكد أن بعض الممالئين للروس فى البلاط الفارسى على اتصال بعشائر الحدود بقصد إثارتها ضد الدولة العثمانية لشغل بعض قواتها تخفيفاً عن جبهات القتال الرئيسية التى تعمل فيها الجيوش الروسية خاصة فى البلقان والأناضول[٣] .

وكان رشيد باشا الكوزلكلى قد تولى باشوية بغداد فى ١٨٥٢[٤] . وكان شديد الاعتقاد بأن الفرس سيشنون هجوماً على العراق إن آجلا أو عاجلا . وتبعاً لذلك اتخذ عدة تدابير لمواجهة الغزو الفارسى المنتظر . وكان على رشيد الكوزلكلى أن يعتمد على موارد العراق المالية والبشرية دون انتظار مساعدات من الباب العالى الذى لم يكن لديه أى احتياطى من المال أو القوات لإرسالها إلى العراق . وكانت المشكلة المالية من أهم المشكلات التى واجهت تمويل مشروعات رشيد الكوزلكلى الدفاعية فقد كانت خزانة بغداد خاوية ، فلجأ إلى فرض ضريبة جديدة دون استئذان من الباب العالى لمواجهة نفقات الاستعدادات العسكرية . وكان رشيد يريد أن يجعل من العراق نموذجاً لبقية ولايات الدولة العثمانية من حيث إنكار الذات وبذل الأموال فى مثل هذه الظروف الحرجة . ولكنه عندما شرع فى جمع هذه الضريبة وجد أنها لا يمكن أن تجمع إلا من أولئك الذين يقمون مباشرة تحت سيطرة الحكومة ، مثل الموظفين ، وأصحاب المنازل والتجار والأعيان والعلماء[٥] ، أما العشائر العربية

---

(١) من كبريات عشائر العراق . انظر عنها فى عباس العزاوى : عشائر العراق جزء ٣ ص ٢١٠ وما بعدها .

(٢) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/362.

(٣) Thompson to Clarenden : July 22, 1854, August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 108, pp. 594-602).

(٤) ظل والياً على بغداد حتى توفى بها سنة ١٨٥٦ .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : July 25, 27, 1853, F.O. 195/367.

والكردية التى تؤلف أغلبية سكان العراق — فلم تسهم فى تقديم المعونات المالية ، أولا لنقص السيولة النقدية لديهم بشكل كبير جداً ، ولأنهم لم يتعودوا دفع الضرائب للحكومة إلا بتهديد السلاح . وفكر رشيد الكوزلكلى كذلك فى الأضرار اقتصادياً بفارس بسلبها بعض دخلها الوفير من ميناء المحمرة ، وذلك بأن يجعل ميناء البصرة ميناءاً مفتوحاً فتتحول إليه السفن ولا تذهب إلى المحمرة فيعود إلى البصرة ازدهارها[١] ، كما فكر فى إقامة تحصينات فى زهاب . وكانت منطقة زهاب مقسمة بين الدولتين الفارسية والعثمانية بمقتضى معاهدة أضروم الثانية . ومع هذا ظلت منطقة من مناطق النزاع . وبإقامة تحصينات عثمانية فى المنطقة يمكن إغلاق أخطر طريق يسلكه الفرس عند غزو العراق . إلا أن الإنجليز لم يوافقوا العثمانيين على هذه المشروعات لا لأن الفرس يعارضونها بشدة فحسب بل لأنها أيضاً ستؤدى إلى أن يتخذ الفرس إجراءات مضادة عنيفة وقد يثيروا مشكلات الحدود بشكل يضر بالدولة العثمانية فى هذا الوقت العصيب[٢] .

كذلك اتجه رشيد الكوزلكلى إلى وضع نقط مراقبة على الحدود ، وحتى لا يثير أزمات حادة مع السلطات الفارسية ادعى أنه ينشىء محاجر صحية لمنع تسرب الكوليرا إلى العراق ، وكان المفروض هو أن تنتشر هذه المحاجر على طول الحدود الفارسية العراقية لتكون بمثابة مراكز مراقبة إلى جانب أنها يمكن أن تستخدم فى منع المتسللين من اجتياز الحدود من إيران إلى العراق . ولكن السلطات الفارسية احتجت على تلك الإجراءات ، واعتبرتها أقرب إلى الأعمال السياسية منها إلى أعمال الصحة الوقائية الدولية[٣] . ويبدو أن رشيد باشا لم يتابع تنفيذ خطته هذه حيث أن حاكم ششتر حشد حينذاك عشرين ألف مقاتل[٤] . ومن ثم أصبحت المواجهة العسكرية هى الأمر الملح فى مثل هذه التطورات .

---

(١) Rawlinson to Sheil : January 29, 1853, F.O. 78/957.

(٢) Ibid.
Turco-Persian Boundary Negotiations, Part I, (1843-1844), pp. 115-119, Part III (1845-1852), pp. 107/115, ـ .ن. 424/7B, F.O. 424/7D.

وانظر عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : بغداد ج ٧ ص ٧٩ و ١٨١ .

(٣) Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367.

(٤) Rawlinson to Redcliffe : No. 37, December 28, 1853, F.O. 195/367.

لم يكن تحت يد رشيد الكوزلكلى سوى ١٦ ألف مقاتل ، وهو جيش لا يستطيع وحده أن يصد الجيوش الفارسية . ولكن لم يكن فى استطاعته أن يطلب المساعدة العسكرية من الولايات الأخرى . فمصر — التى استنجد بها السلطان محمود الثانى من قبل لإنقاذ العراق من الغزو الفارسى[١] سنة ١٨٢١ — ١٨٢٣ كانت قد أرسلت جزءاً من قواتها إلى جبهة البلقان[٢] ، وتحولت القوات العثمانية المرابطة فى شمال العراق والشام والأناضول إلى أرضروم للاحتشاد هناك لصد أى هجوم من تلك النواحى[٣] . بل لقد طلب السلطان العثمانى من والى الموصل — فى وقت متأخر من الحرب — أن يقدم خمسمائة خيال لإرسالهم إلى جبهة القرم[٤] وآثرت القيادات العثمانية ألا تسحب أية قوات من تلك التى تحت قيادة رشيد الكوزلكلى حتى تمكنه من مواجهة أى هجوم مفاجىء فارسى[٥].

كان رشيد الكوزلكلى فى نفس الوقت لا يستطيع أن يلقى بكل ما لديه من قوات فى الموقعة المنتظرة ، ولا يستطيع أن يوزع قواته كلها على المواقع الاستراتيجية التى يجب أن تعسكر فيها ، وذلك لأن العشائر الكردية والعربية ما كانت لتتورع عن الثورة فى مثل تلك الظروف الحرجة . ولذلك لم يكن فى وسع رشيد الكوزلكلى سوى أن يستخدم عشرة آلاف جندى فقط من قواته لمواجهة الغزو الفارسى وأما الستة آلاف الباقية فيجب أن تبقى للمحافظة على هدوء العشائر . إلا أن رشيد الكوزلكلى عمل على تنفيذ خطة طيبة اعتقد أنها تمكنه من الاستفادة من الستة آلاف جندى — سالفى الذكر — فى مواجهة الغزو الفارسى فقد أعلن أن الحكومة تريد أن تفتح صفحة جديدة مع العشائر وعفا الله عما سلف ، وطلب من العشائر أن تقدم رجالها للدفاع عن البلاد وأن تقف كلها وقفة بطولية إلى جانب جيش الحكومة دفاعاً عن دولة الخلافة . وكان الكوزلكلى يعتقد أنه بذلك يستطيع

---

(١) ع. نوار : داود باشا : المكتبة العربية القاهرة ١٩٦٨ ص ١٧٦ — ١٧٩ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٨ ج ١ ص ١٨ — ١٩ و ٣٥ — ٣٧ .

(٣) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367.

(٤) Rassam to Cadrington (C. in C. of British Forces in the East, April 7, 1856), No. I, F.O. 195/394.

(٥) Rawlinson to Redcliffe : June 29, 1853, F.O. 195/367. Rawlinson to Malmesbury : F.O. 78/957, 1853.

أن يكسب هدوء العشائر وبالتالى يستطيع أن يستخدم كل ما كان تحت يده من قوات فى جبهات القتال المتوقعة ، كما أن هدوء الجبهة الداخلية العراقية — وهو أمر قليل الحدوث — سيجعل من العسير على الفرس التدخل فى أمور العراق الداخلية ، ناهيك عن غزوه(١) . ويبدو أنه لقى نجاحاً فى هذه الخطة ، حيث أننا لم نسمع عن تمردات عشائرية خلال فترة الحرب (١٨٥٣ — ١٨٥٦)(٢) . بل إنه استطاع أن يدعو عشائر ستمر الجربا(٣) وعشائر عنزه(٤) إلى الإنضمام إلى الجيش ، كما طلبت من عشائر المنتفق(٥) أن تكون على أهبة الاستعداد لخوض المعركة المقبلة .

كذلك استعان رشيد الكوزلكلى بالأسرات الكردية الحاكمة سابقاً ، لجمع قوات إضافية . فقد طلب من رسول بك (آخر أمراء راوندوز) أن يتوجه إلى كركوك بما يستطيع جمعه من القوات الكردية ، كما استدعى من الأستانه عبد الله بابان — آخر حكام السليمانية — وطلب منه أن يجمع أكبر عدد ممكن من القوات الكردية للدفاع عن الحدود الكردستانية(٦) .

وخلال هذه الحرب اكتشف الكوزلكلى قيمة استخدام البواخر فى النقل سواء من الناحية التجارية أو من الناحية العسكرية ، ولهذا . عمل على تكوين شركة نصف رأسمالها حكومى والنصف الثانى أهلى لشراء باخرتين لتعملا فى أنهار العراق . ونجح المشروع ، وتكونت الشركة ، وكلف الكوزلكلى أحد المصانع

---

(١) Ibid.

(٢) ع. العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٧ ص ١٠٥ — ١١٦ .

(٣) من كبريات عشائر العراق البدوية العربية ولها تاريخ مجيد فى الدفاع عن العراق ضد الفرس .

(٤) أكبر مجموعة عشائرية عربية تنزل فى الصحراء بين العراق والشام .

(٥) Rawlinson to Redcliffe : No. 36, December 13, 1853, F.O. 195/367.

وعشائر المنتفق فى جنوب العراق من أقوى عشائر العراق ولها تاريخ مجيد فى الدفاع عن البصرة ضد الغزوات الفارسية .

(٦) Rawlinson to Redcliffe : No. 34, 35, November 16, 30, 1853, Ibid.

البلجيكية[1] لبناء الباخرتين لحساب الشركة . وهكذا نستطيع أن نقول إن حرب القرم هى أول حرب أوربية استخدمت فيها البواخر[2] وأنها أيضاً أول حرب أدت إلى استخدام البواخر الوطنية فى المياه العراقية .

بعد تلك الاستعدادات حشد رشيد باشا قواته على طول الحدود العراقية الفارسية فاستفسرت السلطات الفارسية من المسئولين العثمانيين عن سبب ذلك فامتنع العثمانيون عن إعطاء أى تفسير ، فرد الفرس على ذلك بحشد قواتهم فى مواجهة الحشود العثمانية وحاول السفير العثمانى لدى الشاه أن يقنعه بالعدول عن تلك الاستعدادات حتى لقد بلغ به الأمر أن هدد بمغادرة طهران أن لم توقف تلك الإستعدادات . ولكن دون جدوى[3] . فأخذت العلاقات تتوتر بسرعة كبيرة بين الدولتين خاصة وأن القنصل الفارسى فى العراق كان فى الوقت نفسه يهدد هو الآخر بالانسحاب من العراق بسبب المعاملة السيئة التى كان يعانى منها الفرس فى العتبات المقدسة حينذاك[4] . ومما زاد فى حدة التوتر أن الفرس عينوا خبيراً روسياً فى الجيش الفارسى المرابط فى (بوشهر) وإقليم فارس وهو أمر اعتبره العثمانيون تهديداً مباشراً للعراق حيث أن العثمانيين كانوا فى حرب فعلية ضد الروس[5] .

ثم إن الفرس بعثوا بقواتهم إلى جزيرة (خرج) فرد العثمانيون على ذلك بأن طلبوا من شيخ الكويت الاستعداد لقتال الفرس وأن يضع سفنه فى شط العرب لمنعهم

---

(١) يلاحظ أن رشيد الكوزلكلى لم يطلب بناء الباخرتين فى المصانع البريطانية ولعله فعل ذلك عن عمد ، بقصد الابتعاد بقدر الإمكان عن مصادر النفوذ الانجليزى فى العراق . انظر عباس العزاوى : تاريخ العراق ج ٧ ص ١١٠ — ١١٤ .

T. Cuinet : La Turquie d'Asie, Paris, Tome III, p. 249.

(٢) ا. جرانت وهـ. تمبرلى : تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمى ومراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب ص ٤١٧ .

(٣) Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-9.

(٤) Rawlinson to Redcliffe : November 16, 1853, No. 34 November 30, 1853, F.O. 195/367.

(٥) Thompson to Clarendon : November 20, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 106, pp. 237-239.

من عبوره[١] . ومع أن المحمرة كانت قد أصبحت تابعة لفارس بمقتضى معاهدة أرضروم الثانية ، إلا أن رشيد وجد أن الخطر الذى يهدد شط العرب من جانبها كبير ، وأنه من حسن السياسة أن يقوم بمحاولة لكسب صداقة وتعاون شيخ المحمرة معه . والمعروف أن تاريخ المحمرة عبارة عن سلسلة من التردد بين الولاء للسلطان والولاء للشاه . وفعلا عرض الكوزلكلى على الشيخ جابر — شيخ المحمرة — أن يتعاون مع حكومة بغداد[٢] . ولكن يبدو أن شيوخ عربستان والمحمرة فضلوا الوقوف على الحياد خلال هذه الفترة .

والواقع أن الجبهة الجنوبية للعراق كانت أكثر الجبهات عرضة للغزو الفارسى ، وهو أمر كان يراه الإنجليز على جانب خطير من الأهمية بالنسبة لمصالحهم وأطماعهم فى المنطقة ، حيث أن سيطرة الفرس على شط العرب والبصرة تعنى أن منفذ العراق أصبح فى قبضتهم ، وأن السفن الإنجليزية العاملة بين بغداد والبصرة والخليج العربى والهند أصبحت تحت رحمة فارس . فضلا عن استيلاء الفرس على البصرة أو شط العرب يضع الطريق العالمى عبر العراق إلى الهند فى يد فارس المعادية للانجليز حينذاك ولهذا لم يكتف الإنجليز بالاستعدادات التى اتخذها الكوزلكلى للدفاع عن البصرة وعن شط العرب ، وإنما أرسلوا إلى شط العرب إحدى قطعهم الحربية البحرية وهى الباخرة أوكلاند Aukland لتسيطر على الوضع الراهن فى المنطقة الحساسة حتى لا تجد فارس أية ذريعة لإقحام حرب على الدولة العثمانية[٣] . وأغلب الظن أن الإتفاق — الذى توصلت إليه الحكومتان الفارسية والعثمانية بشأن قيام كل منهما بضرب العشائر الجافية المتمردة على الحدود كلما استطاعت أية قوات فارسية أو عثمانية اللحاق بها[٤] — كان بوساطة الإنجليز الذين كان من مصلحتهم استتباب الهدوء على طول الحدود بين الدولتين .

---

(١) Kemball to Thompson : December 15, 1853, (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 107, pp. 83-90).

(٢) Rawlinson to British Embassy : January 25, 1854, No. 2 (Saldanha : Precis of Turkish-Arabia, Culcutta 19-4, Paragraph No. 7).

(٣) Ibid.

(٤) Thompson to Clarendon : August 21, 1854 (I.O.R., F.R., P.P.G., Vol. 108, p. 703).

وانقضت بتلك الاستعدادات الأشهر الأولى من الحرب التى وقفت خلالها الدولة العثمانية بمفردها أمام روسيا . ثم حدث أن حطم الأسطول الروسى السفن العثمانية الراسية فى ميناء سينوب فى وقت كانت فيه مفاوضات الصلح قد أحرزت تقدماً كبيراً ، ولكن تلك الحادثة أدت إلى أن تعلن كل من فرنسا وانجلترا الحرب على روسيا .

ويبدو أن روسيا لم تعن كثيراً بنواحى العراق فى المراحل الأولى من الحرب اعتماداً على المفاوضات الجارية لعقد الصلح ، وعلى مقدرة الفرس على إثارة المشاكل فى وجه العثمانيين فى العراق . فلما أعلنت فرنسا وانجلترا الحرب وتقطعت كل الآمال بشأن الصلح التفتت روسيا إلى الاستفادة من القوى الكارهة للحكم العثمانى فى العراق وكانت بعض هذه القوى مستعدة فعلا لأن تمد يدها إلى الروس ومن ذلك أن شيخ عشيرة (بانيانزلى) الكردى ثار على الحكومة العثمانية وانضم إلى الروس[١] . وأجرى الروس من جانبهم اتصالات بعشائر كردية أخرى وكذلك بالنساطرة الكارهين للحكم العثمانى[٢] . ولكن هذه الاتصالات جاءت فى وقت متأخر جداً من الحرب ولعل هذا التأخير كان لأن الروس فقدوا الثقة فى أن يقوم الفرس بعمل إيجابى ضد العراق . ومع أنه كان من المنتظر أن يؤدى سقوط سباستبول (١٩٥٥/٩/٨) فى يد الحلفاء إلى التخفيف من النشاط الروسى نحو العراق ، إلا أن سقوط قارص فى يد الروس بعد ذلك بوقت قصير أعطى للروس إمكانات وفرصاً أوسع لزيادة نشاطهم فى أنحاء العراق . وفعلا خشى الانجليز من تزايد هذا النشاط الروسى بين عرب وأكراد العراق بعد سقوط قارص ، وكان رشيد الكوزلكلى أشد تخوفاً من الإنجليز فى هذا الصدد حتى أنه طلب من الإنجليز أن يبعثوا إلى العراق — بأقصى سرعة ممكنة — بقوات هندية للمشاركة فى الدفاع عن البلاد[٣] .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تأتى فيها قوات هندية إلى العراق خلال حرب القرم . فقد عبر ثلاثون ألف مقاتل من الهند العراق سنة ١٨٥٥ وهم فى طريقهم

---

(١) Rassam to Recdliffe : No. 10, April 26, 1856, F.O. 195/394.

(٢) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1856, No. 5, February 4, 1856, F.O. 78/1212.

(٣) Ibid.

إلى جبهة القتال الروسية العثمانية فى قارس[1] ولكن القوات التى طلبها رشيد الكوزلكلى لم تعد هناك حاجة إليها لأن الحرب توقفت بعد ذلك بوقت قصير تمهيداً لعقد الصلح وبالتالى توقفت كل الاستعدادات العسكرية على طول الحدود الشرقية العراقية .

مما سبق يتضح لنا أن الاستعدادات العثمانية الفارسية على جانبى الحدود العراقية كانت كبيرة ولكن دون أن تقع اشتباكات بين الطرفين . وظل الهدوء مخيما على المعسكرات حتى وقع صلح باريس ١٨٥٦ م . ولم يتعرض هذا الصلح للعراق حيث لم تجر فيه أية تغيرات . ولكن أثر ذلك الصلح تأثيراً غير مباشر على فارس ، حيث تمكنت إنجلترا — بعد أن فرغت من حرب القرم — من أن توجه ضربة إلى فارس ، فأرسلت حملة بحرية صعدت فى نهر كارون واستولت على المحمرة (١٨٥٧) ، واشتركت فى هذه العمليات الباخرة الإنجليزية المسلحة كوميت Comet الراسية أمام القنصلية الإنجليزية فى بغداد . وتغاضى العثمانيون عن ذلك حيث أن التحالف الإنجليزى العثمانى كان فى ذروة قوته[2].

وبعد حرب القرم ازدادت أهمية العراق ازدياداً كبيراً جداً نظراً لأن الفرنسيين كانوا فعلا قد أخذوا من سعيد باشا — حاكم مصر — امتياز حفر قناة السويس (١٨٥٤ — ١٨٥٦) . وأصبح طريق العراق — فى نظر الإنجليز — هو الطريق البديل إذا ما سيطر الفرنسيون على قناة السويس . كذلك رأى عدد من الإنجليز المعنيين بالمواصلات الإنجليزية مع الشرق الأقصى أنه قد أصبح من الضرورى على انجلترا تنفيذ المشروع الذى يربط البحر المتوسط بالخليج العربى بخط حديدى يتولى أمره الإنجليز . وتزعم هذه الفكرة و . أندرو Andrew[3] ، ف . جسنى

(١) Kemball to Clarendon : No. 4, January 7, 1857, F.O. 78/1212.

(٢) Lorimer : Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. I, Part I, p. 1386 ; Tart II, p. 1698.

وانظر P. Sykes : A History of Persia, London 1951, Vol. II, pp. 349-351.

(٣) اشتهر بمشروعات من خطوط حديدية فى الهند وبدعاياته واسعة النطاق من أجل مد خط حديد الفرات .

Chesney (١) . ولكن بالمرستون أعلن فى البرلمان البريطانى(٢) أنه لن يوافق على إعطاء أى تأييد حكومى لمثل تلك المشروعات ، وفى نفس الوقت سار بالمرستون فى معارضته لمشروع شق قناة السويس(٣) على أن الحكومة الإنجليزية فى الوقت نفسه قررت أن تكون لها السيطرة الاحتكارية على أنهار العراق من النواحى التجارية والنواحى العسكرية على السواء ولم يتورع الإنجليز فى ذلك عن أن يقتلوا أو على الأقل أن يسهموا فى الإجهاز على مشروع رشيد باشا الكوزلكلى الذى سبق أن أشرنا إليه . فالملاحظ أن الباخرتين اللتين طلب رشيد باشا شراءهما لاستخدامهما فى المياه العراقية لربط بغداد بالبصرة بخطوط بواخر منتظمة ، بدأتا فى العمل فى العراق فى أبريل ١٨٥٩(٤) ولم تمر سنة واحدة حتى تعطلت الباخرتان وأسرعت البيوتات الإنجليزية فى العراق إلى تأليف شركة عرفت باسم شركة لينش للملاحة البخارية فى نهرى دجلة والفرات فى ١٨٦٠ .

Messrs. Lynch of the Euphrates and Tigris Steam Navigation Company.

وكان بيت لينش هو ممثل هذه الشركة فى العراق ثم استصدرت السفارة البريطانية فى الاستانة فرماناً من الباب العالى يعطيهم حق استخدام باخرة فى نهر دجلة وفعلا نزلت الباخرة سيتى أوف لندن إلى المياه العراقية فى ١٨٦٢ . وتوالى نزول البواخر التجارية البريطانية فى العراق حتى تفوقت البواخر البريطانية على العثمانية فى الوقت الذى كانت توجد فى المياه العراقية منذ ١٨٣٩ باخرة مسلحة بريطانية(٥)

---

(١) هو نفسه قائد بعثة الفرات التى وضعت أساس السيطرة البريطانية على أنها العراق (١٨٣٧ — ١٨٤٤) . وقد أورد هوسكنز تفاصيل وافية عن نشاط كل من أندرو وحسنى فى هذا الصدد .

انظر British Routes to India : London 1928, Chapters : VII, VIII, XIII.

(٢) Ibid., p. 24-26.

(٣) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٥٧ — ٦١ .

(٤) R. Brant's Memorandum Respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913. Confidential (10207), pp. 23-26.
Cuinet : op. cit., Tome III, p. 249.

(٥) Ibid., p. 341.

ولم يكن للعثمانيين أى باخرة مسلحة على نفس المستوى أى أن السيطرة العسكرية كانت لهم هناك وبفضل البواخر البخارية الجديدة حصلوا على السيطرة الاقتصادية كذلك . الأمر الذى سيؤدى إلى نزاع متطاول بين الإنجليز والعثمانيين لم يحسمه سوى الاحتلال البريطانى للعراق خلال الحرب العالمية الأولى .

المراجع العربية

— جرانت وتمبرلى : تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء وفهمى ، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب .

— الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج ١ ، الطبعة الثانية — القاهرة ١٩٤٨ .

— صفوت (محمد مصطفى) : محاضرات فى المسألة الشرقية ومؤتمر باريس بمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية — القاهرة ١٩٥٨ .

— العزاوى (عباس) : تاريخ العراق بين احتلالين ، بغداد ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ ج ٦ ، ج ٧ .

— نوار (عبد العزيز) :

* تاريخ العراق الحديث ١٨٣٠ — ١٧٨٢ ، المكتبة العربية — دار الكاتب العربى القاهرة تحت الطبع .

* داود باشا والى بغداد ١٨١٦ — ١٨٣١ ، المكتبة العربية — دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٨ .

صحف

— تقديم وقائع ، العدد ٥٤٧ لسنة ١٢٧٣ هـ / ١٨٥١ م .

Abreviations

I.O.R., F.R., P.P.G. : India Office Records, Factory Records, Persia and Persian Gulf.

الوثائق غير المنشورة

BRANT, R. : Memorandum respecting the Navigation of the Tigris and Euphrates, April 1913, F.O. Confidential 10207.

مصورة على ميكروفيلم

F.O. 78/656, 957, 1212.

F.O. 195/237, 334, 367, 394, 957.

F.O. 424/7 B, D.

مصورة على ميكروفيلم

India Office Records

- Factory Records, Persia and Persian Gulf, Vols. 53, I06-108.
- Political and Secret Department, vol. 13.

LORIMER, J.H. : Gazetteer of the Persian Gulf, voll I, part 1, Culcutta, 1915.

SALDANHA : Precis of Turkish Arabia, Culcutta, 1904.

مصورة على ميكروفيلم

TAYLOR : Memorandum on the Actual Position of the Pachalic of Bagdad (I.O.R., F.R., P.P.G., vol. 53, pp, 799-818.

المراجع الأوربية

CUINET, T. : La Turquie d'Asie, Paris, tome III.

FONTANIER, V. : Voyage dans l'Inde, Paris 1840 (2 tomes).

GRANT, A. : The Nestorians or the Lost Tribes. Containing Evidence of their Identity, London 1841.

HOSKINS, J. : British Routes to India, London 1928.

HUART, C. : Histoire des Arabes, Paris 1912, tome II.

HUREWITZ, J. : Diplomacy in the Near and Middle East, vol. I, London 1958.

LAYARD, H. : Early Adventures in Persia, London 1887.

PLATONOV, S.F. : History of Russia, London 1925.

ROSS, H.J. : Letters from the East (Edited by his Wife), London 1902.

SAMUEL, J. : Journal of A Missionary Tour through the Desert of Arabia, Edinborough 1844.

SYKES, P. : A History of Persia, London 1951 (2 vols.).

WHIGHAM, N. : The Persian Problem, London 1903.

أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابة ١٩٠٦

دكتور يونان لبيب رزق

من أشهر الأزمات السياسية التى قامت حول خليج العقبة فى القرن العشرين تلك الأزمة التى عرفت فى الوثائق البريطانية « بأزمة العقبة » والتى أطلقت عليها الصحافة المصرية وقتها « حادثة طابة » ، هذه الأزمة التى احتدمت فى الفترة بين يناير ومايو عام ١٩٠٦ ، والتى نتج عنها أخيراً اعتراف الدولة العثمانية بخط الحدود المصرية من رفح إلى رأس خليج العقبة ، وبالتالى بالاعتراف بمصرية الساحل الغربى لهذا الخليج من النقطة الواقعة غرب العقبة بثلاثة أميال إلى مدخله فى الجنوب .

وتفجر الأزمة نتج عن رغبة « الدولة العلية » فى الاستيلاء على خليج العقبة وتمسكها أولا بأن الحدود المصرية تمتد من العريش إلى السويس ، ولما تراجعت خطوة تنازلت عن السويس لتمد خط هذا الحدود بين رفح ورأس محمد . . المهم ظلت تركيا تبعد الخليج عن الأراضى المصرية ، وكان هدفها من وراء ذلك :

١ — تأمين فرع سكة حديد الحجاز المزمع مده — وقتذاك — من معان إلى العقبة بزحزحة الحدود المصرية غرباً مما يضيع على القوات المصرية أو قوات الاحتلال البريطانى اتخاذ سيناء كقاعدة لتهديد هذا الخط .

٢ — تحويل خليج العقبة — كما كتب كرومر — إلى بحر مغلق Mare Clausum فى أيدى الأتراك(١) بإبعاد مصر عن مداخله وساحله الغربى لأنه كان هناك أيضاً احتمالات العدوان البحرى البريطانى على العقبة ، وقد كتب كرومر فى هذا المعنى حين ذكر « أن الخط الحديدى سوف يكون تحت رحمتنا عندما يصل إلى البحر عند العقبة »(٢) .

وفى سبيل تحقيق هذه الرغبة العثمانية وفرض « الأمر الواقع » قامت القوات التركية بعملية « قفز » إلى بعض المراكز التى ظلت تعتبر فى الأراضى المصرية وهى طابة ونقب العقبة والقطار .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 22, Lord Cromer to Sir Edward Grey, April 6, 1906, Tel. No. 89.

(٢) Corres, Cart LXIV, No. 58, Lord Cromer to Sir Edward Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 32.

ولكن لا الحكومة المصرية ولا سلطات الاحتلال البريطانى كانت مستعدة لقبول هذا « الأمر الواقع » وكان دافعهما إلى ذلك :

١ — أن قبول الادعاءات التركية سيؤدى إلى أن يصبح للقوات العثمانية مراكز اقتراب خطيرة يمكن أن تهدد منها « قناة السويس » .

٢ — كما أن معنى قبوله أيضاً التنازل عن حقوق مصرية تاريخية ومقررة على الساحل الغربى لخليج العقبة .

ومن تشبث كل طرف بموقفه نشبت تلك الأزمة العنيفة والتى وصلت إلى حد توجيه إنذار بريطانى للحكومة العثمانية فى ٣ مايو ١٩٠٦ .

ولنمسك الخيط من أوله .

* * *

بداية الأزمة وأصولها :

ضمن الأراضى التى أسندت إدارتها إلى « ولاية مصر بحدودها القديمة » ، كما جاء فى الفرمان الصادر فى يونيه ١٨٤١ لمحمد على — بعض المراكز على الساحل الشرقى لخليج العقبة وهى « طابة » و « المويلح » و « العقبة » بهدف تأمين طريق الحج البرى بين مصر والحجاز .

ورغم توقف استعمال هذا الطريق بعد شق قناة السويس فى أواخر الستينات من القرن التاسع عشر ، إلا أن هذه المراكز ظلت تحت الإدارة المصرية حتى عام ١٨٩٢ حين نشبت أول أزمة بشأن سيناء وخليج العقبة .

ومن الغريب أن تبدأ تلك الأزمة من محاولات صهيونية مبكرة للتوطن فى بعض مناطق الساحل الشرقى للخليج .

ففى خلال عام ١٨٩٠ زار مصر أحد اليهود وإسمه « بول فريدمان » الذى اتصل بسلطات الاحتلال البريطانى فى مصر وأبلغها بنيته على الهجرة إلى سواحل الخليج ، ولم تمانع تلك السلطات

وفى أواخر العام التالى — ١٨٩١ — عاد فريدمان مع عشرين من اليهود الألمان والروس ونزلوا جميعاً على ساحل الخليج ، ولكن كانت كل الظروف ضد هذه المحاولة اليائسة ، فالصحف المصرية نبهت إلى الخطر القادم من أوربا ، كما أن الرجل وعصبته لم يحسنوا معاملة الأهالى هناك واشتروا أرضاً فى ناحية « المويلح » مع أن قوانين الدولة العثمانية كانت لا تبيح بيع الأرض للأجانب فى شبه جزيرة العرب(١) .

وأثار هذا الأمر الحكومة العثمانية التى لم تكتف بطرد فريدمان وجماعته من المنطقة ، وإنما انتهز السلطان عبد الحميد الثانى فرصة وفاة الخديوى توفيق فى أوائل العام التالى — ٧ يناير ١٨٩٢ — وبعث بفرمان تولية خلفه عباس الثانى — ١٧ يناير — وقد تعمد إدخال بعض التغيرات على حدود الأراضى التى يديرها الخديوى قصد منها حرمان مصر ليس فقط من إدارة المراكز التى كانت ممنوحة لها شرق خليج العقبة ، وإنما من قسم من أراضيها وهو شبه جزيرة سيناء .

وما أن علم المعتمد البريطانى فى القاهرة السير إيفلين بيرنج — اللورد كرومر فيما بعد — بمحتويات الفرمان الجديد حتى طلب من الخديوى ومن الحكومة المصرية عدم قراءته ، فقد كان هذا الأمر يعنى :

١ — محاولة الاعتداء على تسوية ١٨٤٠-١٨٤١ التى ضمنتها الدول الكبرى .

٢ — الاقتراب العثمانى بصورة خطيرة من « قناة السويس » مما يهدد شريان الإمبراطورية البريطانية الحيوى .

وقد تبع ذلك أن شهد شتاء ١٨٩٢ ضغطاً دبلوماسياً بريطانياً عنيفاً على استنبول اضطر الباب العالى معه إلى أن يرضخ أخيراً ويعود فيترك سيناء التى حاول أن يسلخها من مصر ويضمها إلى ولاية الحجاز .

وتقرر هذا فى البرقية التى أرسلها جواد باشا الصدر الأعظم إلى الخديوى عباس الثانى فى ٨ أبريل والتى جاء فيها « أما من جهة شبه جزيرة سيناء فهى باقية على حالتها

---

(١) المقطم — العدد ٥١٩٤ بتاريخ ٢ مايو ١٩٠٦ .
Cromer, Modern Egypt, Vol. II, pp. 268-269.

وتكون إدارتها بمعرفة الخديوية المصرية التى كانت مدارة بها فى عهد جدكم اسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا »[١] .

وقد عمل بيرنج على نشر البرقية بصورة عامة واعتبرت قسما مكملا لفرمان التولية ، وحتى يمكن تجنب أى سوء فهم لمعنى البرقية فقد قدم المعتمد البريطانى فى القاهرة مذكرة فى ١٣ أبريل إلى « تيجران باشا » ناظر الخارجية المصرى أبلغه فيها أن عليه أن يعلم أنه لا يمكن حدوث أى تغيير فى العلاقات بين مصر والباب العالى دون موافقة الحكومة البريطانية ، وأضاف « أن برقية الصدر الأعظم التى تفضلتم باطلاعى عليها تجعل من الواضح أن شبه جزيرة سيناء وهى الأراضى المحددة من الشرق بخط يسير فى اتجاه جنوبى شرقى من نقطة قريبة من شرق العريش إلى رأس خليج العقبة سوف تظل تحت الإدارة المصرية . وأن قلعة العقبة الواقعة شرق هذا الخط سوف تبقى قسما من ولاية الحجاز » .

وقد نشرت تلك الملاحظة — التى وافق عليها اللورد سولسبرى وزير الخارجية — ومعها مراسلة أخرى خاصة بفرمان التولية ونسخة من برقية الصدر الأعظم فى الجريدة الرسمية — الوقائع المصرية — وقد أرسلت جميعها إلى السفير البريطانى فى استنبول فى ١٤ من نفس الشهر[٢] .

ولما كانت بريطانيا حريصة على ألا تظل المسألة محصورة فى دائرة الخلاف بين السلطان وتابعه الخديوى وإنما أرادت أن تدخل الدول الكبرى كعنصر فى الموقف على اعتبار أن المسألة خرق لتسوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ التى ضمنتها تلك الدول فقد أرسلت نسخ من الفرمان والبرقية وخطاب بيرنج إلى وزير الخارجية المصرى إلى مختلف الدول وإلى ممثلى فرنسا وروسيا فى القاهرة .

وقد رد وكيل قنصل عام فرنسا فى القاهرة المسيو « ريفرسو Reverseaux » فى ١٤ أبريل بأن « حكومة الجمهورية كلفت سفيرها لدى الباب العالى باعتماد هذين الشاهانين » ورد القنصل الروسى المسيو « كوياندر Koyander » فى نفس

---

(١) فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء ج ٦ ص ٧٥٩ .

(٢) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

اليوم أيضاً بأن « سفير جلالة الإمبراطور بالأستانة اعتمد فحوى هذين المحررين باسم الحكومة الإمبراطورية »(١) .

وقد جمعت وزارة الخارجية المصرية كافة هـذه المراسلات وطبعتها فى كتيب رسمى فى بداية العام التالى — ١٨٩٣ — ووزع على كافة الوكالات الأجنبية فى البلاد(٢).

وهدأت المشكلة بعد ذلك حتى عام ١٩٠٦ .

***

فى خلال تلك السنوات الطويلة بين عامى ١٨٩٢ ، ١٩٠٦ كانت الظروف فى مصر وخارجها تتغير بسرعة لصـالح الدولة العثمانية الأمر الذى أغرى القائمين على السلطة فيهـا بالعودة إلى إثارة مسألة سيناء وخليج العقبة مرة أخرى فى أوائل ذلك العام الأخير .

١ — فأولا زادت فى تلك الفترة إلى حد كبير الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التى رعاها وشجعها السلطان العثمانى والتى لاقت أطيب الصدى فى أنحاء العالم الإسلامى .

٢ — كما أنه فى نفس الوقت ازدادت عملية مد الخطوط الحديدية داخل الدولة العثمانية وبالذات « سكة حديد الحجاز » التى كان فى النية مد أحد فروعها من معان إلى العقبة ، وكان من المرغوب فيه تماماً ألا يتهدد ذلك الفرع أى « خطر أجنبى قريب » . وقد تمثل هذا « الخطر الأجنبى القريب » فى الوجود البريطانى فى سيناء تبعاً لوجوده فى مصر .

٣ — وفوق ذلك فإن الجبهة الداخلية فى مصر كانت مهيئة لخطوة عثمانية جريئة ضد الاحتلال البريطانى للبلاد ، ففى تلك الأعوام كان « الحزب الوطنى » قد نما نمواً كبيراً ، وكانت ميول زعيمه « مصطفى كامل » الموالية للسلطان والجامعة الإسلامية واضحة تماماً تنادى بها جريدته « اللواء » فى كافة أعدادها تقريباً .

٤ — يضاف إلى كل ذلك أن الجو الدولى كان ممهداً لإثارة المسألة بهدف إثارة

---

(١) فيليب جلاد : المرجع السابق ج ٦ ص ٧٦١ .

(٢) Ministère des Affaires Etrangères : Firman Impérial d'Investiture adressé à S.A. Abbas Hilmi pacha, Le Caire — Imprimerie Nationale, 1893.

المسألة المصرية كلها وإعادة طرحها على بساط المباحثات الدولية ، فنى تلك الحقبة كانت ألمانيا قد بدأت تظهر كقوة استعمارية منافسة للتحالف الاستعمارى الفرنسى البريطانى ، وفى بداية هذا العام بالذات — ١٩٠٦ — كان هناك مؤتمر دولى فى الجزيرة (بالمغرب) وضع الوفاق الودى الذى كان قد عقد قبل ذلك بعامين فقط بين فرنسا وانجلترا أمام اختبار عسير .

وكما كتب كرومر فى مذكرة طويلة عن الأزمة مؤرخة فى ٢١ مايو ١٩٠٦ « إن هدف الحكومة التركية هو امتحان قوة مركز البريطانيين فى مصر والتعرف على مدى استمرار معونة الدول الأخرى فى هذا الشأن »(١) ، وكتبت جريدة « الطان » الفرنسية فى نفس المعنى فى مقال لها فى ٢٩ أبريل حيث ذكرت « أن المقصد السرى للسياسة التركية هو أن تفتح ضد انجلترا كل المسألة المصرية وهو ما حاوله المسيو هانوتو أثناء أزمة فاشودة »(٢) .

٥ — وأخيراً فلا شك أنه كان لموقف السلطات البريطانية فى عدن من ثوار اليمن أبلغ الأثر على السلطان العثمانى ، فقد أرسلت عدة تقارير من القاهرة إلى استنبول خلال صيف خريف ١٩٠٥ تؤكد أن الحكومة البريطانية تساعد ثوار اليمن بامدادهم بالسلاح والذخائر والأغذية ، كما أنها تعاون الفارين من صفوف الجيش التركى . وقد اعترف كرومر فى نفس المذكرة السابقة بأن السلطات البريطانية فى عدن قد احتفظت بأعداد كبيرة من الترك الهاربين الجائعين لأنه لم يكن من الممكن تركهم يموتون جوعاً(٣) .

* * *

تبدأ نذر الأزمة حين ظهر مقال فى جريدة اللواء فى ٩ ديسمبر ١٩٠٥ نبه فيه كاتبه بأن «سلطات الاحتلال البريطانى تعد صحراء سيناء لأعمال حربية مهمة وابتدأت نظارة الحربية فى أواسط عام ١٩٠٥ فى وضع تصميمات هذه الأعمال » .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٢) اللواء — العدد ٢٠٢١ فى ٧ مايو ١٩٠٦ .

(٣) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, Desp. No. 77.

ويستطرد كاتب المقال فى تحذيره من أعمال هذه السلطات متحدثاً عن مغزى تعيين ضابط بريطانى هو الكولونل براملى « قومنداناً لطور سيناء » وتخصيص مبلغ ٨٨ ألف جنيه فى ميزانية العام التالى « لإصلاح شبه جزيرة سيناء »(١) .

وبعد ذلك بفترة قصيرة وفى ١٧ ديسمبر كتب والى سوريا إلى استنبول بأن الحكومة المصرية قد قررت بناء ثكنات عسكرية فى المنطقة فيما بين العقبة والقسيمة ، وأضاف أن قوات الاحتلال البريطانية سوف تشارك فى بناء تلك الثكنات .

وقد أجاب السلطان فى نفس اليوم يطلب من الوالى سبق المصريين وبناء مركز حراسة عثمانى فى نفس المنطقة(٢) .

ويقرر كرومر أن الإنجليزى الوحيد الذى كان موجوداً فى سيناء فى هذا الوقت هو المستر براملى Bramly الذى كان قد عين قبل ذلك بفترة قصيرة مفتشاً مدنياً للمنطقة ، ولم يكن هناك آنذاك جندياً واحد بريطانياً أو مصرياً شرق السويس(٣) .

ولكن يوضح بلنت Blunt الأسباب التى دعت إلى إرسال براملى .. يقول .. أن براملى الذى لم يكن فى خدمة الحكومة من قبل قد شد انتباه كرومر بعد قيامه بعدة رحلات ناجحة فى الصحراء الليبية على ظهور الجمال ، وقد دعا هذا المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى استخدام الشاب المذكور فى الحكومة المصرية فى وظيفة مفتش فى سيناء وأرسله إلى شبه الجزيرة « للتحرى عن مدى صحة التقارير التى وصلت إلى القاهرة عن نية السلطان مد فرع سكة حديد الحجاز من معان إلى العقبة »(٤) .

على أى حال وحتى لا تتاح الفرصة لمزيد من الشكوك من جانب السلطات التركية فقد تقدمت الحكومة المصرية فى تلك الأثناء بطلب إلى السلطان بتعيين لجنة من الأتراك والمصريين لتحديد التخوم بين سيناء وسوريا ، ولكن لم يحرك السلطان ساكناً(٥) .

---

(١) جريدة اللواء ، العدد ١٨٩٦ فى ٩ ديسمبر ١٩٠٥ .

(٢) Corres, Part LXIV, Inc. in No. 26, Sir Nicholas O'Conor to Cromer, Dec. 26, 1905.

(٣) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906.

(٤) Blunt, W.S., My Diaries, Part II, p. 133.

(٥) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، القسم الثانى ج ٢ ص ٧٧ .

وبدلا من الرد على مصر أرسل الباب العالى للسفارة البريطانية فى استنبول فى ١٢ يناير ١٩٠٦ رسالة يشكو فيها من أن ضابطاً إنجليزياً يقود قوة من الجيش المصرى قد أقام معسكراً بالقرب من العقبة على طريق غزة وأعلن عن نيته على إقامة مراكز حراسة فى هذه النقطة وفى غيرها من الأراضى التركية .

وطلبت الحكومة العثمانية فى رسالتها الى السير نيكولاس أوكونر O'Conor السفير البريطانى اتخاذ الخطوات اللازمة لسحب هذه القوة من المركز الذى احتلته خارج الأراضى المصرية .

وليهدىء السير أوكونر من روع السلطان فقد أبلغه أن الهدف من هذه البعثة هو البحث بطريقة ودية مع السلطات التركية المحلية وضع بعض المراكز المعينة الواقعة على الحدود والتى لم يحدد موقفها أبداً ، كما أرسل إلى القاهرة على الفور يتحرى الحقيقة(١) .

وفى نفس اليوم الذى أرسل فيه « أوكونر » إلى كرومر يستعلم عن حقيقة الموقف — ١٣ يناير — وردت التقارير من سيناء إلى القاهرة عن عدوان قوات تركية على المنطقة .

وقد صدرت تعليمات المعتمد البريطانى فى القاهرة على الفور إلى الكولونل براملى تطلب منه التقدم إلى المنطقة المجاورة للعقبة والاتصال بالقائد التركى هناك والتعرف على أسباب كل تلك الشكوك التى بدت(٢) .

ووصل كرومر إلى السفير البريطانى فى استنبول فى ١٥ يناير بأنه « من المتوقع أن تستمر الاضطرابات حتى تتعين الحدود » ، وطلب منه أن « يعضد اقتراح الخديوى بتعيين مبعوث تركى مع مندوب مصرى لتعيين الحدود »(٣) .

ولكن ظلت الدولة العثمانية على عدائها لفكرة تعيين الحدود وكانت إجابتها دائماً « إن الباب العالى لن يعين مبعوثاً حيث أنه ليس هناك مشكلة حدود بل

---

(١) Corres, Part LXV, No. 230, O'Conor to Grey, May 3, 1906, Desp. No. 307.

(٢) Ibid., No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٣) Corres, Part LXIV, No. 15, Cromer to Grey, Jan. 15, 1906, Tel. No 7.

عدوان على الأراضى العثمانية لا يمكن السكوت عليه »[١] .

وقد عبرت اللواء عن رأى مختار باشا القومسير العثمانى فى القاهرة فى هذا الموضوع بأنه « ما دامت مصر ولاية تركية فلا يمكن أن يوجد بينها وبين بقية الولايات الخاضعة للادارة التركية مباشرة حدود وتخوم »[٢] .

وكان رأى أوكونر فى هذا الصدد أنه « لما كان السلطان حساساً للغاية فيما يتعلق بالمسألة المصرية مما يدعونى إلى الاعتقاد بأن لا فائدة من محاولة إغرائه على الموافقة على تعيين لجنة مشتركة للحدود ... »[٣] .

وبناء على ذلك فقد رأى السفير البريطانى فى استنبول فى البداية تجميد الأزمة وكتب بأنه « إذا لم نصم على تعيين الحدود فلن يتحول الأمر إلى أزمة خطيرة »[٤] .

ولكن رأت السلطات البريطانية فى القاهرة أنه نتيجه لعدم موافقه الحكومة التركية على تعيين الحدود ، فقد كان من الضرورى تأمين المراكز المصرية على هذه الحدود ، وعلى ذلك فقد تقرر إرسال قوة مصرية صغيرة (تتكون من ٥٠ رجلا يقودها ضابط مصرى هو سعد بك رفعت) لمقابلة المستر براملى على الحدود قرب العقبه ولاحتلال طابة وهى نقطه تقع على الساحل الغربى من الخليج على بعد حوالى خمسة أميال من قلعة العقبه بحراً وثمانيه أميال براً .

وصدرت التعليمات فى نفس الوقت إلى المستر براملى لاحتلال « نقب العقبة والقطار » اللذين يتحكمان فى الجبل الذى يمر خلال الطريق من الساحل إلى داخل هضبة سيناء .

وقد تقدمت هذه القوة الصغيرة إلى طابة فى سفينة خفر السواحل المصرية « نور البحر » ذلك أن المواصلات عبر الصحراء وسلاسل جبال سيناء غاية فى الصعوبة ، وقبل أن تصل التعليمات الجديدة للمستر براملى كان قد وصلته عدة تحذيرات من

---

(١) Corres, Part LXV, No. 230, O'Conor to Grey, May 3, 1906.

(٢) اللواء ، العدد ٢٠٢١ فى ٧ مايو ١٩٠٦ .

(٣) Corres, Part LXIV, No. 27., O'Conor to Grey, Jan. 22, 1906, Tel. No. 5.

(٤) Ibid., No. 32, O'Conor to Grey, Jan. 26, 1906, Tel. No. 32.

القائد التركى الذى كان موجوداً فى مكان يدعى « أم رشراش » مما دعاه إلى العودة إلى مركزه فى « نخل » ليرسل التقرير اللازم ، ولكن بمجرد وصول التعليمات إليه كر على الفور عائداً إلى الخليج قاصداً طابة ليكون فى استقبال القوة القادمة التى ما أن وصلها حتى فوجىء باجتماع على ظهر سفينة خفر السواحل المصرية بين قبطان السفينة الإنجليزى وقائد القوة المصرى من جانب وبين قائد قوة تركية كانت قد سبقت إلى احتلال المركز من ناحية أخرى .

وقد أعلن القائد التركى أن لديه أوامر صريحة بمنع أى قوة من النزول فى طابة ولو استدعى الأمر استعمال العنف .

ولما كانت الأوامر الصادرة للضابط المصرى سعد بك رفعت تحذره من الصدام إلا فى حالة إطلاق النيران عليه ، كما أنه لم يكن لديه القوة الكافية للنزول إلى البر قسراً فقد انسحب إلى جزيرة فرعون الملاصقة للساحل الغربى على بعد أميال قليلة جنوب طابة وقبع فى انتظار ما ينجلى عنه الموقف[1] .

* * *

فى هذا الوقت وخلال النصف الثانى من يناير ١٩٠٦ ، وبينما كان كرومر فى السودان لافتتاح ميناء بور سودان ، طرأ على الموقف تغير سياسى واضح حين استعمل الصدر الأعظم مع الخديوى أقسى لهجات العنف والتهديد فى برقيات ثلاث متوالية أرسلها له فى تلك الفترة .

تطلب البرقية الأولى من هذه البرقيات أن تمتنع مصر عن بناء المراكز وتعلن أنه لن يتم إرسال مندوب تركى لتعيين الحدود .

أما البرقية الثانية فتذكر أن الأراضى التركية لا تشمل العقبة فحسب بل تشمل أيضاً المناطق المجاورة بما فيها طابه ، وأنها ليست ضمن الأراضى (الممنوحة لمصر) ، وشكا الصدر الأعظم من أن قارباً مصرياً مسلحاً — نور البحر — قد أرسل إلى طابة وعليه جنود ، وختم برقيته بما معناه أن مصر نفسها قسم من تركيا ، فليس هناك على ذلك حاجة لتعيين الحدود بين الأراضى المصرية والتركية ، وأنه إذا ما أصرت

(١) Corres, Part LXIV, No. 33, Findley to Grey, Jan. 27, 1906, Tél. No. 18.

Corres, Part LXIV, Facing to page 234. عن

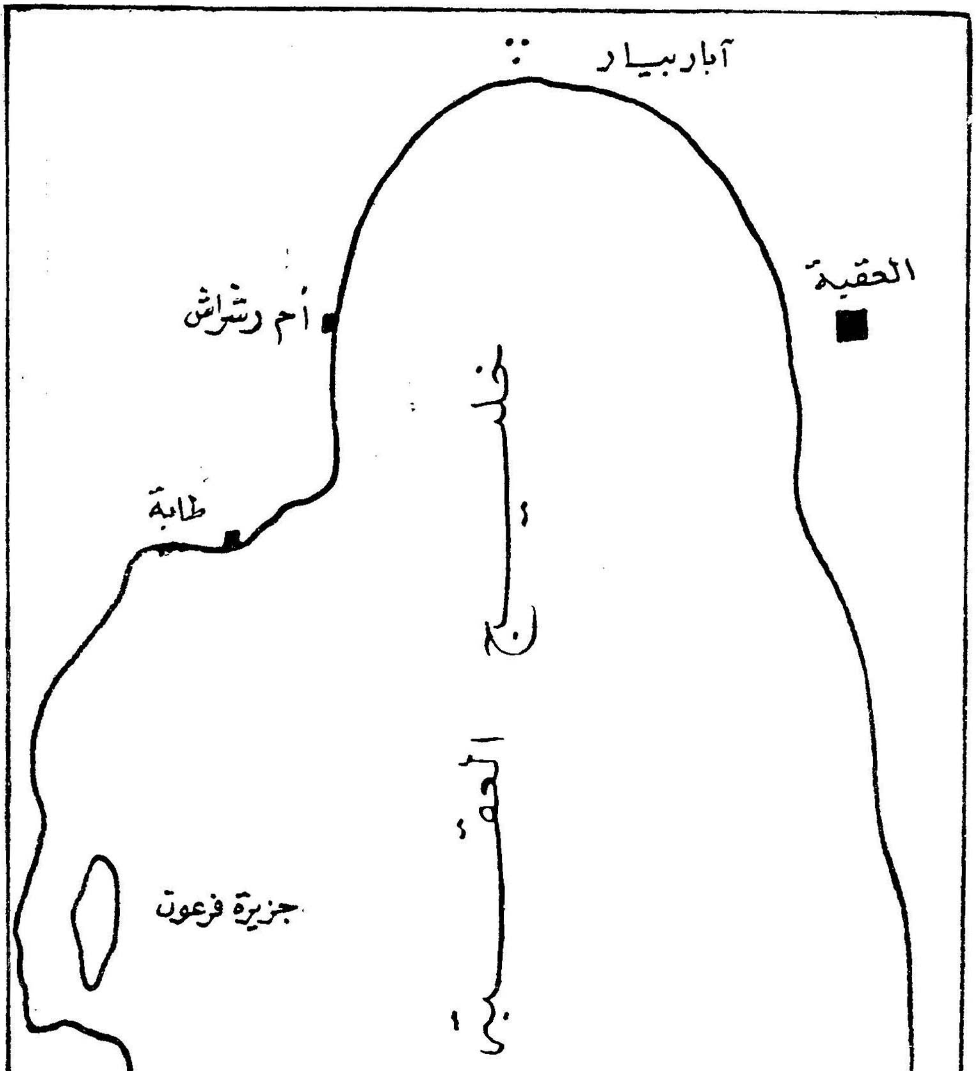

مصر على الاستمرار فى إنزال الرجال وبناء المركز « فإن هذا الخروج عن الأوامر سوف يستدعى اتخاذ أشد الإجراءات لوقفه » .

ويتصاعد العنف العثمانى فى البرقية الثالثة بطلب سحب « نور البحر » والقوة المصرية من جزيرة فرعون والتوقف عن بناء المراكز وإلا « سوف تحدث أزمة »(١) .

ورداً على هذا التهديد التركى تقدم المستر فندلى — القائم بأعمال كرومر أثناء تغيبه — باقتراحات محددة طالباً سرعة تنفيذها .

من الناحية الدبلوماسية طالب بإرسال التعليمات إلى السفير البريطانى فى استنبول للاحتجاج لدى الباب العالى ضد :

١ — رفض السلطان الموافقة على لجنة مشتركة للحدود .

٢ — رغبة السلطان الواضحة تجاهل برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ التى لم يأت فيها أى ذكر لما حول العقبة .

٣ — تهديدات الصدر الأعظم باستعمال القوة ضد المراكز المصرية التى اعتقد أنها موجودة فى الأراضى التركية .

كما اقترح فندلى إبلاغ السلطان بأن مصر ترغب فى إدارة أراضيها التى تقررت لها عام ١٨٩٢ فى سلام ، وأنه إذا ما هددت المراكز المصرية فإن الحكومة المصرية سوف تضطر إلى طلب المعونة من الحكومة البريطانية .

أما من الناحية العسكرية فقد طالب بإصدار الأوامر إلى البارجة البريطانية « ديانا Diana » الموجودة وقتذاك فى بور سودان بالتقدم إلى العقبة .

كما أرسل التعليمات إلى براملى وسعد بك رفعت يطلب منهما فى حالة حدوث هجوم تركى عليهما أن يبادرا فيحتلا المراكز الآتية :

١ — « آبار بيور » الواقعة على رأس خليج العقبة والتى يمتلكها الأعراب المصريون .

(١) Corres, LXIV, No. 16, Finlay to Grey, Jan. 25, 1906, Tel. No. 5.

٢ — « نقب العقبة » وهى مركز الاقتراب الرئيسى من الساحل إلى الداخل .

٣ — « طابة » التى سبقهما الأتراك إليها .

ولكن نبه عليهما فى نفس الوقت بتجنب إثارة العداوات ما أمكن .

وأصبح واضحاً أنه لم يعد ممكناً حل المسألة محلياً مما دعا إلى إبلاغ براملى ورفعت أن المفاوضات ستبدأ فى هذا الشأن بين القاهرة ولندن واستنبول بهدف الوصول إلى حل مناسب(١) .

* * *

المفاوضات :

يمكن أن نقسم الفترة التالية التى أعقبت برقيات الصدر الأعظم فى ٢٥ يناير وحتى اتخذت الأمور شكل الأزمة السياسية خلال النصف الثانى من أبريل والنصف الأول من مايو إلى الأقسام الآتية :

أولا — <u>المباحثات الأولية ونتائجها :</u>

كان رأى كرومر أن تتخذ السياسة الإنجليزية فى المباحثات التى أزمع إجراءها مع الدولة العلية الخطوط الثلاثة الآتية :

١ — عدم المبالاة فى حالة تهديد الأتراك بطرد القوات المصرية المعسكرة داخل الحدود المصرية سواء كان الألمان وراء الترك أو لم يكونوا .

٢ — التصميم على تعيين لجنة حدود مشتركة دون تضييع الوقت .

٣ — ضرورة جلاء القوات التركية عن المراكز المصرية التى احتلتها(٢) .

وفى لقاء بين السير أوكونر ووزير الخارجية التركى صباح ٢٨ يناير فى استنبول أبلغه بهذه المطالب وذكر له أن التأخير فى تعيين الحدود سيؤدى إلى نتائج وخيمة

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 29, Findlay to Grey, Jan. 25, 1906, Desp. No. 16,

(٢) Ibid., No. 39, Findiay to Grey, Jan. 28, 1906, Tel. No. 20.

وطالبه بأن ترسل الأوامر إلى القائد التركى فى العقبة بالجلاء عن المراكز المصرية .

ورد عليه توفيق باشا — وزير الخارجية — بأن هناك اجتماعاً لمجلس الوزراء التركى فى تلك الليلة وأنه سوف يقوم بإبلاغ آراء السفير البريطانى ومطالبه إلى المجلس ووعده ببذل جهده للوصول إلى اتفاق مرض (١).

ويتصل وزير الخارجية بالسير أوكونر صباح اليوم التـــالى ليبلغه بأن المسألة قد حسمت فقد وصلت برقية من قائد العقبة بأن تفاهماً قد أمكن التوصل إليه بعد مقابلة مع قائد القوات المصرية وأن اتفاقاً مرضياً للمسألة قد تم (٢) .

ولـكن تنفى القاهرة فى نفس اليوم الوصول إلى أى اتفاق ويرى فندلى أن سبب هذا الإبلاغ هو « تأثر السلطان من لهجـة السفير البريطانى القوية فى محادثته مع وزير الخارجية » (٣) .

ويبدو أن سبب هذا الإبلاغ التركى الرسالة التى كان قد بعث بها رشدى باشا قائد قوات العقبة إلى سعد بك رفعت قائد القوات المصرية بأنهما « إخوان نخدم نفس السلطان ، وحيث أن المقام العالى قد أتم شرح الأمر بالتفصيل لسمو خديوى مصر فليس هناك خلاف بيننا » ثم ناشده التقدم إلى السويس وتسوية المسألة بين الإخوة (٤).

على أى حال فإن السفير التركى فى لندن « موزورس باشا » قد عاد وأوضح أن الاتفاق الذى تم الحديث عنه ليس إلا بعض الإيضاحات المتبادلة بين القائد التركى فى العقبة والقائد المصرى الذى أرسل إلى تلك الجهات (٥).

ورغم تفاؤل فندلى فى القاهرة بإمكان تراجع الباب العالى عن موقفه إلى حد أنه بدأ يبحث عن مبرر لتراجع السلطان بأنه خلط بين ضبا الواقعة على الساحل الشرقى من الخليج وبين طابة الواقعة على ساحله الغربى ... رغم هذا التفاؤل إلا أنه

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 40, O'Conor to Grey, Jan. 28, 1906, Desp. No. 40.

(٢) Ibid., No. 41, O'Conor to Grey, Jan. 29, 1906, Tel. No. 12.

(٣) Ibid., No. 42, Findlay to Grey, Jan. 29, 1906, Tel. No. 21

(٤) Ibid., Inc., No. 3 in No. 63, Cromer to Grey, Feb. 4, 1906, Desp. No. 17.

(٥) Ibid., No. 57, Grey to O'Conor, Feb. 9, 1909, Tel. No. 7.

تبدد جميعه قبل أن ينتهى الشهر حين تحدث مختار باشا مع وزير الخارجية المصرى وأبلغه أن تعبير « بقاء شبه جزيرة سيناء على حالتها » الذى أتى فى برقية الصدر الأعظم فى ٨ أبريل ١٨٩٢ يعنى أن وضع سيناء (كملحق) ومن ثم فهى من أملاك السلطان ومختلفة تماماً عن الأراضى الأخرى لمصر(١).

كما أن الأحداث فى المنطقة موضع التنازع كانت تشير بدورها بصورة تدعو الحكومة البريطانية إلى اتخاذ موقف أشد حدة مع الباب العالى .. وينقلنا هذا إلى المنطقة حول الخليج لنرى تطور الموقف فيها .

ثانياً — الموقف المحلى واحتلال الأتراك لمراكز أخرى :

أخذ الأتراك خلال النصف الأول من فبراير يعززون مركزهم فى العقبة والمناطق المحيطة بها بصورة أقلقت حكومة لندن والسلطات البريطانية فى القـــاهرة إلى حد كبير .

ففى أول الشهر وصلت الأخبار من مصادر وثيقة بأن لواءين من قوات المشاة التركية يتقدمان إلى العقبة(٢).

وفى ١١ فبراير وصلت إلى القاهرة مجموعة من التقارير من براملى يتحدث فيها عن تهديدات القائد التركى للمركز المصرى فى جزيرة فرعون مما دعاه إلى عدم الإذن لسفينة خفر السواحل « نور البحر » بالعودة إلى السويس وذلك لتساهم فى حماية المركز المصرى .

كما ذكرت تقارير المفتش الإنجليزى أن الأتراك قد احتلوا مراكز أخرى فى الأراضى المصرية على الساحل الغربى للخليج وهى « نقب العقبة » و « القطار » بالإضافة إلى طابة التى كانوا قد احتلوها من قبل .

وقد أبلغ القائد التركى فى العقبة براملى وسعد رفعت أنه لن يستطيع الاستمرار فى الاتصال بهما فى المستقبل لعدم اعترافه بمركزهما الذى احتلاه فى الأراضى التركية(٣).

(١) Corres, Part LXIV, No. 48, Findlay to Grey, Jan. 30, 1906, Tel. No. 48.

(٢) Ibid., No. 51, O'Conor to Grey, Feb. 3, 1906, Tel. No. 14.

(٣) Ibid., No. 65, Cromer to Grey, Feb. 11, 1906, Desp. No. 34.

وتمادى الأتراك فى تهديداتهم فبعد بضعة أيام من قطعهم الاتصال مع المركز المصرى فى جزيرة فرعون أرسل القائد العثمانى يبلغ المصريين الموجودين فى الجزيرة بأنه يحملهم عواقب رفضهم الطلبات المتعددة بالانسحاب من الجزيرة .

وأدى هذا الموقف إلى صدور التعليمات إلى القائد المصرى التى تكرر وتؤكد ضرورة استمراره فى السيطرة على الجزيرة حيث أنها ميناء طبيعى قوى ، كما حذر المفتش البريطانى القائد التركى من السماح لقواته بالمجىء إلى المناطق القريبة من الجزيرة[١].

وقد أدت هذه التطورات على أرض المنطقة المتنازع عليها إلى تغير واضح فى تكتيكات الديبلوماسية البريطانية التى بدأت تغير أسلوب التفاهم إلى أسلوب الضغط السياسى العنيف بهدف الوصول إلى حل عاجل للمسألة .

ثالثاً — الضغط الديبلوماسى البريطانى :

كنتيجة للرغبة التى أبداها مختار باشا فى أن لسيناء « وضعاً خاصاً » مختلفاً عن بقية مصر وهو ما رفضته وزارة الخارجية البريطانية بتاتاً حيث أن معنى هذا أن السلطان يعتبر نفسه حراً تماماً فى تفسير برقية ٨ أبريل على هواه[٢]. وكنتيجة للحدة التى وضحت فى تصرفات السلطات التركية فى المنطقة المتنازع عليها بدأ البريطانيون يلعبون لعبتهم المفضلة فى هذه الظروف .. لعبة الضغط الديبلوماسى .

ففى ٢٩ يناير قابل أوكونر الصدر الأعظم وقدم له احتجاجاً شديد اللهجة على احتلال القوات التركية لطابة وعلى إرسال التعليمات للقائد التركى بعدم السماح بالنزول للقوات المصرية فيها .

وختم الاحتجاج بأنه ليس من حق الأتراك احتلال المكان الذى هو بلا شك أرضاً مصرية ونصح بالانسحاب السريع لتجنب أزمة حادة فى الأفق[٣].

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 68, Cromer to Grey, Feb. 13, 1906, Desp. No. 34 A.

(٢) Grey of Falladon : Twenty Five years, 1892-1906, p. 125.

(٣) Corres, Part LXIV, No. 47, O'Conor to Grey, Jan. 29, 1906, Tel. No. 13.

وبعد ذلك بيومين استدعى السير أدوارد جراى السفير التركى فى لندن وأبلغه أن استمرار الوضع القائم سيؤدى إلى اضطرابات لا نهاية لها(١) .

وعندما رأى السفير البريطانى فى استنبول تقديم اقتراح مؤداه سحب قوات الجانبين من المنطقة لحين إقرار تسوية للمسألة رفض كرومر هذه الفكرة وصمم على التمسك بحق مصر فى احتلال طابة فور إخلاء الأتراك لها ، وكان رأيه أن الشىء الوحيد الذى يمكن تقديمه للسلطان هو « وعد بعدم التدخل فى الخط الحديدى بأى صورة »(٢).

وبالفعل لم يقدم أوكونر أى تنازلات فى مقابلته للصدر الأعظم فى أعقاب وصول برقية كرومر سوى الوعد بتأمين الخط الحديدى(٣)، وعاد يضغط مرة أخرى للوصول إلى اتفاق ودى للمسألة دون أى تعقيدات ذات طبيعة سياسية .

وكنتيجة لاستمرار هذا الضغط وعد الصدر الأعظم باجتماع لمجلس الوزراء لبحث المسألة بعد ذلك بيومين(٤) .

ولكن ما أن انتهى اجتماع المجلس المذكور دون الوصول إلى أى نتيجة حتى بادرت الحكومة البريطانية على الفور باتخاذ خطوتين محددتين :

الأولى : بتقديم احتجاج رسمى للسفير التركى فى لندن جاء فى آخره .. « والتصميم تام على الجلاء العاجل عن المراكز التى تحتلها القوات العثمانية فى الأراضى التى يديرها الخديوى وقد صدرت التعليمات بذلك إلى سفير جلالته فى استنبول .

« وتثق الحكومة البريطانية أن الباب العالى يرى بعد التطورات الأخيرة ضرورة إقرار خط الحدود بتعيين لجنة مشتركة لذلك »(٥).

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 49, Grey to O'Conor, Jan. 31, 1906, Tel. No. 51.

(٢) Ibid., No. 58, Cromer to Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 32.

(٣) Ibid., No. 60, O'Conor to Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 16.

(٤) Ibid., No. 59, O'Conor to Grey, Feb. 9, 1906, Tel. No. 15.

(٥) Ibid., No. 70, Memorandum communicated to Musurus Pasha, Feb. 13, 1906.

الثانية : التصاعد بالتهديد السياسى إلى حد إرسال سفينة حربية بريطانية إلى مياه الخليج .

والواقع أنه منذ أواخر يناير وكرومر يلح فى اتخاذ مثل هذا الإجراء كعامل له وزنه فى الموقف[١]. ونتيجة لهذا الإلحاح تقرر أن تبقى البارجتان « ديانا » فى السويس و « منيرفا » فى بورسعيد تحت طلب السلطات البريطانية فى القاهرة[٢] .

وفى ١٤ فبراير وبعد تقديم الاحتجاج الرسمى للسفير التركى بيوم واحد صدرت التعليمات للورد كرومر بتخويله حق الأمر بتقدم « ديانا » إلى العقبة[٣] ، وعلى الفور أصدر كرومر هذا الأمر .

ولما كان هـذا الإجراء فى جوهره يهدف إلى التأثير السياسى قبل أى شىء آخر فقد قدمت مذكرة فى نفس اليوم لموزورس باشا أبلغ فيها أن الحكومة البريطانية قد قررت إرسال أحدى سفنها الحربية إلى جزيرة فرعون نتيجة للتهديدات المستمرة من قائد العقبة التركى للمركز المصرى ولتمنع أى عمل من أعمال العدوان على الأراضى المصرية[٤] .

* * *

أتت الخطة البريطانية بثمارها سريعاً فما أن وصلت إلى استنبول الأخبار عن احتمال تقدم ديانا إلى ميـاه خليج العقبة حتى انعقد مجلس عسكرى فى يلدز فى نفس اليوم لبحث مسألة سحب القوات العثمانية من طابة والمراكز الأخرى وبحث تصرفات القائد التركى فى العقبة[٥] .

ولما لم تصل أى أنباء عن نتيجة هذا الاجتماع حتى مساء اليوم التالى — ١٥ فبراير

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 38, Findlay to Grey, Jan. 28, 1906, Tel. No. 19.

(٢) Ibid., Inc. in No. 53, Lord C. Bresford to Admirality, Feb. 4, 1906.

(٣) Ibid., No. 72, Grey to Cromer, Feb. 14, 1906, Tel. No. 16.

(٤) Ibid., No. 71, Memorandum communicated to Musurus Pasha, Feb. 14, 1906.

(٥) Ibid., No. 67, O'Conor to Grey, Feb. 14, 1906, Tel. No. 19.

— قرر السير أوكونر إرسال أحد معاونيه إلى القصر للاستفسار . وقابل المستر لامب Lamb سكرتير السلطان الأول الذى أبلغه أن المجلس قد توصل إلى قرار مؤداه « أن الأراضى التى تديرها مصر بمقتضى الفرمانات لا تتضمن الأماكن محل النزاع »(١).

وأدى هـذا الرد — الغير المتوقع — إلى خيبة أمل شديدة اجتاحت السفير البريطانى فى استنبول الذى علم من مصادره الخاصة أن موقف الوزارة التركية يرجع إلى برقية وصلت من مختار باشا فى القـاهرة تذكر السلطان أن البريطانيين كانوا قد تقدموا باقتراح خلال مفاوضات ١٨٩٢ يرمى إلى أن تمتد الحدود الإدارية التركية المصرية من رأس محمد إلى العريش(٢) .

وعندما وصلت هـذه الأنباء إلى كرومر اعترض على الفكرة أشد الاعتراض وذكر « أن إدارة مصر لسيناء هو حق حصل عليه الخديوى من السلطان » ورأى المعتمد البريطانى فى القاهرة امتداد المفاوضات لانتظار الأثر الذى سينتج عن تقدم ديانا إلى العقبة ولرغبته فى مناقشة الأسباب التى دعت وزارة الحربية إلى تخفيض قوات الاحتلال فى مصر فى تلك الفترة الحرجة .

وكان رأيه أن الواجب يقتضى زيادة هـذه القوات إذا ما اتخذت المفاوضات شكلا حاداً (٣).

على أى حال فرغم قرار المجلس العسكرى إلا أن السلطان ما لبث أن أرسل خطاباً ودياً إلى السير أوكونر يبلغه فيه أن فى نيته إرسال لجنة من موظفين عثمانيين للتأكد من موقع المراكز محل النزاع وأنه سوف يسحب قواته إذا ثبت أن هذه المراكز واقعة فى أرض تديرها الحكومة المصرية .

والتقط السفير البريطانى هذا الخطاب المشجع وكتب للسلطان أنه لو حصل ممثل مصرى على عضوية هذه اللجنة ، ولو جلت القوات التركية عن تلك المراكز فسوف

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 77, O'Conor to Grey, Feb. 15, 1906, Tel. No. 20.

(٢) Ibid., No. 78, O'Conor to Grey, Feb. 16, 1906, Tel. No. 21.

(٣) Ibid., No. 81, Cromer to Grey, Feb. 17, 1906, Tel. No. 41.

يوصى — إثباتاً لحسن نية الحكومة البريطانية نحو تركيا — بألا تحتلها القوات المصرية حتى يتم الاتفاق بشأنها(١).

ولكن ما حدث من تشكيل هذه اللجنة التركية وعملها لم يأت بأكثر من خيبة أمل جديدة للبريطانيين.

رابعاً — اللجنة التركية :

خلال الشهر التالى ما بين منتصف فبراير ومنتصف مارس كانت اللجنة التى اقترح السلطان إرسالها للتحرى فى المنطقة المتنازع عليهـــا هى العامل الأساسى فى الموقف.

ولكن نتيجة لسوء فهم من الجانب البريطانى عن طبيعة هذه اللجنة لم يساهم مجيئها فى حل المشكلة وإنما زادها تعقيداً ودفعها خطوة نحو الأزمة.

فبينما نظر البريطانيون إلى هذه اللجنة على أن لها صلاحيات واسعة من التحرى والتفاوض والاتفاق ألفها السلطان على أساس أنها لجنة تحرى فحسب، وعلى ضوء هذه النظرة البريطانية طلب أوكونر فور تقديم العثمانيين للاقتراح إليه أن يحصل ممثل للحكومة المصرية على عضوية هذه اللجنة، وبعد وصول عضوى اللجنة إلى القاهرة دون اتصال بالحكومة المصرية ضغط السفير البريطانى فى استنبول « بضرورة إرسال تعليمات محددة للمبعوثين العثمانيين للدخول فى مفاوضات مع الحكومة المصرية »(٢).

بل وصل الأمر بالسلطات البريطانية فى القاهرة إلى تشكيل اللجنة المصرية التى ستتولى هذه المفاوضات مع المندوبين العثمانيين .. وقد تشكلت من سرهنك باشا وسعد بك رفعت والكابتن أوين Owen رئيس إدارة المخابرات المصرية والذى كما رأى كرومر — « سيتولى الإدارة الفعلية للمفاوضات »(٣).

ونتتبع الآن خطوات هذه اللجنة ومصيرها، فى اليوم التالى لاقتراح السلطان

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 83, O'Conor to Grey, Feb. 18, 1906, Tel. No. 23.

(٢) Ibid., No. 110, O'Conor to Grey, March 2, 1906, Tel. No. 31.

(٣) Ibid., No. 112, Cromer to Grey, Feb. 22, 1906, Desp. No. 21.

لإرسال من ينوب عنه فى التحرى عن حقيقة موقع المراكز المتنازع عليها أبلغ وزير الخارجية التركية السير أوكونر أن ثمة برقية أرسلت إلى مختار باشا بأن يتقدم إلى العقبة سريعاً ليبحث مسألة الحدود .

ولكن رفض السفير البريطانى فى استنبول هذه الفكرة وأعلن عدم ارتياح حكومته لاختيار مختار باشا بالذات لهذا الدور(١) .

ونتيجة لهذا الرفض عدلت الحكومة العثمانية عن اختيارها وقررت اختيار ضابطين تركيين للمهمة بدلا من المندوب السامى التركى فى القاهرة وإن كانت قد طالبت فى نفس الوقت بانسحاب « ديانا » فى مقابل إرسال أوامر إلى القائد التركى فى العقبة بعدم التدخل فى شئون جزيرة فرعون ، ولكن لم يجد هذا الطلب أذناً صاغية من الحكومة البريطانية(٢) .

على أى حال ترك الضابطان اللذان تم اختيارهما (مظفر بك وفهمى افندى) استنبول صباح ٢٠ فبراير قاصدين إلى الإسكندرية(٣) ، وما أن وصلا إلى القاهرة حتى دخلا قصر مختار باشا ولم يظهرا خارجه ، وحتى أول مارس لم يظهر أى أثر المندوبين العثمانيين ولم يحاولا الاتصال بأى مسئول مصرى أو بريطانى ، خاصة أن الخديوى كان فى هذا الوقت فى رحلة فى الصحراء كان مفروضاً ألا يعود منها قبل ٤ مارس(٤) .

ونتج عن جمود الموقف أن طلبت وزارة الخارجية البريطانية من سفيرها فى استنبول أن يضغط على الباب العالى ليتحرك مبعوثاه(٥) ، وطلب أوكونر مقابلة السلطان فى اليوم التالى وطالبه بضرورة إرسال التعليمات للمبعوثين العثمانيين لبدء التفاوض مع الحكومة المصرية(٦) .

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 86, O'Conor to Grey, Feb. 19, 1906, Tel. No. 25.

(٢) Ibid., No. 87, O'Conor to Grey, Feb. 20, 1906, Tel. No. 26.

(٣) Ibid., No. 88, O'Conor to Grey, Feb. 20, 1906, Tel. No. 22.

(٤) Ibid., No. 104, Cromer to Grey, Feb. 28, 1906, Tel. No. 51.

(٥) Ibid., No. 109, Grey to O'Conor, March 1, 1906, Tel. No. 19.

(٦) Ibid., No. 110, O'Conor to Grey, March 2, 1906, Tel. No. 31.

ولكن قبل عودة الخديوى من رحلته بيوم واحد — ٣ مارس — صدرت الأوامر من الاستانة للضابطين التركيين بالسفر على الفور إلى العقبة عن طريق بيروت ومنها إلى دمشق فمعان فالعقبة .

وكان هذا الموقف غير متوقع لدى المسئولين البريطانيين ، وكما عبرت المقطم لسان حال الاحتلال فى هذا الوقت « لقد وقع صنيع الحكومة الحميدية هذا موقع الدهشة والاستغراب عند جميع الذين علموا به »(١) .

وقد امتزجت الدهشة بالضيق الشديد من جانب الحكومة البريطانية التى قررت تعبيراً عن هذا الضيق أن تتقدم فى نفس يوم وصول المبعوثين التركيين إلى العقبة بمذكرة شديدة اللهجة مطالبة بالإسراع بسحب القوات العثمانية من طابة(٢) .

وقد سبق تقديم هذه المذكرة البريطانية برقية احتجاج من الخديوى للسلطان لمغادرة المبعوثين للبلاد دون أن يتصلا به ، ويذكر السلطان باحتجاجه على احتلال القوات التركية للأراضى المصرية(٣) .

وكان رد الحكومة العثمانية على هذه الاحتجاجات تعزيز قواتها الموجودة فى العقبة فأرسلت لواء ونصف من المشاه إليها(٤) . كما أبلغ مختار باشا الخديوى فى ١٢ مارس أن المبعوثين التركيين ليس لهما أى سلطة مستقلة ، وإنما قد أرسلا لمعاونته(٥) . أما احتجاجات الحكومة البريطانية فكان الرد عليها دائماً طلب الانتظار إلى حين وصول تقرير المبعوثين من العقبة .

ودارت المشاورات فى هذا الوقت بين المسئولين البريطانيين حول إرسال سفينة حربية أخرى إلى العقبة بهدف فرض مزيد من الضغط على السلطان(٦) .

---

(١) المقطم ، العدد ٥١٤٦ فى ٥ مارس ١٩٠٦ .

(٢) Corres, Part LXIV, No. 126, O'Conor to Grey, March 11, 1906, Tel. No. 35.

(٣) Ibid., No. 122, Cromer to Grey, March 8, 1906, Tel. No. 59.

(٤) Ibid., No. 130, O'Conor to Grey, March 12, 1906, Tel. No. 37.

(٥) Ibid., No. 134, Cromer to Grey, March 13, 1906, Tel. No. 65.

(٦) Ibid., No. 136, O'Conor to Grey, March 15, 1906, Tel. No. 38.

وقد وافق السير إدوارد جراى على الفكرة وإن رأى أن يسبقها إبلاغ استنبول أولا بهذه النيـــة إذا لم تنسحب القوات التركية تماماً وبسرعة من طابة والمناطق المصرية(١).

وما أن أبلغت تركيا بهذا القرار حتى تحرك ممثلوها فى القاهرة وفى العقبة .

فى القـاهرة أوعز مختار باشا لجريدة « الأهرام » بأن تنشر خبراً مؤداه أن الأتراك سوف يرسلون قوة إلى نخل لحماية مداخل خليج العقبة كما تعمل بريطانيا على تأمين مداخل خليج السويس(٢) ، كما أبرق فى نفس الوقت للسلطان يلح عليه بعدم الخضوع للتهديد البريطانى والتمسك بالمراكز المحتلة(٣) .

وفى العقبة أبلغ رشدى باشا القـائد التركى الـكابتن فيبس هورنبى Hornby قبطان البارجة ديانا بأنه متمسك بأن الحدود تمتد من السويس إلى رفح ولا يعترف — نيابة عن حكومته — ببرقية ٨ أبريل ١٨٩٢(٤).

وكان الرد على احتجاج بريطانى عنيف تم تسليمه إلى موزورس باشا فى ٢١ مارس(٥) أن أبلغ الباب العالى السير أوكونر أنه لا يوافق على تبادل المذكرات مع الحـكومة البريطانية بشأن الحدود المصرية فهذه مسألة تخص تركيا ومصرفقط(٦).

* * *

ما لبث المبعوثان التركيان أن بعثا بتقريرهما إلى استنبول مؤكداً وقوع طابة فى الأراضى التركية(٧)، وتبع معرفة فحوى هذا التقرير أن تقدم مختار باشا بطلب لفتح

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 140, O'Conor to Grey, March 16, 1906, Tel. No. 107.

(٢) Ibid., No. 146, Cromer to Grey, March 19, 1906, Tel. No. 70.

(٣) Ibid., No. 147, O'Conor to Grey, March 19, 1906.

(٤) Ibid., No. 148, Cromer to Grey, March 21, 1906, Desp. No. 148,

(٥) Ibid., No. 149, Grey to O'Coner, March 21, 1906, Desp. No. 28.

(٦) Ibid., No. 168, O'Conor to Grey, March 27, 1906, Tel. No. 46.

(٧) Corres, Part LXV, No. 7, O'Conor to Grey, April 2, 1906, Tel. No. 53.

باب المفاوضات مع الخديوى لتسوية المسألة[١] .

ولما كان قرار إرسال سفينــة أخرى بريطانية قد تعطل نتيجة لبعض الخلافات الإدارية بين البحرية ووزارة الخارجية[٢] ، ولما كان أعضاء مجلس العموم قد بدأوا يطالبون بإحالة المسألة كلها إلى التحكيم وهو مالم تكن الحـكومة البريطانية راغبة فيه لما يستتبعه من تعقيدات سياسية طويلة[٣] . ولما كان هناك بقية من أمل فى تسوية المسألة عن طريق المفاوضة رأى البريطانيون الموافقة على المفاوضات المقترحة ... ولـكن بشروط :

شرط أول : ضرورة تخويل مختار باشا رسمياً من استنبول لمفاوضة الخديوى[٤].

شرط ثان : أن تتم اللقاءات الخاصة بهـذه المفاوضات بحضور رئيس وزراء الخديوى وزير خارجيته[٥].

ورغم تنفيذ هذين الشرطين إلا أن المسئولين البريطانيين فى القاهرة أو استنبول قد أعربوا عن تشاؤمهم من نتيجة هذه المفاوضات وأن قصد الأتراك منها ليس إلا « محاولة لإضاعة الوقت »[٦] .

وينقلنا هذا إلى المرحلة الأخيرة من مراحل محاولات حل المشكلة قبيل الأزمة وهى مرحلة المفاوضات .

خامساً — المفاوضات المصرية — التركية :

تم أول لقاء بين مختار باشا من ناحية وبين الخديوى ورئيس وزرائه ووزير خارجيته من ناحية أخرى يوم الأربعاء ١١ أبريل ١٩٠٦ .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 15, Cromer to Grey, April 5, 1906, Tel. No. 87.

(٢) Ibid., No. 166, Admiralitiy to Foreign Office, March 27, 1906.

(٣) من طلب المستر بيلوك Belloc عضو مجلس العموم البريطانى لوزير الخارجية فى جلسة ٢ أبريل .

Parliamentary Debates — House of Commons, Fourth Series, Vol. 155, p. 169.

(٤) Corres, Part LXV, No. 22, Cromer to Grey, April 6, 1906, Tel. No. 89.

(٥) Ibid., No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٦) Ibid., No. 16, Cromer to Grey, April 5, 1906, Tel. No. 88.

وكشف المندوب السامى العثمانى كافة الأوراق التركية فى هذا اللقاء ، فمع اعتراف مختار باشا بأن المسألة يجب أن تفسر على أساس برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ إلا أنه فسر هذه البرقية على الأسس الآتية :

١ — أن هضبة سيناء تتكون فقط من الأراضى الواقعة جنوب الخط المستقيم بين العقبة والسويس وبما أن طابة تقع جنوب هـذا الخط فهو يعترف بها كنقطة واقعة فى الهضبة وبالتالى فى مصر .

٢ — أن الأراضى المصرية شمال هذه المنطقة تسير حدودها مع الخط بين رفح والسويس ، أما الأراضى التى يحدها من الشمال الغربى الخط بين رفح والسويس وجنوباً الخط من السويس إلى العقبـة وشرقاً الخط من العقبة إلى رفح فهى أراضى تركية .

وتحدث مختار باشا فذكر أن السلطان يعلق أهمية كبيرة لخط الحدود المقترح لرغبته فى مد خط حديدى إلى العقبة ومنه خطوط فرعية إلى السويس وبورسعيد .

ولـكن المندوب السامى التركى استدرك — بصورة مقصودة — فأعلن أنه فى إمكانه رغم رغبة الباب العالى أن يعقد معاهدة على أساس أن خط الحدود يمتد مباشرة من رفح إلى رأس محمد وبذلك يقع كل الساحل الغربى لخليج العقبة ضمن الأراضى التركية(١).

وكان معنى الاستجابة لطلبات السلطان فى رأى كرومر « السماح ببناء خط حديدى حتى شواطىء قناة السويس ، وعملية البناء ستتم طبعاً تحت إشراف الألمان . وهذه مسألة تمس مصالح بريطانيا مباشرة وعلى قدر عظيم من الأهمية فهى لن تهدد حرية مصر فحسب بل يمكن أن تشكل تهديداً تركياً خطيراً على حرية الملاحة فى قناة السويس وذلك امتثالا لطلبات قوة أوروبية أخرى »(٢).

أما الموافقة على طلب مختار باشا فقد كان يعنى :

---

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٢) Ibid., No. 39, Cromer to Grey, April 11, 1906, Tel. No. 98.

عن Blue Books : Egypt No. 2, 1906, p. 36.

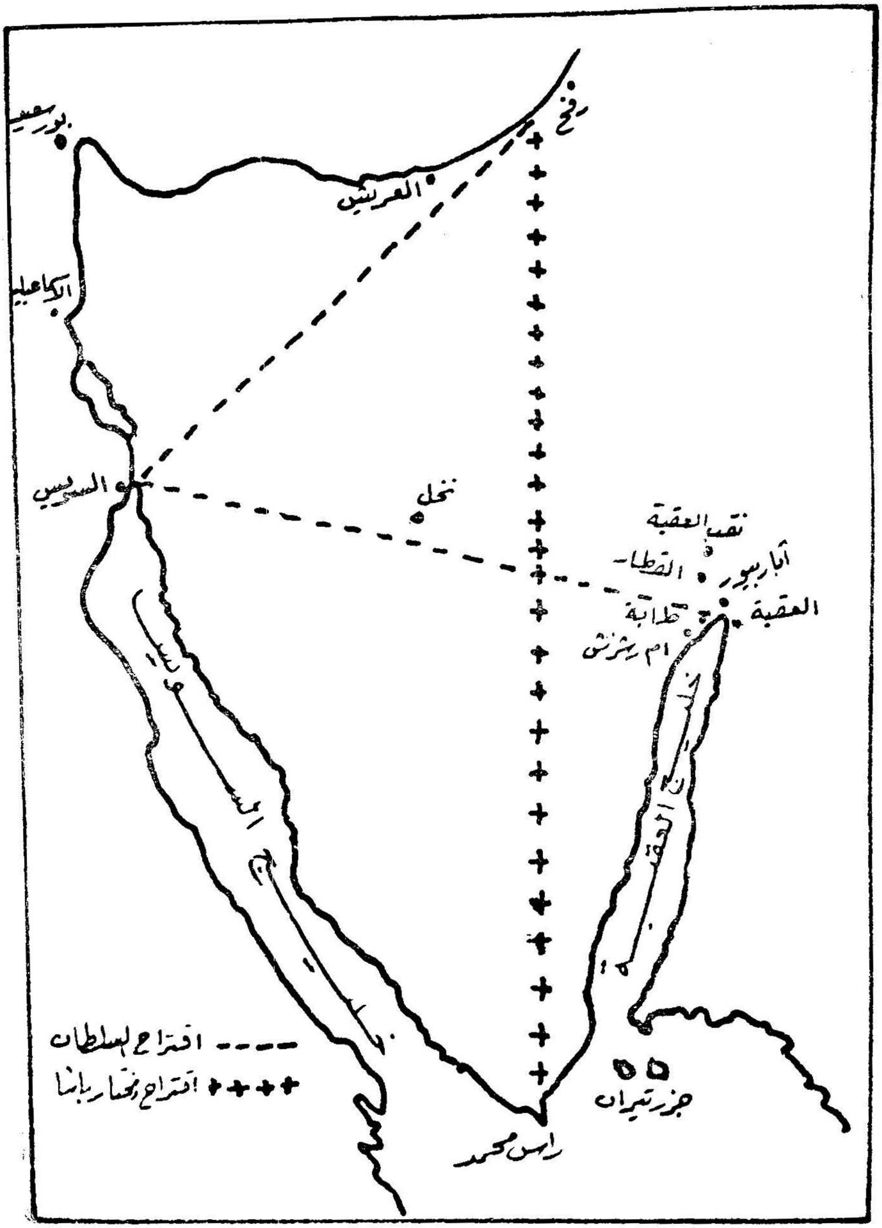

خطوط الحدود التى اقترحها الاتراك
اثناء المفاوضات

١ — غلق خليج العقبة فالقناة الصالحة للملاحة والتى تؤدى إلى هـذا الخليج عرضها ٤٠٠ ياردة ويستطيع الأتراك بنـاء قلعة فى النقطة المواجهة لجزر تيران مما يجعل الدخول إلى خليج العقبة شبه مستحيل للسفن البريطانية ويجعله من الناحية الفعلية بحراً تركياً مغلقاً يهدد الطريق إلى الهند وذلك بقوارب الطوربيد التى يمكن إرسالها بسهولة فى وحدات من العقبة .

٢ — سوف تـكون الحدود التركية على بعد ١٠٠ ميل فقط من السويس وقريبة جداً من « نخل » وهى مركز إستراتيجى مهم جداً يمكن أن تتعرض مصر باستمرار للخطر منه .

٣ — سوف تصبح بعض القبائل العربية التى ظلت دائماً تحت الإدارة المصرية تحت الإدارة التركية وهذا الإجراء سيسبب متاعب كبيرة فى شبه جزيرة سيناء[1] .

وبناء على ذلك تقرر رفض كافة وجهات النظر التركية وقطع المفاوضات التى بدأها مختار باشا والتفاهم رأساً مع استنبول .

وأرسل الخديوى رده — بناء على نصيحة كرومر — على مقترحات مختار باشا فى برقية طويلة إلى الصدر الأعظم يوم ١٤ أبريل يبلغه فيها أن الوسيلة الوحيدة للوصول إلى اتفاق مقبول هو اتخاذ برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ كأساس للمفاوضة وأنه إذا ما كان هناك بعض البقاع المعينة مشكوك فى وضعها ، فيمكن أن يمسح المهندسون خط الحدود بين رفح والعقبة ، وبدلا من أن ينتهى هذا الخط عند قلعة العقبة يمكن أن يسير إلى نقطة على ساحل الخليج تبعد ما لا يقل عن ثلاثة أميال إلى غرب القلعة .

وختم الخديوى برقيته أنه إذا ما قبلت مقترحاته فسوف تصبح طابة ضمن الأراضى المصرية وعلى القوات التركية وقتئذ أن تنسحب منها[2] .

ولأكثر من أسبوع لم يحدث شىء يستحق التسجيل . . وفجأة تحركت كافة أجهزة الدولة العثمانية تبذل كل جهودها لدفع الموقف إلى أزمة . . وعلى حد تعبير السير إدوارد جراى « يبدو أن السلطان عبد الحميد كان متوقاً لإنذار »[3] .

(١) Corres, Part LXV, No. 44, Cromer to Grey, April 13, 1906, Tel. No. 101.

(٢) Ibid., No. 46, Cromer to Grey, April 14, 1906, Tel. No. 103.

(٣) Grey of Falladon, op. cit., p. 125.

الأزمة :

كان أول رد فعل لبرقية الخديوى إلى الصدر الأعظم المؤرخة فى ١٤ أبريل رد الأخير عليه بعد ثمانية أيام كاملة — ٢٢ أبريل — ببرقية طويلة يذكر فيها أن الأراضى المذكورة فى الفرمان الإمبراطورى لا تحوى سيناء أو خليج العقبة وأن برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ التى تعتبر ملحقاً لفرمان التولية تشير فقط إلى القسم الغربى من سيناء ، ويستطرد الصدر الأعظم فى برقيته بأنه قد تقرر إقامة متصرفية العقبة وأن على الخديوى اتخاذ الخطوات المناسبة لإنهاء هذه المسألة وعدم السماح بأى تدخل خارجى من أى نوع[١].

كما وصل فى نفس الوقت خطاب خاص من السلطان إلى الخديوى بنفس المعنى ويكرر المطالبة « بنهو هـذا الأمر بدون إعطاء فرصة لتمكين المداخلة الأجنبية واستكمال الأسباب لإعادة ارتباط موقع العقبة بولاية الحجاز كما تقتضيه شيمتكم الجليلة المنطوية على العلم بدقائق الأمور »[٢] .

وفى ٢٥ أبريل طلب مختار باشا مقابلة الخديوى ، وتمت المقابلة بحضور رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، ولم يقدم المندوب السامى التركى أى اقتراحات جديدة فى هذه المقابلة وإنما قدم تهديداً .. فقد ذكر أنه يجب أن يفهم أن المسألة لن تبحث أكثر من ذلك وأنه يجب إطاعة أوامر الحكومة العثمانية[٣].

وفى نفس اليوم حدث عدوان آخر على الحدود المصرية فقد أبرق مراسل المقطم فى العريش بأن الجنود العثمانيين قد أزالوا الأعمدة الرخامية المقامة فى نقطة رفح بمنزلة حدود ثابتة بين الحكومة المصرية والحكومة الحميدية . مع أن تلك الأعمدة قد نقش عليها اسم الجناب العالى وتاريخ حضوره إلى تلك النقطة فألقته الجنود التركية على الأرض ولم تحترم الإسم الكريم المنقوش عليه[٤].

---

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٢) أحمد شفيق : المصدر السابق ص ٨٥ .

(٣) Corres, Part LXV, No. 72, Cromer to Grey, April 25, 1906, Tel. No. 113.

(٤) المقطم — العدد ٥١٨٩ بتاريخ ٢٦ أبريل ١٩٠٦ .

وقد طير كرومر الخبر إلى لندن وذكر معه أن أهالى العريش قد أبدوا ما لا مزيد عليه من الانزعاج بسبب هذا الحادث(١).

ووصلت التقارير أيضاً إلى القاهرة بأن الحامية التركية فى العقبة وصلها إمدادات متزايدة من المدافع والرجال ، وقد صرح رشدى باشا قائد هذه الحامية بأن فى نيته التقدم نحو نخل .

يضاف إلى كل ذلك أن الجرائد المصرية المؤيدة للجامعة الإسلامية قد ضاعفت من حملتها على موقف بريطانيا إلى حد أن كرومر كتب فى هذا الوقت « أنه من الممكن الآن أن يتحول أى حادث صغير إلى ثورة دينية عارمة » .

والواقع أن عملية الإثارة لم تقتصر على الصحف بل ألقيت الخطب فى بعض الجوامع وأقامت بعض الطوائف الاحتفالات الدينية بهدف الدعاية وإظهار التأييد للسلطان ، وقد رأى كرومر أصبع مختار باشا وراء كل هذا(٢).

وكان على الحكومة البريطانية أمام كافة هذه الإجراءات التركية أن تتخذ موقفاً حاسماً ومن ثم بدأت فى خلال الأيام القليلة فى أواخر أبريل وأوائل مايو تتبلور فكرة تقديم « إنذار » للحكومة العثمانية وينقلنا هذا إلى قصة تلك الأيام ...

مقدمة الإنذار :

كانت فكرة القيام بعمل حاسم ضد الأتراك تراود المعتمد البريطانى فى القاهرة منذ أواخر مارس . وقد رفض كرومر كل تفكير يشتم منه أى استسلام لمطالب السلطان أو لبعضها لأنه « سوف ينتج أسوأ الأثر إذا ما أذعنا لرغبة السلطان فى تمزيق شروط الفرمان بأى وسيلة » ، ولكنه مع ذلك طالب بالتمهل « فمن المرغوب منح جلالته كل فرصة للخضوع لاحتجاجاتنا حتى إذا اضطررنا إلى القيام بأى عمل حاسم لا يكون لديه حجة »(٣) .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 75, Cromer to Grey, April 25, 1906, Tel. No. 117.

(٢) Ibid., No. 62, Cromer to Grey, April 22, 1906, Tel. No. 109.

(٣) Corres, Part LXIV, No. 164, Cromer to Grey, March 27, 1906, Desp. No. 80.

وفكرة عدم تقديم أى تنازلات عادة يكررها السفير البريطانى فى استنبول بعد ذلك بشهر كامل حيث رأى « أن مثل هذا العمل سيعتبر علامة ضعف وسيزيد من الصعوبات التى تواجهنا »(١) .

ولكن قبل اتخاذ « الإجراء الحاسم » المطلوب كان على الحكومة البريطانية أن تبحث أمرين : أولهما تأمين موقفها الدولى والمحلى قبل اتخاذ هذا الإجراء ، وثانيهما نوع الإجراء المرغوب .

١ — تأمين الموقف الدولى والمحلى :

(ا) الموقف الدولى : لما كان توقيت نشوب الأزمة متفقاً مع انعقاد مؤتمر الجزيرة الثانى فى يناير ١٩٠٦ فقد تصور البريطانيون أن ألمانيا تعمل على تحويل أنظارهم إلى شىء آخر فدفعت السلطان إلى اختلاق المشكلة(٢) .

وقد تضاعف الشك فى موقف ألمانيا نتيجة لاصطحاب الحملة الصحفية على البريطانيين بمقالات مليئة بالمديح والثناء على « دولة ألمانيا » لا سيما من اللواء التى زار رئيس تحريرها مصطفى كامل برلين فى تلك الفترة وبقى بها بعض الوقت .

أما فرنسا فمنذ البداية وقد أبدت عن طريق سفيريها فى لندن واستنبول الاستعداد لتقديم كل معونة ممكنة للجانب البريطانى(٣) .

ومع انتهاء مؤتمر الجزيرة خلال أبريل تحول الموقف تماماً لصالح الجانب البريطانى ... فبالنسبة لألمانيا تقدم « الكونت مترنيخ » سفيرها فى لندن إلى وزير الخارجية البريطانية بتأكيدات مؤداها أن الحكومة الالمانية لا تقدم أى عون أو تأييد للحكومة التركية فى موقفها من مسألة طابة ونفى الاتهامات التى رددتها الصحافة البريطانية بهذا المعنى(٤) .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 65, O'Conor to Grey, April 23, 1906, Tel. No. 66.

(٢) Corres, Part LXIV, No. 50, Findlay to Grey, Jan. 27, 1906, Desp. No. 14.

(٣) Ibid., No. 129, O'Conor to Grey, March 5, 1906, Desp. No. 150.

(٤) Corres, Part LXV, No. 97, Grey to Sir F. Lasselles (Berlin) April 30, 1906, Tel. No. 122.

أما فرنسا فقد عبرت جريدة الطان فى مقال لها ٢٨ أبريل عن موقف الحكومة الفرنسية بأنها « متفقة تماماً مع بريطانيا بشأن مسألة الحدود المصرية — التركية وأنها سوف تنفذ كافة التزاماتها الناتجة عن الاتفاق الودى فى ٨ أبريل ١٩٠٤ وأن على أصدقائها الإنجليز أن ينتظروا نفس المعونة الودية التى قدموها فى مؤتمر الجزيرة »(١).

وقد تمت لقاءات متعددة يوم ٣٠ أبريل بين وزير الخارجية البريطانية وسفراء الدول الصديقة فقد اجتمع أولا مع المسيو كامبو وأبلغه بالموقف ، وكان رأى السفير الفرنسى وجوب استخدام إجصاء قوى مع الأتراك(٢)، كما اجتمع بالسفير الروسى الذى رأى إبلاغ حكومته على الفور بالموقف(٣).

وكانت ردود الحكومتين مشجعة للغاية فلم تكتف الحكومة الفرنسية بتقديم تأييدها ، بل أن المسيو بواتيرو Boutiron السفير الفرنسى فى سان بطرسبرج تحادث مع الكونت لامسدروف Lamsdroff وزير الخارجية الروسى فى المسألة مما دعا الأخير إلى إرسال تعليماته إلى المسيو زينوفيف السفير الروسى فى استنبول لينسق جهوده مع زميليه الفرنسى والإنجليزى للضغط على الباب العالى .

وقد أعرب الكونت لامسدروف للسفير البريطانى المستر رايس عن رغبته فى عمل مشترك للسفارات الثلاث فى استنبول(٤) .

كما أبلغ السفير الفرنسى البريطانيين بصورة رسمية بأن حكومته قد أرسلت تعليماتها لسفيرها فى استنبول لاستعمال كل نفوذه لإجبار السلطان على الموافقة على المطالب البريطانية(٥) .

وبهذا أصبح الجو الدولى ممهداً تماماً لاتخاذ « الإجراء الحاسم » .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 92, Sir F. Bertie to Grey, April 28, 1906, Desp. No. 183.

(٢) Ibid., No. 96, Grey to Bertie, April 30, 1906, Tel. No. 241.

(٣) Ibid., No. 98, Grey to Spring Rice, April 30, 1906, Tel. No. 195.

(٤) Ibid., No. 111, Spring Rice to Grey, May 2, 1906, Tel. No. 80.

(٥) Ibid., No. 115, Grey to Bertie, May 2, 1906, Tel. No. 57.

(ب) الموقف المحلى : زادت حدة الجرائد المصرية ذات الاتجاه الإسلامى فى الأيام الأخيرة من أبريل وأوائل مايو إلى درجة كبيرة فى هجومها على التصرفات البريطانية فى المسألة برمتها . فقد هاجمت إنكار حقوق سيادة الدولة العلية على مصر حيث أن « كل طلبات مولانا السلطان مجابة لدى مولانا الخديوى وأن المصريين لا يريدون مساعداً لهم ضد سيدهم فليرجع الدخيل ويتخذ عن ذلك باباً »(١) .

وكتب مصطفى كامل فى اللواء بأنه « لا يسلم بأن لانجلترا الحق فى الدفاع عن بلادنا ضد الدولة العلية إلا كل راغب فى سيادة الإنجليز علينا لأنه ليس لانجلترا صفة شرعية ولا رسمية فى هذا القطر »(٢) .

ونصحت جريدة « الظاهر » انجلترا بعدم التهور فى مسألة العقبة فإن عليها أن «تعلم أنها وإن كانت ذات ممالك واسعة فنصف ممالكها يرى طاعة مولانا الخليفة الأعظم ، فهل إذا استمرت فى عنادها لا ترى خطراً على السلام العام وإن لم يكن فهل لا يوجد خطر على مستعمراتها التى يقطنها المسلمون »(٣) .

وتقدم لنا نفس الجريدة وصفاً لأحوال المصريين فى تلك الأيام فتقول « إن الفتيان استعادوا من آبائهم وأجدادهم قصص الثورة العرابية وتساءلوا عما يصنعون لو اشتعلت نيران القتال على حدود القنال .

« وسرت الأخبار إلى العامة وما أسرع سريان تلك الأنباء فتلقفوها بأسرع ما يخطف الظمآن إناء الماء . فلم يكن أحدنا يسير فى طريق أو يمر بجماعة أو يحادث عامياً إلا ويسرى التحمس فى حديثه »(٤) .

وبسبب هذه اللهجة العنيفة وهذا الجو العام كانت احتمالات ردود فعل ضخمة فى مصر نتيجة لاتخاذ الإجراء المنتظر كبيرة ، ولهذا فقد رؤى قبل اتخاذ هذا الإجراء أن

(١) جريدة « الأمة » فى ٢٢ أبريل ١٩٠٦ مقال بعنوان « لم يتداخل الانجليز فى مشكلة العقبة » .

(٢) جريدة « اللواء » فى ٢٢ أبريل ١٩٠٦ مقال بعنوان « مسئلة طورسينا » .

(٣) جريدة الظاهر فى ٣٠ أبريل ١٩٠٦ .

(٤) جريدة الظاهر فى ١٣ مايو ١٩٠٦ .

يتم زيادة جيش الاحتلال البريطانى فى مصر(١) .

وطلب زيادة الحامية البريطانية فى مصر كان كرومر يلح فى تلبيته منذ أوائل أبريل كوسيلة للضغط على السلطان(٢) ، ولما أخذت الأزمة تطل برأسها زاد إلحاح المعتمد البريطانى لزيادة جيش الاحتلال وكان رأيه أن القوة الموجودة فى مصر وقتذاك لا تكفى إلا للسيطرة على القاهرة والإسكندرية فقط .. ولكن ماذا عن الباقى(٣) .

وما لبثت وزارة الخارجية البريطانية أن وافقت على قرار إرسال القوات المطلوبة ورأت إعلان هذا القرار بصورة عامة ليكون له تأثيره المطلوب على الرأى العام فى داخل مصر(٤) .

وفى ٢٦ أبريل صدرت الأوامر بتحرك ثلاثة فيالق من كريت إلى القاهرة تعززها قوة أخرى من مالطة إلى جانب إرسال قوة من المدفعية من بريطانيا نفسها على أن يتم تحرك هذه القوات قبل آخر الشهر(٥) . وبالفعل تم وصول أغلب هذه القوات قبل اتخاذ « الإجراء الحاسم » .

وقد هاجمت الجرائد المصرية هذا الإجراء وتساءلت عمن طلب هؤلاء الجند « هل طلبتهم مصر حتى تتكفل بنفقتهم مع العلم بأنها تنفق فى العام على إخوانهم المعسكرين فى قصر النيل والعباسية والقلعة نحو ٨٠٠ ألف جنيه . أليس من الظلم أن تكلف مصر بمبلغ ١٦٠ ألف جنيه لهؤلاء القادمين مع أننا لم نطلبهم ولسنا فى حاجة إليهم ، وليست مصر فى حال تدعو إلى الخوف والقلق حتى تحشد لها الجنود وتجند الفرق »(٦) .

كما عملت السلطات البريطانية فى القاهرة على تدعيم مركزها الداخلى بإجراء آخر وهو المواجهة السريعة لتحطيم الأتراك لأعمدة الحدود عند رفح ، وعلى هذا

---

(١) Corres, Part LXV, No. 71, Grey to Cromer, April 24, 1906, Tel. No. 52.

(٢) Ibid., No. 11, Cromer to Grey, April 4, 1906, Tel. No. 84.

(٣) Ibid., No. 47, Cromer to Grey, April 16, 1906, Tel. No. 104.

(٤) Ibid., No. 55, Grey to Cromer, April 19, 1906, Tel. No. 45.

(٥) Ibid., No. 76, War Office to Foreign Office, April 26, 1906.

(٦) جريدة الظاهر فى ٢ مايو ١٩٠٦ .

فقد اقترح كرومر إرسال البارجة « منيرفا » التي كانت راسية آنذاك في بور سعيد إلى العريش أو رفح لتحرى حقيقة الموقف وأن يقدم قائدها الكابتن ويموث Weymouth احتجاجاً شديداً للسلطات التركية إذا وجد أن الأعمدة قد أزيحت فعلا[١] .

وفعلا صدرت التعليمات لمنيرفا في ٢٧ أبريل لتقوم بالمهمة التي اقترحها المعتمد البريطاني في القاهرة[٢] .

وفي أول مايو قدم الكابتن « ويموث » التقرير المطلوب ، وأبلغ أن الأعمدة قد أزاحها الترك فعلا ، وذكر أنه رغم محاولة الترك لمنع البارجة البريطانية من الاقتراب من البر ، إلا أن القائد الإنجليزي ومعه موظف مصري كبير هو « نعوم بك شقير » قد تمكنا من مقابلة قائد القوة العثمانية في رفح وتسليمه الاحتجاج[٣].

٢ — نوع الإجراء المطلوب :

لما كان قد ثبت عدم جدوى المفاوضات بعد تلك المحاولات الطويلة التي تمت منذ احتلال الأتراك لطابة حتى أوائل مايو ١٩٠٦ ، ولما كان طرفا النزاع قد رفضا الالتجاء إلى الوسائل السلمية الأخرى سواء بالتحكيم الذي رفضته الحكومة البريطانية ورآه السلطان « مدعاة لتعقيدات متعددة لا ترغبها الحكومة العثمانية »[٤] أو بالعرض على محكمة لاهاى التي رفضها كرومر « لأنها ستكون فرصته لألمانيا لمعاملتنا بالمثل على موقفنا في مؤتمر الجزيرة ، وذلك بإثارة المسألة المصرية كلها »[٥] ، كما رفضها السلطان في برقية له إلى سفيره في لندن وذكر أنه « قوى بما فيه الكفاية

(١) Corres, Part LXV, No. 79, Cromer to Grey, April 26, 1906, Tel. No. 118.

(٢) Ibid., No. 83, Grey to Cromer, April 27, 1906, Tel. No. 50.

(٣) Ibid., No. 103, Cromer to Grey, May 1, 1906, Tel. No. 129.

(٤) Ibid., No. 59, Inc. No. 6, Yildiz to Musurus Pasha, March 25, 1906.

(٥) Ibid., No. 39, Cromer to Grey, April 11, 1906, Tel. No. 98.

الدفاع عن حقوقه »[١] . نقول إنه بعد استنفاذ هذه الوسائل كان من المنتظر أن تكون طبيعة الإجراء المطلوب عسكرية بالضرورة .

وقد تقرر منذ البداية ألا يكون هذا الإجراء من ناحية البحر الأحمر حتى لا يتخذ ذريعة بأنه تهديد للأماكن المقدسة الإسلامية مما يثير ثائرة الشعور الإسلامى[٢].

والواقع أن الحكومة البريطانية كانت حريصة للغاية منذ البداية على تجنب إثارة المشاعر الإسلامية سواء داخل مصر أو خارجها لا سيما أن تحذيرات متعددة قد وصلتها فى هذا الشأن ، ففى خلال مقابلة بين السير أوكونر والسلطان عبد الحميد فى ٥ مارس ألمح الأخير إلى خطورة الموقف البريطانى « لأن الأراضى موضع النزاع ذات صلة مباشرة بالمراكز الإسلامية المقدسة »[٣]، كما نبه بلنت أيضاً فى نفس الوقت إلى خطورة مسألة سيناء لصلتها « بطريق الحج البرى بين القاهرة والمدينة »[٤].

كما تقرر أيضاً استبعاد أى إجراء عسكرى محلى ، فعند ما اقترح السفير البريطانى فى استنبول أن تقوم قوة انجليزية بالتقدم إلى المناطق محل النزاع وطرد القوات التركية من طابة بل ومن العقبة إذا لزم الأمر[٥] رفض وزير الخارجية هذا الاقتراح لأنه سيستدعى تجميع قوات كبيرة لطرد الأتراك والسيطرة على المنطقة كما أن حرارة الجو فى هذا الوقت من العام — مايو — كانت لا تشجع على مثل هذا الإجراء[٦] .

وقد رؤى أن أنسب إجراء هو « مظاهرة بحرية فى شرق البحر المتوسط » بالقرب من السواحل التركية ، فقد اقترح السير إدوارد جراى أن يتجمع الاسطول

---

(١) Corres, Part LXV Inc. in No. 37, Cromer to Grey, April 10, 1906, Tel. No. 58.

(٢) Ibid., No. 79, Cromer to Grey, April 26, 1906, Tel. No. 118.

(٣) Corres, Part LXIV, No. 129, O'Conor to Grey, March 5, 1906, Desp. No. 150.

(٤) Blunt, W.S., My Diaries, p. 133.

(٥) Corres, Part LXV, No. 109, O'Conor to Grey, May 2, 1906, Tel. No. 75.

(٦) Ibid., No. 114, Grey to O'Conor, May 2, 1906, Tel. No. 62.

البريطانى أولا فى بيريه فى اليونان وإن لم يكف هذا لإذعان العثمانيين تتقدم قطع هذا الأسطول إلى جزيرتى لمنوس Lemnos وميتلين Mytilene الواقعتين فى بحر إيجه والتابعتين للأتراك وأن تظل هناك حتى يمكن الوصول إلى تسوية مرضية[١] .

وكانت موافقة ممثلى الحكومة البريطانية فى القاهرة واستنبول تامة على هذا الإجراء فقد ذكر أوكونر « أن السلطان سيذعن لمنطق القوة وذلك بالمظاهرات البحرية فى مياه الليفانت »[٢] .

ولم يعد باقياً بعد كل ذلك سوى تقديم الإنذار واتخاذ الإجراءات العسكرية والسياسية اللازمة لوضعه موضع التنفيذ .

الإنذار :

بعد أن تقرر نوع العمل الذى رأت الحكومة البريطانية اتخاذه بدأت الاتصالات بالدول الصديقة لاطلاعها على هذا القرار ، وكان أكثر هذه الدول حماساً لمعاونة الإنجليز هى فرنسا التى ذكر سفيرها فى لندن المسيو بول كامبو أن التعليمات قد أرسلت على الفور للسفير الفرنسى فى استنبول لاستعمال نفوذه لإجبار السلطان على الموافقة على المطالب البريطانية[٣] . كما تم الاتصال أيضاً بالسفيرين الروسى والإيطالى فى لندن فأبدى الأول استعداد بلاده للمعاونة[٤] بينما أبدى الثانى ترحيب بلاده بهذه الخطوة[٥] .

ولكن يجب أن نسجل هنا أن وزارة الخارجية البريطانية لم تكن راغبة من هذه الدول سوى فى « معاونة دبلوماسية محددة » أما أى إجراءات عنيفة فينفرد بها الإنجليز وحدهم لأنهم قادرون عليها من ناحية وخوفاً من رد فعل إسلامى عام نتيجة لتجمع الدول الأوربية ضد دولة الخلافة من ناحية أخرى[٦] .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 93, Grey to Cromer, April 30, 1906, Tel. No. 55 and to O'Conor, Tel. No. 58.

(٢) Ibid., No. 109, O'Conor to Grey, May 2, 1906, Tel. No. 76.

(٣) Ibid., No. 115, Grey to Bertie, May 2, 1906, Tel. No. 57.

(٤) Ibid., No. 127, Grey to Spring Rice, May 3, 1906, Tel. No. 81.

(٥) Ibid., No. 128, Grey to Sir E. Egerton (Rome), May 3, 1906, Tel. No. 59.

(٦) Ibid., No. 126, Grey to O'Conor, May 3, 1906, Tel. No. 64.

ثم من الجانب العسكرى تمت دراسة إمكان انضمام بعض قطع الأسطول البريطانى في مصر إلى بقية الأسطول الذى تقرر استخدامه فى تنفيذ الإجراء العسكرى المطلوب، وقد وافق كرومر على انضمام « منيرفا » إلى هذا الأسطول ولكنه اعترض بشدة على فكرة سحب « ديانا » من العقبة حتى « لا يحتل الأتراك جزيرة فرعون ونخل مما يسبب اضطراباً شديداً فى العالم الإسلامى ويزيد الأمور تعقيداً ، كما أن بقاء ديانا يجعل فى الإمكان إذا تقدم الترك إلى نخل أو قناة السويس تدمير العقبة وعدم تمكين الترك من استعمال آبارها مما يجعل هذا التقدم مستحيلا »(١) وقد أخذ بوجهة نظر المعتمد البريطانى فى القاهرة فى هذه المسألة تماماً(٢) .

وبعد إتمام كل تلك الترتيبات تقدم السير أوكونر عصر يوم الخميس ٣ مايو عام ١٩٠٦ إلى وزير خارجية الدولة العثمانية بمذكرة طويلة ذكره فى أولها بفرمان تولية الخديوى عباس وبرقية ٨ أبريل ١٨٩٢ بشأن إدارة سيناء ومذكرة المعتمد البريطانى فى القاهرة لوزير الخارجية المصرى فى ١٣ من نفس الشهر بتفسير هذه البرقية . . واستطردت المذكرة « وخلافاً لما جاء فى تلك المذكرة فإن الحكومة الامبراطورية قد احتلت طابة بقوة عسكرية رفضت أن تسحبها رغم تكرار الطلب بذلك ورغم أن طابة واقعة ضمن الأراضى الخاضعة لإدارة سمو الخديوى بدون شك .

« وإن ما جاء فى مراسلات الصدر الأعظم إلى الخديوى جعل مفاوضات القاهرة مستحيلة بالمرة كما أن معنى قبول ما جاء فى هذه المراسلات خطورة الموقف على قناة السويس ومصر . وقد استمرت المفاوضات حتى الآن لعدة أسابيع دون تقدم يذكر بل نتج عنها زيادة ادعاءات الباب العالى فيما يختص بإدارة مصر .

« وعلى الحكومة العثمانية أن تعلم أن الحكومة البريطانية لن تظل ساكتة على انتهاك حقوق سمو الخديوى والعدوان على أراضيه .

« وعلى ذلك فلى الشرف أن أبلغ سموكم أن وزير الخارجية البريطانية قد أصدر لى التعليمات لإبلاغكم أنه على الحكومة العثمانية أن توافق على تعيين خط الحدود بين رفح إلى رأس خليج العقبة على أساس برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ وأن تجلو عن طابة .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 124, Cromer to Grey, May 3, 1906, Tel. No. 131.

(٢) Ibid., No. 134, Grey to Cromer, May 4, 1906, Tel. No. 62.

« وأن أى تأخير سوف ينتج عنه زيادة صعوبة الموقف ، وأضيف إلى ذلك أنه إذا لم يتحقق هذا خلال عشرة أيام فستكون النتائج وخيمة للغاية »[١] .

* * *

من الخيوط المتشابكة المعقدة لقصة الأيام العشرة التالية نستطيع أن نخرج بصورة تبدأ خطوطها بالتحركات العسكرية البريطانية يصحبها مساندة دولية وتأييد من الرأى العام البريطانى مع احتياطات أمن واسعة داخل مصر لحمايتها من أى هجوم تركى محتمل .

والجانب الآخر من الصورة تتضح فيه المحاولات التركية للتملص من خيوط الأخطبوط البريطانى وفشلها جميعاً ، بل يمكن أن نلاحظ أنه كلما زادت هذه المحاولات زاد ضغط أذرع الأخطبوط .

وكان طبيعياً أن تكون الخطوط الأخيرة لهذا التسلسل المنطقى استسلام تركى كامل ونهاية للأزمة .

وبناء على رسم هذه الجوانب نستطيع إبراز التفاصيل .

الجانب الأول : التحركات البريطانية والموقف الدولى والداخلى :

صدرت الأوامر صباح ٤ مايو للأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط بقيادة الأميرال لورد تشارلز برزفورد Beresford بالتقدم إلى بيريه وفعلا بدأت قطع هذا الأسطول فى تنفيذ الأوامر على الفور بعد أن انضمت إليها البارجة « منيرفا » التى كانت قد أنهت مهمتها فى رفح[٢] .

ومع إعلان هذه التحركات البحرية تقدم السفير الفرنسى فى استنبول إلى وزير الخارجية التركية بنصيحة قوية بالاستجابة لمطالب الإنجليز[٣] .

وفى نفس الوقت صدرت التعليمات إلى المسيو « زينوفيف » السفير الروسى

---

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٢) Ibid., No. 130. Admirality to Foreign Office, May 4, 1906.

(٣) Ibid., No. 131, O'Conor to Grey, May 4, 1906, Tel. No. 82.

فى استنبول بتنسيق جهوده مع زميليه الفرنسى والبريطانى لزيادة الضغط على الباب العالى(١) .

وقد أبلغ وزير الخارجية الروسى السفير البريطانى فى سان بطرسبرج أنه مما يسعده جداً عودة التعاون مع الدولتين اللتين تعاونت معهما روسيا فى مؤتمر قريب — يقصد مؤتمر الجزيرة (٢) .

ووصل الأمر بالتعاون البريطانى — الفرنسى — الروسى فى استنبول إن تمكنت السفارة الفرنسية من الحصول — بطريقة ما ! — على خريطة وضعتها قيادة الجيش الخامس التركى للحدود المقترحة التركية — المصرية فسلمتها المسيو كونستانس إلى زميله السير أوكونر على الفور(٣) .

ولكن كان موقف « ألمانيا » هو الذى يحيط به عديد من علامات الاستفهام فالمصالح الألمانية الكبيرة التى نمت فى الدولة العثمانية فى هذا الوقت يضاف إليها مقالات الصحافة الداعية للجامعة الإسلامية فى القاهرة — على رأسها اللواء — والتى كانت تمجد دائماً الصداقة العثمانية — الألمانية إلى جانب زيارات البارون فون أوبنهايم Oppenheim — السكرتير الشرقى للقنصلية الألمانية — المتكررة لمختار باشا إبان الأزمة . . . كل هذا ألقى الريب والشكوك حول الموقف الألمانى من الصراع البريطانى العثمانى .

وقد دعا هذا السير إدوارد جراى فى مقابلة له مع السفير الألمانى فى لندن أن ينبه هذا السفير لتصرفات البارون أوبنهايم وذكره أن المعونة التى قدمها الألمان للسلطان أثناء أزمة مقدونيا قد شجعته أن يذهب بعيداً (٤) .

كما تحدث المسيو كامبو السفير الفرنسى فى لندن مع زميله الألمانى وأبلغه رأى الحكومة الفرنسية من أن البارون أوبنهايم بأعماله فى القاهرة لا يضر فحسب

---

(١) Corres, Part LXV, No. 162, O'Conor to Grey, May 3, 1906, Desp. No. 805.

(٢) Ibid., No. 154, Spring Rice to Grey, May 3, 1906, Desp. No. 293.

(٣) Ibid., No. 148, Spring Rice to Grey, May 6, 1906, Tel. No. 86.

(٤) Grey of Fallldin, Op. cit., p. 130.

بالمصالح البريطانية فى مصر بل يضر بمصالح كافة الدول التى لها مستعمرات فى العالم الإسلامى بتشجيعه روح الجامعة الإسلامية(١) .

ومع حرص بريطانيا وفرنسا على إبقاء المانيا بعيدة عن حلبة الصراع إلا أنها منذ البداية كانت بعيدة فعلا ، ففى ٢٩ إبريل نشرت مجلة North German Gazette شبه الرسمية مقالا تنفى أن ألمانيا لها أى يد فى تشجيع تركيا فى موضوع العقبة ، كما أن مجلة فرانكفورتر زيتونج Frankfortur Zeitung التى صدرت قبل ذلك بيوم واحد كتبت مقالا آخر طويل عن الموضوع وقدمت نفس النفى(٢) .

وفى ٢ مايو قابل وزير الخارجية الألمانية السفير التركى فى برلين وسأله عن السبب الذى يدفع السلطان لنشر الشائعات بأن ألمانيا معه فى صراعه مع إنجلترا(٣) .

وفى اليوم التالى قابل السفير البريطانى مسئولا كبيراً فى وزارة الخارجية الألمانية صرح له انه « قدتم أفهام السفير التركى أن حكومته لا يمكن أن تساعد السلطان فى هذا الموضوع وأن النصيحة التى قدمت له فى هذا الشأن لا تتعدى حث حكومته على التفاهم مع الحكومة البريطانية »(٤) .

وقبيل نهاية الأزمة نشرت مجلة دوتيش كولونيال زيتونج Kolonial Zeitung Deutche المعبرة عن آراء وزارة الخارجية الألمانية تشير إلى عقم الرأى القائل بأن ألمانيا قد شجعت السلطان فى مسألة الحدود المصرية — التركية وذلك لتعارض هذا الرأى مع المصالح الألمانية الناتجة عن تزايد مصالحها التجارية فى مصر(٥) .

ومعنى ذلك أن العمل العسكرى البريطانى من الوجهة الدولية — كانت له حرية الحركة تماماً .

---

(١) Documents Diplomatiques Français, 1871-1914, 2me Serie (1901-1911) Tome X, No. 51 Cambon à Bourgois 11 Mai, 1906.

(٢) Cores, Part LXV, No. 152, Lascelles to Grey, April 30, 1906, Desp. No. 72.

(٣) Ibid., No. 277 Cromier th Grey May 26, 1906 Desp. No. 72.

(٤) Ibid., No. 153, Lascelles to Grey, May 3, 1906, Tel. No. 127.

(٥) Ibid., No. 267, Lascelles to Grey, May 15, 1906, Tel. No. 140.

يضاف إلى ذلك أن التأييد الداخلى للسياسة البريطانية فى هذه المسألة كان تاماً . وإذا استعرضنا بعض جلسات مجلس العموم إبان الأزمة لوجدنا أن كل ما دار حولها من مناقشات ينبض بالرضاء عن خطوات الحكومة وحضها على المحافظة على الحقوق المصرية[١] وعلى حماية قناة السويس[٢] .

والمحاولة الوحيدة التى بذلها بلنت Blunt لجميع الأعضاء الراديكاليين فى المجلس للاشتراك فى احتجاج ضد الإنذار على اعتبار أنه انتهاك لحقوق السلطان قد يثير ثائرة العالم الإسلامى .. هذه المحاولة قد لاقت إخفاقاً تاما لأن هؤلاء الأعضاء كانوا غاضبين على السلطان إلى درجة أن أحداً منهم لم يقبل الاشتراك فى هذا الاحتجاج[٣] .

كما أيدت الصحافة البريطانية خطة الحكومة ولم نعثر فيها سوى على ذلك الصوت الخافت لمستر بلنت عندما نشرت « المانشستر جارديان » يوم ١٢ مايو خطابه الذى أرسله إلى السير إدوارد جراى محتجاً على الإنذار الذى تم توجيهه للسلطان[٤] .

الجانب الثانى : الموقف المحلى :

أخذت الأخبار المتناثرة قبيل الإنذار وبعده تصل إلى لندن عن بعض التحركات العسكرية التركية ، فقد أبلغ المستر جون ديكسون Dickson القنصل البريطانى فى القدس فى أواخر أبريل بأن ٤٠٠ جندى تركى نزلوا فى يافا ، كما قدر عدد الأتراك الموجودين فى العقبة بـ ٢٤٥٠ رجلا[٥] .

وأرسل نفس القنصل فى ٧ مايو بأن الأوامر قد صدرت لتقوية يافا كما وصلت قوات من يافا إلى الحدود عند رفح[٦] ، وعلم فى اليوم التالى أن الأتراك يستطيعون

---

(١) أنظر سؤال المستر اشلى Ashley فى جلسة أول مايو .
Parliamentary Debates, House of Commons, — Fourth Series, Vol. 156, pp. 403-404.

(٢) أنظر سؤال المستر لبتون Lupton فى جلسة ١٠ مايو .
Ibid., Vol. 157, p. 178.

(٣) Blunt W.S. op. cit., p. 143.

(٤) Ibid., p. 144.

(٥) Corres. Part LXV No. 149, O'Conor to Grey, April 28, 1906 Desp. No. 282.

(٦) Ibid., No. 158, O'Conor to Grey, May 7, 1906, No. 89.

حشد ٢٠ ألف رجل فى معان خلال أسبوعين[١] .

وقد أزعجت هذه الأخبار كرومر الذى رأى الاستعداد لمواجهة احتمال تحرك الأتراك نحو قناة السويس .

وكانت أول خطوة تتخذ فى هذا السبيل أرسال قوة عسكرية تتكون من مائة رجل من خفر السواحل مع مدفعين ومدفع جبلى إلى « نخل » لما هو معلوم من أن سيطرة أى قوة أجنبية على ذلك المركز الاستراتيجى الهام يمكنها من أن تهدد قناة السويس [٢]

وقد أدى قلق كرومر المتزايد على سلامة القناة إلى أن يطالب بتقدم الأسطول والقوات البريطانية إليها ، ولكن قبل أن يتم هذا التقدم كان هناك ثلاثة أمور يجب أقرارها :

١ — مدى أتفاق وجود السفن الحربية فى قناة السويس أو بناء القواعد العسكرية على شاطئيها مع المادة الثامنة من معاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ .

٢ — مدى فاعلية قوات الأسطول البريطانى فى منع الأتراك عن عبور القناة إذا بقيت فى بحيرة التمساح .

٣ — مدى ما يمكن أن تقدمه وزارة الحربية من قوات من الهند أو من بريطانيا فى مثل هذه الحالة[٣] .

وقد أجاب السير ملكولم مكارويث المستشار القضائى للحكومة المصرية على التساؤل الأول من تساؤلات كرومر بأنه ليس ثمة تعارض بين اتخاذ أى خطوات للدفاع عن قناة السويس وبين معاهدة ١٨٨٨ [٤] .

وقد اهتمت وزارة الخارجية ووزارة الحربية البريطانيتان بالجوانب الأخرى التى

---

(١) Corres, Part LXV, No. 168, O'Conor to Grey, May 7, 1906, Tel. No. 91.

(٢) Ibid., No. 143, Cromer to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 136.

(٣) Ibid., No. 142, Cromer to Grey, May 5, 1906.

(٤) Ibid., No. 144, Cromer to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 137

أثارها المعتمد البريطانى بل أن وزارة الهند أيضاً تم استشارتها فى الموضوع حيث تقرر الاستعانة بقوات هندية للدفاع عن قناة السويس ومصر فى حالة الهجوم عليها وذلك لأنه كان يهم الإنجليز أن يكون جنود هذه القوات من غير المسلمين (١) .

ولما كان تطبيق المادة الثامنة من معاهدة القناة بشأن وجود قوة فيها للدفاع عنها فى حالة الضرورة القصوى يستدعى تضامن إثنين من ممثلى الدول الموقعة على هذه المعاهدة مع ممثلى بريطانيا فى القاهرة فقد تقرر إجراء مشاورات عاجلة فى هذا الشأن مع الحكومتين الفرنسية والروسية (٢) .

وتمت الاتصالات اللازمة مع السفير الفرنسى فى لندن الذى أبلغ الحكومة البريطانية استعداد حكومته التام للتعاون فى هذا الموضوع كما نجحت إتصالات مشابهة مع الحكومة الروسية فى بلوغ نفس الأهداف (٣) .

وبناء على هذه الاتصالات فقد أرسلت حملة قوية من الفرقاطات وقوارب الطوربيد إلى المياه المصرية يقودها الرير أدميرال سيرهدورث لمبتون H. Lembton وبقيت فى حالة استعداد لصد أى هجوم تركى محتمل على القناة (٤) . كذا وفقت وزارة الحربية على بقاء القوات الهندية المطلوبة رهن الاستعداد تحت طلب المعتمد البريطانى فى القاهرة(٥) .

وفى نفس الوقت تمت اتصالات سرية بين وكيل القنصل البريطانى فى غزة المستر كنز فيش Knesevish فى ١٢ مايو وبين عدد كبير من أبناء المدينة الذين ذكروا « أنهم غير راضين عن الأتراك ، وأن الإناء قد فاض بما فيه ، وأنهم على استعداد لكتابة التماس يوقع عليه كبار رجال غزة لتسليمه إلى القنصلية طالبين الحماية » .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 161, Grey to Cromer, May 7, 1906, Tel. No. 67.

(٢) Ibid., No. 173, Cromer to Grey, May 8, 1906, Tel. No. 144.

(٣) Ibid., No. 208, Grey to Cromer, May 11, 1906, Tel. No. 80.

(٤) Ibid., No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٥) Ibid., No. 183, Grey to Cromer, May 9, 1906, Tel. No. 70.

كما طالب « أفندية المدينة » وكيل القنصل أن تمتد الحدود المصرية إلى أسدود لتشملهم كما كان الوضع دائماً(١) .

وبالطبع كان لهذه الاتصالات قيمتها الكبيرة كاجراء دفاعى يمكن استعماله فى حالة الهجوم التركى المحتمل إذ يمكن معه إثارة أهالى تلك البلاد ضد الحكم العثمانى فى مثل هذه الحالة .

الجانب الثالث : المعركة السياسية

كانت أول ردود الفعل التركية للانذار البريطانى أن أرسل السلطان « نجيب باشا » كمبعوث خاص له صباح يوم ٥ مايو إلى السفير البريطانى فى استنبول برسالة يجدد فيها تأكيداته باحترام برقية ٨ أبريل وبأنه لا يدعى أى شىء غرب خليج العقبة .

وقد رد السير أوكونر على ذلك بأنه على السلطان أولا وضع هذه التأكيدات موضع التنفيذ بالجلاء عن طابة وتعيين الحدود بين سيناء وولاية الحجاز ، كما حذر مبعوث السلطان من استمرار هذا الأسلوب غير الرسمى لأن حكومته مصممة على أن تسير الأمور فى أقصى حدود الرسميات(٢) .

وفى مساء نفس اليوم عاد نجيب باشا يحمل معه من السلطان مشروع اتفاق لحل الأزمة ، أما أهم نقاط المعاهدة المقترحة فقد كانت :

١ — أن تعترف بريطانيا بسيادة السلطان على مصر .

٢ — أن يعترف السلطان بكل المعاهدات والفرمانات الخاصة بمصر .

٣ — فى حالة الضرورة يشارك بقواته فى الدفاع عن مصر وقناة السويس جنباً إلى جنب مع بريطانيا العظمى .

وذكر رسول السلطان أنه فى حالة موافقة الحكومة البريطانية على هذه المعاهدة

---

(١) Corres, Part LXV, No. 298, O'Conor to Grey, May 29, 1906.

(٢) Ibid., No. 138, O'Conor to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 83.

فسوف يتم الجلاء عن طابة وتتكون لجنة تركية — إنجليزية مشتركة لتعيين الحدود .

وكان رد أوكونر على هذا الاقتراح لا يقل عنفاً عن رده على الاقتراح الأول فقد أبلغ نجيب باشا بأنه لا يرى ضرورة لمثل هذه المعاهدة حيث أنه لا داعى لبحث مسألة اعتراف السلطان بالفرمانات التى أصدرها(١) .

كما رفض كرومر فكرة إصدار أى تصريح بسيادة السلطان على مصر « فمثل هذا الأمر لم يكن موضع تساؤل أبداً ولكن يبدو أن الهدف هو إحراز نصر ديبلوماسى سيكون له أثر كبير هنا — أى فى القاهرة »(٢).

وقد رأت استنبول بعد ذلك أن تغير من أسلوبها السياسى فقامت بمحاولة يائسة لإبعاد البريطانيين تماماً عن ميدان الصراع على اعتبار أن المسألة تخص مصر والدولة العثمانيه وحدهما ، وعلى هذا الأساس فقد أرسل الصدر الأعظم برقية إلى الخديوى فى ٧ مايو يطلب منه التفاهم مع مختار باشا بصورة مباشرة بشأن مسألة الحدود(٣) .

وكان مما جاء فى هذه البرقية « أن وضع انجلترا فى مصر يعتمد كما هو معروف على الاحتلال العسكرى للبلاد وأن تدخلها فى تلك المسألة لا يصح فهى من اختصاصك وحدك . وحيث أن السلطان قد أسند إدارة الأراضى المصرية إليكم فهو يرجوكم ألا تمكنوا أى قوة أجنبية من التدخل وفى انتظار ردكم » .

وقد بعث الخديوى — بناء على نصيحة كرومر — بالرد على برقية الصدر الأعظم بأنه ليس لديه ما يضيفه إلى آرائه السابقة فى الرد على هذا الموضوع(٤) .

وبعد فشل تلك المحاولة التركية أخذت السلطات العثمانية تتنازل شيئاً فشيئاً عن موقفها فى الوقت الذى ظل فيه المسئولون البريطانيون يتشددون ويضغطون حتى انتهت الأزمة باستسلام تركى كامل .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 140, O'Conor to Grey, May 5, 1906, Tel. No. 85.

(٢) Ibid., No. 199, Cromer to Grey, May 10, 1906, Tel. No. 104.

(٣) Ibid., No. 179, O'Conor to Grey, May 9, 1906, Tel. No. 96.

(٤) Ibid., No. 181, Cromer to Grey, May 9, 1906, Tel. No. 147.

ففى اليوم التالى لرد الخديوى استقبل وزير الخارجية التركى السير أوكونر وأبلغه أن السلطان قد أمر بانسحاب القوات العثمانية من طابة والإبقاء على الوضع الراهن فى سيناء .

ولما لم يقدم الوزير التركى تأكيدات بانسحاب القوات التركية من الأماكن الأخرى التى احتلتها رد السفير البريطانى بأن هذه المحاولة الجديدة ليست إلا إضاعة للوقت وأن الأمر قد أصبح خطيراً للغاية(١) .

وكنتيجة لمحاولة الأتراك تمييع الموقف دون إجابة محددة على الإنذار تقرر أن تحتل قوات الأسطول البريطانى جزيرتى متيلين ولمنوس يوم الأحد — يوم نهاية مهلة الإنذار — وذلك بهدف منع حركة النقل التركى فى البحر المتوسط(٢) .

كما تقرر فرض الرقابة على خط البرق التركى المار بالعريش وخط البريد الشرقى الذى تهيمن عليه شركة التلغراف الشرقية Eastern Telegrapy Company كوسيلة من وسائل الضغط على السلطان خاصة أن البرقيات التى كانت تصل من اليمن كانت تمر عن هذا الطريق(٣) وكان التحفظ الوحيد لوزارة البريد البريطانية على هذا العمل هو إبلاغ مكتب البرق الدولى فى برن به حتى لا يكون مخالفاً للمعاهدات الدولية (٤).

وخلال الوقت الذى كانت تقوم فيه السلطات البريطانية « بلوى ذراع » الدولة العثمانية تقدم السير ادوارد جراى بمقترحات أخرى كمزيد من إجراءات القهر إذا رفض الباب العالى الموافقة على الإنذار .

١ — استدعاء مختار باشا من مصر .

٢ — طرد الأتراك من خليج السلوم .

٣ — حرمان السلطان من حق الفيتو على حق مصر فى الاستدانة .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 191, O'Conor to Grey, May 10, 1906, Tel. No. 101.

(٢) Ibid., No. 194, Grey to Cromer, May 10, 1906,Tel. No. 74.

(٣) Ibid., No. 174, Cromer to Grey, May 8, 1906, Tel. No. 96.

(٤) Ibid., No. 196, General Post Office to War Office, May 11, 1906.

٤ — طلب التعويض المناسب عن كافة المصروفات التى أنفقتها الحكومة البريطانية على المظاهرة البحرية أو أية إجراءات أخرى يمكن أن تكون ضرورية .

٥ — إقرار كافة المسائل المتعلقة بين الحكومة البريطانية والباب العالى(١) .

وكانت هذه المقترحات تتفق مع رأى كرومر تماماً الذى كان يرغب فى إخراج مختار باشا من القاهرة بأى ثمن(٢) .

وفعلا صدرت التعليمات للسير أوكونر بإبلاغ العثمانيين بأن عدم استجابتهم المطالب البريطانية سيؤدى إلى تقديم مطالب جديدة لهم(٣) ولكن مع ذلك كانت الرغبة واضحة فى منح الباب العالى منفذاً بسيطاً يمكن أن ينسحب منه دون إراقة كل ماء وجهه ، وعلى هذا فقد تقرر الموافقة على طلب السلطان بتأكيد حقوقه على مصر فى أحد خطابات السفير البريطانى إليه(٤) .

وعندما قابل أوكونر الصدر الأعظم ليقدم له التحذير الجديد أبلغه الأخير أنه قد طلب من الخديوى تعيين المبعوثين الذين سيعملون مع المبعوثين الترك لتعيين الحدود الإدارية المصرية لشبه الجزيرة ، وأن الانسحاب من طابة والأماكن الأخرى سوف يبدأ تلك الليلة .

ورغم ما فى هذا الرد من الاستجابة التامة للمطالب البريطانية إلا أنه لم يرض السفير البريطانى حيث أن حل المسألة بهذه الصورة سوف يمنح الحكومة التركية الفرصة لإحياء كل ادعاءاتها فى أى وقت آخر »(٥) .

كما رفض المعتمد البريطانى فى القاهرة إقرار المشكلة بهذه الطريقة حيث أن السلطان سيعتبر أن التسوية قد تمت بالإتفاق المباشر بينه وبين الخديوى ومن ثم فلن يكون فى حاجة إلى إعادة تأكيد برقية ٨ أبريل ١٨٩٢ والتى تكون قسما من الفرمانات

---

(١) Corres, Part LXV, No. 187, Grey to O'Conor, May 9, 1906, Desp. No. 181.

(٢) Ibid., No. 206, Grey to O'Conor, May 11. 1906, Tel. No. 81.

(٣) Ibid., No. 204, Grey to O'Conor, May 11, 1906, Tel. No. 78.

(٤) Ibid., No. 202, Cromer to Grey, May 11, 1906,

(٥) Ibid., No. 211, O'conor to Grey, May 11, 1906, Tel. No. 111.

ولا يمكن تغييرها دون موافقة الحكومة البريطانية « ومن هنا فمن المحتمل جداً مواجهة هذه المسألة مرة أخرى بعد فترة قصيرة إن لم يتخذ الاحتياط الكافى »(١) .

ورغم أن الخديوى عباس الثانى قد رد على الصدر الأعظم برضائه على مقترحاته وبأنه سوف يرسل مبعوثيه لتعيين الحدود مما اعتبره البريطانيون تعويقاً لعملهم(٢) ، إلا أن السير أوكونر صمم على الحصول على رد الإنذار مما دعا وزير الخارجية التركى إلى أن يعده بإبلاغه بقرار السلطان قبل مساء ١٤ مايو (٣). كما ضغط السير جراى أيضاً على موزورس باشا فى لندن وطلب منه ضرورة وصول السلطان قبل اجتماع مجلس الوزراء البريطانى فى اليوم التالى وأن الموقف سيصبح خطيراً للغاية إذا استمرت الحكومة التركية فى تجاهلها لوضع بريطانيا فى مصر(٤) .

وأمام كل هذه الضغوط لم يكن أمام استنبول إلا الاستسلام وينقلنا هذا إلى الجانب الأخير من الصورة . . .

الاستسلام التركى :

خلال الساعات القليلة ما بين تحذيرات السير أوكونر والسير ادوارد جراى لوزير الخارجية التركية والسفير العثمانى فى لندن مساء يوم ١٣ مايو والموافقة التركية الكاملة على المطالب البريطانية عصر اليوم التالى كانت الأعصاب مشدودة تماماً والاستعدادات قائمة على قدم وساق وقد وضع احتمال الصدام قبل أى احتمال آخر .

فعندما أبلغ قائد عام أسطول البحر المتوسط كرومر بأن برقية قد وصلته من البحرية البريطانية بأن السلطان سيقبل الطلبات البريطانية على وجه التأكيد وأنه يستعد لإعادة سفن الأسطول إلى مراكزها الأصلية رفض المعتمد البريطانى بشدة هذا التفكير وأعلن أنه حتى إذا تم الوصول إلى إتفاق فلا يجب إعادة الأسطول قبل جلاء القوات التركية

(١) Corres, Part LXV, No. 217, Cromer to Grey, May 12, 1906, Tel. No. 153.

(٢) Ibid., No. 222, O'Conor to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 117.

(٣) Ibid., No. 220, O'Conor to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 115.

(٤) Ibid., No. 229, Grey to O'Conor, May 13, 1906, Tel. No. 87.

عن طابة ورفح[١] .

وقد استجاب الأدميرال تشارلز برز فورد لمطالب الساسة البريطانيين بل إنه ذكر أن فى إمكانه بالإضافة إلى احتلال متيلين ولمنوس أن يحتل جزر الأرخبيل الخمس الأخرى وكان رأيه أن احتلال رودس — مركز الوالى — سوف يؤدى إلى قيام حركة وطنية يونانية ضد العثمانيين لن يمكن القضاء عليها بسهولة[٢] .

فى نفس الوقت ظلت القبضة البريطانية فى تشددها فى الأخذ بخناق العثمانيين ، فقد أمر كرومر الخديوى بإرسال برقية إلى الصدر الأعظم مؤداها أن لا حل يرضيه سوى أن يمتد خط الحدود من رفح إلى العقبة[٣] .

ولما كان الرأى العام فى مصر يغلى وكتبت الجرائد تهاجم البريطانيين هجوماً عنيفاً فصدر اللواء يوم ١٣ مايو وقد زين صدره بمقالة بعنوان « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »[٤] كما كتب المؤيد قبل ذلك بيوم واحد مقالة بعنوان « كيف يزداد حب الدولة العلية فى مصر وكيف ينمو بغض الإنكليز » نقل بعضها عن مقالة للاهرام بنفس المعنى[٥] .. نقول إنه نتيجة لهيجان الرأى العام المصرى قرر كرومر أن ينشر الخبر بأن الباب العالى قد استجاب لكافة مطالب الحكومة البريطانية بهدف تهدئة المصريين[٦] .

والواقع أن توقعات المعتمد البريطانى فى هذا الشأن قد تحققت تماماً فى نفس يوم نشر الخبر ، ففى عصر ١٤ مايو وصلت مذكرة تركية من الباب العالى رداً على الإنذار البريطانى المؤرخ فى ٣ من نفس الشهر بها إجابة لكل المطالب التى قدمت فى هذا الشأن[٧] .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 234, Cromer to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 159.

(٢) Ibid., No. 237, O'Conor to Grey, May 14, 1906, Tel. No. 121.

(٣) Ibid., No. 235, Cromer to Grey, May 13, 1906, Tel. No. 160.

(٤) اللواء العدد ٢٠٢٦ فى ١٣ مايو ١٩٠٦ .

(٥) المؤيد العدد ٤٨٦٠ فى ١٢ مايو ١٩٠٦ .

(٦) Corres, Part LXV, No. 236, Cromer to Grey, May 14, 1906, Tel. No. 161.

(٧) Ibid., No. 239, O'Conor to Grey, May 14, 1906, Tel. No. 124.

وقد وافق الباب العالى فى مذكرته على ما جاء فى برقية جواد باشا فى ٨ أبريل ١٨٩٢ للخديوى وأنه قد تقرر الجلاء عن طابة وصدرت الأوامر لتنفيذ هذا القرار كما وافق على أن خط الحدود سيمتد من رفح فى خط مستقيم الى رأس خليج العقبة على بعد ٣ أميال غرب قلعة العقبة ، وختم السلطان مذكرته معرباً عن أمله أن تستمر العلاقات الطيبة مع الحكومة البريطانية .

وأمام هذا الاستسلام التركى لم يكن أمام السير أوكونر سوى التعبير عن رضاء حكومته الكامل فى مذكرة للحكومة العثمانية فى نفس اليوم(١) .

وقد أبلغت الحكومة البريطانية الدول الصديقة التى ساندتها خلال الأزمة — فرنسا وروسيا — برضوخ تركيا وقدمت لها شكرها على العونة التى أسدتها لها(٢).

أما فى مصر فقد هللت صحيفة المقطم بالنصر البريطانى وإن حاولت جريدة اللواء أن تقلل من قيمة هذا النصر على اعتبار أن « جلالة السلطان قد تحقق أن الأمة المصرية عن بكرة أبيها ملتفة حول عرشه التفاف العروق بالقلب وأن الإنكليز مهما تعبوا وأجهدوا لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يبعدوا المصريين عنه شبراً واحداً وأن مصر والمصريين باقون على ولائه مهما طال عهد الاحتلال وقوى مركزه فى البلاد »(٣) .

على أى حال فقد رفض كرومر — رغم التسوية — الموافقه على تقليل قوة الاحتلال التى تم زيادتها فى البلاد وكان رأيه « أن الطبقات الدنيا من المسلمين خاصة فى المدن الكبيرة لا زالت روحها خطرة للغاية وأن الأيام وحدها هى الكفيلة بتهدئة هذه الروح وحتى يتم هذا فقد تقرر أن تبقى الحامية البريطانية على قوتها »(٤) .

وما لبثت القوات التركية أن جلت عن كل المراكز التى ظلت تحتلها منذ بداية الأزمة وهى طابة ونقب العقبة والقطار كما أعيدت أعمدة الحدود التى كان قد تم

---

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٢) Ibid., No. 241, Grey to Spring Rice and Sir E. Bertic, May 14, 1906.

(٣) اللواء — العدد ٢٠٢٧ فى ١٤ مايو ١٩٠٦

(٤) Corres, Part LXV, No. 250, Cromer to Grey, May 17, 1906. Tel. No. 165.

إزالتها من رفح وانسحب العثمانيون شرق الحدود(١) .

وفى استنبول قرر السلطان إقصاء « عزت باشا » أحد مستشاريه الرئيسيين بعد الفشل الذى أصابه خلال الأزمة وخلفه « أمين بك » كواسطة بين السلطان والصدر الأعظم(٢) ، كما تشكلت اللجنة التى تقرر أن تساهم مع اللجنة المصرية برئاسة الكابتن أوين فى تخطيط الحدود بين البلدين ، وقد أتمت اللجنتان عملهما فى أول أكتوبر من نفس العام حين وقعت اتفاقية الحدود فى رفح(٣) ، وبنهاية عملية التخطيط انتهت عملياً تماماً أزمة العقبة التى كادت أن تؤدى إلى صدام عسكرى بريطانى عثمانى .

مصادر الأزمة :

لقد أثرت أزمة العقبة فى مستقبل مصر إلى حد بعيد المدى فهى لم تنته بالاستسلام التركى أو بتعيين حدود مصر الشرقية .

ويمكن أن نعتبر أن آثار هذه الأزمة هى التى مكنت سلطات الاحتلال البريطانى عندما أعلنت الحماية على مصر أثر دخول تركيا الحرب فى صفوف دول الوسط ١٩١٤ أن يكون هذا الإعلان « مستريحاً » تماماً بعد أن مكنتها هذه الأزمة من :

١ — العمل على القضاء على المظهر المادى من استمرار تبعية مصر للدولة العثمانية بمحاولة إنهاء منصب المندوب السامى التركى فى القاهرة نتيجة لموقف الرجل الذى كان يشغله إبان الأزمة وهو الغازى مختار باشا .

٢ — ضرب الحركة الوطنية فى مصر بضرب الصحافة الوطنية على رأسها جريدة اللواء بإعادة إحياء قانون المطبوعات الصادر فى نوفمبر ١٨٨١ مرة أخرى فى أوائل ١٩٠٩ .

وكانت حجة البريطانيين فى صدور هذا القانون الموقف الذى اتخذته هذه الصحافة من الأزمة .

---

(١) Corres, Part LXV, No. 255, Cromer to Grey, May 19, 1906, Tel. No. 168.

(٢) Ibid., No. 259, O'Conor to Grey, May 15, 1906, Desp. No. 332.

(٣) نص الاتفاقية فى الوقائع المصرية العدد ١٢٧ السنة ٧٦ فى ١٠ نوفمبر ١٩٠٩ .

٣ — بالطبع تبع إضعاف التبعية المصرية للدولة العثمانية قوة الاحتلال البريطانى فى البلاد مكنته من فرض الحماية عليها فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

ونفصل الآن الحديث عن كل هذه الآثار :

محاولة إلغاء منصب المندوب السامى التركى :

فى عام ١٨٨٦ عينت الحكومتان البريطانية والتركية مبعوثين لبحث الأمور المتعلقة بالموقف فى مصر هما الغازى مختار والسير هنرى درمندوولف .

وقد نتج عن المفاوضات بينهما تلك المعاهدة التى سميت « بمعاهدة وولف » والتى لم يعتمدها السلطان مما أدى إلى عدم تنفيذها . ورغم فشل المهمة التى جاء من أجلها مختار باشا إلى القاهرة إلا أنه بقى فيها مندوباً سامياً تركياً .

وكان من المفهوم تماماً أن علاقة مختار باشا ببعض الصحف فى القاهرة هى التى دفعتها إلى شن حملة شعواء على الاحتلال أثناء الأزمة إلى حد هدد بقيام ثورة دينية فى البلاد مما أدى إلى استدعاء مزيد من قوات الاحتلال لمواجهة هذه الثورة المحتملة .

كما كان من المفهوم أيضاً أن من أسباب التعقيدات الكثيرة التى دخلت على المفاوضات والتى انتهت إلى الأزمة كان موقف مختار باشا نفسه .. فمثلا عندما تقرر عقد مجلس عسكرى لبحث المسألة فى ١٤ فبراير كان موقف السلطان ودياً للغاية ، وقد خرج أوكونر من هذا بأن المسألة على وشك الحل ، ولكن فجأة يتغير موقف الباب العالى ويعلن فى اليوم التالى أن طابة قسم من الأراضى التركية ، وقد علم أن التغيير الذى طرأ على الموقف كان نتيجة لبرقية وصلته من مختار باشا(١) .

ولهذا نظر كل من كرومر وأوكونر إلى مختار باشا بعين العداء ، وعندما قررت الحكومة التركية اختياره مندوباً لها ليتقدم إلى العقبة ويتحرى عن حقيقة موقع الأراضى المتنازع عليها أبلغ السفير البريطانى فى استنبول وزير الخارجية التركية أن « حكومته لا تنظر لهذا الاختيار بعين الرضاء »(٢) .

---

(١) Corres, Part LXIV, No. 21, O'Conor to Grey, Feb. 16, 1906, Tel. No. 21.

(٢) Ibid., No. 86, O'Conor to Grey, Feb. 19, 1906, Tel. No. 25.

كما لم يتردد كرومر فى إبداء غضبه وتشاؤمه من نزول المبعوثين التركيين مظفر بك وفهمى أفندى فى قصر مختار باشا ، واعتبر أن هذا النزول مقدمة لفشل مهمة المبعوثين(١) .

وأثناء المفاوضات كان مختار باشا دائماً فى الصورة وكان يحرض السلطان على الاحتفاظ بالمراكز المحتلة وتأمين غيرها ، بل إنه دفع القائد العسكرى فى العقبة إلى تقديم تقارير بنفس المعنى(٢) .

لكل هذه الأسباب بدأت السلطات البريطانية فى القاهرة لاتعترف بمركز مختار باشا كمندوب سام تركى فى البلاد . ويكتب كرومر فى هذا المعنى فى ٢١ مايو بأنه يعتبر « أن الخديوى هو الممثل الوحيد الشرعى للسلطان فى مصر »(٣) .

وعند ما تقدم مختار باشا لمفاوضة الخديوى باسم الدولة العثمانية فى أوائل أبريل رفض عباس بتحريض من البريطانيين بدء التفاوض قبل أن يصل إليه من استنبول تخويل لمختار باشا بمثل هذا العمل(٤) ومن الواضح أن هذا الرفض قد تضمن عدم اعتراف الحكومة المصرية بالرجل كمندوب سام تركى فى البلاد يمكن أن يمثل حكومته دون تخويل منها .

وبالفعل لم تبدأ المفاوضات إلا بعد أن وصل التخويل المطلوب بعد حوالى أربعة أيام(٥) .

وبعد انتهاء الأزمة ظلت الحكومة البريطانية تتربص لمنصب المندوب السامى التركى فى مصر حتى وصلتها الأنباء باستقالة مختار باشا خلال النصف الأول من أغسطس عام ١٩٠٨ .

وقد دعا هذا وزير الخارجية البريطانية أن يؤكد عدم سماح حكومته بتعيين خلف جديد لمختار باشا . وكتب سير ادوارد جراى للسير لوثر G. Lowther السفير البريطانى

---

(١) Corres, Pant LXIV, No. 104, Cromer to Grey, Feb. 28, 1906, Tel. N. 51.

(٢) Ibid., No. 147, O'Conor to Grey, March 19, 1906, Tel. No. 39.

(٣) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906, Desp. No. 77.

(٤) Ibid., No. 15, Cromer to Grey, April 5, 1906, Tel. No. 87.

(٥) Ibid., No. 32, Cromer to Grey, April 9, 1906, Tel. No. 95.

الجديد فى استنبول أنه « من المرغوب فيه تماماً منع تعيين خلف فى مركز المندوب السامى التركى فى مصر ما دام قد تخلى عنه الغازى مختار باشا ، ولكن معلوماً أن الموظف الوحيد الممثل للسلطان فى مصر هو الخديوى »(١) .

وعندما عين رضا باشا فى فبراير من العام التالى رفضت الحكومة البريطانية الاعتراف بهذا التعيين(٢) .

ولما احتجت الدولة العثمانية على موقف البريطانيين من هذه المسألة رفض هذا الاحتجاج ولم تتمكن تركيا من تنفيذ رغبتها بتعيين آخر مكان مختار باشا(٣) .

ولكن بعد خلع السلطان عبد الحميد فى نفس العام — ١٩٠٩ — وكانت العلاقات قد تحسنت إلى حد كبير بين بريطانيا وبين رجال الاتحاد والترقى وافقت وزارة الخارجية البريطانية على تعيين « رؤوف باشا » مندوباً سامياً تركياً فى مصر ولكن بعد أن وافق الصدر الأعظم « على ألا تقوم أى علاقات بين هذا المندوب وبين رجال الحزب الوطنى فى مصر وأن يتم كل تعاون بينه وبين المعتمد البريطانى فى القاهرة »(٤).

هكذا — وبعد تمنع — عاد هذا المنصب ولكن دون فاعلية حقيقية للدولة العثمانية أو للوطنيين فى مصر ، وليس أدل على فقدان هذا المنصب لأهميته من أنه عندما تواترت الإشاعات فى أواخر عام ١٩١١ عن استقالة رؤوف باشا وأراد السير لوثر — السفير البريطانى فى استنبول سبر غور هذه الإشاعات من الصدر الأعظم فرغم نفى الأخير لها فى إجابته على السفير البريطانى ألا أنه أكد له أن هذا المنصب أصبح عديم الجدوى تماماً(٥) .

(١) Corres, Part LXX, No. 88, Grey to Sir G. Lowther, Aug. 19, 1908, Tel. No. 158.

(٢) F.O. 407/174, No. 17, Grey to Lowther, Feb. 13, 1909.

(٣) F.O. 407/174, No. 42, Grey to Graham, March 6, 1909.

(٤) F.O. 407/174, No. 152, Grey to Lowther, Sept. 29, 1909. Tel. No. 673.

(٥) F.O. 407/177, No. 571, Lowther to Grey, Nov. 20, 1911.

قانون المطبوعات :

لقد ظلت السلطات البريطانية تحمل فى ذاكرتها أثر موقف الصحف المصرية فى إثارة الرأى العام المصرى أثناء الأزمة ووصوله إلى حد حافة الثورة .

وقد اعترف كرومر أن السبب الأساسى لاستدعاء فيلقين من المشاة وقوة من الفرسان وبطارية مدفعية فى أوائل مايو هو تحريض الصحافة الإسلامية لمشاعر جماهير المسلمين »(١) .

ولدينا وثيقة هامة تثبت أن نشوء فكرة إحياء « قانون المطبوعات » جاء من موقف الصحافة المصرية من الأزمة . . يقول كرومر بالحرف الواحد فى أواخر أبريل « فيما يتعلق بالإجراءات ضد الصحافة الداعية إلى الجامعة الإسلامية فقد علمت من مستشارى القانونيين أن للحكومة المصرية الحق فى إيقاف أى جريدة طبقاً لقانون للصحافة لا يعمل به منذ عدة سنوات، وسوف تعيد الحكومة المصرية إليه الحياة »(٢).

وبعد انتهاء الأزمة تنفست السلطات البريطانية فى القاهرة الصعداء فقد كتب فندلى « أن الموجة الأولى من العنف الصحفى التى قادتها جرائد اللواء والمؤيد والظاهر والأمة قد مرت الآن »(٣) .

ولكن كرومر لم ينس أبداً لهذه الصحف موقفها فقد هاجمها هجوماً عنيفاً فى تقريره فى نهاية نفس العام وذكر أنها تشوه الحقائق وترويها على غير صحتها وكثيراً ما عمدت إلى إفسادها ، ويستطرد « إنى لا أذكر أنى قرأت فى جريدة منها مقالة واحدة مادتها صحيحة أو مفيدة فى المسائل المالية أو التعليم أو القضاء » .

ويعود كرومر للحديث عن الصحافة الإسلامية كسبب أساسى للهياج الذى حدث خلال أزمة العقبة ، وقد أرجع ذلك إلى عاملين :

---

(١) Corres, Part LXV, No. 286, Cromer to Grey, May 21, 1906.

(٢) Corres, Part LXV, No. 73, Cromer to Grey, April 25, 1906, Tel. No. 114.

(٣) Corres, Part LXVI, No. 66, Findlay to Grey, July 21, 1906, Tel. No. 125

١ — أن أغلب المصريين لا يزالون يصدقون كل ما يقال .

٢ — أن المهيجين لا يرعون مبدأ ويتبعون كل وسيلة للتهييج .

وخرج المعتمد البريطانى من كل هذا بضرورة وجوب تقييد حرية الصحافة(١) .

ولا جدال أن موقف الصحافة المصرية من أزمة العقبة إلى جانب إجراءات محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش سنة ١٩٠٨(٢) . التى ثبت منها عجز قانون العقوبات عن الحد من المقالات أو الأخبار التى قد تؤدى إلى اضطرابات أو مقاومة لسلطات الاحتلال . . نقول لا جدال أن هذا الموقف وهذه المحاكمة هما السببان الأساسيان فى إعادة إحياء قانون المطبوعات فى أوائل ١٩٠٩ وما نتج عن هذا الإحياء من آثار غائرة فى الحركة الوطنية المصرية .

أثر الأزمة فى قوة الاحتلال البريطانى فى مصر :

مع الهزيمة التركية وما تبعها من ضعف قيمة منصب المندوب السامى التركى وصدور قانون المطبوعات كانت هناك أيضاً آثار بالغة الأهمية فى وضع الاحتلال البريطانى فى مصر مما منحه مزيداً من القوة .

فأولا من الناحية الدولية لا شك أن الاستقرار الذى كسبه الاحتلال البريطانى لمصر بعد الاتفاق الودى ١٩٠٤ قد تأكد بعد التراجع التركى فى أزمة العقبة فى مايو سنة ١٩٠٦ ، فالدولتان الوحيدتان اللتان كانا يعنيهما إثارة المسألة المصرية قد تخليا عنها ... فرنسا بالاتفاق وتركيا بالقهر .

ولنا أن نلاحظ فى هذه الناحية أيضاً أن فرصة وضع الاتفاق الودى موضع التطبيق والتى أتيحت لبريطانيا فى أوائل العام بمعاونة فرنسا فى « مؤتمر الجزيرة » قد أتاحت هذه الأزمة مثيلتها لفرنسا بمعاونة حليفتها فى استنبول إبان احتدامها ووضع الاتفاقات فى حيز الممارسة الفعلية هو الذى يقويها .

---

(١) Annual Report, 1906, p. 10.

(٢) كان الشيخ جاويش قد نشر فى اللواء أخبار مبالغاً فيها عن ثورة عبد القادر ودحبوبه فى مديرية النيل الأزرق فى السودان مما دعا إلى تقديمه للمحاكمة .

كما أمكن التوصل إلى نتيجة سياسية أخرى هامة بوضع مبدأ اعتراف الحكومة العثمانية بحق الحكومة البريطانية فى التدخل فى شئون مصر وفى المفاوضات التى يجب أن تجرى بين الحكومة العثمانية وبين الخديوى(١) .

أما من الناحية الداخليـــة فمع العبء الذى تحمله الشعب المصرى نتيجة لزيادة مصروفات جيش الاحتلال بسبب زيادته بمبلغ ٤٥ ألف جنيه(٢) فهناك أمور يجب أن نسجلها هنا كنتائج مباشرة أو غير مباشرة للأزمة :

١ — بدأت سلطات الاحتلال تشن حملة قوية ضد الحزب الوطنى وجريدة اللواء فرمته بالتعصب — رغم نفى مصطفى كامل دائماً لهذه التهمة — وبمشايعة الدولة العثمانية على حساب مصر(٣) .

وكان النجاح الذى أحرزه مصطفى كامل فى النصف الثانى من نفس العام فى « حادثة دنشواى » حافزاً للسلطات البريطانية فى القاهرة فى السير فى سياستها لهدم الحزب .

ومن المسلم به أن هذه السياسة قد أحرزت نجاحاً كبيراً ساعدها عليه وفاة مصطفى كامل المبكرة والعلاقات الودية التى نشأت بين المعتمد البريطانى الجديد السير الدن غورست والخديوى عباس الثانى بالإضافة إلى صدور قانون المطبوعات ونجاحه فى كتم كل صوت حر .

٢ — فى مقابل هذه السياسة العنيفة مع من أسماهم البريطانيون « بالمتطرفين » أخذت تشجع من كانوا فى رأيهم « معتدلين » وقد تمثل هؤلاء المعتدلون فى نظر سلطات الاحتلال فى « حزب الأمة » .

وعندما تأسست شركة من الأعيان المصريين فى نفس العام — وكانوا نواة حزب الأمة فى العام التالى — بمبلغ ٢٠ ألف جنيه لإصدار « الجريدة » لتنطق باسمهم

---

(١) Corres, Part LXV, No. 259, O'Conor to Grey, May 15, 1906, Desp. No. 332.

(٢) Annual Report, 1906, p. 9.

(٣) أنظر مقال المقطم « مسألة العقبة » العدد ٥١٦٤ فى ٢٦ مارس ١٩٠٦ .

لم يستطع القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة أن يخفى سروره الذى عبر عنه فى مذكرة طويلة كتبها لوزير الخارجية فى لندن(١) .

٣ — وعى البريطانيون دائماً فى ذهنهم الموقف الملتوى الذى وقفه الخديوى عباس الثانى من الأزمة ، فقدعلموا أخيراً وابان وصول الموقف إلى ذروته بوجود اتصالات سرية بين يلدز والخديوى كما عرفوا أن الرأى الذى كان قد قدمه الأتراك بعدم شرعية التدخل البريطانى فى أمر يتعلق بالسلطان وأحد أتباعه كان من اقتراح عباس نفسه(٢).

وفى رأيى أن هذا الموقف المنحاز للباب العالى كانت تحت نظر الحكومة البريطانية عندما قررت مع إعلان الحماية البريطانية على البلاد خلع الخديوى عباس الثانى وتولية السلطان حسين كامل خلفاً له .

* * *

هذه هى « أزمة العقبة » بأبعادها المختلفة التاريخية والسياسية وآثارها القريبة والبعيدة ، وإن كان لنا أن نشير بشىء فى نهاية هذا الموضوع فهو أنه مما لا شك فيه أنه إذا كان فى هذه الأزمة قيمة تذكر لمصر فهذه القيمة تتمثل فى تثبيت حقوق مصر التاريخية فى شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة .

هـذا هو المغنم الحقيقى والوحيد الذى كسبته مصر من الأزمة وهو ما بذلت بريطانيا جهدها لتحقيقه . . لمصلحتها بالطبع ! ! . .

دكتور يونان لبيب رزق

(١) Corres, Part LXVI, No. 82, Findlay to Grey, Aug. 5, 1906, Desp. No. 140.

(٢) Corres, Part LXV, No. 215, Cromer to Grey, May 21, 1906, Tel. No. 151.

* أنظر الاتصالات السرية بين الخديوى والسلطان بشأن الأزمة فى :

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن القسم الثانى — ج ٢ ص ٨٣ — ٨٧ .

مصادر البحث

وثائق غير منشورة :

Further correspondence respecting the affairs of Egypt and the Sudan :

Part	Date
LXIV	Jan.-March, 1906
LXV	April-June, 1906
LXVI	July-Sept., 1906
LXVIII	Jan.-June, 1907
LXX	1908

Public Record Office (London)
Foreign Office 407/174 1909
407/177 July-Dec. 1911

وثائق منشورة :

Parliamentary Debates, House of Commons, Fourth Series, 1906, Vols. 153-157.

Report by his Agent and Consul General on the Finances, Administration and Condition of Egypt and the Soudan, 1906.

Ministère des Affaires Etrangères : Firman Impérial d'Investiture adressé à S.A. Abbas Hilmi Pacha, Le Caire, 1893.

Documents diplomatiques français 1871-1914, 2ème série (1901-1911), Tome X.

كتب :

Cromer, The Earl of :
Modern Egypt (2 vols.), London 1908.

Blunt, Wilfrid Scawen :
My Diaries
being a Personal Narrative of Events, 1888-1914, Part two (1900-1914), London (undated).

Grey of Falladon :
Twenty Five Years 1892-1916, Volume 1.
London, 1925.

أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن القسم الثاني — ج ٢ القاهرة ١٩٣٦ .

فيليب جلاد : قاموس الإدارة والقضاء ٧ أجزاء (الاسكندرية ١٨٩٥) .

دوريات : المقطم — اللواء — المؤيد — الظاهر — الأمة .

موقف مصر من الحرب الطرابلسية(*)

١٩١١ - ١٩١٤

للدكتور جمال زكريا قاسم

منذ أوائل القرن الحالى أخذت إيطاليا تتطلع إلى الاستيلاء على ليبيا ، آخر الولايات العثمانية فى شمال أفريقيا ، التى لم تكن قد سقطت بعد فى أيدى الاستعمار الأوربى الذى أخذ يجتاح ولايات الدولة العثمانيه فى السنوات التى أعقبت مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

وعملت إيطاليا على ممارسة نشاطاً استعمارياً واسع المدى تمثل فى المدارس التى أنشأتها لنشر الثقافة الإيطالية ، وكذلك فى الإرساليات التبشيرية ، ووضع المصورات والخرائط استعداداً للغزو . ولكن الأهم من ذلك كله إنشاء فرعين لبنك روما Banco di Roma فى عام ١٩٠٥ فى كل من ولايتى برقة وطرابلس ، اللذان نجحا فى الاستيلاء على أراضى الليبيين نتيجة لعدم وفائهما بالقروض .

وعلى الرغم مما فطن له أهالى البلاد من أطماع إيطاليا ، واستنجادهم أكثر من مرة بالدولة العثمانية طالبين منها اتخاذ وسائل حاسمة لوقف هذه الأطماع ، إلا أن الدولة العثمانية لم تعر الأمر التفاتاً ، وربما يرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية كانت تعتقد اعتقاداً راسخاً أن إيطاليا لن تجرؤ على غزو ليبيا حتى لا تثير سخط العالم الإسلامى ، كما حدث عندما استولت فرنسا على تونس ١٨٨١ ، فضلا عن أنها إذا حاولت ذلك فإن الدول الأوربية لن تسمح لها ولن تترك لها الفرصة التى تمكنها من تحقيق أطماعها .

ولا شك أن هذا التفكير كان خاطئاً لسببين :

السبب الأول : أن حركة الجامعة الإسلامية بدأت تتراجع مؤقتاً فى أعقاب الحركات الدستورية التى أخذت تجتاح العالم الإسلامى ، مع التسليم فى نفس الوقت

(*) هذه الدراسة قدمت إلى « مؤتمر ليبيا عبر العصور » الذى نظمته الجامعة الليبية ببنغازى فى الفترة من ١٦ إلى ٢٣ مارس ١٩٦٨ .

أن العدوان الإيطالى على ليبيا كان بعثاً جديداً لحركة الجامعة الإسلامية التى عادت إلى الظهور بأقوى مما كانت عليه .

والثانى : أن إيطاليا نجحت فى حل الكثير من مشاكلها مع الدول الاستعمارية وتمت القسمة بينها وبينهم ، فهى من ناحية عملت على استغلال المحالفة الثلاثية لتتمكن من تعزيز سمعتها السياسية ومركزها الاستعمارى بهدف الضغط على منافستها الأولى فى شمال أفريقيا وهى فرنسا التى كانت تقف حجر عثرة فى سبيل توسعها فى شمال أفريقيا .

على أن إيطاليا كانت تدرك فى نفس الوقت أن هذه المحالفة لن تساعدها — بسبب الخلاف بينها وبين النمسا — على تحقيق أطماعها ولذلك كان اتجاه إيطاليا الواضح إلى انجلترا ، ولم تتردد انجلترا فى مساعدة إيطاليا على تكوين امبراطوريتها فى شرق أفريقيا بهدف الحد من امتداد الاستعمار الفرنسى إلى الحبشة أو السودان .

ويتضح التقارب الإنجليزى الإيطالى فى عام ١٨٨٥ فإن ذلك العام يسجل توثق العلاقات بين إيطاليا وانجلترا بالدرجة التى مكنت إيطاليا من تأسيس مستعمراتها فى شرق أفريقيا ، ومع ذلك فإن الضربة القوية التى وجهت لإيطاليا فى الحبشة (عدوة ١٨٩٦) جعلت إيطاليا توجه نظرها إلى شمال أفريقيا . ولما كانت إيطاليا تدرك أن فرنسا تدخل هذه المنطقة فى مجال نفوذها الاستعمارى فقد آثرت تسوية الأوضاع بينها وبين فرنسا بالطريق السلمى ، ففى عام ١٩٠١ تم عقد اتفاق بين الدولتين تناول شئون المنطقة ووضح فيه التقارب بين فرنسا وإيطاليا ، وفى العام التالى عزز هذا الاتفاق باتفاق آخر ، وفى هذين الاتفاقين أضحت كل من برقة وطرابلس منطقة نفوذ إيطالية ، وفى نظير ذلك وافقت إيطاليا على إطلاق يد فرنسا فى مراكش دون معارضة .

ومنذ ذلك الوقت أخذت إيطاليا تنظر إلى برقة وطرابلس كما لو كانت هذه البلاد مقاطعات إيطالية ، كما نجحت إيطاليا فى الحصول على موافقة كل من إنجلترا وروسيا وألمانيا على الإحتلال الإيطالى لليبيا ، كما وافقت النمسا أيضاً بشرط ألا يتعدى الإحتلال منطقة شمال أفريقيا .

ومهدت إيطاليا للاحتلال بإيجاد مصالح لها فى كل من برقة وطرابلس ، وساعدها على إيجاد مصالح لها فى هاتين الولايتين الحالة السيئة التى بلغتها ليبيا . والجدير بالذكر أن الكثير من المصادر تلقى على الدولة العثمانية مسئولية إهمال الولاية وأن

ليبيا لم تلق أى عناية أو اهتمام من قبل السلطات الحكومية بالآستانة ، ومع ذلك فقد يكون من الإنصاف أن نلتمس بعض العذر للإدارة التركية ، فإن إهمالها شئون الولاية كان يرجع بالدرجة الأولى إلى أن الليبيين كانوا قليلا ما يتأثرون بالأنظمة التركية التى تفرض عليهم ، خاصة فى عهد الاتحاديين ، وإنما يؤثرون العيش طبقاً لما درجوا عليه من نهج معين فى الحياة (١) ولذلك إصطدمت التنظيمات العثمانية بمعارضة وطنية عنيفة . وكان من الأجدى للدولة فى هذه الظروف أن تشجع السنوسيين على حكم البلاد ، ولكنها على العكس من ذلك أساءت معاملتهم وضيقت عليهم الخناق لخوفها مما يجر عليها ذلك من اشتباك مع الفرنسيين بهدف إيقاف توسعهم من أواسط أفريقيا إلى غرب أفريقية ، بعد أن نجح الفرنسيون فى تأسيس ما كان يعرف سابقاً باسم السودان الفرنسى (٢) . ومن ناحية أخرى كان السلطان عبد الحميد الثانى يشك فى السنوسية ويخشى من استفحال أمرها لدرجة قد تهدد خلافته. ولذلك كان من المنتظر بعد الإنقلاب الدستورى الذى عصف بحكم السلطان عبد الحميد الثانى ١٩٠٨/١٩٠٩ أن تعمل الدولة فى عهدها الجديد على إصلاح شئون الولاية ، ولكن الاتحاديين استقر رأيهم على أن ولاية طرابلس من الولايات التى لا تفيد الدولة فائدة مالية تذكر وأنه لا داعى لتوجيه الإهتمام إليها (٣) .

وانتهزت إيطاليا هذه الفرصة فأخذت الصحافة الإيطالية تمهد الرأى العام الأوربى للاحتلال وظهرت فى الصحف الإيطالية الكثير من المقالات التى تؤكد أن من واجب الإنسانية أن تقوم إيطاليا بإصلاح الحالة فى ليبيا بعد أن فشلت الدولة العثمانية ، خاصة وأن البلاد تتمتع بثروات ضخمة يمكن أن تستغل فيما لو وجدت الأيدى العاملة والخبرة الفنية . وكان من نتيجة ذلك أن هام الشعب الإيطالى حبا بليبيا وأخذ نشيد طرابلس الجميلة Tripolitania Bella يتردد فى ألسنة الإيطاليين .

ولا شك أن إيطاليا — فى تقدير الكثيرين — كانت تريد أن تمسح ما لحق بها من عار الهزيمة فى موقعة عدوة بإحراز انتصار سهل على دولة متهالكة ضعيفة كالدولة العثمانية .

---

(١) Pritchard (Evans), Sanusi of Cyranelca, London 1944, p. 90.

(٢) و (٣) محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ١١٢ — ١٢٠ .

وعلى الرغم من أن الاحتلال الإيطالى لليبيا حدث فى وقت بلغت فيه الموجة الإمبريالية ، التى انتهت بالسيطرة على مناطق كثيرة من آسيا وأفريقيا ، أقصى مدى لها فان كثيراً من المؤرخين يحملون الإتحاديين مسئولية فقدان ولاية ليبيا ووقوعها فى أيدى الإيطاليين .

وتفريط الاتحاديين فى كثير من الأراضى العربية قد يكون موضوعاً قابلا للمناقشة : هل كان ذلك التفريط بقصد التنازل عن مناطق لا تمارس فيها الدولة العثمانية نفوذاً فعلياً نظير الحصول على تأييد الدول الأوربية للدولة أو إعانتها فى أزماتها المالية أو فى إصلاح شئونها الإدارية والعسكرية ؟ أم كان ذلك التفريط نتيجة لفساد رجال الدولة واستهتارهم ، خاصة حينما وصلت إلى الصدارة العظمى وزارة إبراهيم حقى باشا ، إذ يعتقد الكثيرون أن حقى باشا كان متواطئاً مع الإيطاليين الذين ربطته بهم روابط عديدة أبرزها صداقته لبعض الشخصيات الإيطالية الرسمية ، ثم زواجه من إحدى الإيطاليات ، وظهر أثر ذلك التواطؤ فى إهمال الدولة العثمانية لشئون ليبيا وفى سحب معظم الجيش العثمانى أثناء قيام ثورة الامام يحى فى اليمن ١٩١١ أى وقت كان التهديد الإيطالى بالغاً أقصى درجة له[١] ، كما أهملت وزارة إبراهيم حقى تسليح الفرق المحلية الليبية واستدعت الكثير من الموظفين العثمانيين إلى الآستانة وعلى رأسهم الوالى نفسه إبراهيم باشا إثر احتجاج الجالية الإيطالية المقيمة فى ليبيا على سوء معاملته لها ، ولم تهتم الدولة العثمانية بتعيين والياً غيره .

أصبح من الواضح منذ تولى الاتحاديون الحكم فى عام ١٩٠٩ أن السياسة الإيطالية تضغط ضغطاً متزايداً على ليبيا ، وساعد إيطاليا على ذلك كراهية الليبيين لجماعة الاتحاد والترقى لتدخلهم فى كل ما يمس تقاليدهم ومعتقداتهم[٢] .

وكان من الطبيعى أن تنتهز إيطاليا كل هذه الظروف لتقديم إنذارها إلى الدولة

---

(١) حدث هذا التفريط فى مناطق كثيرة من العالم العربى أبرزها فى منطقة الخليج وجنوب الجزيرة العربية إذ تنازل الاتحاديون عن سيادة الدولة العثمانية فى هذه المناطق لبريطانيا بمقتضى التسويات التى عقدت قبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٣ — ١٩١٤ . انظر دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ — ١٩١٤ ، الفصل التاسع .

(٢) Cachia (Anthony, J.), Libya under the second Ottoman Occupation, 1835-1911, Tripoli 1945, pp. 56-57.

العثمانية فى ٢٨ سبتمبر ١٩١١ ، وذكرت فى هذا الإنذار أنها قررت التدخل عسكرياً فى كل من طرابلس بعد استفحال حالة الفوضى التى يتعرض لها الأجانب خاصة الإيطاليين المقيمين فى كلتا الولايتين(١) ، وردت الدولة العثمانيـة على الإنذار رداً متخاذلا حاولت فيه أن ترجع إهمال شئون الولاية إلى الحكم الماضى ، أى قبل قيام الحكم الدستورى فى الدولة العثمانية ، كما حاولت الدولة العثمانية أن تجد تسوية للأزمة وأظهرت الكثير من التساهل لحسم النزاع ، ولكن الأسطول الإيطالى كان مستعداً لقطع الصلة بين الولاية والدولة العثمانية فى اليوم التالى من تقديم الإنذار (٢٩ سبتمبر ١٩١١)(٢) .

ومع التسليم بوجود فرق شاسع بين قوة إيطالية الفتية وبين قوة الدولة العثمانية فان هناك إجماع أيضاً على اتهام وزارة حقى باشا بإهمالها شئون الدفاع ، خاصة وأن حقى باشا كان سفيراً للدولة العثمانية قبل أن يعين صدراً أعظم ، أى أنه كان أكثر من غيره على علم تام بما تبيته إيطاليا لليبيا ، ومع ذلك كان هذا التراخى الواضح الذى كان سبباً فى إقالة وزارته ، كما قدم المندوبان الليبيان فى مجلس المبعوثان طلباً لمحاكمته واتهام وزارته بالخيانة العظمى وأنها خالفت أول وآخر مادة من القانون الأساسى فى الأمور الخارجية والداخلية والمالية والحربية بتركها طرابلس وبنغازى عاجزتين عن الدفاع ، ولكن حال دون هذه المحاكمة انتماء بعض أعضاء الوزارة إلى حزب الإتحاد والترقى صاحب الأغلبية فى المجلس ، الذى اكتفى بإقالة الوزارة وتأليف وزارة أخرى برئاسة سعيد باشا رئيس مجلس الأعيان(٣) .

وحاولت الوزارة الجديدة إنقاذ ما يمكن إنقاذه فلجأت إلى الدول الأوربية طالبة مساعدتها وتوسيطها فى الأزمة ، كما أبرق السلطان محمد الخامس إلى ملك إنجلترا وإمبراطور ألمانيا ورئيس الجمهورية الفرنسية وبقية ملوك وقياصرة أوربا . ولكن اعتذرت جميع هذه الحكومات عن التدخل مما أثار غضب الأتراك وحماستهم

---

(١) Rodd to Grey 28.9.1911, Doc. No. 81, F.O. 407, 177, Part LXXLX. Further correspondence respecting Egypt and Sudan.

(٢) Luther to Grey 29.9.194, Doc. No. 94. Further correspondence.

(٣) انظر نص التقرير الخاص بشأن طلب محاكمة وزارة ابراهيم حقى باشا مقدم من المبعوثين الليبيين إلى مجلس المبعوثان — مجلة المنار ج ١٢ م ١٤ ص ٨٦٢ .

وجعلهم يصممون على مقاتلة الإيطاليين والدفاع عن ليبيا ، وتحقيقاً لهذه الغاية قامت الدولة العثمانية بدعاية واسعة النطاق ضد إيطاليا فى العالم العربى والإسلامى طالبة المساعدة وتوحيد الصفوف تجاه هذا العدوان الصليبى الجديد الذى سيكتسح الإسلام ويزيل معالمه ، وفعلا تألفت الجمعيات المتعددة فى مختلف الأقطار الإسلامية لمساعدة الدولة العثمانية فى محنتها .

استولى الإيطاليون على طرابلس ودرنة ومصراته وطبرق واستخدموا فى الغزو قوات كبيرة برية وبحرية ، ولما كان الغزو الإيطالى جاء موقتاً توقيتاً مناسباً بالنسبة لانشغال الدولة العثمانية بشئون أخرى ، فقد تمكن الإيطاليون نتيجة لذلك من التركز بسهولة على الساحل ، وكانت الخطة الإيطالية تقضى بالإستيلاء على الساحل وفصله عن الداخل ومنع وصول أية مساعدة لفلول الحاميات التركية المتبقية فى ليبيا حتى تطلب التسليم ويضطر الليبيون نتيجة لذلك للخضوع للحكم الإيطالى(١) . وتعهدت إيطاليا وهى فى مستهل عملياتها العسكرية بسلامة الأجانب المقيمين فى طرابلس وبرقة ، كما أبلغت حصارها للسواحل الليبية لكثير من الدول الأوربية(٢) .

ومن المؤكد أن بعض الدول على الرغم من أنها أظهرت حياداً تاماً بشأن هذه الحرب إلا أنها كانت تساعد إيطاليا فى احتلالها لليبيا ومن هذه الدول فرنسا وانجلترا ، أما ألمانيا فبالنظر إلى محالفتها لإيطاليا وصداقتها للدولة العثمانية فانها كانت أميل إلى عرض وساطتها فى هذه الأزمة باعتبارها صديقة للطرفين(٣) . وعلى الرغم من أن إيطاليا قدرت المدة اللازمة لتسليم ليبيا خمسة عشر يوما إلا أن هذه الأيام المعدودة امتدت سنوات طويلة ، إذ صادف التقدم الإيطالى من الساحل إلى الداخل عقبات شق وحاولت إيطاليا نتيجة لذلك إرضاء الباب العالى بتقديم ترضية مالية مقابل تنازله عن هذه الولاية ، ولكن الدولة العثمانية رفضت ذلك وشجعها على الوقوف فى وجه إيطاليا هياج العالم الإسلامى وعودة حركة الجامعة الإسلامية تشق مجراها من جديد بشكل أعنف مما كانت عليه .

---

(١) Barbour (Neville), A Survey of North West Africa, second edition, London 1962, p. 352.

(٢) Rodd to Grey 19.9.1911, Doc. No. 93, F.O. 407, 177.

(٣) Egoshen to Grey, 23.9.1911, F.O. 38212, No. 91. CF. F.O. 407, 177, Part LXXIV.

والحقيقة أن الاعتداء الإيطالي على ليبيا كان يمثل منطلقاً جديداً لحركة الجامعة الإسلامية ، فمن الواضح أنه بعد ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد الثاني توقف مجرى الدعوة للجامعة الإسلامية وتغير سيرها في التجه الذي كانت تسير فيه قبل ذلك بثلاثين عاماً (١٨٧٨) ، الأمر الذي جعل من الصعوبة بمكان تحديد المفعول الذي كان لهذه الدعوة ، وتلت ثورة تركيا الفتاة الثورة الدستورية في إيران ، وأخذ العالم الإسلامي يضطرب بتيارات القومية ولكن ذلك كان لفترة مؤقتة إذ لم تلبث أن عادت حركة الجامعة الإسلامية تستأنف سيرها ، وكان الباعث على ذلك اشتداد اعتداء إيطاليا والدول الغربية على ممتلكات الدولة العثمانية ، بالإضافة إلى تكتل الدول البلقانية وإشعالها الحرب على الدولة العثمانية ، وبدا واضحاً أن الروح الصليبية تنبعث في شكل جديد .

والحقيقة أن اعتداء إيطاليا على الدولة العثمانية كان فتحاً للمسألة الشرقية ظهر لها رد فعل قوي في هياج العالم الإسلامي بشكل بلغ أقصى ذروة له ، الأمر الذي دفع جبرائيل هانوتو Gabriel Hanotaux وزير المستعمرات الفرنسية والمؤرخ الفرنسي المعروف إلى القول « إن إيطاليا صادفت صعوبات شديدة في طرابلس غير المحصنة لأنها لم تكن تحارب الدولة العثمانية وحدها ، وإنما كانت تحارب العالم الإسلامي أجمع ، وأن إيطاليا جنت على نفسها وعلى الدول الأوربية جناية لا يعلم إلا الله عاقبتها ومنتهاها(١) .

ذلك أن العالم العربي والإسلامي اهتز نتيجة لقيام إيطاليا بهذا العدوان ووجدت الدولة العثمانية التفافاً من ولاياتها حتى الولايات المنشقة عليها فقد أرسل الإمام يحيى رغم قيامه بالثورة رسالة إلى السلطان يعلن استعداده للقيام بمائة ألف جندي تحت قيادته ، كما أبرق عبد العزيز آل سعود أمير نجد في ذلك الوقت إلى الباب العالي يقول : إن مقاطعة نجد تفتخر من كل جوارحها أنها مقاطعة عثمانية ، وأن جميع القبائل

---

(١) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ القاهرة ١٣٤٢ .

التى تحت إمرته مستعدة للزحف فى ظل الأعلام العثمانية إلى حيث تأمرهم الدولة العلية[1] ، كما وفد الكثيرون من شتى أنحاء العالم الإسلامى للتطوع فى الجهاد فى طرابلس حتى بلغ عددهم أكثر من ستة عشر ألفاً فى العام التالى لنشوب الحرب ، كما تألفت لجان الإعانة وأرسلت البعثات الطبية إلى ميادين القتال . ونشطت الصحافة إلى دعوة المسلمين لمساندة الدولة وأن الوقت ليس وقت مطالبة بإصلاح ولا مؤاخذة على إفساد وإنما هو وقت لا يتسع إلا لشىء واحد وهو تأمين الدولة ببذل الأموال والأرواح ، وأن الولايات المتطلعة إلى اللامركزية ينبغى ألا تتعجل فى طلبها لأن الدولة فى الطريق إلى ذلك والوقت وقت اتحاد واعتصام[2] . كما حفلت الصحافة العربية بدعوة المسلمين إلى إظهار شعورهم نحو دولة الخلافة بالقول والكتابة والمظاهرات والاحتجاج ومقاطعة التجارة الإيطالية ومساعدة الدولة العثمانية بالمال والرجال ، وأن أوربا لن تبقى على شىء ما لم يتحد المسلمون ويتماسكوا . ولقيت هذه الدعوة صدى بعيداً فى العالم الإسلامى فحفلت المعسكرات التركية فى ليبيا بمجاهدين لا من برقة وطرابلس ، وإنما من المغرب والسودان ومصر والشام وأفغانستان ، كما جاءت المساعدة أيضاً من تونس والجزائر رغم خضوعهما لفرنسا إذ استجاب سكانهما للدعوة الإسلامية مكذبين هانوتو فى زعمه أن فرنسا باحتلالها الجزائر وتونس نجحت فى فصلهما عن جسم الملة الإسلامية ، والواقع أنه كان للحملة الإيطالية تأثير كبير على مركز الإنجليز فى البلاد الإسلامية الخاضعة لهم ، ويفهم ذلك مما ذكره جيوليتى فى خاطراته التى نشرها عن حياته عندما كان رئيساً لوزراء إيطاليا أن انجلترا ألحت عليه بالاتفاق كيفما كان مع تركيا إنهاء لهذه الحرب التى أثارت جميع العالم الإسلامى ، ووردت الإحتجاجات على إنجلترا بشأنها ليس من الهند فحسب ، وإنما من شتى بقاع العالم الإسلامى[3] .

وكان للحرب الطرابلسية فى مصر عند إعلان إيطاليا الدولة العثمانية بالحرب

---

(١) سليم قبعين — تاريخ الحرب العثمانية الإيطالية ج ١ ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢) مجلة المنار ج ١١ م ١٤ ص ٨٣٣ .

(٣) لوثروب ستودارد — حاضر العالم الإسلامى ج ١ ص ١٤٣ .

فى ٢٨ سبتمبر ١٩١١ دوى عظيم ، كما كان لها فى السياسة المصرية أثر بالغ[1] .

وسوف يكون مجالنا فى هذه الدراسة تحليل موقف مصر من هذه الحرب ، ويمكن أن نقسم هذا الموضوع إلى عدة أقسام :

أولا : موقف سلطات الإحتلال والحكومة المصرية .

ثانياً : موقف الخديوى .

ثالثاً : موقف الشعب المصرى .

وكان أهم ما أثير فى الفترة الأولى من إعلان الحرب مسألة مرور الجيش العثمانى فى مصر، إذ كان فرض إيطاليا الحصار على السواحل الليبية مما يدفع الحكومة العثمانية إلى الوصول براً إلى الولاية المحصورة بحراً لأنها كانت تخشى أن تتعقب إيطاليا أسطولها الضعيف وسط البحر ، ولذلك أضحت حاجة الدولة العثمانية ضرورية لمرور الجيش العثمانى من الأراضى المصرية . وكانت هذه المسألة على غاية كبيرة من الأهمية إذ حاول الوطنيون فى مصر استغلالها لتأكيد سيادة الدولة العثمانية على مصر دفعاً لتسلط الإنجليز ، ولذلك أجمعت العناصر الوطنية على أن تبادر الدولة العثمانية إلى إرسال جنودها إلى مصر دون أن تلجأ فى ذلك إلى استئذان وزارة الخارجية البريطانية أو حتى إحاطتها علماً بذلك ، وإنما تجىء جنودها مباشرة وترسل أوامرها إلى الحكومة المصرية لاستقبالها وتمهيد السبيل لها والمحافظة عليها ومدها بما تحتاج إليه طبقاً لحقوق الدولة العثمانية ، وما تنص عليه الفرمانات العثمانية التى صدرت متضمنة حقوق الدولة العثمانية فى استخدام الجنود المصرية عند نشوب الحرب فى أية جهة تريدها[2] ، ولم يشذ عن هذا الرأى فى مصر أى صوت حتى الأصوات التى عارضت أن تلقى مصر بثقلها فى الحرب ومنها أحمد لطفى السيد ، فعلى الرغم من عدم تشجيعه معاونة مصر للدولة العثمانية فى حربها مع إيطاليا ، إلا أنه أكد أن مرور القوات العثمانية البرية من مصر إلى طرابلس أمر من حقوق الدولة العثمانية لا ينازعها فيه منازع إن كان لها مصلحة فى ذلك ، ولا شك أن مثل هذه المساعدة هى أقل

---

(١) محمد حسين هيكل — مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٤٩ .

(٢) الجريدة : مرور الجيش العثمانى بمصر ٣ أكتوبر ١٩١١ .

ما ينتظره من جارتها مرتبطتين بروابط متعددة منذ زمن قديم ، كما أنها ضرورية لإظهار المجاملة الواجبة للدولة العثمانية التي يربطها بمصر روابط الأخوة(١).

واستند الوطنيون في تأييدهم الدولة العثمانية إرسال جيوشها إلى أن بريطانيا لن تستطيع أن تؤثر على الحكومة المصرية أو إرغامها على الوقوف في وجه الجيوش العثمانية تفادياً من غضب الأمة المصرية ومراعاة لعواطفها. وأكد الوطنيون على نجاح هذه الطريقة بما أبداه الجنود والضباط المصريون من الفتور عند ما كلفوا بالمحافظة على الحدود المصرية في حادثة طابا المشهورة بحكم الميل والإحترام لجنود الدولة العثمانية(٢) .

أما موقف اللورد كتشنر المعتمد البريطاني في مصر والذي وصل إلى منصبه في نفس الوقت الذي أعلنت فيه الحرب فقد كان يمثل بطبيعة الحال وجهة النظر الإنجليزية التي كانت ترحب بالاحتلال الإيطالي لليبيا على اعتبار أنه يساعد على إيجاد دولة عازلة Buffer State في طرابلس تمثلها إيطاليا ، لتعزل بين الإنجليز في مصر وبين الفرنسيين في تونس ، ولذلك اعترض الإنجليز على مرور القوات العثمانية على الرغم من أن مصر وإن كانت متمتعة باستقلالها الإداري إلا أنها داخلة في نطاق السيادة العثمانية ، وجيشها تحت طلب الدولة. وكانت مصر تعتبر ولا شك أصلح قاعدة للعمليات العسكرية العثمانية ضد الغزو الإيطالي لطرابلس(٣) كما أن إعلان حياد مصر يعني رفض حقوق الدولة العثمانية عليها ورفض السماح للمسلمين المصريين الارتباط بدعوى الجهاد للدفاع عن أشقائهم في العقيدة . ولذلك كان السؤال الذي فرض نفسه في ذلك الوقت : هل تسير القوات المصرية المسلحة إلى جانب القوات التركية للدفاع عن هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية ؟ أم تقف مصر على الحياد ؟ وفي حالة وقوفها على الحياد وأرادت الجيوش العثمانية أن تمر بالأراضي المصرية ، فماذا يكون موقفها ؟ أتمنع هذه الجيوش من المرور بحجة حيادها حتى لا تتعرض لعمل عدائي من جانب إيطاليا ؟ أم تقتضيها تبعيتها الإسمية للدولة العثمانية أن تفسح الطريق لهذه الجيوش من غير أن تخرج عن

---

(١) المصدر السابق ، الغارة الطليانية ٣ أكتوبر ١٩١١ .

(٢) اللواء ، ١٢ أكتوبر ١٩١١ ، الرأي العام المصري في حادثة طرابلس الغرب .

(٣) Young, Egypt, pp. 192-193.

هذا الحياد ؟ وإنجلترا ما موقفها وهى محتلة مصر ؟ هل تسهل للجنود العثمانيين المرور ، أم تقف فى طريقهم (١) .

وفيما يبدو أن إيطاليا كانت تبدي قلقاً بالغاً علي هذا الموقف يدل على ذلك المراسلات الرسمية التى تتساءل فيها الحكومة الإيطالية عما إذا كانت بريطانيا ستسمح للقوات العثمانية بالمرور فى مصر ، وتبدى قلقها عن أنباء تضاربت فى ذلك الوقت عن بعثة عثمانية وصلت إلى القاهرة برئاسة كمالى باشا ، وكان هدف هذه البعثة اتخاذ الإجراءات اللازمة مع الحكومة المصرية ، لتسهيل مسألة عبور القوات العثمانية ، واحتجت إيطاليا بأن ذلك لا يتمشى مع الحياد (٢) ، وقد نفت الدوائر البريطانية هذه الأنباء نفياً قاطعاً وأكدت أنها غير صحيحة ، وأبدى السير إدوارد جرى وزير الخارجية البريطانية رأيه فى الموقف بأنه لا يمكن لبريطانيا أن تسمح لبلدة خاضعة لاحتلالها أن تكون مسرحاً لعمليات عسكرية (٣) ، كما أكد السفير البريطانى فى روما لوزير الخارجية الايطالية ما أبلغه إياه وزير الخارجية البريطانية من أن بريطانيا تقبل الاحتلال الايطالي لليبيا بديلا عن أية قوة أخرى تكون علي مقربة لها فى مصر خاصة بعد الموقف الذى نشأ نتيجة لحماية فرنسا علي مراكش وما استتبعه ذلك من قلب لميزان القوى في منطقة البحر المتوسط (٤) ، هذا فضلا عن أن نجاح إيطاليا فى ضم ليبيا إلى ممتلكاتها سيساعد على تفكيك الإمبراطورية العثمانية خاصة إذا نجحت ألبانيا وولايات البلقان فى إعلان استقلالها عن الدولة العثمانية فإنه يمكن فى هذه الحالة أن تنتهز انجلترا الفرصة لتوطيد دعائم نفوذها فى مصر ، ومن هنا يمكن القول بصفة عامة أن الإحتلال الإيطالى لليبيا كان يجد تأييداً بوجه خاص من قبل فرنسا وإنجلترا وهما الدولتان الطامعتان فى الممتلكات الإسلامية للدولة العثمانية .

وكان على الحكومة البريطانية أن تلجأ إلى الأسلوب السياسى لتعلن أن اجتياز

---

(١) اللواء فى ٢٦ أكتوبر ١٩١١ ، الرأى العام المصرى فى حادثة طرابلس الغرب .

(٢) Grey to Rodd 6.11.1911, Doc. No. 463, F.O. 407, 177.

(٣) Grey to Rodd 30.9.1911, Doc. No. 108. Further correspondence. F.O. 407, 177.

(٤) Rodd to Grey 30.9.1911, Doc. No. 111, F.O. 407. 177.

الجنود العثمانية لقناة السويس يعد خرقاً لإتفاقية ١٨٨١ ، وأن بريطانيا تخشى فى هذه الحالة أن تبادر إيطاليا لانتهاك هذه الإتفاقية أيضاً وتبعث بأسطولها إلى القناة بحجة منع الجنود العثمانية من المرور . وبهذه المناسبة أرسلت شركة قناة السويس مذكرة إلى كل من لندن وباريس طالبت فيها حماية القناة فى الحالة الحاضرة إذا أرادت إحدى الدولتين المتحاربتين التعدى عليهـا ، باعتبار القناة على الحياد وتحت رعاية دولية .

ومن ناحية أخرى كانت الدولة العثمانية تخشى إذا أقدمت على اجتياز مصر بقواتها أن تعتبر بريطانيا ذلك خرقاً للحياد الذى فرضته على البلاد ، وبالتالى قد يؤدى ذلك إلى ضياع حقوق الدولة العثمانية فى مصر بمعنى أن انجلترا فى هذه الحالة يمكن أن تقف فى وجه الجيش العثمانى وتعلن رسمياً حمايتها على مصر أو امتلاكها وفصلها عن السلطنة العثمانية . وهكذا كان الموقف على النقيضين ، فإما أن يؤدى مرور القوات العثمانية من مصر إلى تأكيد السيادة العثمانية ، فى حالة تغاضى انجلترا ، أو إلى عدم الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية نهائياً على مصر ، وتأكيد انفصالها عن الدولة .

وبالإضافة إلى المجادلات السياسية التى أقدمت عليها بريطانيا بهدف منع الدولة العثمانية من إرسال جنودها إلى مصر حاولت أن تقنع الدولة من ناحية أخرى بعدم جدوى استخدام مصر كطريق لمنازلة الإيطاليين فى طرابلس بحجة عدم فائدة هذا الطريق من الناحية العسكرية ، إذ أن هناك صعوبات كثيرة أبرزها مايتعرض له الجيش العثمانى فى حالة مقدمه من سوريا إلى الحدود المصرية ، وإنه عندما يصل إلى طرابلس منهك القوى يمكن أن يتلقاه الجيش الإيطالى المستريح ويفتك به فتكاً بالغاً .

أما إذا استخدمت الدولة العثمانية الإسكندرية فى هذه الحالة يمكن أن تعد إيطاليا الإسكندرية معادية لها . والحقيقة أن الدولة العثمانية نشطت فى إرسال سفنها إلى الإسكندرية كما أخذت المخابرات الإيطالية بدورها تنشط فى تعقب التحركات العثمانية ووصلت التقارير إلى الحكومة الإيطالية بأن ثلاثة قطارات خاصة تحمل مؤناً وذخيرة أخذت من السفن العثمانية واتجهت عبر طريق مريوط الحديدى ، كما تعقبت المخابرات الإيطالية قوافل الإمدادات التى ترسل إلى ليبيا عن طريق مصر[1] ، وكان من

---

(١) CF. Memorandum communicated by Marquis Imperiali, 31 October, 1911, F.O. Further Correspondence respecting Egypt and Sudan.

الواضح اتجاه الدولة العثمانية إلى استخدام هذا الخط الذى كان يمتلكه الخديوى عباس حلمى الثانى ، لتنظيم حركة البدو فى الداخل ضد الإيطاليين (١) .

كما أخذت الحكومة الإيطالية تحتج على سماح السلطات المصرية لجماعة من البدو والضباط والأتراك باختراق الحدود إلى برقة وطرابلس . وعلى الرغم من تأجج الحماسة الوطنية تأييداً للدولة العثمانية فقد كان موقف الحكومة المصرية فى هذا الظروف الدقيق سلبياً صرفاً تركت الأمور لإنجلترا ولممثلها فى مصر اللورد كتشنر تتصرف فيه السياسة البريطانية بما تشاء ، ورأت إنجلترا أن تعلن حياد مصر فى الحرب وأصدرت بالفعل تعليماتها إلى قائد القوات الإيطالية المحاربة بأن المياه الإقليمية المصرية تعتبر مياهاً محايدة ، ومن ناحية أخرى فان السلطات البريطانية تعهدت إزاء إيطاليا بأنها لن تسمح باتخاذ مصر قاعدة للعمليات العسكرية (٢) .

وعلى الرغم من أن بعض المدرعات التركية وصلت إلى الموانى المصرية فعلا ، فان الحكومة الإيطالية لم تقدم مع ذلك على محاصرة أى ميناء مصرى وهى لم تفعل ذلك مجاملة للانجليز ، أو بالأحرى اطمئناناً إلى موقف الإنجليز (٣) ، كما أبلغ كتشنر السير إدوارد جراى وزير الخارجية البريطانية أن مصر تسير على قواعد الحياد الدولى ، كما أن الأمور تسير على ما يرام باستثناء واضح وهو أن السفن العثمانية تبقى فى الموانى المصرية أكثر من أربعة وعشرين ساعة ، وأعرب عن أمله فى ألا تعترض الحكومة الإيطالية على ذلك تجنباً لدواعى الإحراج مع الدولة العثمانية . ويلاحظ بصدد ذلك أن الحكومة العثمانية أخذت ترسل قواتها عن طريق العقبة وليس عن طريق السويس (٤) . وأكثر من ذلك فقد طلبت بريطانيا من السفن المصرية الواقعة فى نطاق العمليات العسكرية بين تركيا وإيطاليا أن تتميز بأعلام خاصة نظراً للتشابه بين العلمين المصرى والتركى (٥) ، وصدرت الأوامر للشددة للسفن العثمانية الراسية فى موانى القناة بمغادرتها

---

(١) Grey to Kitchner 30.10.1911, Doc. No. 324.

(٢) Rodd to Grey 30.9.1911.

(٣) Grey to Rodd 4.10.1911, Doc. No. 188.

(٤) Kitchner to Grey 3.10.1911, F.O. 407, 177, Part LXXLV.

(٥) Grey to Kitchner 6.11.1911, F.O. No. 457.

فوراً وأن عليها أن تلتزم بالقواعد المعمول بها بموجب نص المادة الرابعة من اتفاقية قناة السويس ، أما بالنسبة للقوات الأخرى فقد أعطيت لها مهلة لا تزيد عن أربعة وعشرين ساعة وإلا يجوز للسلطات المصرية في حالة بقائها لمدة أطول من ذلك أن تقوم بنزع أسلحتها[1].

وقد أثار اعتراف الحكومة بالحياد الذى فرضتها إنجلترا على مصر ثائرة الرأى العام المصرى الذى اعتبر أن مصر فى حالة حرب فعلية وليست فى حالة حياد وأنه سواء مر الجيش العثمانى من مصر أو لم يمر منها فمصر فى حالة حرب طبقاً للقوانين الدولية ، ولما كانت مصر تابعة للدولة وخاضعة لسيادتها باعتراف انجلترا ذاتها قبل أية دولة أخرى بل ودفاعها عن هذه السيادة فى مواقف عديدة أمام الدول الأخرى ، بصرف النظر عن أن هذا الدفاع كان فى تلك المواقف فى مصلحة انجلترا ، فإن إعلان مصر الحرب على إيطاليا أمر ضرورى تقتضيه ظروف تبعية مصر للدولة ، فضلا عن أن مصر لا تملك أن تضع نفسها على الحياد لأنها ليست بدولة طالما هى قانوناً خاضعة للدولة العثمانية[2]. وطالب المصريون إرسال المدد والذخيرة من مصر وعن طريقها إلى طرابلس ومقاطعة الإيطاليين وضرورة إجلائهم من البلاد وأنه لا ينبغى على إنجلترا أن تعارض فى الحالة الأولى وألا تعارض ألمانيا — حليفة إيطاليا — فى الحالة الثانية[3].

ومع هذا الموقف الوطنى الذى أبداه المصريون إلا أن الحكومة المصرية الخاضعة لسلطات الاحتلال أخذت تتقاعس عن شد أزر الليبيين خاصة بعد توقيع الصلح مع الدولة العثمانية ، فقامت بمصادرة الصحف الوطنية وحذرتها من الحث على الجهاد أو الدعوة للتطوع فى صفوف المجاهدين[4]. ولكن الحكومة المصرية فشلت مع ذلك فى مراقبة الحدود المصرية الطرابلسية نظراً لامتداد هذه الحدود إلى مسافات

(١) Kitchener to Grey 2.10.1911, F.O. No. 141.

(٢) جريدة اللواء ، أول أكتوبر ١٩١١ ، ماذا يكون جواب الانجليز على ذكر مرور الجنود العثمانية عن طريق مصر — موقف الحكومة العثمانية .

(٣) مجلة المنار ج ١٢ م ١٤ — المسألة الشرقية ص ٩٢٦ .

(٤) جريدة اللواء ٥ أكتوبر ١٩١١ « الأمم غير الحكومات ، لا سلطة ولا سيطرة على العواطف » .

طويلة من ناحية وللعلاقات الثابتة الدائمة ومنها علاقات التزاوج بين عرب طرابلس وبدو مصر من ناحية أخرى(١) فاستمرت المساعدات المصرية تصل إلى المجاهدين فى ليبيا رغم الظروف الصعبة التى كانت تجتازها قوافل الإمدادات .

وحاول الوطنيون فى مصر — رغم ظروف الاحتلال القائم فى البلاد — استمالة الحكومة المصرية للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية مستخدمين فى ذلك جمع الوسائل وحفلت الصحافة الوطنية بالأسانيد القانونية التى تبرر وقوف مصر إلى جانب الدولة العثمانية ، فعلى الرغم من أن مصر كانت محتلة من قبل الإنجليز فعلياً إلا أن انجلترا كانت تعترف فى نفس الوقت بحق السيادة السياسية للدولة العثمانية — أى أن مصر تتبع الدولة العثمانية فى سياستها الخارجية وعلى هذا الأساس يتحتم على الحكومة المصرية عند إعلان الحرب أن تتخذ كل الوسائل القانونية التى يقضى بها نظام الحرب فى كل دولة محاربة. ولكن الحكومة المصرية لم تقدم على شىء من ذلك ، فضلا عن أن مصر لم يكن لها من السيادة الخارجية التى تستطيع معها أن تبلغ أياً من الدولتين — إيطاليا والدولة العثمانية — أنها على الحياد .

والجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تعلن الحكومة المصرية بقيام الحرب بينها وبين إيطاليا ، وأغلب الظن أنها كانت لا تريد أن تدخل المسألة فى نطاق دولى واسع لن يكون كما قدرت الدولة العثمانية فى صالحها ، ويبدو أن إيطاليا نفسها كانت ترحب بأن يكون موقف مصر استثناء على الرغم من خضوع مصر للسيادة العثمانية بموجب معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وذلك حتى لا تشتبك مصلحتها مع مصلحة الإنجليز المحتلين لمصر(٢) .

وهكذا قدر لمصر فى خلال الحرب الطرابلسية أن تكون باتفاق كل من بريطانيا وإيطاليا غير محاربة وفى نفس الوقت ليست محايدة حياداً تاماً . كما أن عدم إعلان الدولة العثمانية لمصر بحربها مع إيطاليا أثر تأثيراً كبيراً فى الموقف . إذ لم يكن بوسع الدولة العثمانية المطالبة بتنفيذ الاتفاقية الخاصة التى توجب على مصر أن تقدم للدولة العثمانية جنوداً للقتال فى حالة اشتباكها فى القتال طالما أن مصر لم تعلن جهده

---

(١) الجريدة ١٧ أكتوبر ١٩١١ .

(٢) محمد حسين هيكل ، مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٤٩ .

الحرب رسمياً[1] . وعلى هذا الأساس يبقى الإيطاليون فى مصر يتمتعون بكافة الامتيازات والحقوق المخولة لهم دون حاجة إلى حماية دولة أخرى .

إن المشكلة التى واجهت الحكومة المصرية أنها كانت حائرة فى التوفيق بين الواجبات الناشئة عن تبعيتها للدوله العثمانية وبين ما يفرضه الاحتلال عليها من تصرفات . أو بتعبير آخر أن ذا حق على مصر يطالبها بتنفيذه وذا قوة غاصبة مستقر فى مصر يمنعها من أداء الحق ، فكيف يمكن التوفيق ؟ !

ولما كانت التبعية العثمانية قانونية والاحتلال الفعلى غير قانونى ، فعلى هذا الأساس لا يمكن معارضة الالتزامات الناشئة عن التبعية بالاحتلال ، ولكن بطبيعة الحال كان ذلك من الوجهة النظرية وليس من الوجهة العملية أو الفعلية ، ومع ذلك فنحن لو تمشينا بعض الشىء مع هذا الأساس النظرى يمكن القول أنه طالما أعلنت الحرب بين إيطاليا والدولة العثمانية ، فيتحتم على الحكومة المصرية اتخاذ خطة إزاء تلك الحرب ، ولكن الموقف يتعقد نتيجة أنه على الرغم من أن وضع مصر القانونى هو أنها مستقلة استقلالا إدارياً إلا أنها فى نفس الوقت تابعة فى السيادة الخارجية وبعض السيادة الداخلية للدولة العثمانية فضلا عن أنها محتلة احتلالا فعلياً من بريطانيا.

ويمكن أن يتضح الموقف أكثر بأن الدولة العثمانية دولة محاربة ، وبريطانيا المحتلة لمصر على الحياد من هذه الحرب ، والموضوع الذى يمكن إثارته ماذا يمكن أن يكون موقف الحكومة المصرية إزاء ذلك ؟

وللاجابة على ذلك نستطيع أن نقول إن نظام الحرب نظام مقرر بالقانون الدولى وهو يقضى بأن التابع يعطى حكم متبوعة متى أعلنت الحرب ، أى أنه إذا كان المتبوع محارباً ، فالتابع محارب وإن كان المتبوع على الحياد فالتابع كذلك ، ولما كان الاحتلال البريطانى لمصر لم يؤثر — نظرياً — فى تبعية مصر للدوله العثمانية فإنه بمجرد إعلان الدولة العثمانية للحرب فإن ذلك يعتبر بمثابة إعلان مصر للحرب أيضاً طالما كانت سيادة مصر الخارجية فى يد الدولة العثمانية ، وإن إبلاغ إعلان الحرب إلى مصر هو فى حد ذاته مطالبة صريحة من الدولة العثمانية لمصر بالاستعداد لتنفيذ

---

(١) الجريدة ، عدد ١٣٨٩ ، ١٩ أكتوبر ١٩١١ مقالة محمد حسين هيكل « مركز مصر من الواقع وفى القانون » .

جميع الواجبات المفروضة عليها قبل الدولة ، وهذا يعنى أن الحكومة المصرية يمكنها بوصفها تابعة قانوناً للحكومة العثمانية أن تجعل تحت طلب الدولة العدد المقرر من الجنود للاشتراك مع الجيش العثمانى فى حالتى الدفاع والهجوم ، كما أنه عليها أن تقطع علاقاتها مع قناصل إيطاليا الموجودين فى مصر وعليها أن تستعد لتنفيذ ما قد يطلب منها من الإجراءات العسكرية التى ترى الدولة العثمانية تطبيقها لظروف الحرب ، وتكون داخلة فى نطاق سيادتها ويدخل فى ذلك إطفاء فنارات الموانى المصرية ، ما عدا فنارات الموانى الدولية كميناء بور سعيد والسويس ، إذ أنهما يعطيان قانونا حكم الحياد الذى عليه قناة السويس وغير ذلك مما تستدعيه الاحتياطات العسكرية ، فإذا لم تفعل مصر ذلك فانها تعد منشقة عن الدولة العثمانية ناقضة لعهودها معها ، ولكن بطبيعة الحال إن موقف الحكومة المصرية الفعلى كان مرتبطاً ارتباطاً كبيراً بموقف سلطات الاحتلال فى مصر ، ويمكن على هذا الأساس أن نعلل تقاعس الحكومة المصرية عن تأييد الدولة العثمانية بأنها لم تكن حرة التصرف فى بلادها بل كانت مغلولة اليد عن العمل ، بالاحتلال الفعلى ، الذى كان من حق السيادة التركية أن تمليه على مصر حفظاً لسيادتها وخروجاً من جعل هذه السيادة الخارجية سيادة إسمية ، وأن مصر متى أعلنت الحرب باعتبارها تابعة للدولة جاز لإيطاليا فى هذه الحالة مهاجمة الموانى المصرية كما تهاجم موانى ليبيا ، وفى هذه الحالة ستدخل بريطانيا الحرب لحماية احتلالها .

وكان من المفروض كذلك على مصر بحكم تبعيتها للدولة العثمانية أن تقطع علاقاتها بالوكالة الإيطالية أسوة بما فعلت أثناء الحرب اليونانية العثمانية سنة ١٨٩٧ ، حينما قطعت علاقاتها باليونان ، غير أن اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر أرجأ القرار النهائى الخاص بهذا الموضوع ريثما يستشير فى ذلك وزارة الخارجية البريطانية . هذا على الرغم من أنه لم يحدث شىء فى مصر يستوجب تصرفاً من نوع جديد منذ وقوع الحرب اليونانية العثمانية فيما عدا توقيع الإتفاق الودى بين إنجلترا وفرنسا ١٩٠٤ .

ولكن بريطانيا كانت تخشى مما يحتمل أن تأتى به الحرب الإيطالية العثمانية بمشكلة لم تكن تخشى على نفسها منها خلال الحرب اليونانية العثمانية ، وهى أن إيطاليا يمكن إذا وقفت مصر موقفاً معادياً أن تقوم بالأعتداء عليها وسوف يؤدى ذلك

بانجلترا وهى محتلة مصر فعلا إلى محاربة الدولة المعتدية ، ومن هنا يمكن أن يتسع نطاق الحرب وتصبح المشكلة دولية مليئة بالأخطار[١] ، وهذه هى الإجابة الصحيحة لسؤال فرض نفسه فى ذلك الوقت حول عدم وقوف إنجلترا فى الحرب الطرابلسية مثل الموقف الذى وقفته فى الحرب اليونانية العثمانية ، لأن اليونان لم تكن دولة قوية يمكنها أن تحارب مصر والدولة العثمانية كما هو الحال بالنسبة لإيطاليا .

وعلى الرغم من أن كتشنر لم يعترض على طلب الحكومة المصرية بأن يعهد بالمصالح الإيطالية فى مصر إلى دولة أخرى ، إلا أن الوضع استمر على بقاء الوكالة الإيطالية قائمة بعد احتجاج الحكومة الإيطالية لدى بريطانيا بأن انسحاب الوكالة الإيطالية من مصر يمكن أن يعتبر نصراً أدبياً للحكومة العثمانية خاصة بعد أن أخطر كتشنر اللورد جراى وزير الخارجية البريطانية بأن الصدر الأعظم أبلغ خديو مصر بأن الوكالة الألمانية فى الآستانة تولت رعاية المصالح الإيطالية[٢] ، ويطالبه أن يفعل ذلك أيضاً ، أى أن يعهد إلى الوكالة الألمانية حماية المصالح الإيطالية ، مما كان سبباً لاحتجاج السفير الإيطالى فى لندن الذى عد ذلك مناورة سياسية تقوم بها الدولة العثمانية مؤكداً أن حقوق تعيين الممثلين الأجانب فى مصر هى من حقوق الخديو وليست من حقوق السلطان[٣] .

إقتضى وضع مصر إذن أن تقف على الحياد ولكن ذلك لا يعنى أن مصر كانت تملك استقلالا خارجياً يرقى بها إلى مستوى باختيار الموقف الذى تريده نظراً لتبعيتها للدولة العثمانية من ناحية واحتلالها من ناحية أخرى ، وإنما دللت فقط على موقف الحياد تحت ضغط سلطات الإحتلال ، وأصبح من الواضح أن مصر على الرغم من أنها من الناحية القانونية جزء من الإمبراطورية العثمانية إلا أنها من الناحية الفعلية جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، والأمر الذى لا مراء فيه أن الحرب الإيطالية الليبية كشفت سلطات الاحتلال فى مصر ، كما كشفتها بعد ذلك الحرب العالمية الأولى فى أن الإنجليز لا يحتلون مصر بمثابة ممثلين للسلطان العثمانى أو الخديو وإنما

(١) الجريدة ١٧ أكتوبر ١٩١١ مشكلة قطع العلاقات بين مصر وايطاليا .

(٢) Kitchener to Grey 6.10.1911, Doc. No. 225.

(٣) Rodd to Grey 11.10.1911, Doc. No. 284.

ممثلين للمصالح الأوربية بصفة عامة والمصالح الإنجليزية بصفة خاصة(١) .

وبطبيعة الحال لم يكن موقف مصر مما يبتهج له ، إذ أنه يدل على عدم وجود كيان لمصر فى العالم الخارجى ، ومع ذلك فقد اعترف بهذا الموقف كل من الدولة العثمانية وإنجلترا وإيطاليا ، والسبب فى ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى أن هذه الدول رأت فى موقف مصر صعوبة لا يمكن حلها فآثرت التجاوز عن الوضع القانونى الخاص بها .

فالدولة العثمانية لم ترسل لمصر إعلاناً بحربها مع إيطاليا مخافة على حقوقها من الضياع ، وأما الحكومة المصرية فعلى الرغم من أن تبعيتها للدولة كانت تقتضى بأن تكون محاربة معها فإن الحكومة المصرية لم تشارك مشاركة رسمية فى هذه الحرب على الرغم مما نادى به كثير من الكتاب بأن تقوم الحكومة بكل ما يفرضه عليها مركزها الذى حددته الفرمانات قبل الدولة العثمانية صاحبة السيادة . والحقيقة أن مصر لم تستطع أن تعلن حيادها وقام بذلك بالنيابة عنها إنجلترا وإيطاليا اللتان اعتبرتا مصر على الحياد . واضطرت الحكومة المصرية أن تصدر تعليماتها إلى قوات الحدود بضرورة حمل الفريقين المتحاربين على احترام حياد مصر وأن لا تدع شيئاً يدخل طرابلس من البضائع التى تعتبر من مواد الحرب والتركز بقواتها فى جهة السلوم(٢) .

ورأت الحكومة البريطانية من ناحيتها أن تستفيد من وقوع الحرب فى ممارسة السيطرة على بعض المواقع والحصول على تنازل عنها سواء من الدولة العثمانية أو إيطاليا ، وكان أول ما تحصلت عليه من ذلك ضم ميناء السلوم وخليج السلوم إلى مصر ، وتم ذلك بموافقة الدولة العثمانية التى كانت ترى من مصلحتها بطبيعة الحال أن تبعد هذه المناطق عن الاحتلال الإيطالى ، وقد احتجت إيطاليا على ذلك مدعية أن ما أقدمت عليه بريطانيا يعد اعتداء صريحاً على أطماعها باعتبار خليج السلوم جزء من ولاية برقة(٣) . ومن

---

(١) Young : Egypt, B 199, London 1927.

(٢) الجريدة ١٩ أكتوبر ١٩١١ .

(٣) الواقع أن حدود مصر الغربية لم تحدد تحديداً قاطعاً ففرمان ١٨٤١ لا يحدد هذه الحدود ويعتقد البعض أنه كانت هنالك خريطة ملحقة بهذا الفرمان ولكنها فقدت فى حريق الأسكندرية عام ١٨٨٢ وعلى أى حال فإن موضوع حدود مصر الغربية لم يتحدد إلا بعد الاحتلال البريطانى لمصر والاحتلال الإيطالى لليبيا .

C.F. Confidential 10114-P-LXXV. Further correspondence January to June 1912. Kitchner to Grey No. 119, 15 March 1911, Doc. No. 194, Memorandum on Ghbub by Mr. Vansitant.

ناحية أخرى حصلت بريطانيا على ميناء طبرق نظير تسهيل عملية الاحتلال الإيطالى لليبيا[١] .

ولما كانت بريطانيا تخشى على مصالحها فى البحر الأحمر وقناة السويس نتيجة للصراع الناشب بين الدولة العثمانية وإيطاليا ، فقد طلبت من الحكومة الإيطالية ضمان حياد البحر الأحمر نظير أن تضمن لها بالتالى ألا ترسل الدولة العثمانية أسلحة حرب عن طريق خط حديد الحجاز أو قناة السويس ، وبالفعل وافقت الحكومة الإيطالية على ذلك اطمئناناً إلى موقف الإنجليز[٢] .

والجدير بالذكر أن بعض الساسة الإنجليز رأوا أثناء قيام الحرب أن الفرصة سانحة لكى تستغل هذه الحرب لضم مصر إلى المستعمرات البريطانية نهائياً بمعنى إلغاء السيادة العثمانية على مصر ، ولكن رفضت هذه الفكرة من أساسها حتى لا تجر بريطانيا على نفسها سخط المسلمين فى العالم الإسلامى[٣] .

هذا هو الموقف الرسمى الذى وقفته السياسة البريطانية على المستوى الدولى فى علاقاتها بالدولة العثمانية وإيطاليا . أما على المستوى الشعبى فى مصر فقد كان موقف الحكومة البريطانية فى غاية من الدهاء إذ أوضح اللورد كتشنر صراحة أن إيطاليا معتدية على الدولة العثمانية من غير حق . وقامت فى مصر حركة كبيرة لجمع التبرعات للدولة العثمانية إعانة لها على تحمل نفقات الحرب ، وشجع اللورد كتشنر هذه الحركة بل وشارك بالتبرع فيها ، وكان أمراء الأسرة المالكة فى مصر على رأس الوفود التى تنتقل فى الأقاليم لجمع التبرعات ، فكان ذلك دافعاً للناس على البذل بسخاء لأنهم رأوا الحكومة لا تعارض وأمراء البيت المالك يشجعون ويتبرعون، والمعتمد البريطانى نفسه يشجع ويشترك .

ولقيت الدعوة لمعاونة دولة الخلافة وقتذاك آذاناً صاغية من الجميع ، وكما يقول الدكتور هيكل فى مذكراته أن الأمير عمر طوسون ذهب مع الهيئة القائمة بالتبرعات إلى المنصورة فجمع فى أقل من نصف ساعة مائة ألف جنيه وستة آلاف ذهباً .

---

(١) فؤاد شكرى ، السنوسية دين ودولة ، ص ١١٢ .

(٢) Grey to Luther,12.10.1911, Doc. No. 302, F.O. 407, 177.

(٣) جريدة اللواء عدد ٣٧٢٨ ، ٥ نوفمبر ١٩١١ .

وحدث مثل ذلك فى غير الدقهلية من مديريات مصر . وكان الناس ينظرون إلى موقف انجلترا من هذه الحركة دهشين ، كيف تشجع دولة إسلامية على دولة مسيحية !! ولكن بطبيعة الحال فان السياسة البريطانية لم تذهب إلى أبعد من هذا ، فكما سبق أن ذكرنا أنها لم تسمح باشتراك الجيش المصرى فى هذه الحرب ! ولم تسمح بمرور الجيوش العثمانية من الأراضى المصرية متعللة فى هذا وذاك بأن مصر مستقلة إستقلالا داخلياً عن تركيا ، وأنه إذا اشتركت الحكومة المصرية فى الحرب فإن هذا الاشتراك لن يقف عند الجناية على استقلال مصر بل سيؤدى بانجلترا ، ولها فى مصر مركزها الخاص بحكم الاحتلال ، أن تتهم بالخروج عن الحياد وبالتالى الاشتراك فى حرب ضد إيطاليا ليس لها فيها من مسوغ .

كان موقف سلطات الاحتلال إزاء اندفاعة الوطنيين لنجدة دولة الخلافة الإسلامية ينطوى على الكثير من الحرص ، فالإنجليز كانوا يعملون على عدم التعرض للمسألة الدينية لما قد يؤدى اليه ذلك من مساس بوضع بريطانيا ليس فى مصر فحسب وإنما مستعمراتها الإسلامية الأخرى . ولكن السياسة البريطانية مع ذلك لم تذهب فى التأييد إلى أبعد من ذلك فهى تقاوم الحركات الفعلية التى قد تؤثر على مركزها مقاومة مستترة .

ويذكر أحمد شفيق باشا فى مذكراته بصدد ذلك أنه فى أوائل هذه الحرب ذهب وفد من كبار المصريين إلى اللورد كتشنر يطلب منه إرسال بعض فرق الجيش المصرى لمساعدة الأتراك ، فأجابهم أنه على الرغم من إقتناعه بسلامة الفكرة إلا أنه من الصعب أن يوجد جنود آخرون ليحلوا محل الجنود المطلوب سفرهم ، وعلى ذلك فإنه سيضطر فى هذه الحالة إلى أن يطلب من الحكومة البريطانية أن ترسل لمصر جنوداً من الإنجليز ، وبطبيعة الحال لم يكن الوفد مستعداً لزيادة قوات الاحتلال فى مصر .

وتكررت مواقف متشابهة حينما ذهب جماعة من الضباط المصريين وطلبوا منه السماح لهم بالتطوع فى الجيش العثمانى فأبدى استعداده لإجابة طلبهم بشرط أن يحل محلهم ضباطاً آخرون ، بمعنى أنهم عند العودة يجدون أنفسهم فى سجلات الاستيداع . وعند ما طلب منه زعماء البدو من « أولاد على » تجنيدهم للحرب وافق على ذلك على أن يطبق عليهم من الآن فصاعدا قانون القرعة العسكرية التى كانوا يتمتعون بالاعفاء

منها ، وبذلك استطاع اللورد كتشنر بهذا الدهاء أن يتخلص من طلبات كثيرة (١) .

واستهلت سنة ١٩١٢ والحرب الطرابلسية على أشدها ، والأمة المصرية متجهة بقلوبها صوب المجاهدين فى طرابلس تمدهم بالعون والمال والتأييد ، وأظهر المجاهدون من آيات الشجاعة والبطولة فى مقاومة العدوان الايطالى ما زاد إعجاب العالم بهم ودل على أن روح الحرية كامنة فى نفوس الشرقيين(٢) .

وتأثرت الحركة الوطنية فى مصر تأثراً شديداً بالحرب وظهر ذلك فى الأحزاب السياسية التى كانت قائمة فى مصر فى هذه الفترة ، وكلها اتخذت موقف التأييد للدولة العثمانية ، فالحزب الوطنى بزعامة محمد فريد كان يجد فى اشتراك مصر فى هذه الحرب وسيلة لمصر لكى تتخلص من الاحتلال البريطانى ، وكان المصريون يجدون فى ضياع طرابلس ضياعاً لآمالهم فى المستقبل ، وأن دفاعهم عن طرابلس إنما هو فى نفس الوقت دفاع عن مصر وليس تعصباً أعمى . لأنه إذا كانت إيطاليا التى لم تحتل طرابلس قبل الآن ستأخذها بمجرد موافقة الدول على أخذها عملا بمبدأ التعويض ، فماذا تصنع انجلترا بمصر وقد احتلتها أكثر من ربع قرن إذا رأت من تركيا تخاذلا أمام اعتداء إيطاليا ومن المصريين سكوتاً واستسلاماً لذلك البلاء الواقع . وأنه لما كان استقلال مصر الذى اغتصبته انجلترا متوقف على إتصال مصر بالدولة العثمانية فإن من مصلحة المصريين الدفاع عن ذلك الاستقلال والاتصال بالدولة العثمانية لأن فيه دفاعاً عن هذا الاستقلال المسلوب ، وليس كما تتهم أوروبا المصريين بأنهم يحبون الاستعباد بقصد إضعاف الروابط بينهم وبين الدولة العثمانية(٣) ، وبقاء طرابلس فى يد الدولة العثمانية له علاقة كبيرة بنجاح مصر ، وضياع طرابلس فيه القضاء على مستقبل مصر السياسى والاقتصادى . وأكد الكثيرون أن نيل مصر الاستقلال متوقف على استطاعة الدولة العثمانية الدفاع عن مصر ، وأن استيلاء الايطاليين على طرابلس يفتح باب المسألة المصرية فى

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ « عباس حلمى الثانى من يناير ١٩٠٣ — ١٩١٤ » ص ٢٦٥ ، القاهرة عام ١٩٣٦ .

(٢) تاريخ مصر القومى من ١٩٠٨ — ١٩١٩ عبد الرحمن الرافعى « محمد فريد » ص ٢٣٧ .

(٣) جريدة اللواء ١٢ أكتوبر ١٩١١ .

ظروف هى أسوأ ما تكون على مصر ومستقبلها ، وأخطر على استقلالها لأنها تكون أكبر فرصة لضم إنجلترا لمصر والسودان عملا بمبدأ التعويض . وعلى ذلك إذا تطوعت الأمة المصرية جميعها فى هذه الحرب فإنها تتطوع دفاعاً عن حياتها ومستقبلها واستقلالها .

وكان حزب الأمة مندفعاً فى تيار مساعدة الدولة العثمانية اندفاعاً قوياً على الرغم من اتخاذ أحمد لطفى السيد رئيس تحرير الجريدة المعبرة عن لسان الحزب موقفاً مضاداً . فإنه رغم تعاطفه مع الدولة العثمانية إلا أنه كان يرى أن مساعدة المصريين لها لن تجدى ، وربما أضرت مصر أكثر مما أفادتها . وظهرت آراء لطفى السيد بينما كان المصريون فى الطفرة الأولى من الاندفاع القوى لمعاونة دولة الخلافة الإسلامية عقب نشوب الحرب مباشرة . وهذه الآراء عبر عنها فى مقالات ثلاث تصدرت الجريدة فى ثلاثة أيام متعاقبة بعنوان « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » ، ودعى لطفى السيد فى هذه المقالات الذائعة الصيت المصريين إلى التزام الحياد المطلق فى هذه الحرب ، وإلى الضن بأموالهم أن تبعثر فى سبيل قلما تفيد بلادهم منه . ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الأموال لخير مصر وإنشاء المرافق النافعة لأبناء الوطن لشدة حاجة مصر إلى الإصلاح . ونعى لطفى السيد على الأمير عمر طوسون الذى كان متزعماً اللجنة العليا للاكتتابات اجتماعه ببعض عمد الأعراب للمداولة فى نصرة المجاهدين ، وأكد بأن كل حركة من حركات التشيع للدولة العثمانية أو إظهار المساعدة لها من شأنها أن تزيد مركز مصر ارتباكا على ارتباك ، وأنه من العبث أن يكون المرء غريقاً ثم هو يتشبث بمساعدة غير مساعدة لا تنفع ولكنها تضر بصاحبها ضرراً بليغاً لأن مصر رضيت أم كرهت أصبحت على الحياد وأنه من المفيد أن تصرف الأموال أولا للحصول على وجود سياسى لمصر ، وأن مصر ليست فى حالتها الحاضرة بقادرة على نصرة الطرابلسيين أو العثمانيين كما أنه من المؤكد أن الاحتلال البريطانى الرابض فى مصر لن يسمح لها بتقديم هذه المساعدة[1] .

---

(١) انظر الجريدة : سياسة المنافع لا سياسة العواطف عدد ١٤٠٠ فى ٢٧ أكتوبر ١٩١١ .

أثارت هذه المقالات موجة شديدة من الاستياء لدى الرأى العام المصرى على لطفى السيد ووصل الأمر إلى طعن جارف إذ اتهمه البعض بالكفر والإلحاد . ومع إيمان لطفى السيد بهذه الآراء إيماناً ثابتاً إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يستميل أو يقنع أصدقاءه فى حزب الأمة بمناصرته فى موقفه ، وإنما اندفع الحزب فى الطريق الذى اندفع فيه الرأى العام . أو بمعنى أصح فإن الحزب خشى مواجهة الرأى العام فنكص ولم يتابع لطفى السيد ولم يناصره مما اضطره للانسحاب من الميدان وترك الجريدة التى كان يتولى أمرها لآخرين (١) .

والواقع أن لطفى السيد كان يعكس آراءه الخاصة بمعارضة فكرة الجامعة الإسلامية باعتبارها ضارة بالحركة الوطنية فى مصر وأن على المصريين ألا يجعلوا الدين فى هذه الظروف قاعدة لأعمالهم السياسية والأجدر بالمصريين أن ينفوا عنهم كل تهم التعصب الدينى لأن ذلك من الذرائع التى يتذرع بها الإنجليز لإطالة مدة بقائهم فى مصر ، وأنه من الخطر أن تنادى الصحف بالجهاد والحث عليه لأن هذه الدعوة تخيف أوربا بالشكل الذى يمكن أن تستهل معه حل المسألة المصرية حلا نهائياً ضد مصلحة المصريين والدولة العثمانية .

وليس من شك فى أن لطفى السيد نظر إلى المشكلة نظرة موضوعية وكان يدرك أن الاندفاع العاطفى ليس له فائدة تذكر فواقع الأمر أن مصر لن تستطيع أن تساعد الدولة العثمانية بحكم بعد المسافة وعدم إمكان وصول النجدات المصرية فى حالة تمكنها من الحرب ، وأن النجدات المصرية ستفتقر بالضرورة إلى السلاح لظروف الاحتلال الانجليزى القابض فى مصر على كل شىء ، وأكد لطفى السيد أن الشىء الوحيد الذى يمكن أن تساعد به مصر هو إعانة المنكوبين بالقحط ، وعلى الرغم من أن هذه المساعدة يمكن اعتبارها مساعدة إنسانية خالية من كل تعصب دينى إلا أن الاندفاع الذى سارت فيه الصحافة الوطنية فى مصر جعلت إيطاليا تعمل على تركيز جهودها إلى قطع الطريق بينما كان من الأجدى أن تتم هذه المساعدات فى تكتم حتى لا تلفت الأنظار إليها .

وعلى الرغم مما حاوله كتاب الاستعمار من إتهام المصريين بالتعصب الدينى إلا أن

---

(١) محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٧٠ — ٧١ .

الواقع أن حركة المصريين وإن اتخذت الشكل الديني ظاهرياً فإنها كانت فى حقيقتها بعيدة كل البعد عن كل تعصب دينى ، وإنما كانت مجرد تعاطفاً روحياً مع دولة الخلافة الإسلامية من ناحية وتعاطفاً مع ليبيا التى تربطها بمصر رابطة الأخوة والجوار من ناحية أخرى بدليل أن مصر لم تتخذ مثل هذا الموقف عندما سقطت مراكش فى أيدى الفرنسيين أو عندما تهاوت فارس — وهى دولة إسلامية كبرى — على أيدى الاستعمار الانجليزى أو الروسى ، كما أن مساعدة المصريين للدولة العثمانية لم تكن كما فسرها البعض مكايدة للانجليز المحتلين مصر ، ويمكن التدليل على ذلك بأن اللجنة العليا لجمع الاكتتابات للدولة العثمانية والتى كان يرأسها الأمير عمر طوسون أرسلت تطلب مساندة وزارة الخارجية البريطانية ، وأعلنت استياءها واستياء الأمة المصرية التى ترى سلامة الخلافة الإسلامية فى سلامة الدولة العثمانية ، وأنه على الرغم من تخلى الدول الكبرى عن التدخل فى هذا الحادث فإن المصريين ما زالوا ينظرون إلى الحكومة البريطانية بأهمية تدخلها لأنهاء هذه الأزمة باعتبارها دولة تحت رايتها من الرعايا المسلمين أكبر مما عند غيرها ، وهذه البرقية وإن دلت على أن المصريين لم يساندوا الدولة العثمانيه مكايدة لانجلترا المحتلة فإنه لا يمكن أن يفسر فى الدوائر السياسية الرسمية إلا أن المصريين راضون عن حالتهم الحاضرة[1] ، فهل يمكن أن نفسر ذلك بأن عاطفة الولاء للخلافة الإسلامية طغت على الحركة الوطنية فى مصر ؟ أم أنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت خطاً فاصلا بين الاتجاهين .

تعرضت حركة الاندفاع الوطنى لمساندة المجاهدين فى ليبيا لقوى مضادة تزعمها أحمد لطفى السيد فى آرائه التى نادى بها ، كما تعرضت أيضاً لتأثير صحافة الاحتلال وأبرزها جريدة المقطم التى حاولت طيلة سنوات القتال أن تثبط العزيمة فقد حمل المقطم على التبرعات مؤكدا أن طرابلس ولاية فقيرة لا داعى لأن تبذل من أجلها حياة جندى واحد ولا فى الدفاع عنها خمسين ألف جنيها فى الشهر وأن دخلها لا يكاد يكفى نفقاتها[2] .

---

(١) الجريدة ، سياسة المنافع لا سياسة العواطف ٢٧ أكتوبر ١٩١١ .

(٢) جريدة اللواء ، صحافة الإحتلال ١ أكتوبر ١٩١١ .

أما الخديوى عباس حلمى الثانى فقد وقف موقفاً متردداً من الحرب الطرابلسية ، ففى بداية الحرب سهل إرسال الإعانات والبعثات الطبية إلى المجاهدين فى طرابلس وربما كان يهدف بهذه المساعدة معارضة سلطات الاحتلال الإنجليزى فى مصر ، ولكن على أثر تحول الحرب إلى صالح الإيطاليين فى طرابلس تغير موقفه تبعاً لذلك وعمل على وقف المساعدات كما منعت بعثات الهلال الأحمر العائدة من الوصول بالجرحى إلى مصر[1] .

وعلى أثر انسحاب الدولة العثمانية من الحرب بعد توقيعها معاهدة أوشى فى أكتوبر ١٩١٢ اشتدت حركة المكافحة ضد الإيطاليين وقامت هذه الحركة على كاهل الإمارة السنوسية بزعامة أحمد السنوسى الكبير ، ويتضح من الوثائق التى تناولناها استغلال الحكومة الإيطالية للخديوى عباس حلمى الثانى بهدف الوقيعة بين الزعماء السنوسيين ، بمعنى أن ينتهز الخديوى فرصة الصراع حول السلطة بين الزعماء السنوسيين ليستميل نفراً منهم لعقد الصلح مع إيطاليا ، ووعدته إيطاليا نظير قيامه بهذه الوساطة بشراء خط حديد مريوط الذى كان يمتلكه وأن يعهد بالامتياز إلى إحدى البنوك الإيطالية بالثمن الذى يريده .

وكان بيع سكة حديد مريوط مهم بالنسبة لإيطاليا لأنه يمكنها من أن تمنع وصول الإمدادات التركية عن طريقه إلى المجاهدين فى الداخل ، وكان الخديوى يتجه فعلا إلى بيع سكة حديد مريوط وهنالك عدة مشروعات اتفاقيات عقدها الخديوى مع بعض الشركات الإيطالية والألمانية ، وتوجد مجموعة من المراسلات الخاصة بين الخديوى وبين Italian Syndicate ومراسلات أخرى مع بنك درسدن الألمانى Dresden خاصة بهذا الموضوع . وكان الخديوى يتحصل على خط مريوط منذ عام ١٨٩٩ وقد عارضت الحكومة المصرية — بضغط من سلطات الاحتلال — الخديوى فى بيع هذا الخط لأن الحكومة البريطانية كانت تعارض أن تحصل إيطاليا على نفوذ باستحواذها عليه ، وحذر اللورد كتشنر الخديوى من بيع هذا الخط سواء

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ٢ ص ٢٦٧ .

إلى بنك روما أو بنك درسدن(١). وكان تحذير اللورد كتشنر بعد أن اكتشفت السلطات البريطانية اتجاه الخديوى فعلا إلى بيع الخط إلى إحدى الشركات الإيطالية، وحصول الشركة على امتياز بامتداد الخط الحديدى إلى حدود طرابلس فى السلوم، واضطر الخديوى على أثر تهديد كتشنر وإحراج مركزه من إعلان إلغاء عقد البيع وتنازله للحكومة المصرية عن الخط الحديدى الذى انتقل إلى ملكيتها نظير ثمن دفع له فى ذلك الحين .

كما فشلت وساطة الخديوى لدى السنوسيين الذين استقر رأيهم على مواصلة القتال حتى إجلاء القوات الإيطالية عن الأراضى الليبية وظهر تردد الخديوى واضحاً من الحرب وبدأ يصرح عند حدوث مفاوضات الصلح التى أجريت بين الدولة العثمانية وإيطاليا أن موقفه سيصبح حرجاً فى تقديم المساعدة للسنوسيين فى حالة مصالحة الدولة العثمانية لإيطاليا . وتؤكد بعض المصادر أن إيطاليا عملت على اجتذاب الخديوى إلى جانبها وكان سبيلها إلى ذلك أحد أفراد الأسرة المالكة الذى تلقى ثقافته فى إيطاليا وهو الأمير أحمد فؤاد الذى أصبح فيما بعد ملكا على مصر باسم فؤاد الأول، وقد وعد إيطاليا بأن توليه إمارة طرابلس، وبسبب هذا الوعد عمل الأمير على التوفيق بين الخديوى عباس حلمى الثانى وبين ملك إيطاليا وتمت زيارة الخديوى لروما بموافقة الأمير أحمد فؤاد .

والوقع أننا لم نعثر على وثائق خاصة، تؤكد وجود اتفاق من مثل هذا النوع، كما أنه لا توجد تفصيلات خاصة بهذ الموضوع إلا ما رددته بعض الصحف الفرنسية والألمانية خاصة بهذا الموضوع .

وبعد توقيع معاهدة أوشى وفى أثناء حركة الكفاح الوطنى الليبى طلبت إيطاليا من السيد أحمد الشريف أن يدخل معها فى مفاوضات للصلح، واشترطت على نفسها ضمان كيانه كأمير للبلاد تحت حمايتها أو انتدابها وتتفق معه فى منطقة نفوذ تحدد لسلطانه وتحتفظ هى بالموانى والثغور الساحلية، ولكن السيد أحمد الشريف رفض هذه العروض برمتها، وعندما فشلت الوفود الإيطالية فى إقناع الأمير، وبعد ما تحقق

(١) Kitchener to Grey, Doc. No. 14, Cairo, March 16, 1913, Confidential 10369, Part LXXVII. Further correspondence respecting Egypt and Sudan, January to June, 1913.

لإيطاليا عدم جدوى استمالته إليها عادت إلى استغلال الخديوى عباس بنصح السنوسيين بضرورة الإخلاد إلى السكينة وأن يجذل لهم الوعود الطيبة إذا هم قبلوا الأمر الواقع وكفوا عن مواصلة الجهاد، وقبل الخديوى الوساطة وأرسل إلى السيد أحمد الشريف بالجبل الأخضر فى أواسط عام ١٩١٣ وفداً يحمل كتاباً من الخديوى ، وقابل الشيخ الوفد مقابلة حسنة ولكنه أكد أن شروطه للاتفاق مع إيطاليا هى أن يجلوا عن البلاد وليس هناك من سبيل غير هذا السبيل للتفاهم ، وكان ذلك ختام هـــذه الوساطة وإخفاقها . ويكشف لنا عن دور الخديوى كتاباً كان قد بعث به أحد مبعوثى الخديوى (عزت الجندى) إلى الجنرال إميليو Emilio قائد القوات الإيطـالية فى بنغازى وفى هذا الكتاب المؤرخ فى ٨ مايو ١٩١٤ يبدى هذا المبعوث استياءه من الخديوى لأنه لم يمنحه نظير جهوده ما يستحق من مكافأة وهو يلتمس المزيد منها وينعى على الخديوى أنه قصر فى مكافأته رغم الجهود التى بذلها ويعلن فى رسالته انسحابه من خدمة الخديوى مؤكداً للقائد الإيطالى « لولا حبى الزائد وصداقتى العظيمة لسعادتكم ما كنت أخبرتكم بهذه المسألة التى تجعل كل (شريف) يبتعد كلما أمكن عن خدمة من لا يقدرون الخدمة ولا يعرفون قدر الرجال ، ولا يتأخر عن كل خدمة من ورائها تأليف ذات البين بين العرب وإيطاليا كلما سنحت الفرصة لاعتقادى أن هذا فى مصلحة العرب أكثر مما هو فى مصلحة إيطاليا »(١) ! ! ؟

وعلى الرغم من كل المعوقات التى حدت من إندفاعة المصريين فقد كان موقف الشعب المصرى موقف المعاضد للدولة العثمانية ، ولأشقائه المجاهدين فى ليبيا ، إذ شكلت اللجان فى كثير من أنحاء البلاد لجمع التبرعات وأهمها اللجنة العليا للاكتتابات التى تشكلت فى ١٤ أكتوبر ١٩١١ برئاسة الأمير عمر طوسن . كما تألفت جمعية الهلال الأحمر برئاسة الشيخ على يوسف وقررت تكوين عدة مستشفيات ميدان وأرسلت الكثير من البعثات الطبية إلى ميدان القتال ، وشملت عدداً كبيراً من الأطباء المصريين وعلى الرغم من المقالات المعارضة التى أثارها لطفى السيد وصحافة الاحتلال فى هذه الفترة فإن ذلك

---

(١) محمد الطيب الأشهب — برقة العربية أمس واليوم ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧ .

لم يؤثر على اندفاع الرأى العام المصرى ، وحملت الصحف المعبرة عن هذا الرأى حملة عنيفة فهابت بالأغنياء أن يتبرعوا لتركيا لكى تتحمل مصاريف الحرب وطالبت عرب البادية أن ينضموا بشجاعة لصد هجمات الإيطاليين، كما ظهرت فى ذلك الوقت لجان كثيرة لمقاطعة التجارة الإيطالية والإضرار بمصالح إيطاليا الاقتصادية ، حتى لقد اضطر كثير من الإيطاليين إلى مغادرة البلاد نتيجة لهذه المقاطعة العنيفة بعد أن ضاقت بهم سبل العيش ويدخل فى ذلك أصحاب المحلات التجارية والبنوك والرعايا الذين يحترفون بعض الحرف الصغيرة ، كما ظهر إتجاه لسحب الطلاب المصريين من المدارس الإيطالية والاستغناء عن الأساتذة الإيطاليين فى الجامعة المصرية . وألف المصريون جمعيات لحصر أسماء المحلات التجارية ونشر أسمائها فى الصحف، كما تركزت الجهود على سحب الأموال المصرية المودعة فى بنك روما وكانت تبلغ عشرين ألفاً من الجنيهات وهى حصيلة الأموال التى جمعها المؤتمر المصرى الذى ظهر على أثر الأزمة التى افتعلتها السياسة البريطانية بين عنصرى مصر الأقباط والمسلمين على أثر اغتيال رئيس الوزارة المصرية بطرس غالى باشا فى عام ١٩١١ ، وطالب الوطنيون بسحب هذه الأموال باعتبار أن إيطاليا تحارب الدولة العثمانية بأموال مصرية وأن يشترى بها المئون والغلال والأقوات وإرسالها إلى طرابلس براً عبر الحدود المصرية لأنه ليس لطرابلس منفذ تدخل إليها المساعدات إلا مصر ، وذلك بعد محاصرة الإيطاليين للسواحل الليبية وأن المصريين مسئولون مسئولية الإخوة والجوار والدين عن إغاثة طرابلس ومساعدتها بكل قواهم فضلا عن أنه إذا أصبحت طرابلس مستعمرة إيطالية فإن مصر فى هذه الحالة ستفقد من قوتها المادية والسياسية ما يؤخرها عن السعى إلى الأمام خطوات كبيرة إلى الوراء[1] .

ولم يتأخر الكتاب والشعراء المصريون كحافظ إبراهيم والشيخ على يوسف وعبد العزيز جاويش عن الإشادة بكفاح الليبيين ، فأنشد الشعراء قصائدهم وكتب الكتاب ما أوحاه لهم الضمير بدافع الوطنية ، وخطب الخطباء بكلماتهم الجادة ، وكانت الصحف الوطنية تنشر كل ذلك وتطبع المطبوعات نحو قضية ليبيا وجهادها . ومع ذلك فقد وقفت عقبات كثيرة دون مساعدة مصر لليبيا مساعدة مطلقة خاصة حينما أبدل بالمأمورين المصريين

---

(١) الطيب الأشهب ، برقة العربية أمس واليوم ، ص ٢٨٤ .

فى الحدود الغربية مأمورين إنجليز ، وطلب من قوات خفر السواحل مراقبة حدود مصر الغربية والشرقية والعمل على قطع كل سبيل للاتصال بين مصر وليبيا وكان من أثر ذلك أن قامت ثورة عنيفة على الوزارة المصرية تزعمتها الصحافة الوطنية متهمة إياها بالخيانة والفساد[1] .

وعلى الرغم من أن المجاهدين العرب أبلوا بلاء حسناً ضد الطليان فى عديد من المعارك إلا أن الدولة العثمانية كانت فى حال تمنعها من الاستمرار فى القتال ضد إيطاليا[2] . ويمكن أن نعتبر أن الحرب التركية الإيطالية وصلت من الناحيه الرسمية إلى نهايتها عندما قبل العثمانيون تحت ضغط الدول الأوروبية وبسبب الهزائم التى أصابتهم فى ميادين أخرى الدخول فى مفاوضة من أجل الصلح مع إيطاليا . وبدأت هذه المفاوضات فعلا فى لوزان فى ١٢ يوليو سنة ١٩١٢ ولم تؤثر رغبة المجاهدين فى مواصلة القتال شيئاً فى تعطيل أو وقف مفاوضات الصلح . ولكن الدولة العثمانية خاصة بعد تلبد موقفها فى البلقان بادرت بإرسال أحد مندوبيها إلى المؤتمر حيث تم توقيع معاهدة « أوتشى » وظهر لإيطاليا أن هناك سهولة كبيرة فى حمل الدولة العثمانية على الإقرار بالإحتلال الإيطالى لليبيا للأسباب الآتية :

أولا : أدركت الدولة العثمانية أنه لا يمكن لها إخراج إيطاليا بالقوة لضعف الأسطول العثمانى ومنع إنجلترا لها من أرسال جندها عن طريق مصر .

ثانياً : أن أوربا لن تكره إيطاليا على الخروج من ليبيا عملا بقاعدة ما أخذه الصليب من الهلال لا يعود إلى الهلال .

ثالثاً : كان بعض رجال الدولة العثمانية من الاتحاديين يرون أن ولاية ليبيا من الأطراف البعيدة عن كرسى السلطنة ولا يستحق أن ينفق عليها من الأموال لأجل حمايتها وأن بيع طرابلس أولى من بيع البوسنة والهرسك ، ولا شك أن الحزب الألمانى الذى كان ينمو فى الدولة كان يشجع هذه الفكرة ، ومن المعروف أن النفوذ الألمانى

---

(١) انظر نص التقرير الذى بعث به كتشنر إلى جراى فى ١٩١١/١٠/٦ .
CF. F.O. 407, 177, Doc. No. 295.

(٢) نقولا زيادة ، برقة الدولة العربية الثامنة ص ٨٢ ، بيروت ١٩٥٠ .

كان فى هذه الفترة يتغلغل فى جمعية الاتحاد والترقى وفى ضباط الجيش العثمانى[١]. كما كانت ألمانيا تميل إلى ترضية إيطاليا بقصد استمرار بقائها فى المحالفة الثلاثية القائمة بينها وبين النمسا وألمانيا .

رابعاً : اتجاه إيطاليا — نتيجة لعدم ظفرها بنصر عاجل فى طرابلس — على الرغم من القوات الكبيرة التى حشدتها إلى مناوشة الدولة العثمانية فى البحر المتوسط فاستولت على رودس وجزر الدوديكانيز ، فما كان من إيطاليا إلا أن أجابت على ذلك بمد يد المعونة لثورة الإدريسى فى عسير ، ومهاجمة سواحل البحر الأحمر ، وتهديد المواصلات العثمانية[٢] ، وتدخلت الدول الأوربية للتوسط فى الصلح حتى لا تمتد الأعمال العسكرية إلى شرق البحر المتوسط ، هذا بالإضافة إلى أن إيطاليا عمدت إلى تهديد سواحل البحر الأحمر ، ولذلك آثرت الدولة العثمانية الصلح مع إيطاليا إبقاء على ممتلكاتها الأخرى ، يضاف إلى ذلك أن بريطانيا تأثرت أكثر من غيرها بالأعمال الحربية التى قامت بها إيطاليا وشرعت الصحافة الإنجليزية تحمل بكل عنف على إيطاليا بشأن الأخطار التى قد تنجم عن محاولة إيطاليا المساس بالأولوية الإنجليزية فى شرق البحر المتوسط .

ولما كانت الدولة العثمانية لا تستطيع أن تعلن تخليها صراحة عن طرابلس حتى لا تفقد عطف العالم الإسلامى ، لذلك آثرت أن تكون معاهدة لوزان ذات وجهين فهى من جهة تقر السيادة الإيطالية على طرابلس ، ومن جهة أخرى احتفظت الدولة بروابط تربطها بطرابلس كتعيين نائب للسلطان وتعيين قاض للبلاد وتخلى الدولة عن السيادة عن طرابلس وبرقة ومنح أهالى البلاد استقلالا ذاتياً . وقد تم توقيع هذه المعاهدة فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ بعد أن تعهدت الدولة العثمانيه بسحب جميع حامياتها العسكرية من ليبيا ، على أن تعيد إيطاليا للدولة جزر الدوديكانيز التى أحتلت خلال سير الحرب .

ومعاهدة لوزان تؤرخ بداية الحركة التحريرية الوطنية فى ليبيا ، والتى استمرت

---

(١) أنظر مجلة المنار ج ١٢ م ١٤ ، ما تعتمد عليه إيطاليا فى حمل تركيا على الصلح .

(٢) مصطفى عبد الله بعيو ، المجمل فى تاريخ لوبية ص ١٢١ — ١٢٢ .

لسنوات طويلة ، فالليبيون فى برقة وطرابلس لم يقروا الدولة العثمانية على الصلح وكان من رأى السيد أحمد الشريف ، باعتباره القائد الوطنى للجهاد ، بأنه والصلح على طرفى نقيض .

ولم تتوقف تبعاً لذلك العمليات العسكرية وإنما ظل القتال قائماً يقود عملياته العسكرية عزيز المصرى ، ولكن الصعوبات أحاطت بالمجاهدين الليبيين من كل جانب لانقطاع الموارد عنهم ثم بسبب ما نجم عن الضغط الشديد الذى استخدمته إيطاليا مع الدولة العثمانية حتى تأمر الأخيرة باستدعاء بقية القوات التى ظلت تحارب فى برقة ، يضاف إلى ذلك التصدع الذى حدث فى صفوف الوطنيين حول عقد الصلح أو مواصلة القتال .

والحقيقة أن الدولة العثمانية ظلت من تاريخ توقيع معاهدة لوزان أكتوبر ١٩١٢ إلى قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ مترددة بين بذل المساعدة للسنوسيين أو منعها عنهم خوفاً من إثارة إيطاليا ضدها فى الحرب البلقانية . أما الشعب الليبى فى برقة وطرابلس فقد استاء استياءاً بالغاً من عقد الدولة العثمانية الصلح ، وواصلت الأمة الليبية جهادها دون أن تعرف الفتور ، ووقفت الصحافة المصرية إلى جانب الشعب الليبى المجاهد ، وظهرت المقالات العنيفة التى يوجه أصحابها اللوم إلى الحكومة المصرية بأن فشل الدولة العثمانية فى الحرب يرجع إلى خطة الحياد التى فرضت على مصر ولولا ذلك لأمكن للدولة العثمانية أن ترسل جيوشها عن طريق مصر باعتبارها أصلح قاعدة لمنازلة الإيطاليين .

وعلى الرغم من استمرار الكفاح الوطنى فقد أخذت الصعوبات الشديدة تحيط بالمجاهدين لإنقطاع الموارد عنهم ، أضف إلى ذلك ما مارسته انجلترا من ضغط حتى تصرف الحكومة المصرية عن امداد المجاهدين فى برقة بما يحتاجون إليه من أسلحة وذخائر ومؤن .

أما فى طرابلس فقد قرر الأهالى الإستفادة من منشور السلطان الملحق بمعاهدة لوزان وكلفوا الشيخ سليمان البارونى باعلان استقلال طرابلس ، ولكن الحكومة الطرابلسية الجديدة صادفت صعاباً عديدة فرأى البارونى أنه من الأفضل أن تنال طرابلس استقلالا إدارياً داخلياً تحت سيادة إيطاليا ، ولكن انتصارات الإيطاليين قضت على هذه الفكرة .

وفى الفترة من توقيع معاهدة لوزان الى إعلان الحرب العـالمية الأولى تدفق المتطوعون المصريون للقتال فى صفوف المجاهدين الليبيين وعلت الحماسة بدرجة اشترط معها أن يكون المتطوع قادراً على الانفاق على نفسه ، وأن تكون نفقات سفره من جيبه الخاص ، وساهم زعماء الحركة الوطنية فى مصر فى الدعوة إلى القضية الليبية فى داخل البلاد وخارجها ، كما جذبت القضية الليبية جماعة من أحرار الانجليز الذين تعاطفوا مع العرب والمسلمين الهنود وأسسوا جمعية الهلال الأحمر الليبية على غرار جمعية الهلال الأحمر المصرية(١) . وبرز من أحرار الانجليز المستر ولفرد بلنت الذى ساهم فى مناصرة الدعوة فى الاحتجاج على الغزو الإيطالى لليبيا ، وكان يؤيد الشرقيين النازلين فى العاصمة البريطانية .

ويذكر المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى أن محمد فريد زعيم الحزب الوطنى فى مصر حضر بعض الاجتماعات التى كان ينظمها المستر بلنت ، وحمل فى خطبه التى ألقاها فى الاجتماعات على السياسة الاستعمارية الأوربية ملقياً تبعة عدوان إيطاليا على جشع إنجلترا وفرنسا وسبقهما إيطاليا فى الاعتداء على الشعوب الشرقية . وأن انجلترا وفرنسا قدمتا لإيطاليا أسوأ مثال باحتلالهما لمصر وتونس والجزائر والشروع فى وضع الحماية الفرنسية على مراكش ، وأن إيطاليا تستكمل الدور الذى اتفقت دول أوربا على ارتكابه لإخضاع بلاد الشرق عامة .

وركز الوطنيون على التضامن الإسلامى باعتبار أن وحدة شعوب الشرق هى أساس مقاومة الأطماع الأوربية وأن اعتداء إيطاليا على الدولة العثمانية ليست إلا حلقة من سلسلة حروب صليبية حديثة بدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر ولن تنتهى إلا بعد أن تخضع أوروبا كل ماهو خارج عن سيطرتها(٢) ، وكما سبق أن أوضحنا أن هذه الدعوة كانت فى اعتقاد لطفى السيد تضر بالقضيتين الليبية والمصرية معاً ضرراً بليغاً لأنها تكسب الحرب شكل تعصب دينى .

---

(١) Pritchard (Evans) Sanusi of Cyraneica, p. 113.

(٢) عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، القاهرة ١٩٤١ .
C.F. Khadduri Majid, Modern Libya, A Study iin Political Development, Baltimore 1963, p. 14.

وكان الشعور الوطنى لدى الوطنيين بالغاً حد الانتباه لـكل تطورات الحرب وتفصيلاتها ، واشترك فى العمليات العسكرية عزيز المصرى وكان قائداً فى بنغازى وكان له جهوداً كبيرة فى تنظيم حركة المقاومة ، وتزويد معسكرات المجاهدين بما يلزمها من المؤن والإمدادات ، هذا على الرغم من وقوع الخلاف بينه وبين السنوسيين ، الأمر الذى دعاه إلى الانسحاب ببعض الفرق العسكرية وترك قيادة الفرق الأخرى يشرف عليها السيد أحمد الشريف .

وإزاء الضغط الايطالى العنيف اتجه المجاهدون إلى حرب العصابات بعد إدراكهم أنه من الصعوبة مقابلة الإيطاليين فى وقائع منظمة ، وهذه الحروب كانت شديدة الفتك بالإيطاليين . وفى أوائل ١٩١٤ اعتزمت القيادة الإيطالية أن تقوم بغزو مفاجىء لما بقى فى أيدى السنوسيين فى الجبل الأخضر ، وأخذ القحط يظهر فى صفوف المجاهدين لانقطاع المدد عنهم من مصر وبسبب الأوبئة التى أخذت تفتك بهم . وعند قامت الحرب العالمية الأولى وأنضمت إيطاليا إلى الحلفاء رأت بريطانيا مراعاة لحليفتها إيطاليا أن تقفل الطريق المصرى نهائياً . ولـكن من جهة أخرى كان على إيطاليا بسبب دخولها فى الحرب إلى جانب الحلفاء أن تتحمل نفقات كبيرة ومتاعب داخلية ناءت بحملها بحيث أنها رأت أن تؤجل أمر احتلال ليبيا مؤقتاً ، فسحبت كثيراً من قواتها وأصبحت سلطاتها لا تعدو المراكز الرئيسية لها فى برقة وطرابلس إلا أن مجرى الحوادث لم يلبث أن تغير فىأواخر ١٩١٥ ، لأن السيد أحمد الشريف ، تحت ضغط الضباط الأتراك والألمان الذين هبطوا ليبيا فى ١٩١٥ بهدف إثارة برقة ضد الإيطاليين ، قام بحملة عسكرية على مصر كان القصد منها إرغام انجلترا على القتال فى حدود مصر الغربية ، ومن ثم (١) شغلها عن الحملة التركية الألمانية التى وجهت إلى قناة السويس بقيادة جمال باشا فى عام ١٩١٥ .

دكتور جمال زكريا قاسم

(١) C.F. Sanusiya in the First World War, by Sir Duncan Cumming, Paper submitted to Libya in History Conference. 16-23/3/1968.

مصادر البحث

أولا — وثائق غير منشورة :

سجلات وزارة الخارجية البريطانية :

— Public Record Office, F.O. No. 141, 457' 407, 177, Part LXXLX. Further correspondence respecting Egypt and Sudan.

ثانياً — وثائق منشورة :

— Gooch and Temperly, British Documents on the Origins of War, 1898-1914, Vol. X, Part II, London 1938.

— Great Britain Foreign Office, Handbooks prepared under the direction of Great Britain Foreign Office, Libya, London 1920.

ثالثاً — المصادر العربية :

— أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، مجلدين ، القاهرة ١٩٣٦ .

— بيشون (جان) : بواعث الحرب العالمية الأولى فى الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا فى هذا الشرق ، تعريب محمد عزة دروزة — بيروت ١٩٤٦ .

— جرى (وزير خارجية بريطانيا ١٨٩٢/١٩١٦) : مذكرات اللورد جرى وتبعة الحرب العالمية الأولى ، تعريب على أحمد شكرى .

— عبد الرحمن الرافعى : تاريخ مصر القوى ١٩٠٨/١٩١٩ .

— لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى ، ترجمة عجاج نويهض ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان — فى مجلدين — القاهرة ١٣٤٢ .

— محمد حسنين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ـ مجلدين ـ القاهرة .

— محمد الطيب الأشهب : برقة العربية أمس واليوم — القاهرة ١٩٤٥ .

— محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة — القاهرة ١٩٤٨ .

— مصطفى عبد الله بعيو :

— المجمل فى تاريخ لوبية — الإسكندرية ١٩٤٧ .

— دراسات فى التاريخ اللوبى — القاهرة ١٩٥٧ .

— نقولا زيادة : برقة الدولة العربية الثامنة — بيروت ١٩٥٠ .

رابعاً — المصادر الأوربية :

— Barbour (Neville), A Survey of North West Africa, Second Edition, London 1962.
— Cachia (Anthony J.), Libya under the Second Ottoman Occupation, Tripoli 1944.
— Cumming (Sir Duncan), Sanusiya in the First World War, Paper submitted to the Libya in History Conference 16-23/3/1968.
— Khaduri, Majid, Modern Libya, A Study in Political Development, Baltimore 1963.
— Pritchard (Evans), Sanusi of Cyraneica, London 1944.
— Young, Egypt. London 1927.

خامساً — الدوريات :

(ا) الجرائد :

— الجريدة — أحمد لطفى السيد — القاهرة ١٩١١/١٩١٤ .

— اللواء — القاهرة ١٩١١/١٩١٤ .

— المقطم — القاهرة ١٩١١/١٩١٤ .

(ب) المجلات :

— المنار — القاهرة — إصدار محمد رشيد رضا ، ج ١١ ، ج ١٢/ م ١٤ .